المدخل إلى
الكتاب المقدس

حبيب سعيد

المدخل
إلى
الكتاب المقدس

حبيب سعيد

صدر عن
دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة
بالاشتراك مع مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى

هذا الكتاب

منذ حداثتي أحببت الكتاب المقدس، وحفظت منه أجزاء عن ظهر القلب حسب عادة ذلك الزمن. وإن نسيت فلا أنسى أختباراً ذقته وأنا بعد صبي، يوم التقط معلمي الضرير في مدرسة القرية — رحمه الله — حصاة مسننة من الأرض وألصقها بطرف اذني، وضغط عليها ضغطاً شديداً وأنا أصرخ من فرط الألم، وذلك لأنني نسيت بعض الأسماء — وأنا أستظهر أمامه انساب يسوع المسيح، كما وردت في الفصل الأول من إنجيل متى ! !

ولم تكن دراستي دينية لاهوتية، بل كانت دنيوية قانونية. على أنني أتخذت أدب الدين ودراسته هواية لي في مدرسة أستغرقت مناهجها عشرات السنين — هي الحياة كلها.

ولما طُلب إليّ أن أكتب مرشداً حديثاً أو « مدخلا » لأسفار الكتاب المقدس ينتفع به قراء العربية، وقفت حائراً بضعة شهور أمام هذه المهمة الشاقة. على انني أستعنت بقوة السماء ورحت أقرأ آلافاً من الصفحات باللغات العربية والانكليزية والفرنسية، وأضفت إلى مكتبتي مجموعة جديدة من مختلف المراجع والمصادر مما كتب عن أسفار الكتاب المقدس.

وقسمت الكتاب أربعة أقسام: العهد القديم. أسفار الأبوكريفا. بين العهدين — العهد الجديد. وبعد مقدمات عامة عن طريقة كتابة الاسفار وجمعها وترقيمها وترجمتها والمخطوطات القديمة التي عثر عليها المنقبون — تناولت الاسفار كلها سفراً سفراً، وشرحت في تحليل موجز الرسالة الجوهرية فيه، وتاريخ كتابته، ومن كان كاتبه الخ. واعترافاً بالفضل لذويه ذكرت في موضع آخر بعض المراجع التي استعنت بها. والحق كانت مهمتي عسيرة

فى محاولة التوفيق بين الآراء المتضاربة والنظريات المتباينة حول بعض المسائل التاريخية والتفسيرية ، على أننى فى أكثر الأحوال بينت الآراء المختلفة وتركت للقارىء الكريم مهمة الاختيار والتقدير .

وإنى شاكر للزميل والصديق القس الدكتور لبيب مشرقى الذى تفضل بقراءة فصول الكتاب قبل طبعه . كما قرأه أيضاً الأخ القس الكاهن اسحق مسعد ، وغيرهما من زملاء لبنان.

وبعد هذا كله، لا أحسبنى إنى قد أوفيت . فكتابنا المقدس بحر عميق لاقرار له . وقد عالج أسفاره وآياته طوائف شتى من كبار العلماء والشراح مدى اجيال التاريخ . وما هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء الكرام إلا وشل يتقطَّر من بحر ينهمر . وهو على الأقل محاولة متواضعة لتقديم كتابنا المقدس فى صورة شاملة جامعة .

وقد تعرَّض كتابنا المقدس فى العصور المتأخرة لاضواء من العلم الحديث وهو صامد كالصخرة الشامخة . أما موقفنا نحن إزاء هذه المعرفة الجديدة فهو موقف مزدوج ، فاننا نتذرع باليقين الثابت المكين الذى يؤكد لنا أن كتابنا المقدس هو هو، كما عرفه ربوات من الرجال والنساء مدى اجيال التاريخ ، كتاباً موحى به يتكلم الله على صفحاته ، ويعلن لنا ذاته ومقاصده، يؤنبنا عند التعدى، وينهضنا عند التحدِّى، ويعزينا ويقوينا عند الملمات، كتابا فريداً لا يتفوق عليه كتاب، يحتل مكانة علياء فى حياة الكنيسة، وفى حياة المسيحيين كأفراد. هو دستور ايماننا ومصدر رجائنا .

ولكن ينبغى فى الوقت عينه ألا نخشى بحوث العلم الحديثة وكشوف العصر العجيبة ، بل نرحب بها كعون لنا لتوسيع مداركنا وتنوير اذهاننا حين نقرأ أروع كتابات فى العالم بسحرها الخلاب وجاذبيتها الفاتنة . أما الذين يعاندون أ

هذه المعرفة الجديدة ويخاصمونها، فهم فى الواقع لايدافعون عن قضية المسيحية بل يعيقون سيرها، ويطمسون حقها، فى عصر يشدد فيه العلم على التمسك بالأمانة العقلية والنزاهة الفكرية. ولن يمكن لأية معرفة جديدة أو بحث علمى، أن ينزع الحق من اعلان هبط علينا من روح الله، لأنه « متى تعلَّم كاتب فى ملكوت السموات (صار) يشبه رجلاً ربّ بيت يخرج من كنزه جدداً وعتقاء ». هكذا قال ربُّ الكتاب، وصدق قوله.

وان جاز لنا أن نقرأ كتابنا المقدس تاريخاً ودراسة وتحليلا، فانه خير وابقى أن نقرأه بالروح والتعبد والخشوع، أمام صاحب الكتاب، له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين.

(المؤلف)

محتويات الكتاب

صفحة

الكتاب المقدس

هو أعجب كتاب فى العالم ، ليس كمثله كتاب آخر . هو أبعد الكتب أثراً فى حياة البشر ، وأشدها نفوذا ، وأوسعها انتشارا ، هو أحب الكتب إلى الناس وأبغضها إليهم . وقد صادروه وأحرقوه ، ولكنه حيٌّ لا يموت .

يحوى بين دفتيه أعجب الحوادث التاريخية ، ولكنه ليس كتاب تاريخ . هو ذخيرة من الحق فى التمييز بين الصواب والخطأ ، ولكنه ليس مرجعاً من المراجع الأخلاقية . انه يخوض إلى أعمق مشاكل الحياة ، ولكنه ليس كتاباً فلسفياً .

إنه كتاب شرقى ، ولكنه جامع شامل فى دعوته . بسيط فى عباراته بحيث يستسيغه الحدث الصغير ، ولكنه عميق فى معناه بحيث يعجز أبرع العلماء عن اكتناه أسراره . إنه يكوّن وحدة فريدة ، مع أنه أُوحى إلى أشخاص كثيرين ، فى أجيال متعاقبة من التاريخ ، وفى أوضاع مختلفة من صيغ الكلام . كتاب قديم ، ولكنه يصلح لكل عصر وجيل . قد خلا من الإعجاز اللفظى ، بل حتى من الإعجاز المعنوى ، ولكنه جذاب فى حلاوته وبساطته ، عميق فى معانيه ومطالبه .

ما هذا الكتاب وما سرّه ؟ إنه أشبه بعمل الله فى الطبيعة ، بجبالها الراسيات ، وأوديتها الخصيبة الزاهرة ــ إذا قورنت بالمدن التى تشيدها يد الإنسان ، لأنه يحمل على وجهه طابع يد الخالق القدير .

فى هذا الكتاب تسعة وثلاثون سفرا فى العهد القديم ، وسبعة وعشرون سفرا فى الجديد ، قبلتها كلها الكنيسة المسيحية بأسرها ، وحياً من روح الله . والعهدان يجمعها هذا الكتاب الواحد . ففى العهد القديم يستتر العهد الجديد ، وفى العهد الجديد يتكشف القديم .

العلاقة بين العهدين :

ولا مشاحة فى أن العهد القديم يختلف عن العهد الجديد ، لأن القديم كان بمثابة استهلال لقصة لم تكن قد كملت ، وتأهباً لحادث كان مستورا فى فكر الله . كان بمثابة الطريق المؤدى إلى غاية لم يُكشف معناها ومرماها إلاَّ فى العهد الجديد .

لذلك ينبغى أن نقرأ العهد القديم فى ضوء الجديد . ولم يُقصد من العهد القديم أن يكون مصدرا لكل المعارف الإنسانية ، ولم يقصد به أن يقعدنا عن البحث والاستقصاء، والدرس والتأويل والاجتهاد فى كشف مراميه. لذلك نحن لا نلجأ إلى كتابنا المقدس لدراسة علم الفلك مثلا . وقد تضمنت بعض أسفار القديم — مثل سفر اللاويين — قواعد عن الصحة وبعض مبادىء العلاج ، على أنه لم يُقصد بها أن تكون مرجعاً من مراجع العلوم الطبية فى العصر الحديث . وتضمن قواعد ومبادىء فى الحياة المدنية التى رسمها الله لشعبه القديم ، على أنه لم يقصد بها أن تكون دستورا للحياة المدنية فى عصرنا الحديث . وقد قيل مثلا ان التلاميذ فى بداءة العهد الجديد عاشوا فى شركة ، وكان كل شىء بينهم مشتركا ، على أن هذا لم يُقصد به أن يلقننا النظام المعروف فى هذا العصر بالشيوعية .

هذا كله حق لا نجادل فيه . ولكنه (الكتاب) من الناحية الأخرى دستور لإيماننا وحياتنا فى الشئون الروحية ، وهو يعلن الحق المُعلن من الله ، الحق كله الذى يفتقر إليه الإنسان .

التدرج فى وحى الكتاب :

فى الصباح الباكر قد تقع العين على زهرة يانعة متفتحة فى حديقة غناء . وقد تكون هذه أول نظرة نلقيها عليها . على أن هذه الزهرة لم تتفتح فجأة ،

وكانت فى وضعها الأول غير ما هى عليه الآن ، قبل أن تقع عليها أنظارنا . فقد بدأت بذرة دقيقة ، تختلف عن الزهرة ، وغُرست هذه البذرة فى بطن الأرض ، ثم راحت تتغذى حتى صارت جذورا ، وسيقانا ، وأوراقا ، وأخيرا تفتحت عن هذ اللون الحلو الذى يستلب الأنظار . وقد كانت فى نموها هادئة لا حركة فيها ولا صوت يُسمع لها . ونحنُ نعلم طيلة الوقت الاطوار التى مرَّت بها .

ولعلّ هذا نموذج لما يفعله الله بنا . هو يصنع الأشياء رويدا رويدا ، خطوة خطوه ، وطورا بعد طور . بل هذه هى الطريقة التى أعلن لنا بها ذاته فى الكتاب المقدس . ولكل إنسان قسط من معرفة الله ، ولكن معرفته الكاملة دون طاقة العقل البشرى . وليس مردّ هذا إلى نقص فى ذات الله ، إنما هو نتيجة منطقية للذات الطبيعية فى الإنسان . نحن بشر ضعاف فى الحول والطول ، ناقصون فى العقل والفكر ، مشحونون بالخطية والاثم . وأفضل ما فينا يمتزج بالأدنى والأسوأ . نحن أشبه بأوعية صغيرة ، لا تسع إلا قليلا قليلا من حكمة الله ومحبته التى لا نهاية لها . ولو أن معرفة الله أُقتحمت علينا اقتحاما ، وأرغمنا عليها ونحن غير أهل لها ، لضاعت حكمتها وذهبت عصافة تذريها الرياح . والله مستعد دائما أن يعلن ذاته للانسان ، ولكنه يقسط هذا الاعلان على قدر ما يستطيع الإنسان أن يهضم من هذه المعرفة . والإنسان يستزيد على مدى الأجيال من قوة العقل والقلب والنفس ، ويقدر أن يكون كل جيل أفضل من سابقه لو أراد . وأحيانا يتمرد الانسان ، ولكن قلب الله يستميله إليه لادراك بعض ذاته على مرِّ الأجيال .

وهذه حقيقة أفصح عنها المسيح ذاته لتلاميذه يوم قال : « ان لى أمورا كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق » . ويسوع يقول لنا هذا بعينه

اليوم . لأننا دائما ننال من معرفة الله على قدر ما نحتمل ، وروح الله معنا دائما .

وفى العصور الأولى كانت معرفة الإنسان لله ضئيلة . وكثيرا ما اقترف الأخطاء فى إدراك طبيعة الله . ولكن بزرة هذه المعرفة كانت قد غُرست فى قلوبهم ، واستمرّ على كرّ السنين، التهذيب والترويض ، والتلقين والتعليم ، حتى ظهر إعلان الله الكامل فى يسوع المسيح ، على حدّ قول الرسول بولس : « لأن فيه سرّ أن يحلّ كل الملء » .

على أن يسوع لم يجىء إلى عالم خلو من أسباب التأهب لمجيئه . ولو أنه فعل ذلك لتعذر على الناس أن يدركوا ذاته وأعماله وتعاليمه . وقد استغرقت تربية الانسان وإعداده لقبول هذا الاعلان الكامل مئات السنين ، واستوعبت أسفار العهد القديم أطوار القصة كلها . وقد اتخذ الله أمة صغيرة ، التى نسميها العبرانيين ، أو اليهود ، وجعلها بمثابة مدرسة لتلقين هذا الدرس . وأعلن لهم ذاته شيئا فشيئا .

واستغرق كل طور من هذه الأطوار مئات السنين ، قبل أن يتأهب القوم للخَطْو إلى طور آخر ، إلى الامام . ونحن البشر بلداء فى الفهم والتعليم ، وعسير علينا دائما أن نقبل الفكر الجديد الذى يعلنه لنا أصحاب المنى والأحلام . ومع هذا فقد ظلّ التعليم يسير فى مجراه المستمر ، إلى أن أصبح الانسان متأهبا تماما للزمن الذى « صار فيه الكلمة جسدا وحلّ بيننا » .

فيسوع إذاً هو قلب الوحى الإلهى ، وقبل أن يجىء اجتاز العالم أطوارا كثيرة فى التطور والارتقاء . ولكن معلنات الله لم تنته بمجيئه ، وإن تكن قد اتخذت أوضاعا أخرى . فمن قبله كان الاعلان تأهبا للحدث العظيم ، ومن بعده غدا الاعلان توسعـــا فى معرفته وإدراك ذاته وفيض محبته . ومن

الخطأ أن نعتنق فكرة كاملة عن الله من تصرفات الشعب فى العهد القديم ، أو تصرفات بعض الأفراد . فإبراهيم ، بل موسى نفسه ، لم يبلغا مستوى المعرفة التى كمات لنا عند مجىء المسيح . وكانت فكرتهم عن الله فى أحيان كثيرة غير كاملة .

ولم تكن ثمة وسيلة أخرى لتاقين الانسان غير هذه الوسيلة . فالرعد يبرق فجأة ويُحدث وهجا يلقى نوره على الأشياء ، فتراها كأنها فى رابعة النهار ، ولكنه عديم الفائدة لنا ، لأنه يختفى سراعاً فلا نعود نتميز الأشياء ، وأقوى آثاره أن يعمى أبصارنا ، فلا نبصر ما حولنا فى الظلمة . أما نور النهار فيجىء تدريجا ، والشمس تلقى وشاحها البرّاق على أرضنا شيئا فشيئا ، فى هون وعلى مهل . وفى نورها نبصر كل الأشياء حولنا فى وضوح وجلاء . وصدق كتابنا المقدس حين قال : « سبيل الصديقين كنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل » .

فى العهد الجديد :

وفى العهد الجديد نجد أمرين : أولهما صورة يسوع نفسه كما أعلنها لنا الله على لسان صحابته الاقربين إليه الذين عاشوا معه وهو على الأرض . والثانى بيان عن ذاته وصفاته والقصد من مجيئه وحياته وموته وقيامته . وحتى هنا نرانا أمام كنيسة تتعلم تدريجا وفى بطء . وإذا أخذنا رسائل بولس الرسول حسب ترتيبها الزمنى ، نحسُّ فيها ذلك الارتقاء والتطور فى التفكير وفى معرفة ربّه وسيده . وبعد رواح يسوع واختفائه عن تلاميذه ، كان على الكنيسة فى كل العصور أن تستلهم الروح القدس دائما ، لكى تتوافر لها معرفة أكمل وأعمق عن مخلص العالمين .

وفى محاولة الاستزادة من هذه المعرفة ، ماقدرت الكنيسة ، ولا نقدر

نحن أن نبتعد عن مصدر الوحى فى أسفار العهد الجديد ، لأن فى هذه الأسفار حدوداً معينة مرسومة لانقدر أن نتخطاها فى سبيل توسيع مداركنا أو تنوير أذهاننا . وكلما تعاقبت الأجيال تزداد معرفتنا بإلهام الروح القدس فى الحدود التى رسمتها أسفار العهد الجديد .

من ثم يتحتم علينا أن نقبل حقيقة هذا التطور فى الوحى الإلهى . وقد قال البشير لوقا ان يسوع ذاته كان ينمو فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس . وفى مستهل الكتاب المقدس نرى إعلاناً من الله يختلف فى بعض تفاصيله عن الإعلان الكامل الذى رأيناه فى يسوع المسيح . على أن هذه التغييرات التى نحسُّ بها ليست تغييرات فى الله ذاته ، لأن الله « هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد » . إنما هى تغييرات فى عقولنا وأفهامنا . والله رحيم بعباده وأبنائه ، فأجزل لكل جيل قسطاً من معلناته بقدر ما تسع عقول ذلك الجيل وتنتفع به ، لأنه « يعرف جبلتنا . يذكر أننا تراب نحن » .

كيف كتب الكتاب المقدس ؟

« كل الكتاب هو موحى به من الله » (٢ تيموثاوس ٣ : ١٦)

هذا مايقوله العهد الجديد، وهو قول لاحيدة عنه فى ديننا المسيحى . فالكتاب المقدس هو أغزر بركة أسبغها الله على الإنسان — بعد يسوع المسيح طبعاً . فالمسيح هو فى المكانة الأولى ، لايسبقه كتاب ولا يدانيه إنسان . هو البداية والنهاية ، هو الاعلان الكامل لله . فى صليبه يتحد الله القدوس بالإنسان المشحون بالإثم والخطية ، وفى حياته تماسّ حياة الله بحياة الانسان .

على أن يسوع هذا ليس منظوراً أمام أعيننا فى هذا العصر . وقد خلقنا الله فى هذا العالم المادى ، ومادمنا فى العالم ، فنحن خلائق مادية ، لا روحانيـة .. وتتوارد إلينا كل اختباراتنا عن طريق العين والأذن والدماغ . صحيح أن هذه الاختبارات قد تتجرد من ملابساتها المادية متى حظينا بها ، فنحن نحب أعزاءنا وإن كنا لا نراهم عياناً . ولكن هذه المحبة جاءتنا أولا عن طريق البصر والسمع ، وبعد ذلك ارتقت إلى مراتب أعلى . ومنذ البدء وضع الله أمام الانسان إمكانيات يرقى بها إلى تلك الاختبارات العليا السامية . وأرقى اختبار عرفه الانسان كمل يوم « صار الكلمة جسداً وحلّ بيننا ، ورأينا مجده ، مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » . وأرقى مثال بعد ذلك أكمل به الله قصده هو « الكتاب المقدس » .

وأديان العالم الراقية تعتزّ بأسفارها المقدسة . فاليهود يؤمنون أن العهد القديم هو كتابهم المقدس ، ولو أن قدسية الأسفار تتفاوت فى نظرهم . فأسفار موسى الخمسة الأولى تحتل مكانة أرقى من غيرها ، لأنها فى نظر اليهودى كلام الله لشعبه مباشرة . والهندوس يعتزون بكتابهم المقدس الذى يسمونه « فيداس »

وهو أرقى وضع من أوضاع العبـادة عندهم . وأسفار هـذا الـكتاب فى نظر الهندوس ، أزلية الوجود ، بها خُلق العالم ، وبها خلقت آلهتهم ذكوراً وأناثاً .

ويقدس المسلمون القرآن ، وهم يؤمنون أنه خلق قبل العـالم ، وأنه ظلّ مستوراً عن أنظار البشر حتى أرسله الملاك جبريل إلى النبي محمد ، وأملاه عليه كلمة كلمة من أصله فى اللوح المحفوظ .

على أن المسيحيين ينظرون إلى كتابهم نظرة غير هذه . فهم لا يعتمدون عليه وحده فى معرفة معلنات الله ، لأن لديهم إعلاناً أرقى وأسمى هو المسيح ذاته . وقد سطرت أسفار الـكتاب المقدس أنامل بشرية بوحى من روح الله فى أحوال متباينة وفى عصور متباعدة . والوحى فى جوهر الـكتاب أزلى خالد . ولـكن فى مواضع كثيرة فى العهد القديم نرانا أمام تعاليم لا توائم تعاليم المسيح ولا تنسجم مع روح الله الذى عرفناه فى المسيح . وماذلك إلا لأنها أعطيت لأقوام لم تـكن تسمح لهم عقولهم فى أطوار البداءة الأولى بقبول أرقى من هذه التعاليم . وعلينا فى هذا العصر أن نأخذ الوحى كما هو ، وبطريق الاجتهاد والتأويل ننتفع به فى عصرنا هذا ، لأن وحى الـكتاب كله أزلى لا يتغير .

ومثال غشيم لذلك : قد نأخذ وعاءً مملوءاً بالماء الملح ، وحاجتنا إلى الملح دون الماء لـكى نستخدمه بطرق مختلفة . وقد نحصل عليه بوضع الوعاء على النار لـكى يتبخر الماء ويبقى الملح بعده . هكذا فى الـكتاب المقدس ، يجب أن نميز بين الوحى الذى أُعطى لشعب معين فى زمن معين ، وفى ظروف خاصة ، وبين ماهو أزلى خالد . والـكتاب المقدس نفسه استخدم هذه الطريقة عينها ، ففى قصتى الخلق مثلا (سفر التكوين ص ١ و٢) نرى طريقين من طرائق التفكير ، إحـداهما وحى لشعب فى طور الطفولة العقلية ، والأخرى لشعب تقدم طوراً إلى الأمام فى التفكير وفى معرفة الله . ولـكن الطريقين يقدمان لنا إعلانا واحدا : الله هو خالق وصانع العالم وكل مافيه . الطريقة الأولى للطفل البشرى ، والثانية للعقل الناضج ، ولـكن

الوحى واحد لاتغيير فيه ، وصادر عن الله الواحد .

من هو كاتب الكتاب المقدس ؟

ليس لنا إلا جواب واحد . « الله هو كاتب الكتاب المقدس » . ولكنه استخدم بشراً أدوات للكتابة ، بشراً كانوا فى حالات متباينة وأوضاع وأزمنة مختلفة . والقلمان حتى إذا أمسكتهما يد واحدة ، لايخطان النسق الواحد . فبالأولى جداً يقع هذا التفاوت إذا كثرت الأيدى . فكتابة إشعياء تختلف عن كتابة ارمياء ، وكتابة بولس تختلف عن كتابة يوحنا . لأن الوحى لم يجردهم من عقولهم ، ولم يوقعهم فى غيبوبة يفقدون فيها إحساسهم وإدراكهم . ولكل منهم طابعه الخاص وتفكيره الخاص . وصدق الرسول حين قال : « الحرف يقتل ولكن الروح يحيي » .

وثمة سؤال آخر : كيف أوحى الله إلى هؤلاء الناس ، وبعبارة أخرى كيف كُتب الكتاب المقدس ؟ لاشك أن الوحى لم يكن آلياً . لأن الإنسان ليس آلة ، ولا يرضى صانعه ان يعامله هكذا . وقد دعا الناس أن يكونوا رسلا ودعاة وأنبياء ، وأوكل إليهم رسالته لادائها عن طريق شخصياتهم ، وقد تلون هذا الأداء بالظروف التى أحاطت بهم .

وقد امتازت الرسالة الالهية بخواص معينة تبعاً للظروف التى أحاطت برسل الأداء . فرسالة ابراهيم تتحدث عن قطعان الماشية والمراعى الخضراء وهو يرحل من موطن آبائه إلى أرض الموعد . ثم تتغير طريقة الاداء فى قصة يوسف وهو فى مصر . ومرة أخرى تتغير الرسالة على لسان موسى وهو يضرب فى تيه البرية ويتسمع رعود سيناء . وتختلف اختلافاً كبيراً حينما نصيخ بأسماعنا إلى أناشيد داود ، ومطارحات عاموس ، وتوسلات ارمياء ، وقصص لوقا المنتقاة بدقة وعناية ، والمنطق القوى فى رسائل بولس ... إننا نشكر الله لأجل العنصر

البشرى فى كتابنا المقدس ، وهو عنصر جـــدير بالدرس والتفكير .. وهل هناك أروع وأبدع من الصورة الرباعية التى رسمها البشيرون الأربعة للمسيح فى بشائرهم ، إذ يضيف كل منهم لمسات عميقة الأثر إلى الصــورة . ولئن يكن الجانب البشرى بادياً فى الأسفار المقدسة ، فإن الجــانب الإلهى هو المسيطر الغالب دائما .

ولا يمكن الفصل بين العنصرين البشرى والإلهى . فلن نقدر أن نقول : هذا بشرى وهذا إلهى . فالله لم يضم أقواله إلى أقوال الأنبياء ، ولـكن تكلم بواسطة الأنبياء . والروح القدس لم يعطِ كتَّاب الأسفار رسالة ثم تخلَّى عنهم ليضيفوا إليها مايروق لهم . بل قد اختارهم ليكونوا رسل أداء ، وأسبغ عليهم روحه القدس وهم يؤدون هذه الرسالة .

الوحى اللفظى :

ليس فى الـكتاب المقـدس ذكر للوحى اللفظى . ولا ينظر المسيحى إلى كتابه كأنه منقوش على لوح ، أُنزلت ألفاظه كما هى على كتَّاب الأسفار المقدسة . ولا يجادل المسيحى فى نقل كتابه إلى كل لغات الأرض ، لأن قيمة الألفـاظ ليست فى صياغتها الحرفية ، بل فى روحها ومعناها ، وفى الرسالة الحيَّـة التى تنقلها للناس : « الـكلام الذى اكلمـكم به هو روح وحياة » . هكذا قال المسيح .

ونحن نتقبل كتابنا المقدس الموحى به ، لا بالحرف بل بالروح ، لا كنثر منقوش آلياً على الحجر ، بل كرسالة حيَّـة من الله إلى قلب الإنســان . لهـذا لا نضطرب ولا نجزع حين نرى بعض الفوارق اللفظيـة بين رواية وأخرى ، ولا بعض الخـلافات فى النص بين كاتب وآخر . وحتى حـين نرى البشيرين أنفسهم يدونون أقوال المسيح بصيغ مختلفة ، لا يخامرنا شك فى صدق الوحى ، وذلك لأن هذه الفوارق التى يرجع بعضها إلى الترجمة من الآرامية إلى لغات أخرى ، والبعض الآخر إلى تفاوت الانطباعات التى تأثر بها من سمعوا أقواله ،

إنما يكمل بعضها بعضاً ، وتُلقى ضياء من نور على المشهد كاملا . وأبرز دليل على صدق هذا القول قصة التجلّى التى تدعم رواياتها المختلفة إيماننا فى صدق الوقائع ، وكلٌّ منها يضيف لمسات جديدة نّيرة للصورة فوق الجبل .

ونحن نقبل كتابنا المقدس على أنه كلمة الله الموحى بها ، ولكن فائدته لن تكمل إلا متى قبلناه بالإيمان ، مسوقين بعمل الروح « وكمولودين ثانية .. بكلمة الله الحيَّة الباقية الى الأبد» . إنه صوت الله يتكلم إلى نفوسنا بسلطان . وقد قلنا من قبل ان الكتاب المقدس ليس كتابا فى علم الفلك أو الطبيعة أو الأنسال البشرية ، ولكنه مقياس فاصل جازم فى مسائل الإيمان والحياة . وهو المرجع الأخير للانسان فى كل شأن من شئون حياته الروحية .

ويؤمن بعض المسيحيين أن الكتاب المقدس « معصوم » . ويرى آخرون غير ذلك . وقد ثار الجدل حول هذه الكلمة بين الفريقين . ومهما يكن من أمر فإن الرأى الحديث لا يقصد بذلك العصمة اللفظية . إنما يقصد أنه يعصم الإنسان من الوقوع فى الزلل ، أو الحيدة عن الصراط المستقيم . وقد جابه المسيح جماعة الصدوقيين بقوله : « أليس لهذا تضلُّون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله » . فهو قد عزا ضلالهم إلى جهلهم وسوء فهمهم للأسفار المقدسة ، ولقوة الله القاهرة . وكأنه يقول لهم ان معرفة الأسفار المقدسة تجنبهم مسالك الضلالة .

ونقصان الإيمان والحكمة قد يعيقان إدراكنا لمعانى الكتاب المقدس الصحيحة . وقد نعجز عن التمييز بين ما هو حقيقة تاريخية ، وما هو صورة تمثيلية فى روايات الكتاب . ولقد اختلف حتى فطاحل العلماء فى تحديد العلاقة بين الواقعة التاريخية وبين القصة التمثيلية فى الكتاب المقدس . كما أنه من خطل الرأى أن ننتظر من كتَّاب الأسفار المقدسة الذين نسخوا الأنسال والأنساب ونتف العلم والتاريخ من

مدونات قديمة أن يراعوا بالضرورة الأساليب العلمية التى نتبعها اليوم فى القرن العشرين .

على أن هذا كله لا يمسّ الحق المعصوم . وقد ذهب فريق من العلماء والمفكرين إلى أن الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون «معصوماً» لفظاً ، لأنه من صنع الأيدى البشرية غير المعصومة ، وبسبب ما فيه من خلافات لفظية فى النصوص التى بأيدينا . ومهما يكن من أمر فإننا نؤمن بالعصمة لروحية من حيث إرشاد الناس إلى الحق الإلهى الذى لا يعتوره نقص أو تحريف ، مهما اختلفت النصوص والألفاظ التى وضعتها أيدى البشر . ونحن نتقبل بإيمان الوحى المعنوى ، ونقرأ الكتاب بقوة من الله وبفهم روحى . والله فى نهاية الأمر هو الشاهد على نفسه .

ومهما بذلنا من قوة العقل فى نقد النصوص ، فإن الصعاب ستبقى أمامنا ، كما هو الحال فى العلم وفى كل ميدان من ميادين الفكر الأنسانى . على أننا سنجد دائماً غذاء روحياً فى كل ماندركه ، أما الذى لا نفهمه ، فإنه يسوقنا إلى مزيد من البحث والاستقصاء بإرشاد روح الله الذى يخبرنا بكل الحق .

المخطوطات القــــديمة
لأسفار الكتاب المقدس

يُنشر اليوم الكتاب المقدس ، أو أجزاء منه ، فى أكثر من ألف لغة أو لهجة ، وبعد أن تصفّ الحروف فى قوالب المطابع ، يمكن إصدار أى عدد من النسخ المتماثلة . وتبذل دائماً عناية خاصة فى طبع الكتاب المقدس لمنع وقوع أى أخطاء ، وتُقرأ « التجارب » البروفات فى المطابع وتعاد قراءتها بحرص وتدقيق ، ولذلك يندر جداً أن يجد القارىء أى خطأ مطبعى .

وكل الكتب المقدسة المطبوعة باللغات المختلفة متسلسلة من مخطوطات أصلية قديمة العهد ، يرجع تاريخ كثير منها إلى ألفى سنة أو ما ينوف عن ذلك . وطبيعى أن يتساءل الباحث : إلى أى حد يتفق الكتاب المقدس الحديث ، بأية لغة كانت ، مع النصوص والألفاظ الأصلية التى خطتها أنامل الكاتب الأصلى .

المخطوطات الأولى لأسفار العهد الجديد :

ليس بين أيدينا الآن النسخة الخطِّية الأصلية لأى سفر من أسفار العهد الجديد ، ولا يحتمل أن تكون مثل هذه النسخة الآن فى عالم الوجود . والمفروض عامة أن النسخ الأصلية قد فقدت . ولكن قبل أن تختفى هذه النسخ الأصلية نُقلت عنها نسخ كثيرة . وحسبك أن تفكر فى الظروف التى انتشرت فيها بشائر الإنجيل والرسائل لتتبين جلية الأمر . فإن بشائر الإنجيل الأربع كتبت فى تواريخ مختلفة فى الفترة بين سنة ٦٠ وسنة ١٠٠ بعد الميلاد . وقد نَقلت عنها نسخاً خطِّية الجماعات المسيحية فى بلدان مختلفة لكى تتمكن ، عند الإجتماع فى مدينة أو بلدة ، للعبادة والصلاة ، من سماع قصة سيدها وربها . وهذا ينطبق تماماً على الرسائل وأسفار العهد الجديد الأخرى . خذ لذلك مثلا بشارة مرقس

التى كتبها صاحب هذا الإسم فى مدينة رومية على أرجح الأقوال حوالى ٦٥ ب.م. والمحتمل جداً أن هذه البشارة قد انتفع بها المسيحيون فى مجتمعاتهم فى رومية. ولكن على مرّ الزمن بلغ خبرها أسماع الجماعات الأخرى فى الإمبراطورية الرومانية، فلم تدخر وسعاً فى الحصول على نسخ من هذه الوثيقة القيّمة. وبذلك ظهر فى عالم الوجود نسخ كثيرة منقولة عن النسخ الأصلية بيد الكاتب. أو خذ مثلا آخر، رسالة بولس إلى فيلبى التى كتبها الرسول إلى أهل تلك المدينة وهو أسير فى رومية. فإن كنائس أخرى غير كنيسة فيلبى يسرها طبعاً أن تسمع ما تضمنته هذه الرسالة من أنباء مفرجة مشجعة، فلا تعدم وسيلة للحصول على نسخ منها لتنتفع بها الجماعات المحلية.

ولا نستطيع الجزم بقول فاصل فى الطريقة التى تم بها ذلك. ولعل الكنيسة المختصة التى حظيت بشرف احتضان البشارة أو الرسالة الأصلية، هى التى نقلت منها نسخاً ووزعتها على الكنائس الأخرى، ولعل بعض الأفراد المسيحيين فى تجوالهم وأسفارهم هم الذين نقلوا تلك النسخ وحملوها إلى مدنهم الخاصة. وليس شك فى أنه قد استخدمت كل الوسائل الممكنة لإذاعة هذه الوثائق القيّمة. ولم تنقض سنوات قلائل حتى كثرت مخطوطات هذه الأسفار وتداولتها الأيدى، ثم جُمعت بعدئذ إلى كتاب واحد سمّى العهد الجديد. فكأن الطلب هو الذى خلق العرض.

ولا بد أن أغلب هذه المخطوطات الأولى قد اندثر على مرّ الزمن، وبعضها قد أستهلك من كثرة الاستعمال، وبعضها قد أفسد عمداً أو أهلك عرضاً، وبعضها ضاع واختفى فى فترات الإضطهاد، وبعضها طوحت به السنون فى زوايا النسيان. والمعروف مثلا، مؤيداً بأسباب قوية، أن الخاتمة الحالية لبشارة مرقس ليست هى الخاتمة التى كتبها مرقس نفسه، وإن خاتمته التى كتبها فى الصفحة الأخيرة قد ضاعت بعد أن كتبها ولم يمكن العثور عليها. ونحن نعلم الآن أن الكتب المجلدة بالورق تتمزق صفحاتها الأخيرة عادة وتنفصل عن

بقية الكتاب ، فبالأولى يحدث هذا فى تلك الأيام الأولى التى كانت تستخدم فيها أوراق البردى للكتابة ولم يكن التجليد قد عرف . كذلك نستنتج من متون الرسالتين الحاليتين اللتين كتبهما بولس إلى كورنثوس أنه كتب رسالة ثالثة إلى الكنيسة فى كورنثوس قبل أن يكتب تينك الرسالتين (أنظر ١ كوره : ٩) ولكن هذه الرسالة لم يوقف لها على أثر . [ومن المحتمل أن جزءا منها قد بقى — محتفظاً به فى الرسالة الثانية إلى كورنثوس ص٦ : ١٤ — ٧ : ١ والاصحاحات ١٠ — ١٣]

أشكال وأسماء المخطوطات :

ضاعت المخطوطات الأصلية الأولى لأسفار العهد الجديد ، ولكن النسخ المنقولة عنها تكاثر عددها على مرّ السنين والأجيال . وما يزال باقياً حتى اليوم ثلاثة آلاف من هذه المخطوطات ، تتفاوت فى أعمارها وتاريخ كتابتها ، وهى فى متناول العلماء ، وأحياناً فى متناول رواد المتاحف والمكاتب المختلفة فى أنحاء العالم . وتنقسم هذه المخطوطات اليونانية إلى نوعين تبعاً لشكل الكتابة التى كتبت بها .

أولا — المخطوطات التى كتبت بالحروف الكبيرة ، التى تشبه الحروف العالية فى اللغات الحديثة ، دون فاصل بين الكلمات . وهذه هى أقدم المخطوطات وأهمها . والمعروف منها يبلغ نحو مائة تشمل كل أو بعض أسفار العهد الجديد . ويرجع تاريخ هذه المخطوطات إلى ما بين القرن الثالث والتاسع بعد الميلاد ، وذلك لأن كتابة الحروف الكبيرة العالية قد بطل بعد هذا التاريخ . وقد يمكن القول انه كلما تقادم عهد المخطوطة ، كانت أقرب إلى الصحة وإلى المطابقة للنسخة الخطية . على أنه يمكن القول أيضا ان العكس — أى كلما تأخر عهد المخطوطة كانت أبعد عن الدقة و المطابقة للاصل — قد لا يكون بالضرورة صحيحاً . إنما يمكن القول إجمالا انه متى تخطينا سنة ٦٠٠ ب . م . فإن قيمة المخطوطة

ومطابقتها للنصوص الأصلية ، لا تتأثر إلا قليلا بالتاريخ الذى كُتبت فيه .
وليس محالا أن تفضل مخطوطة فى القرن الثانى عشر مخطوطة نظـــيرها من
مخطوطات القرن الثامن ، لأن أفضلية المخطوطات لا تقوم على تاريخها بل على
أصلها وتسلسلها . على أن مخطوطات القرنين الرابع والخامس فريدة منقطعة
النظير ، وجدير بنا أن نذكرهنا أن أقدم المخطوطات — بعض النظر عن الأجزاء
القليلة المبعثرة — الشاملة للنسخ الـكلاسيكية اليونانية القديمة يبدأ تاريخها من
القرن التاسع ، وقليل منها يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثانى عشر . وليس
مستطاعا أن نقدم للقراء بيانا وافيا لهـذه المخطوطات كلها ، ونـكتفى بذكر
أهمها وأشهرها . على أنه ينبغى ألا يؤخذ من هـــذا أنه يمكن الاستغناء عن
المخطوطات التى لا يتسع المقام لذكرها ، فى دراسة نصوص الـكتاب المقدس .
وإلى القارىء بيانا عن بعض هذه المخطوطات القديمة المـكتوبة بالحروف
الـكبيرة العالية :

١ — **المخطوط السيناوية** : يرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى القرن الرابع ،
وقد كشفت فى دير القديسة كاترين بجبل سيناء خلال السنوات من ١٨٤٤ إلى
١٨٥٩ — وكنا نود لو يتسع المجال لسرد القصة المثيرة التى تمَّ بها كشف هذه
المخطوطة الثمينة بفضل براعة وحكمة عالم ألمانى كبير هو الدكتور تشيندورف .
وقد ظلَّـت هذه النسخة سنوات كثيرة بعد كشفها فى مكتبة ليننغراد ، ولـكن
الحـكومة البريطانية ابتاعتها فى سنة ١٩٣٣ وهى الآن محفوظـــة فى المتحف
البريطانى فى مدينة لندن. وتشمل المخطوطة كل أسفار العهد الجـديد وبعض
الـكتابات المسيحية الأخرى التى يرجع تاريخها إلى القرن الثانى ، وكذلك
الترجمة السبعينية للـكتاب المقدس . وفى كل صفحة من صفحاتها كتابة فى
أربعة أعمدة . وقد قلنا فيما تقدم ان العلماء يذهبون إلى أن الخاتمة الحالية
لبشارة مرقس ليست من وضعه ، وهذه المخطوطة لا تشمل فى الواقع الآيات

الختامية الأخيرة من البشارة التى بأيدينا، ولـكنها تنتهى بالآية الثامنة من الفصل الأخير عند كلمات « لأنهن كن خائفات » .

٢ — **المخطوطة الفاتيكانية :** وهذه أيضا يرجع تاريخها إلى القرن الرابع ، وموجودة الآن فى مكتبة الفاتيكان بمدينة رومية ، ولا يعلم أحد كيف وجدت هناك . وهى تشمل كل أسفار العهد الجديد ماعدا رسائل تيموثاوس الأولى والثانية وتيطس والعبرانيين وسفر الرؤيا .

٣ — **المخطوطة الأسكندرانية :** هذه من مخطوطات القرن الخامس وهى تشمل كل أسفار العهد الجديد ، وكانت فى الأصل ملـكا لمدينة الأسكندرية كما يدل عليها إسمها . (وينقص منها جزء من بشارة متى) . وقد ورد فى بداية النصوص مذكرة باللغة العربية مؤداها أن كاتبتها هى « تـكله » الشهيدة ، وهى نبيلة من نبيلات مصر . على أن هذه المذكرة قد اضيفت إلى المخطوطة فى عصر متأخر . ولذلك يحسبها العارفون أنها مجرد إثبات لتقليد من التقاليد المتواترة ، وقد حمل هذه المخطوطة إلى الاستانة فى القرن السابع عشر ، البطريق لوكار ، وهنا سلـمها للسفير البريطانى فى تركيا ليقدمها هدية لملك إنكلترا . وفى سنة ١٦٢٨ نقلت إلى انـكلترا وبقيت فى المـكتبة الملـكية فترة ، ثم نقلت إلى المتحف البريطانى حيث هى الآن . وكان وصولها إلى إنـكلترا فى تاريخ متأخر بحيث لم يستطع أن يستعين بها واضعو الترجمة الرسمية الإنكليزية للـكتاب المقدس .

٤ — **المخطوطة الأفرامية :** يرجع تاريخها إلى القرن الخامس وهى تشمل أجزاء من كل سفر تقريباً من أسفار العهد الجديد ، ومحفوظة الآن فى المـكتبة الوطنية بباريس . وقد حُملت إلى فرنسا من الشرق فى القرن السادس عشر . ولهذه المخطوطة قصة شيقة لذيذة تبين لنا فضل العلم حين يُستخدم فى أغراض نافعة بانية . وذلك لأنه حين ظهرت المخطوطة لأول مرة فى فرنسا خيِّـل للناس أنها تشمل فقط مجموعة من الـكتابة السريانية — مواعظ لشخص يدعى أفرايم

التى سميّت المخطوطة بإسمه . وكان أحد الكتاب قد أقدم فى القرن الثانى — ربما لندرة أوراق الرق — على محو النصوص اليونانية الأصلية برقة وعناية على قدر استطاعته ، لكى يكتب على تلك الرقوق — مواعظ افرايم هذا التى كانت فى نظره أعظم قدراً من الكتابة اليونانية الأصلية ! ! على أن آثارا باهتة لتلك الكتابة اليونانية القديمة ظلت ظاهرة ، وفى سنة ١٨٣٤ تمكن العلماء باستعمال بعض المستحضرات الكيمائية من قراءة كل النصوص اليونانية الأصلية تقريباً . وقد تمَّ هذا العمل الجليل الدقيق بهمة العالم الألمانى الذى أشرنا إليه من قبل عند ذكر المخطوطة السيناوية .

٥ — **المخطوطة البيزية** : يرجع تاريخها إلى القرن السادس ، وتشمل البشائر وسفر الأعمال ، وهى محفوظة الآن فى مكتبة جامعة كمبردج بانكلترا ، ومكتوبة باليونانية واللاتينية ، وهى وثيقة خطيرة الشأن ، أهداها إلى الجامعة فى سنة ١٥٨١ المدعو ثيودور بيزا ، صديق كالفن ، مع بيان يُستدل منه على أنه حصل عليها من أحد الأديرة فى ليون بفرنسا ، كان قد نهبه الناهبون فى تلك السنة .

٦ — أما المخطوطتان الهامتان الأخريان من المخطوطات المكتوبة بالحروف العالية ، فقد كُشفتا فى هذا القرن ، إحداهما جيء بها إلى القاهرة فى سنة ١٩٠٦ وهى الآن فى مدينة واشنطن بالولايات المتحدة ، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع أو الخامس . والثانية تشمل البشائر وسميّت المخطوطة الكورديتية ، وكان قد عثر عليها فى القرن الماضى فى واد سحيق بجبال القوقاز ، وهى من مخلفات دير كورديتى فى الأصل . وبعد العثور عليها أختفت فترة من الزمن ولكنها وضعت تحت أمرة العلماء أخيراً فى سنة ١٩١٢ ! .

٧ — **مخطوطة شسمتربيتى** وأوراق بردية أخرى : ليس بين المخطوطات

القديمة التي أسلفنا ذكرها ما يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الرابع . وكان المظنون أنه لا يمكن العثور على مخطوطة قبل هذا التاريخ . على أن هذا الظن لم يكن صحيحاً ، ولا يدرى أحد ما سيجيء به المستقبل . ففى سنة ١٩٣٠ عثر فى مصر على بضع صفحات من أوارق البردى ، ولا يُعرف مكان العثور عليها بالضبط ، على أنه يظن أن المكان فى مديرية الفيوم ، وفى خرائب كنيسة مسيحية أودير من الأديرة القديمة . وقد وقعت هذه الأوراق فى أيدى جماعة من التجار الوطنيين إبتاعها منهم العلامة «شستربيتى» الذى سمِّيت المخطوطة بإسمه. وكذلك تمكنت إحدى الجامعات فى أمريكا من الحصول على بضع صفحات من البردى ، وهذه تبرعت بها وسلمتها إلى العلامة بيتى ، وجمعت هذه المخطوطات كلها وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى . ويرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد . وبذلك تكون أقدم مخطوطة للعهد الجديد فى عالم الوجود الآن . وبكشف هذا الأثر الثمين ضاقت إلى حد كبير الثغرة القائمة بين الكتّاب الأصليين لأسفار الإنجيل وبين أقدم المخطوطات التى بأيدينا . ولسوء الحظ تكاد تكون كل أوراق هذه المخطوطة ناقصة ، وهى تشمل نسخة كاملة من رسائل بولس ، ولكن ليس فيها إلا نحو ربع البشائر وسفر الأعمال .

وفى سنة ١٩٢٠ عثر فى مكتبة ريلاندز بمنشستر بانكلترا على مخطوطة من ورق البردى تشمل جزءا من بشارة يوحنا (ص ١٨ : ٣١ — ٣٣ و ٣٧) يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ١٤٠ ب . م . ويظن أنها أقدم المخطوطات المعروفة حتى الآن لأى جزء من أجزاء العهد الجديد .

ولم يكن مستطاعا — عند إصدار الترجمة العربية فى سنة ١٨٦٠ — الانتفاع بهذه المخطوطات لأنها لم تكن قد كشفت بعد. ولكن هذه المخطوطات كلها — ماعدا المخطوطتين السالف ذكرهما فى رقم ٦ ومخطوطة شستربيتى —

كانت تحت تصرف واضعى الترجمة الإنكليزية المنقحة، وتحت تصرف مطبعة بيروت عند إصدار الكتاب المقدس — «المشوهد غير المشكل» فى سنة ١٩١٥، وجمعية التوراة البريطانية عند وضع النص اليونانى الذى اتخذته أساساً فى سنة ١٩٠٤ وجعلته مرجعا للترجمات التى تقوم بها الآن .

ثانياً — **المخطوطات المكتوبة بالحروف المتصلة ببعضها** كما تكتب الرسائل فى هذا العصر . وكان المظنون أن الكتابة بالحروف الكبيرة العالية أستعملت فى الأزمنة الأولى ، وأن الكتابة المتصلة استعملت حوالى القرن الثامن . ولكن اتضح الآن أن هذا ليس الواقع ، فإن هذه الكتابة كانت مستعملة فعلا قبل عصر المسيح كوضع غير رسمى من أوضاع الكتابة مميزاً عن الكتابة الأدبية الرسمية. وظل الشكلان، أى الكتابة بالحروف الكبيرة والكتابة بالحروف المتصلة، يسيران معاً جنبا إلى جنب حوالى ثمانية قرون ، ثم أغفلت بعد ذلك كتابة الحروف العالية إغفالا تاما . فالمخطوطات ذات الكتابة المتصلة ليست بالضرورة أحدث فى تاريخها من مخطوطات الحروف الكبيرة وإن كان هذا هو الواقع إجمالا . وبينما تبوب المخطوطات ذات الكتابة بالحروف الكبيرة بحروف هجائية ، فإن المكتوبة بالحروف المتصلة تبوب فى فهارس بأرقام . ولسوء الحظ ليس لها تبويب معين أجمع الكل على قبوله . ويوجد من هذه المخطوطات مئات يبدأ تاريخها من القرن التاسع ، وأقدم هذه المخطوطات نقل أولا عن المخطوطات الأخرى المكتوبة بالحروف الكبيرة . والذى يسترعى النظر كثرة عددها أكثر مما تسترعيه أهميتها وقيمتها ، فإن قليلا منها نعلق عليه أهمية خطيرة . وأطلق على إحدى هذه لقب « ملكة المخطوطات ذات الكتابة المتصلة » وهى مبوبة تحت رقم ٣٣ ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع، ولعلها أقدم المخطوطات التى من هذا النوع. وأربع منها تاريخها يرجع إلى القرنين الثانى عشر والرابع عشر، ويُستدل منها على أنها نسخت من مخطوطة قديمة واحدة يرجع تاريخها إلى ما بعد المخطوطة الاسكندرانية الشهيرة بقليل من الزمن .

على أن لهذه المخطوطات أهمية خاصة بها ، لأن واضعى الترجمة الانكليزية الرسمية والترجمة العربية للكتاب المقدس ،قد استعانوا بالنصوص اليونانية فى بعض هذه المخطوطات ، وإن كان هؤلاء الواضعون قد استعانوا بمواد أخرى غيرها مثل الترجمة اللاتينية . والذى يقارن بين الترجمة الانكليزية الرسمية وبين الترجمة العربية للعهد الجديد ، يجدهما على تطابق وتوافق من جميع الوجوه تقريبا ، وإن وجدت بعض الفوارق القليلة . وعلة هذا التطابق ، وإن كان الفاصل الزمنى بين الترجمتين يبلغ حوالى مائتين وخمسين سنة ، هو أن الترجمتين قد استندتا إلى أصول يونانية تكاد تكون واحدة . وذلك أنه نشر فى سنة ١٥٥٠ بإنكلترا نص يونانى مأخوذ عن بعض مخطوطات ذات الكتابة المتصلة ، وقد جعل هذا النص بعد تنقيحه مرجعا أساسيا فى القرن السابع عشر ، وإليه إستند الدكتور فانديك فى ترجمة العهد الجديد إلى اللغة العربية .

مخطوطات العهد القديم :

كتبت أسفار العهد القديم باللغة العبرية ، وإن تكن بعض الشذرات المتفرقة قد كتبت باللغة الآرامية مثل دانيال ٢ : ٤ — ٧ : ٢٨ وعزرا ٤ : ٨— ٦ : ١٨ وقد أختفت إختفاء تاما كل آثار المخطوطات الأصلية أو الأدراج التى كتبت عليها أسفار العهد القديم . والكتابة التى استعملها مؤلفو الأسفار الأصلية تختلف عن الكتابة العبرية التى نعرفها . فالكتابة الأصلية أشبه بتلك التى وجدت على الحجر الموآبى (وقد كشف عنه فى سنة ١٨٦٨ ومحفوظ الآن فى متحف اللوفر بباريس) ، الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٨٦٠ ق . م . وهذا الحجر من أقدم الوثائق العبرية الباقية حتى اليوم ، لأن كتابته صادرة عن ملك موآب (أنظر ٢ ملوك ١ : ١) . وقد استخدم السامريون فى كتابة أسفار موسى الخمسة هذه الكتابة القديمة ، وهى لم تكن معروفة عند تغيير الكتابة من الحروف القديمة إلى الحروف المربعة ، ولكنها على أى حال كانت قد استقرت

تماماً فى عصر المسيح . والمعروف أن العبرية كانت تكتب فى الأصل بدون حركات وأشكال ، وما يزال باقيا منها حتى اليوم قطعة من البردى (بردية ناش) تحوى الوصايا العشر وشمَّاى (وهى الآيات المبتدئة بلفظ إسمع يا إسرائيل) . ويرجع تاريخ هذه إلى القرن الثانى بعد الميلاد . ولعلها جزء من كتاب عبادة يهودية كان يُستعمل فى المجمع . وهى أقدم مخطوطة معروفة باللغة العبرية غير المشكلة .

وحين نبحث مخطوطات التوراة العبرية الباقية بين أيدينا يدهشنا قبل كل شيء تماثلها وتوافقها ، بينما لا نجد هذا التوافق التام فى مخطوطات العهد الجديد التى تختلف إختلافاً كبيراً فى بعض نصوصها . فأنت إذا قارنت الترجمة — الإنكليزية الأصلية أو المنقحة والترجمة العربية — وكلها قد ترجمت رأساً عن العبرية ، تجدها على اتفاق تام فى كل النصوص ، وحتى إذا قارنتها بترجمة ايرونيموس اللاتينية وهى ليست منقولة عن النصوص الماسوراتية التى نقلت عنها الترجمتان الإنكليزية والعربية ، فإنك واجد هذا التوافق عينه . فما تأويل هذا التوافق فى نصوص أسفار العهد القديم إذا قيست بأسفار العهد الجديد ؟

نقلت الترجمتان الإنكليزية والعربية عن النصوص العبرية التى عرفت فى تاريخ المخطوطات بالنسخة الماسوراتية ، وقد سبق القول ان العبرية كانت تكتب فى الأصل بدون حركات وأشكال ، ولكن أدخلت هذه الحركات إلى النصوص العبرية ما بين سنة ٦٠٠ و ٩٠٠ ب . م . ويرجع هذا الى أن اللغة العبرية — كلغة منطوقة كانت موشكة على الزوال ، فخشى معلموها وأساتذتها أن يضيع نطقها الأصلى الصحيح ، وأحسوا أن الحاجة تلح عليهم للاحتفاظ بها بطريق ما . ومما هو جدير بالذكر هنا أن النطق الأصلى الصحيح لاسم الجلالة فى العبرية «يهوه» قد ضاع ، أما الحركات التى توضع عادة حينما توجد هذه الحروف الصامتة فهى متعلقة بكلمة أخرى «أدوناى» ، وهى الكلمة التى كان يُنطق بها عند قراءة

الأسفار المقدسة بدلا من « يهوه » التى لم يكن يجوز النطق بها لقدسيتها إلا لرئيس الكهنة مرة واحدة فى السنة .

للسبب الذى أسلفنا أدخل العلماء والأساتذة الحركات والأشكال على اللغة العبرية للابقاء على النطق بها حسب الأسلوب التقليدى . والمسلّم به إجماعا أن هذه الحركات قد أدخلت على النصوص العبرية فى أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن . وأطلق لقب « ماسوراتيين » على جماعة العلماء الذين وضعوا الترتيب النهائى للنصوص العبرية المشكلة . وقيل انهم قضوا مائة وعشرين سنة فى وضع النصوص التى كان مقدراً لها أن تكون أساساً ومرجعا للأمة اليهودية . وكل مخطوطات العهد القديم العبرية الباقية بين أيدينا اليوم ، يرجع تاريخها إلى القرن الثامن ، إلى عصر أولئك العلماء الماسوراتيين ، ماعدا أجزاء قليلة كشف عنها حديثاً . وكان غرض العلماء جعل نصوص أسفار العهد القديم أقرب ما تكون فى صحتها ومطابقتها للنصوص الأصلية . والكلمة «ماسورا» معناها « الشيء الذى تسلّم »وهى بذلك تشير إلى مجموعة المذكرات والمناقشات حول النصوص العبرية التى انتهت — مع تلك النصوص الأصلية — إلى أيدى العلماء الماسوراتيين ، والتى جمعها بحرص وعناية العلماء اليهود المتقدمون فى القرون السابقة لهذة الفترة مباشرة والقرون الأولى فى بدء العصر المسيحى .

وقبل أن يشرع الماسوراتيون فى مهمتهم الجليلة ، بقرون طوال ، فى وضع نصوص ثابتة لأسفارهم المقدسة ، كان اليهود قد جاهدوا وكافحوا فى حرص وعناية لتسليم نصوص كتبهم الدينية إلى الأجيال المتعاقبة بأمانة وصدق على قدر المستطاع . ولكن الكتبة بشر قبل كل شيء . فظهرت على مر الزمن تدريجا مخطوطات عبرية تختلف عن تلك النصوص التى جُعلت مرجعاً وأساساً . وليس فى الإمكان تسلسل المخطوطات ، بعد عمليات من النسخ المتعاقبة مدة

آلاف من السنين ، دون أن تظهر بعض الفوارق . والذى نعلمه أن العلماء الذين درسوا الترجمات الأخرى للعهد القديم مثل اليونانية عثروا على مثل هـذه الفوارق . وحتى فى فلسطين ، وهى مركز الحياة اليهودية، وجدت نسخ للأسفار المقدسة تتفاوت فى بعض نصوصها . على أن علماء اليهود لم ينوا طيلة الوقت فى إقرار نصوص متماثلة تكون مطابقة على قدر الإمكان للكتابات اليهودية الأصلية . والعزم الرسمى الصادق الذى بذله علماؤهم فى مجمع «يمينية» لتحديد الأسفار القانونية للكتاب المقدس ، قوىّ فيهم هذه الرغبة لاعداد أفضل النصوص وأقربها إلى الأصل . وهناك من الأدلة ما يثبت أنهم قد توصلوا فعلا فى أواخر القرن الأول المسيحى إلى تحقيق رغبتهم فى وضع نصوص رسمية غير مشكلة ، وهى نصوص تكاد تكون مطابقة تماما للنصوص التى أقرها جماعة الماسوراتيين بعد هذا التاريخ بستمائة سنة .

ولا يمكن معرفة الطريقة التى تم بها هذا العمل الجليل معرفة دقيقة ، ولكن هناك مايحمل على الإعتقاد أن هـذا المجهود يرجع الفضل فيه إلى الحبر اكويبا (المتوفى سنة ١٣٥ ب . م) وزملائه . وسواء صح هذا الفرض أو لم يصح ، فإن حقيقة بارزة جديرة بالتدوين وهى أنه حوالى عصره اختفت كلية الفوارق فى النصوص المكتوبة بالحروف الصامتة . ويمكن إثبات هذا بفحص ترجمات اللغة العبرية إلى اللغات الأخرى فى الفترة بين القرنين الثانى والثامن ، فترجمة ايرونيموس اللاتينية مثلا ، وهى منقولة عن العبرية رأساً سنة ٤٠٠ ب . م (أى قبل ظهور النصوص الماسوراتيـة بثلاثمائة سنة) لاتختلف إلا اختلافا طفيفاً عن النصوص الماسوراتية التى ظهرت بعدها . وهناك دليل آخر نجده فى الترجمة اليونانية المعروفة بترجمة كويلا (سنة ٢٠٠ ب م) فإن الأجزاء الباقية منها تدل على أن أصلها العبرى هو فى الواقع النصوص الماسوراتية التى بأيدينا الآن . وإذا أعوزنا دليل آخر فإنا لواجدوه فى الترجمة الآرامية للعهد القديم التى كانت تستعمل فى المجامع ، وفى اقتباسات التلمود

المختلفة ـ فكل هذه تحدثنا عن القصة عينها ،عن وجود نصوص رسميـــة أساسية حوالى سنة ٢٠٠ ب. م. تـكاد تكون مطابقة للنصوص التى بأيدينا اليوم .

ونحن لا يسعنا إلا أن نقف موقف الدهش إزاء العناية الفائقة التى بذلهـا الـكتّـاب اليهود ، وذلك لأن هذه النصوص غير المشكلة ظلت تنتقل فى غير تبديل من يد إلى يد فى الخمسمائة سنة التالية ، وترجع صيانتها والابقاء عليها سليمة إلى جهود سلالة طويلة من الـكتبة والعلماء وقفوا كل قواهم على حفظها وعدم إدخال أى تبديل فيها . وفى القرن الثامن وضعت هذه النصوص المصونة فى صيغتها النهائية بالاشكال والحركات بيد جماعة الماسوراتيين .

ونحن نود أن نعرف ما الذى حلّ بكل المخطوطات العبرية التى تداولتها الأيدى فى خلال القرون الاولى من العصر المسيحى، إن لم نقل مخطوطات ماقبل العصر المسيحى. وقد تقدم القول انه كانت هناك قراءات مختلفة كما تشهد بذلك الترجمات المختلفة مثل الترجمة السبعينية، ولـكنه لا توجد اليوم مخطوطة عبرية واحدة تخالف نصوص المخطوطة الماسوراتية. فكل المخطوطات التى بأيدينا صورة واحدة فى نصها .ولسنا نستطيع تعليل هذا التوافق الغريب بجواب واحد ، فقد قيل مثلا ان اليهود دمروا كل النسخ التى تختلف عن النصوص الماسوراتية الأساسية ، وحذوا فى هذا حذو الخليفة عثمان ، الذى بعد أن وضع نصوصا أساسية للقرآن، أمر بإحراق كل النسخ الأخرى التى تخالف هذه النصوص . وقيل أيضاً ان هـذا التوافق قد يكون مرجعه عادة اليهود المألوفة فى تمزيق درج المجمع حـين يتهرأ ويمسى غير صالح للاستعمال . وذلك لأن إبقاء الدرج بدون استعمال قد يعرضـه للتدنيس وهو أمر لا يطاق عندهم . ومهما يكن التعليل الذى نعلل به إختفــاء النسخ الخطّية القديمة ، فإن شيئاً واحداً يبدو لنا جليا ، هو أنه ليس بين أيدينا شىء من هذه المخطوطات غير تلك التى تحوى النصوص الماسوراتية . والـكتب

المقدسة المطبوعة بالعبرية اليوم (وكذلك الترجمات الأخرى مثل الانكليزية والعربية) منقولة عن النصوص التى كتبها « بن أشير » وزملاؤه من الكتبة الفلسطينيين فى أوائل القرن التاسع . وهنا نذكر أنه كان ثمة مدرسة ماسوراتية أخرى فى بابل ، وأخرج علماؤها نصوصاً أخرى تحت إرشاد « بن نفتالى » فى الزمن عينه الذى أخرج فيه «بن أشير» مخطوطته ، ولم تعرف أوروبا شيئاً عن هذه النسخة البابلية إلا بعد الكشف عن المخطوطات فى القرن الماضى . على أن الفارق بين النصوص الفلسطينية والبابلية يتعلق بمسائل تافهة لا يقام لها وزن فى الشرح والتأويل .

وقد فقدت مخطوطة« بن نفتالى» الأصلية كما فقدت مخطوطة «بن أشير» ولكن بقيت محفوظة نقط الخلاف بينهما . وقد تبين بعد الكشف الأخير عن المخطوطات العبرية التى نستمد أصولها من مخطوطة « بن نفتالى » الأصلية أن طريقة « بن أشير » كان لها التفوق بين طرائق الكتابة . والواقع أن أقدم مخطوطة عبرية مشكلة هى من نصوص «بن نفتالى » ، وتشمل كتابات بعض الأنبياء ويرجع تاريخها إلى سنة ٩١٦ ب . م. ومحفوظة الآن بمتحف لينىنغراد.

ولم يبق أية مخطوطة من نسخ « ين أشير » نفسه ، على أن أقدم مخطوطة منقولة عن نصوصه تشمل أسفار موسى الخمسة ويرجع تاريخها إلى القرن العاشر ومحفوظة الآن بالمتحف البريطانى . (ويظن بعض العلماء أن هذه المخطوطة قد تكون أقدم من تلك التى أشرنا إليها آنفا) . وأقدم مخطوطة كاملة لأسفار العهد القديم ، ويظن أنها منسوخة عن مجموعة « بن أشير » ، يرجع تاريخ كتابتها إلى حوالى سنة ١٠١٠ ب.م. وهناك نسخة خطية لأسفار الأنبياء تعرف بمخطوطة القاهرة .وقد ذكر تاريخها على نفس المخطوطة حيث قيل انها كتبت فى سنة ٨٢٧ بعد خراب هيكل أورشليم ، ولكن يظن أنها نسخة متأخرة منقولة عن نسخة أصلية يرجع عهدها إلى ذلك التاريخ ، وقد نسخ منها الكاتب

نسخة طبق الأصل ووضع التاريخ أيضاً . وأكثر مخطوطات العهد القديم التى بأيدينا يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة بين القرن الثالث عشر والخامس عشر، ولا يوجد عدد كبير من المخطوطات الشاملة كل أسفار العهد القديم ، ولكن يوجد مئات من الوثائق والقطع الصغرى . والفوارق تافهة جداً فى كل هذه المخطوطات وتمس أكثرها الحركات دون الكلمات الصامتة .

الترجمات :

يستعين العلماء الحديثون « بالترجوم » لتحقيق النصوص العبرية الأصلية . « والترجوم » هى ترجمات آرامية أو شروح للعهد القديم . وقد دعت الضرورة إليها لأن معرفة عامة الشعب للغة العبرية كانت آخذة فى الاضمحلال ، ولا يعرف بالضبط التاريخ الذى بدىء فيه بهذه الترجمات ، ولكنها شاعت على أى حال فى السنوات الأولى من العصر المسيحى . وكانت « الترجوم » فى الأصل ترجمات ارتجالية ، ثم وضعت بعد ذلك كتابة لتقرأ فى المجامع . وكانت القاعدة أن تقرأ آية بالعبرية ثم ترجمتها بالآرامية لكى يفهم الشعب الأسفار المقدسة ، كما يحدث اليوم فى الكنيسة القبطية حين تتلى القراءات القبطية وبعدها ترجمتها باللغة العربية . وكان عدد هذه « الترجوم » سبعة أشهرها ثلاثة وهى :

١ — ترجمة أونكيلوس لأسفار موسى الخمسة ، أخرجت حوالى نهاية القرن الثانى بعد الميلاد .

٢ — ترجمة يوناثان لأسفار الأنبياء ، أخرجت حوالى نهاية القرن الأول

٣ — ترجمة أورشليم للأسفار الخمسة .

النصوص السامرية لأسفار موسى الخمسة :

فى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد حدث انشقاق بين اليهود والسامريين وهم سكان مستعمرة من أصل مختلط نشأوا فى السامرة بعد سقوطها فى سنة

٧٨٢ق.م. فالسامريون اعتبروا أسفار موسى الخمسة الأسفار المقدسة ورفضوا قبول كل أسفار العهد القديم الأخرى . وللنسخة السامرية للأسفار الخمسة شأن هام ، لأنها كتبت بالحروف العبرية القديمة . وهــذه النسخة السامرية مأخوذة عن مخطوطات تلك الفترة التى وقع فيها الشقاق أى القرن الخامس أو الرابع . وحين نقارن المخطوطات السامرية المحفوظة حتى اليوم بالمخطوطات العبرية نجد هذه مطابقة لتلك ، كما هو المتوقع . على أن بينهما بعض الفوارق الهامة . ففى كثير من الآيات والفقرات يُعتبر النص السامرى أفضل من النص العبرى ، ويؤثر علماء الأسفار الخمسة النص الأول على الثانى ، لأنه أقــدم وأقرب إلى الأصل . وخاصة فى المواضع التى تسند فيها الترجمات الأخرى هذه النصوص السامرية مثل الترجمة السبعينية . فمثلاً النص العبرى للآية الثامنة من الفصل الرابع من سفر التكوين تقرأ هكذا « وكلم قايين هابيل أخاه » — (والكلمة العربية « كلَّـم » ليست ترجمة صحيحة للأصل العبرى التى هى أقرب فى المعنى لكلمة « قال ») . ولــكن الآية لم تذكر ماتكلم به. ويظن الباحث لأول وهلة أن السطر الذى تضمن الكلمات التى قالها قايين سقطت من الناسخ فى فترة ما . ومما يؤيد هذا الظن أن النسخة السامرية جاء بها « وقال قايين لأخيه هابيل لنذهب إلى الحقل » . وهذا النص السامرى يتفق مع « الترجوم » الآرامية ، ومع الترجمات الأخرى مثل السبعينية ومع الترجمات السريانية ، ولابد أن هذه الكلمات سقطت من النص العبرى بعد ظهور هذه الترجمات . ولعل أقــدم مخطوطة للأسفار الخمسة ما تزال محفوظة حتى اليوم فى مجمع نابلس ، حيث يعيش حتى اليوم نفر قليل من السامريين يُحصون — بالمئات فقط . وهــذه المخطوطة هى اليوم موضع العناية والحرص الشديدين فلا تظهر أمام أحد ، حتى للسامريين أنفسهم ، إلا فى يوم الكفارة . ويوجد اليوم فى المكاتب الأوربية نحو ست عشرة مخطوطة سامرية أقدمها محفوظة فى رومية ويرجع تاريخها إلى سنة ١٢٧٧ ، ولو أنه توجد شذرات متفرقة أقدم منها .

أقدم المخطوطات

ستبقى السنوات من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٣ مدى الزمن من السنوات الباهرات فى تاريخ العاديات وآثار الكتاب المقدس القديمة ، ذلك لأنه فى خلال هذه السنوات قد كشف الناقبون عن ثلاثة أرباع أسفار العهد القديم فى مخطوطات يرجع تاريخها إلى القرن الثانى بعد الميلاد .

وقد قدّمت الكشوف — التى عثر عليها حول البحر الميت — للعالم أكثر أسفار العهد القديم فى مخطوطات يزيد عمرها ألف عام عن أقدم المخطوطات العبرية التى بأيدينا اليوم .

ففى صيف سنة ١٩٤٧ حدث مصادفة أن دخل بدوىّ متجول ، يحمل سلعاً من وادى الأردن إلى بيت لحم ، مدخلا صغيراً لكهف على مقربة من خربة قمران ، فى الأطراف الشمالية للتلال المتاخمة للجانب الغربى من البحر الميت . وهناك عثر ذلك البدوى على عدد من أباريق الفخار تحوى ثلاثة أدراج (لفّات أسطوانية) من المخطوطات ، ثبت فيما بعد أنها أجزاء العهد القديم ، مكتوبة فى نموذج خطىّ ، يثبت أن عمرها يزيد ألف سنة عن أقدم النصوص العبرية المعروفة لنا من أسفار الكتاب المقدس . وقد كشف التنقيب عن خمسة أدراج أخرى . وثبت لدى الفاحصين أن هذه الأدراج الثمانية تشمل نصوص سفر أشعياء وسفر حبقوق مع شرح له ، وبعض الوثائق العالمية الأخرى .

ثم نشب النزاع المعروف وحلّت نكبة فلسطين فتوقفت حركة التنقيب إلى سنة ١٩٤٩ — وفى تلك السنة أعيد فتح الكهف بمعونة الجيش العربى ، وقام المنقبون بالبحث فى أربعين كهف من الكهوف المجاورة ، وحصلوا على نتائج طيبة ، ذلك لأنهم عثروا على مخطوطات أخرى وعلى درجين من البرونز باللغة العبرية أو الآرامية ، وقد عثرت قبيلة العربى

البدوى المكتشف الأصلى على كهف آخر فى سنة ١٩٥٣ يبعد نصف ميل عن الكهف الأول ، يحوى مجموعة أكبر من المخطوطات .

وتمثل هذه المجموعة من المخطوطات الأسفار المقدسة لجماعة أسينية ، نقلت مكتبتها من مقرها الأصلى إلى الكهوف ، إخفاءً لها عن أنظار الرومان خلال الحرب اليهودية الأولى التى انتهت بكارثة ماحقة فى سنة ٧٠ ب . م . وتلك الجماعة ، وهى بلا شك التى أشار إليها المؤرخ بلينى بكلمة « فوق انجدّى » انقرضت فى تلك السنة ، كما يستدل على ذلك من وقف التعامل بنقودها فى خرائب ذلك التاريخ .

كشوف هامة أخرى :

وقد عثر على أشياء أخرى فى كهوف أربعة على مقربة من وادى المربعات الذى يبعد اثنى عشر ميلا جنوب خربة قمران . وهنا تتمثل أمامنا فترة أخرى من التاريخ ، كما يستدل على ذلك من وثائق متعلقة بالحرب اليهودية الثانية مع رومية سنة ١٣٢ — ١٣٥ ب . م ، يوم تزعم « بن كوخبار » الثورة اليهودية بصفته المسيّا المنتظر . وتشتمل هذه الكشوف الجديدة على « نسخ عديدة من إعلان الثورة الرسمى » ، وتبين أن اسم « بن كوخبار » الحقيقى هو « سيمون بن كسيبة » ، وقد عثر على رسائل من سيمون هذا لقائد الجيش اليهودى المحلى . وبـيّن أن كهوف وادى المربّعات هذه قد احتلتها القوات اليهودية أبان الثورة ، وهنا تركوا وراءهم وثائق رسمية كثيرة ، ورسائل ، ومخطوطات على الجلد وعلى أوراق البردى ، يشمل بعضها أجزاء من أسفار التكوين ، والخروج ، والتثنية . كما عثر أيضاً على عقد من عقود الزواج مؤرخ فى السنة السابعة من عهد الإمبراطور هادريان سنة ١٢٤ ب . م .

وقد كان لهذه الكشوف اللاحقة ، التى أعقبت كشوف خربة قمران ،

أهمية عظمى . وحسبنا أن نشير إلى مقال فى مجلة « العاديات الكتابية » الجزء الأول من سنة ١٩٥٣ جاء فيه :

« يقول دكتور تشنجهام أن المخطوطات الجديدة — كما يؤخذ من الأجزاء التى نقلت حتى الآن إلى متحف الآثار بفلسطين — هى أهم المخطوطات جميعاً . وهى فريدة من نوعها . وتبدو الكشوف الأولية فى أدراج البحر الميت « متواضعة » إذا قورنت بها . . . » . وقد ثبت الآن أن ٧٥٪ من أسفار العهد القديم ممثلة فى هذه الكشوف . ومما قاله العالم الآب « دهڤو » فى جريدة « نيويورك تيمس » بعددها الصادر فى ٢١ يناير من تلك السنة أن أحد تلك الأدراج يرجع تاريخه إلى القرن الأول بعد الميلاد ويحوى النصوص الآرامية الأصلية « لإنجيل الآباء الإثنى عشر » ، وكذلك نسخة من مقتبسات العهد القديم المنتحلة ، التى لا نعرفها اليوم فى غير الترجمات اليونانية والأرمنية والصقلبية .

مخطوطات العهد القديم :

والمعروف أن بين السبعين درجاً التى عثر عليها باللغات الفينيقية والعبرية والآرامية واليونانية ، ثمانى وثلاثين مخطوطة منها خاصة بأسفار التكوين والخروج وتثنية ولاويين والعدد ويشوع وراعوث وصموئيل والملوك والمزامير والجامعة ونشيد الأنشاد وأشعياء وأرميا والمراثى وحزقيال ودانيال وصغار الأنبياء وطوبيت . وهذه أول مرة عثر فيها على سفر باللغتين العبرية والآرامية . ويلقى هذا الكشف ضوءاً على أسفار الأبوكريفا التى استبعدت من مجموعة الكتب القانونية العبرية ، ومن أسباب هذا الاستبعاد أنها كانت مكتوبة باللغة اليونانية فقط . وقد عثر أيضاً على كثير من أسفار الأبوكريفا — غير القانونية — المعروفة ، وغير المعروفة وعلى تفاسير وشروح وتعليقات على الأسفار المقدسة ، وكذا كتابات عالمية أخرى .

ويمكن القول بصفة عامة ان التطابق بين هذه المخطوطات الجديدة وبين نصوصنا الحالية مثير للعجب .

ومن الظواهر البارزة فى مخطوطة سفر أشعياء وجود فراغ هنا وهناك بين النصوص فى شكل فجوات ، كأنها تركت عمداً لأجزاء من النص لم تكن واضحة فى المخطوطة الأصلية التى تم النقل عنها، ولم يقدر الكاتب أن يملأها . ومثل هذه الفجوات تمثل نقصاً فى النصوص ناشئاً عن تمزق أو تهرؤ فى أطراف المخطوطة الأصلية التى تثبت هذه الواقعة وجودها ، كما يثبت وجودها أيضاً أخطاء الكاتب ، حيث نراه يكتب ألفاظاً مغلوطة عند محاولته تصحيح نص لم يفهمه تماماً .

ومن هذا يتبين لنا أن أدراج البحر الميت نقلت عن مخطوطات أقدم منها عهداً ، فى حالة من البلى ، وهى بلا شك ترجع إلى ماقبل القرن الثانى الميلادى .

حول المخطوطات القديمة

لأسفار الكتاب المقدس

تقسيم الكتاب الى فصول (اصحاحات) وآيات (أعداد)

تنقسم الكتب المقدسة المطبوعة إلى فصول وآيات . وهذه الطريقة بديعة ملائمة لتسهيل البحث ووضع المراجـــع وقواميس الكتاب . وطريقة تقسيم الكتاب المقدس حديثة العهد يرجع تاريخها إلى قرون قلال ماضية . ولكن وراء هذا التقسيم قصة شيقة ، هي قصة تقسيم الأسفار إلى فقرات وأقسام التى يرجع تاريخها إلى العصور المسيحية الأولى .

العهد الجديد :

كان من الضرورى تقسيم أسفار العهد الجديد من تاريخ متقدم . وهناك أربعة طرق لهذا التقسيم أبقيت لنا فى المخطوطات :

١ — المخطوطة الفاتيكانية :

وأقدم طريقة من هذه الطرق محفوظة فى المخطوطة الفاتيكانية . ولكن الطريقة يرجع تاريخها إلى ما قبل تاريخ المخطوطة ذاتها . وذلك لأن هذه المخطوطة قد أحصت أقساماً ، لا يعرف أصلها ، ولكن يتضح أن هذه الأقسام وُضعت على أساس الفاصل بين المعانى . فمثلا قسم إنجيل متى إلى ١٧٠ قسماً وإنجيل مرقس إلى ٦٢ وإنجيل لوقا إلى ١٥٢ ، وإنجيل يوحنا إلى ٥٠ — ومما هو جدير بالذكر فى صدد هذه الأقسام العددية فى المخطوطة الفاتيكانية أن رسائل بولس مقسمة تقسيما متواليًا كأنها سفر واحد ، فمثلا الأقسام ١ — ٥٦ تشمل الرسائل من رومية إلى غلاطية .

٢ — المخطوطة الإسكندرانية :

وثمة طريقة أخرى جرى عليها كتّاب المخطوطات نجدها فى هذه المخطوطة الإسكندرانية . فالبشائر هنا مثلا مقسمة إلى أقسام ، وكل قسم مصدّر بالكلمة اليونانية التى معناها «عنوان»، ومصحوبة بحرف أو أحرف تمثل القيمة العددية . وفيها فى الوقت نفسه عنوان تلخيصى يشرح مشتملات القسم ، ففى أنجيل متى ٦٨ قسماً ومرقس ٤٨ قسما ولوقا ٨٣ قسماً ويوحنا ١٨ قسماً . والآيات الأول فى كل كتاب صدرت بعنوان «مقدمة» . والقسم الأول مثلا من إنجيل مرقس يبدؤ من الآية ٣٣ بعنوان « إخراج الشياطين » .

وهناك طريقان أخريان يقترنان بإسمى « يوسيبوس» المتوفى سنة ٣٤٠م » و إيثاليوس (المتوفى سنة ٤٥٠م) . ولاحاجة بنا أن نشرحهما فى هذا المقام لأنهما على الرغم من قيمتهما معقدتان بحيث لا يسهل شرحهما .

أما طريقة تقسيم الفصول ، فيرجع الفضل فيها إلى الكاردينال « هوجو» سنة ١٢٣٨ ومن عهده شاع إستعمالها . وقد قسم الكاردينال أيضاً كل إصحاح إلى فقرات موسومة بحروف . أما التقسيم بآيات عددية فقد وضعه « روبرت ستيفانوس» سنة ١٥٥١ ، وهو المحرر الشهير صاحب النصوص اليونانية المطبوعة. وقيل انه رتب تقسيم الآيات العددية أثناء رحلة من باريس الى ليون .

العهد القديم :

ومثل العهد الجديد ، يُقسم الكتاب المقدس العبرى اليوم والكتب المقدسة المترجمة عنه إلى فصول وآيات . وكان التقسيم إلى فقرات وأقسام معروفا فى المخطوطات اللاتينية مدة قرون ، ولكن التقسيم الى فصول (اصحاحات) يرجع الفضل فيه إلى «لنغران » رئيس أساقفة كنتربرى (المتوفى سنة ١٠٨٩) وقدوضع «ستيفن لنجلتون » وهو أيضاً رئيس أساقفة كنتربرى تقسيم الكتاب المقدس

اللاتينى فى وضعه المعروف الآن سنة ١٢٢٨ — وكان أول كتاب مقدس لاتينى شامل لتقسيم الآيات من وضع ستيفانوس المشار إليه هنا فى سنة ١٥٥٥ وقد ظهرت طريقة تقسيم الفصول لأول مرة فى الكتاب المقدس العبرى فى منتصف القرن الخامس عشر ، وطبعت أول نسخة بهذا التقسيم فى سنة ١٥١٤ ، وأضيف إليها فيما بعد طريقة الآيات العددية .

ومما يؤسف له أن تقسيم الفصول والآيات ليس واحدا فى كل الكتب المقدسة ، ولا فى كل الكتب المستعملة فى العبادات الكنسية . وهذا يجعل الرجوع الى الشواهد عسيرا . فمثلا تقسيم المزامير فى نسخة الفولجات اللاتينية يختلف عن التقسيم المتبع فى الكتب المقدسة العبرية والإنكليزية والعربية . كذلك يختلف تقسيم الآيات العددى فى كثير من المزامير . وسبب الإختلاف فى تقسيم المزامير يرجع إلى أن الكتب المقدسة الانكليزية والعربية منقولة عن التقسيم الأصلى فى النسخة العبرية الأصلية ، أما المزامير اللاتينية فمنقولة فى تقسيمها حسب الوضع الذى جرى عليه كتّاب الترجمة السبعينية .

خذ مثلا مزمور ٤٠ : يتألف هذا المزمور فى الكتب المقدسة العبرية (وفى الترجمتين الانكليزيتين الرسمية والمنقحة والترجمة العربية) من ١٧ عدداً ، ولكنه يتألف فى مزامير كتاب الصلاة العامة (الانكليزى والعربى) من ٢١ عددا ، وفى الكتاب المقدس اللاتينى أعطى لهذا المزمور عينه رقم ٣٩ بدلا من ٤٠ كما هو الحال فى الترجمة السبعينية ، وهو مؤلف من ١٨ عدداً .

وبينما نجد أسفار العهد الجديد تسير فى ترتيبها على وتيرة واحدة ، فإن الحال غير ذلك فى أسفار العهد القديم ، حيث نجد الترتيب اللاتينى يختلف عن الترتيب العبرى (والانكليزى والعربى) ، وذلك لأن أسفار الأبوكريفا محشورة فى أماكن مختلفة ، فسفرا صموئيل الأول والثانى هما الملوك الأول والثانى فى الكتاب

المقدس اللاتيني . وقد كان سفرا صموئيل في الأصل سفرا واحدا حسب وضع الأسفار القانونية العبرية ، ولكن التقسيم إلى سفرين مردّه إلى أصحاب الترجمة السبعينية الذين نظروا إلى سفرى صموئيل والملوك كسجل كامل لتاريخ مملكتى إسرائيل ويهوذا وقسموها الى أربعة كتب عن المملكتين .

نقل النصوص :

إن فترة تربو على الألف عام تفصل بين تاريخ أقدم مخطوطة عبرية وبين تاريخ كتابة آخر سفر من أسفار العهد القديم . وهناك أيضاً فترة أخرى لا تقل عن ألف سنة بين كتابة أول فقرة فى أول سفر من أسفار الكتاب المقدس وبين تأليف آخر سفر من أسفار الكتاب . فكأن فترة ألفين من السنين تفصل بين أول كتابة لأسفار الكتاب المقدس وبين أول مخطوطة عبرية . وإذا استثنينا مخطوطة شستربيتى ، نجد أن فترة تربو على المائتى سنة تفصل بين أقدم مخطوطة يونانية وبين كتابة آخر سفر من أسفار العهد الجديد .

ومن عهد كتابة النسخة الأصلية ، تسير عملية النسخ والنقل باستمرار جيلا بعد جيل . والأمر المستغرب حقاً ، ليس وجود بعض الفوارق فى المخطوطات الكثيرة المختلفة ، بل قلة هذه الفوارق وعدم مساسها بجوهر النص على الرغم من طول المدى وما فى النسخ بخط اليد من صعوبات لا تخفى . وإذا قدّر لأحد الكتّاب الأصليين أن يجىء اليوم ويقرأ الكتب المقدسة المتداولة فى أية لغة ، فأظنه يشير إلى هذا الموضع أو ذلك قائلا « ليس هذا ما كتبت بالضبط ، فهنا كلمة سقطت وحلّت محلها أخرى ، وهنا كلمة أضيفت لم أكتبها أنا ، ولكن هذه كلها مسائل تافهة ، فإن نصوصكم صحيحة فى جوهرها » .

وفى اللغة العبرية — كما فى العربية — توضع نقط على أحرف من شكل واحد ، ولكن حذف نقطة يغير الحرف بآخر . كذلك توجد حروف صامتة

صغيرة مشابهة بعضها لبعض ، ومن الميسور جداً وقوع الخطأ فى نسخها . وإلى القارىء مثالا : فى أشعياء ٩ : ٣ تقول المخطوطة العبرية ما يصح أن يترجم إلى العربية بعبارة « لم تعظّم لها الفرح » بدل « عظّمت لها الفرح » . وهو المقصود فعلا من الآية حسب الترجمة العربية . وذلك لأن لفظة النفى فى العبرية اندست بدل لفظة أخرى مشابهة لها فى الوضع فأفسدت المعنى كله . وحتى جماعة الماسوراتيين قد لاحظوا هذا الخطأ (لأنهم كانوا من نقاد النصوص) ، على أنهم لم يجرؤا على تغيير النصوص الخطيّة التى كانت بأيديهم ، فوضعوا النص كما هو فى صيغة النفى فى مخطوطاتهم ، ولكنهم وضعوا فى الهامش ملاحظة أشاروا بها إلى اللفظة الصحيحة التى تشابه لفظة النفى فى شكلها .

وثمة خطأ آخر شائع ، خطأ طبيعى ، هو تكرار الألفاظ ذاتها . وأوضح مثال على ذلك نجده فى سفر أخبار الأيام الأولى ٩ : ٣٥— ٤٤ فإن هذه الآيات تكرار مضبوط للآيات الواردة فى ٨ : ٢٩ — ٣٨ والظاهر أن الناسخ كان قد وصل الى ص٩:٣٤ فى كتابته . وكانت الكلمات الأخيرة التى كتبها «هؤلاء سكنوا فى أورشليم » . ثم أراد أن يعاود الكتابة من جديد بعد وقوفه ، فاتجهت عيناه بطبيعة الحال إلى الكلمات الأخيرة« وهؤلاء سكنوا أورشليم » . وراح يكتب ماتلاها من ألفاظ . ولكن عينه زاغت إلى عبارة « هؤلاء سكنوا فى أورشليم » كانت قد وردت فى جزء متقدم من المخطوطة التى كان ينسخ منها ، وفى جهله وبسلامة نية استمر يكتب مدة من الزمن ذات العبارات التى كان قد كتبهامن قبل .

وثمة أيضاً بعض الأخطاء ناشئة عن الحذف ، كما وقع مثلا فى سفر صموئيل الأول ص ١٣ : ١ حيث حذف النص العبرى للكلمة الدالة على السن التى بدأ فيها شاول الملك حكمه . ولم يدخر اليهود وسعا فى منع تسرب أخطاء إلى

النصوص ، فكانوا يضيفون فى آخر كل سفر عادة عدد الآيات (مع أن الفصول لم تكن مرقومة رسمياً) ، بل عدد الحروف الصامتة ، ومذكرة عن الآية المتوسطة واللفظة المتوسطة والحرف المتوسط . فإذا فرغ كاتب من نسخ مخطوطة ووجد أن حسابه لا يتفق مع هذه الإحصائيات والمذكرات ، أيقن أن فى الأمر خطأ ينبغى عليه إما إصلاحه أو إبطال السفر الذى نسخه . والآية المتوسطة فى الأسفار الخمسة الأولى هى لاويين ٨ : ٧ والآية المتوسطة فى الكتاب المقدس العبرى هى أرميا ٦ : ٧ ، وإنها لعملية حسابية طويلة تفتقر إلى كثير من الجهد والعناء ، تلك التى كان يقوم بها الناسخ العبرى للتأكد من سلامة مخطوطته !

كذلك وقعت أخطاء مختلفة فى المخطوطات اليونانية ، يرجع بعضها إلى الأسباب التى ألمحنا إليها آنفاً ، وبعضها إلى أن الألفاظ اليونانية كتبت فى الأصل بدون فواصل بينها ، ولم يكن قد أُبتكر فى اللغة حركات أو وقفات لتساعد الناسخين . وكانت الأخطاء تنتقل فى أغلب الأحيان فى المخطوطات من السابقة إلى اللاحقة ، وحين كان يكشفها الناسخون ، كانوا يصححونها إما فى الهوامش أو النصوص . ولذلك نرى المخطوطة السيناوية قد صُوبت ثمانى مرات من القرن الرابع إلى القرن الثانى عشر ، وأضيفت التصويبات الأولى بمعرفة الكاتب الذى راجع المخطوطة عقب إنتهاء النساخ منها وكان عددهم أربعة .

وقد يكون فى تحدثنا بصراحة على هذا النحو فى الأخطاء النصيّة فى الكتاب المقدس شىء من الخطر ، خشية أن يتوهم أحد أن الأمر ذو بال ، فيعلّق عليه أهمية لا يستحقها . ولذلك يجب أن نذكر — كما قلنا من قبل — ان أكثر هذه الأخطاء التافهة لا قيمة لها . فهى ناشئة عن خطأ فى هجاءة لفظة ، أو وضع كلمة بدل أخرى أو حذف أو إضافة أداة تعريف لا قيمة لها وما شاكل ذلك . ويندر

جداً وجود خطأ يغير معنى النص . والفوارق اللفظية التى كشفت فى العهد الجديد أكثر من الفوارق اللفظية التى كشفت فى العهد القديم ، والسبب فى ذلك أن نصوص العهد القديم قد وضعها على أساس ثابت جماعة الماسوراتيين . وقد أثبت إثنان من كبار نقاد النصوص الكتابية أن الفوارق ذات القيمة فى العهد الجديد لو وضعت كلها معاً لا تزيد على جزء من الألف من النصوص الكاملة ، فإن فى العهد الجديد حوالى ثمانية آلاف آية ، فكأن الفوارق والإختلافات حوالى ثمانى آيات فقط !!

والغرض الذى يرمى إليه العلماء فى هذا العصر هو الكشف بقدر الإمكان عن الكلمات الأصلية التى كتبها الكتّاب الأصليون . وهذا عمل فنى رائع يُعرف فى عالم الادب الدينى بفن « نقد النصوص » . وليس هيناً علينا الآن أن نسهب فى شرح الوسائل الفنية الكثيرة التى يلجأ إليها أولئك العلماء الناقدون لتحقيق هذا الغرض . ولكن يصح أن نذكر بعض النقاط الشيّقة : يجب أولا التأكد من تاريخ المخطوطة ولو بوجه التقريب ، ويمكن الوصول إلى هذا بوسائل كثيرة ، مثل طريقة الكتابة وطريقة التقسيم إلى فقرات أو أقسام، وإقتباسات الكتَّاب القدامى الآخرين . وينبغى أن تبوب المخطوطات وتجمع فى « أسر » أو فئات سلالية — وأن تعيّن الأخطاء بمقارنة المخطوطات بعضها ببعض وهكذا . وقد أثمر الاختبار الطويل الذى حظى به العلماء النابهون نظاماً للنقد يمكن به التوصل إلى أفضل النصوص . ولا يغرب عن البال أنه بينما انحصرت أفضل جهود الناقدين فى القرنين الماضيين ، فإن عملية النقد كانت مهمة خطيرة قام بها الكتّاب فى العصور الأولى بغير انقطاع كما قلنا . فنقد النصوص ليس شيئا مستحدثاً ، ولو أن أساليبه الفنية قد تكون مستحدثة . وكان من آثار كشف المخطوطات الحديثة وتطبيق مبادىء النقد النصّى إنتاج الترجمة الإنكليزية المنقحة فى القرن الماضى ، واتخاذ جمعية التوراة البريطانية

نصوصاً جديدة فى اليونانية كأساس لترجمة الأسفار المقدسة فى البلاد التى يُبشر فيها بالإنجيل ، والشروع فى الشرق الأدنى فى تنقيح الترجمة الحالية للكتاب المقدس التى وضعها الدكتور فانديك .

ولعلّ بعض الناس يضطربون بعض الإضطراب حين يرون من هذا البحث الفنى أن الكتاب المقدس لم ينقل إلينا كلمة كلمة ، معصوماً عصمة كاملة من حيث سلامة النصوص اللفظية . ولكن هذا هو الواقع ، أردنا أو لم نرد ، ولا خير فى إخفاء الحقائق الواضحة . والحق هو الحق ، ولا فائدة من إخفائه أو تجاهله . على أننا نعلم علم اليقين أن بين أيدينا كتاب الله المبين ، فى مادته الأساسية وجوهره الصحيح ، الكتاب المقدس الذى أعلن لنا ذات الله كما وضعه الكتّاب الأصليون فى القديم . وإذا وُجد هنا أو هناك فارق فى لفظة أو مقطع ، فليس الأمر بذى بال . والذى يهتم به الله ويقدّره ليس عبادة الحرف والنص ، بل طاعة القدير وإدراك الروح فى وحى العلى . وقد ترك جلّ جلاله ألفاظ الكتّاب المقدس لتكون عرضة إلى حد ما للمخاطر التى يتعرض لها أى كتاب آخر تكتبه يد البشر ، ولكنه أعطانا فى الوقت نفسه — بفضل الجهود المضنية التى بذلها جمع لا يحصى من العلماء والكتّاب — الكنز الثمين الذى ضمّ بين دفتيه إعلان ذاته للبشر رجالا ونساء ، أنبياء وحكماء ، رسلا ومنذرين ، وفوق كل شيء إعلان ذاته فى يسوع المسيح ربنا ومخلصنا .

ترجمات الكتاب المقدس

ترجمات العهد القديم :

تُرجم العهد القديم إلى للغات الأخرى ليسدّ حاجة اليهود الذين لم يعرفوا العبرية ، كذلك ترجمه المسيحيون لينتفع به الذين اعتنقوا المسيحية . وهـذه الترجمات على جانب عظيم من الأهمية من حيث النصوص الأصلية للعهد القديم ، وذلك لأنها تُرجمت قبل أن توضع النصوص العبرية الصامتة فى وضعها النهائى فى خلال القرن الثانى بعد الميلاد . ولذلك فهى تشهد لنصٍّ عبرى يسبق فى تاريخه النص الذى استقت منه كتبنا المقدسة الحديثة أصولها ، لأن كتبنا المقدسة الحالية مترجمة عن النصوص الماسوراتية ، ويستثنى منها طبعاً الترجمة اللاتينية .

الترجمة السبعينية :

وأهم هذه الترجمات هى الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية . ويرجع أصل هذه التسمية إلى ما تقوله التقاليد من أن سبعين عالما من علماء الإسكندرية تحت رعاية بطليموس فيلادلفوس ترجموا الأسفار الخمسة الأولى إلى اليونانية فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد (٢٨٥ — ٢٤٧) ، ولذلك تـكون الترجمة السبعينية للأسفار الخمسة منقولة عن النص العبرى الذى كان متداولا فى مصر فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد . وقد أشرنا من قبل إلى نص الآية ٤ : ٨ من سفر التـكوين فى النسخة السامرية ، وهى تتفق فى وضعها مع نص الترجمة السبعينية ، مما يدل على أن هذه الآية كانت على هذا الوضع فى النص العبرى فى ذلك العهد . أما بقية أسفار العهد القديم فقد تُرجمت فى الفترة بين سنة ٢٥٠ — ١٠٠ ق . م .

وعلاوة على أسفار العهد القديم ، فإن الترجمة السبعينية تشمل أسفاراً

أخرى يقال لها « الأبوكريفا » ، وهى أسفار ليست متضمنة فى الترجمة العربية ، ولا فى الترجمة الإنكليزية الرسمية . وهذه الأسفار — وقليل منها لم يكتب قط فى اللغة العبرية — لم يحسبها اليهود من أسفارهم القانونية ، كذلك لا تعتبر قانونية فى نظر الكنائس البروتستانتية والأسقفية .

أما الكنيسة الكاثوليكية فتدمجها فى أسفار كتابها المقدس ، أما فى الكنائس الشرقية فإن مسألة قانونية هذه الأسفار الأبوكريفا ، أو عدم قانونيتها ، لم يفصل فيها بصفة قاطعة بقرار مجمعى .

وأكثر الإقتباسات فى العهد الجديد مستقاة من الترجمة السبعينية ، وهى تستعمل اليوم فى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية لقراءة الدروس والمزامير المعينة فى عبادتها الدينية .

وقد بقيت حتى اليوم مئات من الترجمة السبعينية بالحروف الصغيرة والحروف الكبيرة ، وأقدمها قطعة من ورق البردى تشمل بعض سفر التثنية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى قبل الميلاد (بعض آيات من الفصول ٢٣ — ٢٦ — ٢٨) . وقد وجدت هذه المخطوطة فى مكتبة بمدينة منشستر . ويليها فى القدم مخطوطة « شستربيتى » البردية التى تشمل أجزاء من سفرى العدد والتثنية . فهى — ما عدا القطعة التى أشرنا إليها هنا — أقدم مخطوطة معروفة للكتاب المقدس باللغة اليونانية . وتوجد غير ذلك أجزاء من مخطوطات أخرى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث ، على أن هناك أربع مخطوطات قديمة ذات أهمية خطيرة .

١ — **المخطوطة السينياوية** ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع . وهذه المخطوطة ليست كاملة كالمخطوطتين الآتى ذكرهما .

٢ — **المخطوطة الفاتيكانية** ويرجع تاريخها أيضاً إلى القرن الرابع . وإذا

استثنينا أسفار المكابيين ، وبعض المزامير ، وبعض فصول سفر التكوين ، وبعض الآيات الأخرى، فإن هذه أوفى مخطوطة للعهد القديم وأسفار الأبوكريفا .

٣ — **المخطوطة الأسكندرانية** ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس . وهذه تشمل أيضاً الكتاب المقدس كله ما عدا بعض المزامير وقلّة من الآيات الأخرى .

٤ — **المخطوطة الأفرامية .**

وعلاوة على الترجمة السبعينية ، فهناك ترجمات يونانية ثلاث لها قيمتها :

١ — **ترجمة اكويلا** ، وهو يهودى ، ويرجع تاريخها إلى سنة ١٩٠ب . م . وهذه الترجمة منقولة عن الأصل العبرى بدقة تكاد تكون استعباداً للحرفية ، ولكن هذا يجعلها ذات قيمة عند المقارنة والموازنة .

٢ — **ترجمة ثيوديتون** وهو مسيحى ، ويرجع تاريخها إلى سنة ١٩٠ ب . م . وتقوم أهميتها على أسباب عديدة منها أن ترجمة سفر دانيال (وربما ثلاثة أسفار أخرى وهى عزرا ونحميا والأيام) تسبق الترجمة السبعينية .

٣ — **ترجمة سيماخوس** ويرجع تاريخها إلى سنة ٢٠٠ ب . م . وتمتاز بأمانتها للنص العبرى الأصلى وطلاوة أسلوبها اليونانى ونقاوته . ولم تبق نسخة أصلية من هذه الترجمات ، وإنما نحن مدينون فى معرفتنا بها إلى كتّاب آخرين أشهرهم أوريجانوس العالم المصرى الكبير ، الذى قام بالعمل الخطير الجليل فى جمع ست ترجمات للكتاب المقدس مقابل بعضها فى العبرية ، والعبرية فى حروف يونانية ، وترجمات أكويلا وسيماخوس والسبعينية وثيودويتون . وقد أبقى الزمن على مخطوطتين من آثار هذا العمل العظيم يرجع تاريخهما إلى القرنين الثامن والعاشر . وهما محفوظتان الآن فى كمبردج وميلان على التوالى . أما النسخة الأصلية التى

وضعها أوريجانوس ، فكانت فى قيصرية وقد أستعان بها القديس ايرونيموس فى نقل ترجمة الفولجات .

الترجمة السريانية :

تُرجم العهد القديم إلى اللغة السريانية فى خلال القرن الثانى لتنتفع به الجماعة المسيحية . وقد وجدت أقدم مخطوطة للعهد القديم باللغة السريانية (وهى تشمل الأسفار الخمسة الأولى) فى دير القديسة مريم دبارة فى صحراء وادى النطرون . ويرجع تاريخها إلى سنة ٤٥٠ ب . م . وهى الآن محفوظة بالمتحف البريطانى . وتوجد مخطوطات أخرى ذات تاريخ متأخر فى مكاتب مختلفة . وقد ترجم عمل أوريجانوس الذى أشرنا اليه آنفا إلى اللغة السريانية فى القرن السابع شخص يدعى « بولس تيلا » ، وتوجد أقدم مخطوطة لجزء من هذه الترجمة فى ميلان ويرجع تاريخها إلى القرن الثامن .

الترجمة اللاتينية :

نقلت أقدم ترجمات العهد القديم فى اللغة اللاتينية عن اللغة اليونانيــة ، فهى إذا ترجمة نقلا عن ترجمة . وقد بدأت الترجمة اللاتينية فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد على الأرجح ، ويوجد الآن من هذه الترجمة اللاتينية الأولى حوالى ثلاثين مخطوطة أقدمها يرجع تاريخها إلى القرن الخامس . وفى خلال السنوات ٣٩٢ ـ ٤٠٥ قام القديس ايرونيموس بعمل ترجمة إلى اللاتينية نقلا عن العبرية مباشرة . وترجمته هى أساس الكتاب المقدس اللاتينى المستعمل اليوم . على أنه لم يستطع أن يكمل الترجمة كلها ، ولذلك نجد اليوم بعض الأسفار فى الكتاب المقدس اللاتينى ـ وخاصة الأبوكريفا ـ لا تنتسب إلى ايرونيموس بل إلى النصوص اللاتينية القديمة .

ويوجد ألوف من مخطوطات العهد القديم فى اللغة اللاتينية يرجع تاريخها إلى القرن السابع ، من أهمها اثنتان وهما :

نسخة كمبلوتنسن — ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع ، ومحفوظة الآن فى مدريد .

نسخة اميتنيوس ويرجع تاريخها إلى القرن الثامن ومحفوظة الان فى فلورنسا .

الترجمات الثانوية :

وهناك ترجمات أخرى تعتبر — مع ما لها من قيمة — ثانوية ، لأنها لم تنقل عن العبرية رأساً بل نقلت عن اليونانية — مثل الترجمة القبطية (القرن الثالث) والاثيوبية (القرن الخامس) والأرمنية (القرن الرابع) .

وينتفع العلماء — رغبة منهم فى الاستيثاق من النصوص الأصلية — بهذه الترجمات كلها التى سبق لنا ذكرها ، ويُرجع إليها المرة تلو الأخرى فى تفاسير أسفار الكتاب المقدس .

وفى صدد ارتقاء معرفتنا بالنصوص العبرية ، لامندحة لنا عن أن نذكر بالفضل إثنين من العلماء البارزين هما : « كنيكوت » وكان أستاذ اللغة العبرية فى جامعة اكسفورد فى القرن الثامن عشر ، ويقال انه أنفق تسعة آلاف جنيه فى أبحاثه فى النصوص والمخطوطات العبرية . والثانى (ده روسى) وهو عالم إيطالى عاش فى نفس الفترة التى عاش فيها العالم الأول . وقد تابع آخرون الأعمال الجليلة التى قام بها ذانك العالمان .

ترجمات العهد الجديد :

كتب العهد الجديد فى الأصل باللغة اليونانية . ولكن لما انتشر الأنجيل فى البلدان التى لم تكن اليونانية لغتها الدارجة ، دعت الضرورة إلى نقل الإنجيل

إلى هذه اللغات المختلفة . ومع أن تلك كانت ترجمات فقط، فإنها صارت فيما بعد ، وخاصة الترجمات الأولى من النصوص اليونانية الصحيحة ، ذات قيمة كبرى فى تعيين النصوص الأصلية . وقد أنتفع واضعو الترجمة الأنـكليزية المنقحة بتلك الترجمات المختلفة . وكذلك انتفع بها العلماء الذين تدين لهم بالفضل جمعية التوراة البريطانية فى وضع النصوص الحالية التى اتخذتها مراجع وأسانيد فى نقل الإنجيل إلى اللغات الحديثة . وقد استعان واضعو الترجمة الرسمية الإنـكليزية والترجمات العربية ببعض تلك الترجمات مثل ترجمة الفولجات اللاتينية . وبين أيدينا ثلاث من ترجمات العهد الجديد فى المرتبة الأولى من الأهمية — هى الترجمات السريانية والقبطية واللاتينية ، وهى ترجمات من الطراز الأول لأنها نقلت عن اليونانية رأساً . وكانت هـــذه اللغات الثلاث مع اليونانية ، اللغات الأربع الأساسية الدارجة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث انتشر الإنجيل إنتشاراً سريعاً فى القرون الأولى .

١ — **الترجمة السريانية** : لا شك فى أن تأسيس الـكنائس المسيحية داخل تخوم سورية قد أعقبه إقبال الجماعات التى انتشرت تلك الـكنائس بين ظهرانيها على قراءة الأسفار المسيحية المقدسة بلغتها الوطنية السريانية ، وهى لغة أساسية تمت إلى العبرانية بصلة . ويظن أن العهد الجديد ترجم إلى اللغة السريانية فى أوائل القرن الثالث . ولـكن لم يبق شىء من آثار هذه الترجمة . وأقدم ترجمة لبشائر الإنجيل باللغة السريانية هى إنجيل مركب (أى مكتوب بلغتين) منقول عن اليونانية ويقتصر على البشائر الأربع فقط . وقد ترجمه شخص يدعى «تاتيان» ولـكن الأساقفة بذلوا فى القرن الخامس جهوداً مستميتة للتخلص من هذه الترجمة . والظاهر أنهم أفلحوا فى هذه الجهود ، لأن كل آثار هذه الترجمة السريانية التى استندت إلى ترجمات أسبق منها فى التاريخ ، قد اندثرت تماما . والمعروف أنه لم يوقف لها على أثر حتى اليوم . على أنه بقيت من هـذا الإنجيل

المركب ترجمات فى اللغات العربية والأرمنية واللاتينية وقطعة يونانية ، يرجع تاريخها إلى سنة ٢٣٠ ب . م . وقد عثر عليها فى سنة ١٩٣٣ .

ومرة أخرى نحن مدينون لمصر فى صيانة أقدم مخطوطة سريانية لبشائر الإنجيل . ففى سنة ١٨٤٢ — ٤٧ كُشف فى دير القديسة مريم دبارة بصحراء وادى النطرون عن مخطوطة يرجع تاريخها إلى سنة ٤٥٠ ب.م. وتعرف المخطوطة بالنسخة السريانية الكيروتينية، نسبة إلى مكتشفها كيريتون، وهى الآن محفوظة بالمتحف البريطانى. وفى سنة ١٨٩٢ كشفت مخطوطة سريانية أخرى فى دير جبل سيناء حيث لا تزال باقية حتى اليوم، ولذلك تسمى المخطوطة السيناوية السريانية ، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع . وهاتان المخطوطتان للبشائر الأربع ، وإن كانتا غير كاملتين ، تقدمان لنا نصوص البشائر كما عرفتها الكنيسة السريانية الأولى . وفى خلال القرن الرابع تمت ترجمة كاملة شاملة للإنجيل كله فى اللغة السريانية ، وقد جمعت من الترجمات التى أشرنا إليها الآن والنصوص اليونانية ، وأطلق على هذه الترجمة إسم « بيشتو » . وصارت هذه الترجمة فيما بعد أساساً للترجمات السريانية اللاحقة التى تختلف عنها إختلافا بسيطا . وتوجد مخطوطات عدة باقية حتى الآن يرجع تاريخها إلى القرن الخامس . والمعتقد أن هذه الترجمة السريانية كان لها بعض الأثر فى النصوص اليونانية للبشائر وسفر الأعمال ، بمعنى أنه قد استعان بها كتّاب المخطوطات اليونانية فى القرنين الرابع والخامس.

٢ — **الترجمة القبطية** : سمعنا كلنا تلك القصة التقليدية المتواترة عن إهتداء القديس أنطونيوس وهو شاب ما يزال ، على أثر سماعه قراءة الإنجيل بالقبطية حوالى سنة ٢٧٠ ب . م . ولا بد أن العهد الجديد قد ترجم إلى لغة البلاد فى تاريخ متقدم حوالى أواخر القرن الثالث ، ولو أن اليونانية كانت ذائعة فى ذلك الزمن وخاصة فى منطقة الدلتا . وبين مخلفات الآداب القديمة

ما يزال بين أيدينا لهجات قبطية عديدة ،ويمكن تقسيم ترجمات أسفار الكتاب المقدس بالقبطية إلى ثلاث فئات :

(ا) — **الصعيدية** : وهى لهجة مصر العليا ، ويرجع تاريخ المخطوطات بهذه اللهجة إلى القـــرن الخامس وربما الرابع ، وتشمل أجزاء كثيرة من العهد الجديد .

(ب) — **البحيرية** : وهذه لهجة مصر السفلى ، وقد ظفرت هـذه اللهجة بالسيادة فوق سائر اللهجات بسبب كمالها الفنى . وأقدم مخطوطة يوثق بها بهذه اللهجة يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر ، ولو أن هناك أجزاء عدة مبعثرة يرجع تاريخها إلى القرن السادس . وهذه النهجة البحيرية الوحيدة بين اللهجات القبطية كلها التى تحتفظ بنسخة كاملة من العهد الجديد . ومن الشيق أن نلحظ هنا أن سفر الرؤيا ليس جزءاً من هذه المخطوطة الشاملة لأسفار العهد الجديد كلها.

(ج) **مصر الوسطى** : توجد مخطوطات بهذه اللهجة التى يتكلم بها أهل الفيوم . ولـكن العلماء لم يبذلوا بعد العناية فى تبويبها وتنسيقها .

٣ — **الترجمة اللاتينية** : يطلق على الترجمة التى تستعملها الـكنائس الناطقة باللاتينية فى الغرب « الفولجات » وهى من آثار القديس ايرونيموس (٣٨٣ ب.م.) والمقدر أن هناك حوالى ٨٠٠٠ مخطوطة من الفولجات . ولـكن قبل أن توضع هذه الترجمة الأساسية بزمن طويل ، ظهرت ترجمات أخرى للعهد الجديد ، وقد عرفت هذه فى التاريخ بالمخطوطات اللاتينية القديمة . ويوجد اليوم حوالى أربعين مخطوطة للإنجيل باللغة اللاتينية القديمة ، يرجع تاريخ بعضها إلى القرن الرابع ، ولا شك أنه كانت هناك نسخ أخرى كثيرة ضاعت وأهملت بعد أن تفوقت مخطوطة الفولجات الحديثة ،وفازت بقصب السبق على المخطوطات كلها . وقـــد شهد القرن السادس ما يكاد يكون إجماعاً من جانب زعماء

الكنيسة الغربية — ما عدا إفريقية — فى اختيار مخطوطة الفولجات . على أن استعمال مخطوطات اللاتينية القديمة لم يبطل تماماً إلا فى القرن السادس عشر ، حينما أذنت رومية بنشر مخطوطة لاتينية حديثة « فولجات ». وما تزال مخطوطة سنة ١٥٩٢ الترجمة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية . والذى دفع القديس ايرونيموس إلى إخراج ترجمته اللاتينية إنما هو تلك الفوارق التى كانت شائعة فى الترجمات اللاتينية القديمة لدى مقارنتها بالمخطوطات اليونانية . ولم يرحب القوم فى بادىء الأمر بترجمة أيرونيموس وحسبوها ثورية مهرطقة ، ولكن ايرونيموس أصرّ على أنه ، لا التعلق بالترجمات القديمة ولا التشبث بالعاطفة ، يصح أن يكونا حجة للاحتفاظ بكتاب مقدس به كثير من الأخطاء ، وأن أكثر الترجمات قدسية يجب أن تخلى الطريق لغيرها ، متى كانت تلك الترجمات مخالفة للأصل والنصوص الصحيحة .

ترجمات ثانوية :

وفى سبيل الوصول إلى أفضل النصوص وأصحها للكتاب المقدس ، استعان العلماء بترجمات أخرى قيل عنها ثانوية — وهى ترجمات نقلت إما عن الترجمات الأساسية الكبرى التى أشرنا إليها من قبل ، وإما عن بعض النصوص اليونانية المتأخرة. فالترجمات الأرمنية القديمة مثلا تبين لنا أنها نقلت عن السريانية القديمة ، كما نقلت عن النصوص اليونانية . وليس فى الأمر غرابة إذا عرفنا أن الأرمن اهتدوا إلى المسيحية بفضل جهود السريان المسيحيين . وأنه لشيِّق أن نعرف هنا أن المخطوطات الأرمنية القديمة للبشائر ينقصها عادة خاتمة بشارة مرقس ، وحتى المخطوطات التى توجد بها هذه الخاتمة ، تضع فاصلا بعد الآية الثامنة . كذلك نقلت الترجمة الأثيوبية القديمة للبشائر عن السريانية القديمة ، ولكن الترجمة الشائعة الآن نقلت عن اليونانية . وتوجد أيضاً ترجمات ثانوية أخرى عديدة مثل العربية ، والفارسية ، والصقلبية ، والأنجلوسكسونية .

مقتبسات :

ومن المصادر القيِّمة فى تحقيق نصوص الكتاب المقدس القديمة ، الإقتباسات الواردة فى كتابات القديسين والعلماء فى تاريخ الكنيسة الأولى من القرن الثانى إلى الخامس . والذى نراه اليوم فى الكتب الدينية أن الكتّاب كثيراً ما يقتبسون الآيات والفقرات من الكتاب المقدس . وهذه عادة قديمة أيضاً ، جرى عليها الكتَّاب الأولون فى تاريخ الكنيسة ، وما يزال كثير من هذه المقتبسات مدخراً فى المخطوطات التى يرجع تاريخها إلى عصور بعيدة . فمثلا قد وجد الباحثون الذين عثروا على المخطوطة العظيمة للعهد الجديد فى دير سيناء ، أنه مجلد مع تلك المخطوطة فى غلاف واحد ، مخطوطة تعرف برسالة برنابا ، يظن أنها كتبت أصلا فى القرن الأول . وفى هذه الرسالة قد خطَّت أنامل الكاتب اقتباسات من أقوال ربنا . كذلك نجد فى الكتب التى كتبها أعلام المسيحية الأولون أمثال ترتوليانوس وكبريانوس وأورانيوس ويوسيبيوس وغيرهم ، اقتباسات من العهد الجديد . ويشير العلماء فى هذا العصر إلى هذه المقتبسات حين يوازنون بين نصوص الكتاب المقدس الصحيحة ، ويعزون إليها قيمة كبرى . على أنهم فى الإستعانة بهذه المقتبسات يلتزمون دائماً جانب الحرص والحذر . ويضيق المجال هنا عن التبسط فى هذه التفاصيل ، ولكننا نورد هنا شاهدا واحداً لإيضاح ما نقول : حينما يشرع كاتب فى وضع كتاب ، ويريد أن يقتبس شيئاً من الكتاب المقدس ، فإنه يفعل ذلك عادة من وعى الذاكرة . ويكون اقتباسه صحيحاً فى أغلب الأحوال ، ولكن الإقتباسات المنقولة عن الذاكرة ، وخاصة إذا كانت الآية طويلة ، لا يُعتمد عليها دائماً . وهناك أدلة كثيرة تبين أن الآباء الأولين اقتبسوا من الذاكرة فى غير حرص وتدقيق .

العهد القديم

لمحة تاريخية

لا يمكن دراسة العهد القديم فى عزلة ، ولا نقدر أن نفهمه إلا فى ضوء العهد الجديد الذى يكمله . وإله الأسفار المقدسة هو دائماً الإله الحىّ ، ولذلك هو يعلن ذاته فى أعماله . وفى هذا الباب سنحاول أن نرسم صورة لقصد الله وصفاته فى الوحى « الله الذى . . . بأنواع وطرق كثيرة كلّم الآباء بالأنبياء » . والله هو الخالق صانع الكون ، وهو فى الوقت عينه المخلِّص الفادى الذى يعمل فى دينونة مقدسة ، وفى رحمة منقذة لافتداء البشر من الخطية ، وجذبهم إليه بقوة المحبة للاتصال به . وكان قصد الله منذ الأزل أن يخلق لنفسه شعباً مقدساً . وقد تمّ هذا على مراحل وأطوار متعاقبة فى التاريخ ، فدعا رجلا ، ثم أسرة ، ثم أمة ، ثم بقية راشدة من هذه الأمة الشاردة ، وخُلقت هذه البقية الراشدة خلقاً جديداً بالمسيح الذى كان ذروة لكل مراحل العهد القديم « أنتم جنس مختار . وكهنوت ملوكى . أمة مقدسة شعب اقتناء . . . » (١ بطرس ٢ : ٩) .

تاريخ الآباء :

يستهل العهد القديم بوصف رائع لخلق الكون . فالإنسان خُلق على صورة الله كذروة لعمل الخليقة . وسفر التكوين — كما يفهم من اسمه — هو سفر الأصول . ويرسم لنا بريشة روائية قصة تجربة الإنسان وسقوطه ، ودخول الخطية والموت ، والإباحية والفساد ، ثم ينتهى الأمر بحتمية الدينونة فى الطوفان . وتمثل لنا قصة نوح أن الطاعة هى السبيل إلى الخلاص ، وأن الإيمان هو العاصم للحياة . « بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تُرَ بعد ، خاف فبنى فلكا لخلاص بيته » (عبرانيين ١١ : ٧) .

ومن الأحداث الهامة فى التاريخ دعوة أبرام من أور الكلدانيين ، وهى مدينة كشف عنها المنقبون من علماء الآثار . وحوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . يرحل أبرام — بناء على دعوة من الله — إلى حاران ومنها إلى كنعان ، يعيش حياة البداوة ويرعى الأغنام والماشية . وقد كانت تلك الدعوة ذات خطورة بالغة ، وذلك لأنها كانت تدبيراً من الله لنقل قبيلة من ظلمة الوثنية . وفى قصة رحلات إبراهيم تصطدم روايات السفر المقدس بمدونات التاريخ العالمى المعاصر . ولكن الكتاب المقدس لم يُعنَ بالتاريخ من حيث هو ، بل عُنى بقصد الله ليخلق لنفسه شعباً خاصاً .

سفر الخروج :

ويفتتح سفر الخروج بترويض موسى وتدريبه ليكون منقذاً لشعبه من عبودية مصر . وكان العبرانيون قد دخلوا وادى النيل الخصيب هرباً من مجاعة ساحقة فى كنعان . ولكن لما تغيرت الأسر الحاكمة فى مصر ، آل بهم الأمر إلى أن يكونوا عبيداً مسخَّرين ، فكان موسى الأداة المختارة لإنقاذهم من هذه العبودية . ولما هربوا اتجهوا إلى جبل سيناء ، وهنا أبرم بينهم وبين

الله « عهد » . ولم يكن مردُّ ذلك كله إلى تفوق أدبى أو مادى فى ذلك الشعب على غيره من الشعوب ، إنما كان فضلا من الله ورحمة . والنعمة التى لا يستحقها الإنسان تفرض على آخذها امتنانا وعرفانا بالجميل ، ولكن هذا الشعب فى تاريخه الطويل قد أثبت صلابة فى الرقبة وإنكارا لفضل الله عليه .

وكان موسى نبياً ومشرعاً، وكليما لله ، بينما احتل هارون وظيفة الكهنوت. وبعد موت موسى تولىَّ يشوع زعامة الشعب . ولما دخل الشعب أرض كنعان استقر الأسباط العشرة فى مواضع مختلفة ، ولكن ظلّ مقامهم مزعزعاً وإحساسهم بالولاء الجماعى مضعضعا ، وقد عاقبهم الله جزاء عصيانهم بالعبودية . ولما صرخوا تائبين أقام لهم الله قضاة يحكمونهم .

عهد الملكية :

كان صموئيل آخر « القضاة » . وقد اجتمعت فى شخصه وظائف القيادة الحربية ، والنبوة ، والكهنوت . ولكن بقيام عهد الملكية ، انتهى النظام الثيوقراطى . وانفصلت الزعامة الدينية عن الزعامة المدنية ، نظريا لا عمليا . وقد مسح النبى صموئيل شاول ملكا ، واستقل هو بالواجبات الكهنوتية والنبوية . ولكن تحطمت هذه الزعامة المزدوجة حين اعتدى شاول على الوظائف الكهنوتية وعصا شرائع الله . وهنا يُستدعى داود ، وهو شاب من رعاة بيت لحم ، ليمسح ملكا ويتولى الزعامة المدنية . أما شاول ، وقد بعد عن الله وتنكر لوصاياه، فإنه يموت شر ميتة فى معركة من معارك الحرب .

وقد جابه داود فى أول عهده تفككا بين القبائل والأسباط ، ولكنه أفلح بدهائه الحربى وسياسته السلمية فى جمع كلمة رجال القبائل وتوطيد دعائم ملكه فى عاصمته الجديدة .

وخلف سليمان داود أباه على العرش ، وقد أُوكل إليه بناء الهيكل ،

وامتاز عهده بالرقى والرخاء ، وسعة النفوذ والسلطان ، وبناء العمائر الضخمة إلى جانب الهيكل ، وتوسيع نطاق التجارة الداخلية . على أن هـذا النجاح المادى استند إلى أسس فاسدة ودعائم منهارة . ذلك لأن إباحية سليمان وفساده وولعه بالنساء ، قد ساقته إلى التزوج من نساء أجنبيات اللواتى حملن معهن آلهتهن الوثنية . كما أن مشاريعه العمرانية الباهظة قد استوجبت السخرة ، واعنات الكادحين ، وخلق التذمر الاجتماعى . وما لبثت أن ولدت هذه كلها نتائجها الحتمية .

المملكة المنقسمة :

عند موت سليمان سنة ٩٣٧ ق . م . أبدت الأسباط الشمالية العشرة امتعاضها وتذمرها . وخضع ولده رحبعام لنصح الحمقى المتزمتين ، وأبى النزول عن عجرفته الملكية ، فثارت القبائل الشمالية تحت يربعام . ولم تعش المملكة غير ثلاثة أجيال . وظلّت المملكتان — فى الشمال والجنوب — منفصلتين يحكمهما ملوك غير أهل للملك ، وتورطوا فى سياسة العداء تارة والمصالحة أخرى مع ملوك الشرق الأوسط ، واندمجوا فى منافساتهم الحربية ، وهم الشعب الصغير الضعيف . وكان موقع البلاد الجغرافى مساراً لجيوش الامبراطوريات المتطاحنة فى ذلك الزمن ، فاصابت البلاد ويلات الحروب والخراب . وفى تلك الفترة قام أنبياء يدعون الشعب إلى التمسك برسالتهم الاصلية وعدم التورط فى السياسات العالمية ، ولكن الانتهازية والمصالح الخاصة غلبت كل موحيات الحق والعقل حتى فاض كأس الاثم والشر .

مملكة الشمال

وقعت فى مملكة الشمال انقلابات عسكرية عجّلت يوم الدمار . ففى عهد آخاب الملك كان النبى إيليا يباشر وظيفة النبوة . وفى موقعة مأثورة فوق جبل الكرمل زكى الله نبيّه يوم أهلك أنبياء البعل . على أن الملك لم يرعو عن غيّه

وأمر ايليا النبي أن يمسح «ياهو» على عرش آخاب المرتد. وقد خلعت عباءة ايليا على أليشع الذى جابه المشاكل الدينية عينها الحافلة بالاثم وعبادة الأوثان . وفى سنة ٧٨٣ ق . م . اعتلى يربعام الثانى العرش ، وبدأ حكما زاهراً اقترن بالعظمة الحربية والرخاء التجارى . ولكن هذا النجاح الظاهرى اقترن بالفساد ينخر فى داخله، وحرمان الفقراء من مقومات العيش. وبذخ الأغنياء واعناتهم للكادحين. وقد تصايحت الأصوات الغاضبة . وهنا يصعد عاموس النبي الريفي من مملكة الجنوب ليرعد ويزبد ضد مظالم الشمال . وهو قد تلقى دعوة من الله . وفى هذا يقول : « لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبيّ . بل راع وجانى جميز .. فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبى » .

ولكن على الرغم من التهديد والوعيد والدعوة إلى التوبة ، بقى الشعب متعلقاً بأهداب الدين الرسمى الذى لا روح فيه، واستمر الفساد والانهيار إلى أن غزا الاشوريون البلاد واستولوا على السامرة عاصمة مملكة الشمال سنة ٧٢١ ق . م . وحملوا أبناء الشعب أسرى مسبيين إلى وطن غريب ، كما جرت عادة ذلك الزمان .

مملكة الجنوب

ولم تكن الحالة فى مملكة الجنوب تختلف كثيراً عن مملكة الشمال ، ولو أن القضاء المحتوم قد أمهلهم فترة من زمن . ذلك لأن رخاء مملكة الشمال تحت حكم يربعام الثانى واكبه رخاء مثله فى الجنوب تحت حكم عزّيا ، وفى السنة التى مات فيها عزّيا رأى اشعياء النبي رؤياه عن الاله القدوس ، وغمره احساس طاغ بذنبه وذنب شعبه . وإذ يطهر بالنعمة الإلهية ، يتسمع دعوة للخدمة . وقد نبعت رسالته من احساسه الداخلى حين رأى الشعب كله ممعنا فى الفساد ، وحين أحسّ أن التوبة والغفران هما الملاذ الوحيد للنجاة والخلاص . ويناشد

الأمة فى ميدان السياسة أن تلتزم الحياة التام ، وتبتعد عن المحالفات العسكرية والتكتلات السياسية ، وتلقى اتكالها واعتمادها على الله وحده .

وفى عهد الملك حزقيا هاجم جيش الأشوريين تحت سنحاريب مدينة أورشليم عاصمة مملكة الجنوب . ولكن هذا الملك ألقى كل اتكاله على الله . وقدزكى الله موقفه هذا، فارتد جيش الأشوريين خاسئاً مدحوراً . والظاهر إن موجة من الأمراض الفتاكة كانت قد فتكت بذلك الجيش . على أن الشعب ظلّ ممعناً فى عصيانه راغباً عن التوبة. وأخيرا رأى اشعياء النبي أنه لامناص الآن من دينونة النار والدماء لتنقية بقية صالحة من هذا الشعب العنيد ، وانه لامناص من السبى والتشريد لكى يسترجع الشعب وعيه ، ويعدل عن عبادة الأصنام ، ويفلت من حبائل الخطية والاثم .

وفيما عدا فترات متقطعة من الإصلاح فى عهد الملك يوشيا ، ظلّت العهود الأخرى سادرة فى غيها ، متعلقة بالأصنام، ممعنة فى الفساد . وفى عهد الملك يوشيا (٦٣٧—٦٠٨ ق . م) أُكتشف « سفر الشريعة » أثناء ترميم الهيكل . وقد تضمن هذا السفر – على مايظهر — تعليمات سفر التثنية عن العبادة ، وأعقب ذلك فترة من الصحو الدينى لم تدم طويلا، وذلك لأن الملك يوشيا قتل فى معركة مجدو وهو يحارب المصريين . وتمادى الشعب فى غيّه . وفى هذه الفترة يظهر النبيّ ارمياء فى أورشليم منادياً بدعوته ، معلنا رسالته ، وهى أن عبادة الاصنام تنطوى على شرين : هما الإبتعاد عن الإله الحقيقى ، والسير وراء آلهة كاذبة . وكانت شكاة الله على لسان أرمياء « شعبى عمل شرين ، تركونى أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لنفسهم آبارا مشققة لاتضبط ماء » . ورأى النبى من بعيد شبح الدينونة الرهيب ، والسبى المتوقع إلى بابل مدة سبعين عاما ، ولكنه رأى إيضاً انه فى أتون النار ستصهر بقية ، وتعود بقلب جديد لتعبد الإله الحىّ .

وقد حلّ المصير المحتوم بمملكة يهوذا فى الجنوب سراعاً . ذلك لأن ملكها قام بثورة يائسة ضد عاهل بابل ، فسار نبوخذ نصر بجيشه ليهدم مدينة أورشليم ويدمرها تدميراً سنة ٥٨٦ ق.م. وقلع عينى صدقيا الملك ، وحمله أسيراً مسبياً هو وخيرة أبناء الشعب وأعيانه إلى مدينة بابل .

السبى :

وفى خلال فترة السبى ظهر النبى حزقيال ، وراح يعلل مشيئة الله ويشرحها للشعب الذى كان يجلس على ضفاف بابل ، ويبكى وينوح ولسان حاله يقول :

على أنهار بابل قد جلسنا ونحنا إذ تذكرنا الربوعا
وعلقنا على الاعواد فيها قياثيرا تثير بنا الدموعا

وأعلن لهم النبىّ أنه بعد أن يهدأ غضب الله وسخطه ، تعود بقية بروح جديد وإيمان جديد ، وحثّ الشعب على أن يستسلم لقضاء الله العادل ويعيش فى سلام وهدوء إلى أن تزول الغمّة . وقد أشار سفر النبى دانيال بما حوى من روايات وقصص تنم عن الولاء لله إلى هذه الفترة من التاريخ. وفى السبى ظهر نوع جديد من أنواع العبادة ، فإنه بعد زوال الهيكل وتدميره ، عاد الشعب إلى عبادة الله فى صلوات وقراءة التوراة ، وكان هذا تطوراً نشأ عنه العبادة فى « المجمع » ، الذى كان له شأن خطير فى التاريخ اللاحق .

العود :

استولى داريوس ملك الكلدانيين على بابل . وكانت سياسته أن يمنح تسهيلاً للأسرى المسبيين فى بابل ، ليعودوا إلى أوطانهم . ولذلك صدر قرار فى سنة ٥٣٧ ق.م. يسمح للشعب المسبى أن يعود إلى وطنه . وكان مشهد العود مشحوناً بالأسى والخوف وخيبة الأمل . وهنا يظهر النبيان حجى وزكريا ليقويا الشعب ويرفعا روحه المعنوية ، ويشجعاه على إعادة بناء الهيكل الثانى ، الذى وضعت أساساته فى سنة ٥٢٠ ق. م . تحت زعامة عزرا الكاهن ونحميا

النبي . وهنا تتحد الكنيسة بالدولة ، وتعود إلى القانون كرامته ، وتبنى أسوار أورشليم .

من ثمّ نرى النبي والكاهن والسياسي يجتمعون معاً فى إطار واحد فى هذه الفترة من التاريخ لمنع الجور والاعتساف ، والتشديد على الطهر الأخلاقى والطهر الطقسى. ويصدر قانون بحلّ الزيجات المختلطة ، ومنع الربا والحلف، ومراعاة السبت وسائر أحكام الدين . ونظر الأنبياء من بعيد إلى يوم يفتح فيه ينبوع « بيت داود ولسكان أورشليم للخطية وللنجاسة » (زكريا ١٣ : ١) يوم « يكون على أجراس الخيل ، قدس للرب » (زكريا ١٤ : ٢٠)

وتختتم أسفار العهد القديم القانونية بنداء حار من ملاخى النبى يوجهه للكهنة والشعب على السواء قائلاً لهم :

« لكم أيها المتقون إسمى ،تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها » . وقد أشرق عليهم « شمس البر » بعد ذلك ، ولكنهم حجبوا نوره بأيديهم ، وأعمو ابصائرهم ، وما كانوا من المتّقين .

أسفار العهد القديم

ألقينا فى الفصول السابقة نظرات عجلى على الكتاب المقدس وطريقة كتابته ، وترجماته . وعلينا بعد ذلك أن نعالج فى إيجاز أسفار الكتاب واحداً واحداً لإعطاء فكرة عامة مختصرة عن تاريخ كل سفر وكاتبه ومحتوياته ورسالته . وفى المائة سنة الأخيرة ظهر فى عالم الأدب المسيحى مؤلفات كثيرة عن أسفار الكتاب المقدس تتسم بشىء من التناقض فى التفكير والإستنتاج . على أن يقيننا — بعد كل هذه الدراسات والبحوث — قد زاد رسوخاً بأن الله هو كاتب الكتاب المقدس ، بكل أسفاره وأجزائه ، وإن اختلفت آراؤنا فى أشخاص الكاتبين والطريقة التى اتبعوها فى كتاباتهم . وليس هنا مجال للأسف أو التأسي ، ما دمنا نؤمن أن لدينا كلمة الله الحقة . أما فكرتنا عن الأداة التى استخدمها الله لنقل كلمته إلينا فليست بذات بال . وحين يبعث إلينا صديق ما برسالة ، فإننا قد نعير إهتماماً للقلم الذى خطَّه بها ، أو الأسلوب الذى صاغه بها ، ولكن الأهم من كل هذا فى نظرنا هى الأفكار والرغبات التى أبداها ذلك الصديق فى رسالته .

ويجمل بنا فى مستهل هذا الحديث أن نكوِّن فكرة عن الترتيب الذى وضعت به أسفار الكتاب ، ذلك لأن الترتيب اليهودى فى كتابهم المقدس يختلف عن الترتيب الذى وضعه المسيحيون فى كتابهم . وفى ترتيب الكتاب اليهودى راعى يهود فلسطين التسلسل التاريخى للاسفار وأزمنتها التاريخية . وقسموا كتابهم ثلاثة أقسام : أسفار الشريعة . الأنبياء . الكتابات . أما يهود الإسكندرية فقد وضعوا الكتاب المقدس اليونانى فى ترتيب يختلف . وقد استخدمت الكنيسة المسيحية اللغة اليونانية ، لا العبرية ، ولذلك كان طبيعياً أن يتبعوا الترتيب الإسكندرى ، لا الترتيب الفلسطينى .

وهناك أسفار غير قانونية (أبو كريفا) نجدها فى الكتاب المقدس الذى تستخدمه الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية . أما الكنيسة البروتستانتية فقد احتفظت فقط بالأسفار التى ضمها الكتاب المقدس العبرى . ووضعت هذه الكنيسة أسفار الأبوكريفا فى مجلد خاص ، ولو أنها تضع الأسفار حسب الترتيب اليونانى لا العبرى . ويميل البروتستانت إلى الإعتقاد بأن أسفار الأبوكريفا لا تستند إلى الدعائم القانونية التى تدعم الأسفار القانونية ، ولو أنهم يستعملونها كمراجع تاريخية وتعاليم نافعة للسلوك القديم . وعندنا أن الترتيب الفلسطينى هو أبسط الإثنين — وهو .

اولا — أسفار الشريعة (الخمسة) .

تكوين

خروج

لاويين

عدد

تثنية

ثانيا — الانبياء

١ — الأنبياء المتقدمون

يشوع

القضاة

صموئيل الأول والثانى

الملوك الأول والثانى

٢ — الأنبياء المتأخرون

اشعياء

أرميـــــاء

حزقيال

كتاب الاثنى عشر وهو يشمل :

ناحوم	يونان
حبقوق	ميخا
هوشع	صفنيا
يوئيل	حجى
عاموس	زكريا
عوبديا	ملاخى

ثالثا — الكتابات

المزامير

الأمثال

أيوب

الأسفار الخمسة

نشيد الأنشاد

المراثى

راعوث

استير

الجامعة

دانيال

عزار ونحميا

الأيام الاولى والثانية

وسنتبع هذا النظام فى دراسة الأسفار على التوالى .

أولا : الأسفار الخمسة

كان طبيعياً أن يميل اليهود إلى إرجاع الفضل فى شرائعهم ونظمهم إلى الزعيم الذى حسبوه أعلى سلطة فى تاريخهم المبكر . ولذلك كان طبيعياً أن يعتقدوا اعتقاداً راسخا بأن موسى هو كاتب الأسفار الخمسة، وأن الله أنزل عليهم الشريعة عن طريقه . ولما تناول المسيحيون العهد القديم من اليهود ، أخذوا عنهم فى الوقت عينه نظريتهم عن الأداة التى كتبت بها أسفارهم ، وظلت هذه النظرية قائمة أجيالا طويلة لم يتعرض لها أحد . وما يزال فريق من المسيحيين معتصماً بها ، مؤيدا أن موسى هو كاتب الأسفار الخمسة .

على أنه فى خلال المائة سنة الأخيرة توسع العلماء فى البحث والاستقصاء وأثبتوا خطأ هذه النظرية . وبينما يسلّـمون أن الله هو فى الواقع موحى هذه الأسفار ، إلا أنهم يعتقدون أن بعض أجزائها يرجع تاريخه إلى أزمنة مختلفة وعصور متأخرة . ويقول الباحثون والعلماء ان ثلاثة أسفار منها ـ هى التكوين والخروج والعدد ـ تضمنت ثلاثة أنواع من الكتابات ، ونجد أحيانا بيانين مختلفين عن حادثة واحدة ، كما جاء فى الاصحاح الأول والثانى من سفر التكوين مثلا . وأحيانا نجد بيانين ممتزجين معاً ، أو آيتين تتداخل إحداهما فى الأخرى. فمثلا فى قصة الطوفان جاء فى الآية (٦ : ١٩) أن نوحا أخذ أثنين من كل حيٍّ من كل ذى جسد ، بينما جاء فى الآية (٧ : ٢) أنه أخذ سبعة من جميع البهائم الطاهرة واثنين فقط من غيرها . ولذلك يذهب العلماء إلى أن كاتبا واحد لا يكتب هذه الأرقام التى يختلف بعضها عن بعض . ويظنون أننا هنا أمام قصتين مختلفتين عن حادثة واحدة ، جمعها كاتب متأخر وصاغهما فى قصة واحدة .

كذلك ذكر فى سفر التكوين (ص٣٧)« المديانيون والاسماعيليون » فى آية

٢٨ فى صدد الحديث عن بيع يوسف عبدا أسيرا إلى مصر ، بينما جاء فى الآية ٣٦ أن المديانيين هم الذين باعوه إلى مصر ، وفى الآية (٣٩ : ١) جاء أن اسماعيليين هم الذين باعوه . ونرانا هنا أمام بيانات مختلفة صيغت كلها فى قالب قصة واحدة .

وفى سفر التكوين أيضاً (ص ١ و ٢) نجد قصتين عن الخلق ، تمثل إحداهما الفكر الإنسانى فى طور البداءة ، وتمثل الأخرى الفكر الإنسانى بعد أن نال قسطا من النضوج فى معرفة الله. الأولى للأطفال ، والثانية للبالغين . ولكن القصتين تعلنان حقا واحدا ، هو أن الله خلق العالمين وصنع الخليقة كلها . ويقول العلماء ان القصتين ترجعان إلى زمنين مختلفين ، وقد تكون الأولى متأخرة عن الثانية مئات من السنين .

وليس القصد من هذا الكتاب دراسة النصوص وتحليلها . لذلك نكتفى بهذه الأمثلة لنثبت أن هذه الأسفار كتبت فى أزمنه مختلفة ،وبأكثر من يذ واحدة . ومهما يكن من أمر فان هذه الحقيقة التاريخية لا علاقة بها بصدق الوحى. وأولئك الكتّاب الذين نجهل اسماءهم قد تلقوّا وحيا من الله تحت إرشاد الروح القدس وسلطانه ،دروا أو لم يدروا .

سفر التكوين

قلنا فى الفصل السابق ان هناك رأيين عن كاتب هذا السفر ، يقول أحدهما ان موسى هو كاتبه، وقد استقى معلوماته طبعاً من مصادر قديمة كان كثير منها روايات تناقلها الأبناء عن الآباء والأجداد ، كما كان الحال فى الأمم المتحضرة فى العهد القديم . أما الرأى الثانى فهو يقول ان دراسة النصوص تدل على أن هذا السفر كتبته أكثر من يد واحدة ، ويرجع تاريخه إلى عصور متأخرة بعد عصر موسى. ومن المؤكد أن الفصول الأولى من هذا السفر تبدى آثاراً بابلية ، كما أن السفر كله يعجّ بالمؤثرات المصرية القديمة .

تحليل الفصول :

ص ١ — ٥ الخلق والعهد الأول للجنس البشرى .

٦ — ٩ الطوفان .

١٠ — ١١ أصول الأمم والشعوب .

١٢ — ٢٣ حياة إبرهيم .

٢٤ — ٢٦ حياة إسحق .

٢٧ — ٣٦ حياة يعقوب .

٣٧ — ٥٠ الأيام الأخيرة من حياة يعقوب وسيرة يوسف .

ويمتاز سفر التكوين بخاصّية يشترك معه فيها سائر أسفار كتابنا المقدس ، وهى أن الروايات التى تضمنها لم تُنتخب لأهميتها السياسية أو قيمتها التاريخية ، إنما انتخبت لتظهر الملأ قصد الله نحو الإنسان وعلاقته بالجنس البشرى والمصير الذى أعدّه له . ففى البدء قيل لنا ان الله خلق الإنسان على صورته .

وذلك لكى يسكن العالم بشر يسيرون فى طرق الله ، ثم أعقب ذلك دخول الخطية ودينونة الطوفان . على أنه فى وسط الشر والدمامة ، يظهر رجال أتقياء يسيرون مع الله مثل أخنوخ ونوح الذى أُستنقذ فى الفلك من هلاك الطوفان .

الخليقـــة :

ذكرت قصة الخليقة فى بيانين متتابعين (١ : ١ — ١١ و ٢ : ٤ — ٢٥). والبيان الأول كونى عالمى متأثر بالقصة المصرية، بدليل ذكر التنانين العظام (أى التماسيح) فى أية ٢١ . أما البيان الثانى فيقدم قصة بدائية للتاريخ الإنسانى فى طوره الأول من وجهة نظر آدم . والبيان الأول أُعطى للانسان بعد أن بلغ طور النضوج النسبى ، وهو يتفق إلى حدّ ما مع كشوف العلم، مثل ذكر النور قبل كل شىء آخر . كما أن ظهور المياه واليابسة والنباتات والحياة المائية والمخلوقات الطائرة والحيوانات والإنسان — على التتابع — تتفق مع مبادىء علم الجيولوجيا .

ولم يُقصد من هذا البيان أن يكون حجة للعلماء ، ولا مصدراً للبحث العلمى . ويقال انه مستقى من قصص بابلية حوّرها الكاتب ونسقها بوحى من روح الله .

ولا نقبل أن يكون « اليوم » ميقاتاً زمنياً ، كما نفهمه حسب التوقيت العصرى ، بل قد تمثل الأيام السبعة أطواراً متتابعة من معلنات الله ، أو فترات من الزمن . والحكمة المستقاة من هذا الفصل هى أن الله هو الخالق والصانع لكل الأشياء الذى جبل الإنسان على صورته .

الانسال والانساب :

فى الفصل الخامس من هذا السفر بيان بالانسال والانساب . وهنا يحق لنا أن نسأل ما مصدر هذه الأنسال ؟ لا نظن أن هذه ابتكرها خيال الكاتب .

ولا بد أن تكون مستقاة من مصادر صحيحة . وقد أجمع جمهرة العلماء على هذا الرأى . على أنها لا يمكن أن تؤخذ سنداً تاريخياً لإثبات التواريخ ، إنما هدفها هو تلقين دروس روحية ، ومن هذه الدروس أمانة الله لورثة الوعد . ولوقا يسلسل نسب المسيح الطبيعى إلى آدم الإنسان الأول . بينما يسلسله متى إلى إبرهيم . وفى التسلسل الأخير حذفت بعض الأسماء ، ربما لكى تكوّن ثلاث مجاميع ، كلٌ منها أربعة عشر إسماً . ولعل الأسماء المذكورة فى الفصل الخامس من سفر التكوين تمثل فقط مشاهير الرجال ليس إلا .

ابرهيم :

فى الأصحاح العاشر يروى السفر أصل بعض الشعوب والأمم . والاصحاحان العاشر والحادى عشر لا يُحسبان قَصصاً شعبياً ، ولا بحثاً علمياً . إنما هما يقومان مقام الصلة بين نوح وإبرهيم وقد يكون لهما سند تاريخى صحيح . وبعد ذلك ينتقل الكاتب من قصة الأمم إلى قصة إبرهيم وهجرته إلى حاران فى الشمال . وفى متن القصة تظهر شخصيات عظيمة مثل ملكى صادق الذى يمثل الملكية والكهنوت . ونحن لا نعرف عنه شيئاً غير ماورد فى هذا المقام .

وهنا نلاحظ أنه أطلق على « الله » أربعة أسماء لكل منها دلالتها الخاصة: الله «إلوهيم» اسم نكرة للدلالة على أى إله ، وهو قد يطلق على آلهة الوثنيين — الرب « يهوه » وهو اسم علم للدلالة على الإله الحق ، ويستعمل خاصة عند التحدث عن ذات الله وصفاته وعلاقته مع شعبه ، وقوته الفدائية التى انقذتهم من عبودية مصر — وهذا الإله يظهر لإبرهيم (ص ١٧ : ١) باسم « شدّاى » أى القدير الكامل ، وذلك عند تكرار الوعد باعطائه نسلاً . وبهذا الاسم يظهر أيضاً ليعقوب (ص ٣٥ : ١١ و ٤٨ : ٣) ليؤكد له أن الذى وعد قادر أن يكمل وعده .

ص ١٣ يروى قصة لوط وانفصاله عن عمه إبراهيم واستيطانه فى سدوم على مقربة من البحر الميت .

ص ١٤ يتحدث عن الحرب التى أثارها الملوك الأربعة من الشرق على ملك سدوم وحلفائه . وفى هذه الحروب يؤخذ لوط وآخرون أسرى . ولكن إبرهيم يتعقب المعتدين ويخلّص ابن أخيه من أيديهم .

ص ١٥ يشمل قصة العهد الذى قطعه يهوه مع إبرهيم . أما ص ١٦ فيروى قصة ولادة اسمعيل . وهناك بيان آخر عن عهد الختان فى ص١٧ — وفى ص ١٨ يظهر الله لابرهيم ويقدم له وعده بأن سيكون له ولد ، ثم ينذره بخراب سدوم المتوقع . وفى ص ١٩ تتم دينونة سدوم . وفى ص ٢٠ بيان عن اختبار إبرهيم فى جرار حيث سكن الفلسطينيون بعد بضع مئات من السنين .

وص ٢١ يتحدث عن ولادة إسحق (١ — ٧) وطرد إسمعيل (٨ — ٢١) وعراك حول الماء بين عبيد إبرهيم وعبيد ملك جرار (٢٢ — ٢٤) .

وفى ص ٢٢ يتلقى ابرهيم أمرا بان يقدم ولده اسحق ذبيحة ، وينطلق به إلى جبل ، ولكن فى اللحظة الأخيرة يُفتدى اسحق بكبش .

وفى ص ٢٣ يبتاع ابرهيم مغارة المكفيلة ويودع فيها جثمان زوجته سارة . وفى ص ٢٤ بيان عن زواج رفقة ابنة أخى ابرهيم من اسحق . ويسرد ص ٢٥ اسماء أولاد ابراهيم من قطورة التى تزوجها بعد وفاة سارة ، وكذلك مولد عيسو ويعقوب ولدى اسحق . وفى ص ٢٦ قصة إقامة اسحق فى جرار . وفى ص ٢٧ خديعة يعقوب التى اغتصب بها بكورية أخيه عيسو وبركته . وفى ٢٨و٢٩ يهرب يعقوب من وجه أخيه عيسو خوفاً على حياته ، وينطلق إلى حاران حيث يتزوج من ليئة وراحيل ابنتى لابان ، أخى رفقة . وفى خلال الرحلة يظهر ملاك الله ليعقوب فى بيت أيل . ويسرد ص ٣٠ بعض المتاعب التى عاناها

يعقوب على يد لابان . وص ٣١ يصف هربه من حاران . وفى ص ٣٢و٣٣ نقرأ عن اللقاء بين عيسو ويعقوب . وفى الطريق يتصارع يعقوب مع إله — أو إنسان — فى فينيئل ويصرُّ عليه أن يباركه . وص ٣٤و٣٥ يتحدثان تفصيلا عن سيرة يعقوب وأسرته فى فلسطين . وأما ص ٣٦ فهو سلسلة انساب عيسو ، أى قبيلة آدوم .

وفى ص ٣٧ تبدو قصة يوسف وبيعه إلى بعض التجار وأخذه عبدا أسيرا إلى مصر . ويتحدث ص٣٨ عن مولد إبنى يهوذا ، والإبن الرابع ليعقوب على أننا فى ص ٣٩ نعود مرة أخرى إلى قصة يوسف .

وفى قصة يوسف نحسُّ لمسات مصرية واضحة . ومن المحتمل أن يكون بعضها قد كتب باللغة المصرية . وحيث أن الحوادث وقعت فى أوساط غير يهودية ، فان كلمة « الوهيم » تستعمل للدلالة على اسم الله ، وذلك فيما عدا موضعين (ص ٣٩) حين يتحدث يوسف عن ذكرياته الخاصة و (ص ٤٩ : ١٨) حين يتحدث يعقوب عن عهد الله معهم .

ومن الأمثلة الدالة على تغلغل النفوذ المصرى فى قصة يوسف :

١ — أن ملك مصر يُدعى فقط « فرعون » دون أن يضاف اسم آخر إلى لقبه . وقد كانت هذه هى العادة المتبعة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبل الميلاد . أما فى عهد سليمان فقد جرت العادت أن يضاف كلمة « ملك مصر » إلى لقب « فرعون » ، أو إسم فرعون نفسه (أنظر الملوك الأول ٩ : ١٦ والملوك الثانى ١٣ : ٢٩) .

٢ — قيل فى ص ٤١ ان يوسف حلق شعره قبل مثوله أمام فرعون . وقد كانت هذه عادة فى التأدب والإحتشام أمام الفراعنة . أما الفكرة الساميّة يومئذ فقد كانت إطلاق اللحية ، دلالة على الإحترام والتوقير .

٣ — فى ص ٤٢ : ٣٠ و ٣٣ وأيضا فى ص ٤٣ دعى يوسف « الرجل » . وقد كان هذا لقب الوزير ، وهو الرجل الأول فى مصر ، لان فرعون نفسه لم يكن إنسانا وحسب بل إلهيا ، وقد قام يوسف بكل أعباء الوزير الاول كما يؤخذ من نقش عثر عليه بين الحفريات وفيه بيان لمسئولياته وواجباته . وفى الصور المصرية المبكرة يظهر الوزير وحول عنقه قلادة ذهبية ، هى التى ذكرت فى ص ٤١ : ٤٢ .

أما الفصول الأخيرة من هذا السفر فتتحدث عن حياة يعقوب فى سنيه الأخيرة ، ونقل جثمانه إلى فلسطين بعد موته .

سفر الخروج

يفتتح هذا السفر فى مصر قبل الخروج بثمانين عاماً (٧ : ٧) وينتهى بعد سنة واحدة من الخروج (٤٠ : ٢) بإقامة خيمة الاجتماع . وقد اختلف العلماء والباحثون فى تحديد تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر ، على أن الحفريات التى تمت حول مدينة أريحا ترجح أن الخروج قد حدث فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى بداية حكم أمينوحتب الثانى .

تحليل السفر :

ص ١	العبودية فى مصر .
٢ : ١ — ١٠	ولادة موسى وتربيته .
٢ : ١١ — ص ٤	موسى فى مديان . . وإعلان العليقة المشتعلة .
٥ — ٨	الضربات والخروج .
١٤ — ١٥	عبور البحر الأحمر .
١٦ — ١٩	الرحلة الشاقة المضنية إلى سيناء .

٢٠ : ١ — ٢٠ الوصايا العشر .

٢٠ : ٢٢ — ص٢٣ أحكام العهد الذى أعلن لموسى فى سيناء .

٢٤ توثيق العهد .

٢٥ — ٣١ تصميم خيمة الاجتماع .

٣٢ العجل الذهبى .

٣٣ و ٣٤ موسى يرى مجد الله . الجانب الإلهى فى العهد الذى نكثوا به ثم أعادوه .

٣٥ — ٤٠ تشييد خيمة الاجتماع .

ويقع سفر الخروج فى قسمين : ص ١ — ١٩ وهو القسم الروائى التاريخى وص ٢٠ — ٤٠ وهو الذى يشمل الشرائع والأحكام . وقد تضمن القسم الروائى التاريخى كثرة من المعجزات . على أنه لا ندحة لنا هنا من أن نتجاوز عن بعض المصطلحات وأساليب الفكر فلا نأخذها بحرفيتها . وقد اختلفت آراء الباحثين فى تعليل الضربات العشر، وكيفية وقوعها. وربما يكون قد استخدم الله القوى الطبيعية لصنع هذه الآيات . فقد قيل مثلا ان تحويل مياه النيل إلى « دم » إنما يرجع إلى ثورات بركانية عند مصبه ، وقد أخرجت هذه الفورات مواد حمراء امتزجت بالماء فجعلته ساما . والضربات الخمس التالية ربما كانت نتيجة لتسمم مياه النهر .

وحتى إن صحّ هذا التعليل ، فلم يقدر العلماء والشراح حتى الآن على تعليل موت الابكار تعليلا طبيعياً ، وحصانة ابكار إسرائيل من هذا الوباء . وإن كان الخروج قد وقع فى عهد امينوحتب الثانى فهناك دليل فى التاريخ على أن بكره قد مات . ذلك لأنه خلفه على العرش كان تحوتمس الرابع — الذى لم يكن بكره .وقد عثر على نقش على لوحة من حجر الصوان جاء فيها أن تحوتمس الرابع لما كان صبياً — حلم أن أبا الهول قد أنبأه بأنه سيكون يوما ملكا على مصر. وواضح أنه لم تكن ثمة معنى لمثل هذا الحلم لو أنه كان الوارث الشرعى للعرش.

الشريعة

حينما نفكر فى أحكام الشريعة التى تضمنها هذا السفر ينبغى أن نقدّر ظروف ذلك العصر البدائى . فقد دُعى الشعب من حالة العبودية والاسترقاق ليكوّن نفسه تحت حكم تيوقراطى . ولذلك كان لزاما أن يتلقى شرائعه مفصلة وأن يُحمل على الإيمان بان الإله الذى دعاهم إلى عبادته يختلف عن الآلهة الأخرى الوثنية فى مصر . ولم يكن بدّ من أن يوضع أمامهم الناموس الأدبى فى صياغة بسيطة مفهومة تتفق وتلك البيئة التى عاشوا فيها .

وقد كانت أحكام الشريعة روحية ، وأدبية ، واجتماعية . وتتضمن محبة الله ومحبة القريب .

وتُلقى الأحكام الروحية ، وقد شملت كثيراً من النواميس الطقسية ، ضوءاً على صفات الله وجمال قداسته ووجوب طاعته . وقد كان مذبح البخور درساً فى الصلاة ، ومثّل خبز التقدمة المشاركة ، ومثلت الشموع النور السماوىّ ، كما مثل عمود السحاب والنار الحاجة إلى إرشاد الله وهدايته.

أما الأحكام الأدبية الأخلاقية فقد لخصتها الوصايا العشر فى الفصل العشرين . ثم وردت مفصلة فى الفصول التالية (وقد عُرفت بكتاب العهد) . وتفرعت إلى وصايا واحكام وقوانين بعضها شامل ، وبعضها ذات صبغة خاصة وقد بوّب أعلام الشريعة والفقه هذه الأحكام التفصيلية تحت الوصايا العشر على التوالى .

أما الاحكام الإجتماعية فقد نظرت إلى المستقبل يوم يستقر الشعب فى أرض ذات مبان وزرع وضرع .

ومع تسليمنا بأن هذه الشرائع والأحكام قد كتبت تحت إرشاد روح الله ، فأنه لا يخامرنا شك فى أن كثيراً منها قديم العهد ، مأخوذ عن مصادر قبل عصر

موسى . فتحريم القتل مثلا جريمة منعها العرف والقـــانون الأدبى منذ كان للانسان تاريخ . وكثير من الأحكام والمبادىء الاجتماعية لها نظائر فى سجلات الشعوب التى جاورت العبرانيين ، ويرجع بعضها إلى عصر ابرهيم ، وربما إلى ماقبل عصر ابرهيم ، ولـكنها تأيدت فوق جبل سيناء .

وقد قام الباحثون بمقارنة بين شريعة موسى وشريعة حمورابى ، الذى ملك فى بابل منذ أمد بعيد . وقد سنّ هذا الملك قبيل وفاته قانونا نقشــه على لوح من الحجر يبلغ علوه سبعة أقدام وعرضه قدمين . وقد حمل العيـلاميون هـذا اللوح فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وأقاموه نصباً تذكاريا فى « سوزا » حتى عثر عليه المنقبون فى مستهل هذا القرن وبعض مواد هذا القانون عريقة فى القدم ، إذ نقش على لوح الحجر عبارة تفيد أن ملـكا يدعى «اوروكاجينا» كان قد سنّ قانونا لم يحفظ له أثر .

ويشمل قانون حمورابى ٢٨٢ مادة ، تعالج جرائم السرقة والإغتصاب ، وقواعد التملك والايجار والتجارة ، والبيوت العامة والديون والميراث ، والتبنى وإيذاء الغير أو سلب أمواله ، والطلاق والزواج ، ورسوم العلاج ، وشروط أقامـــة الأبنية ، ومسئولية المقاولين وأجور العمال ، ومعاملة الحيوانات ، وتبادل السلع ، وأخيرا العبيد .

وهناك فوارق شيقة يلذ للباحث أن يدرسها بين شريعة حمورابى وشريعـة موسى . ويمكن القول بصفة عامة ان الأخيرة تعنى بالأكثر بحماية الأشخاص ، بينما عُنيت الأولى بحماية الممتلـكات . وفرّق قانون حمورابى بين معاملة السادة وعامة الشعب . أما ناموس موسى فقد ساوى بين الغنى والفقير ، وأجزل الرحمة للمحتاجين والمنكوبين .

ونذكر هنا على سبيل المثال بعض مواد قانون حمورابى ، ليطلع القارىء الكريم على الفكرة العامة فى هذا القانون :

م ١١٧ : إذا بيع إنسان حرٌّ بسبب الدين ، يطلق سراحه بعد ثلاث سنوات. (أنظر خروج ٢١ : ٢ — ٦)

م ١٩٥ : ان عقوبة ضرب الإنسان لأبيه هى قطع اليدين. (أنظر خروج ٢١ : ١٥)

م ٢٠٦ : إذا أصاب إنسان إنساناً آخر فى عراك ، يجب عليه أن يدفع مصاريف العلاج. (أنظر خروج ٢١ : ١٨ و ١٩).

م ٢٦٨ : إذا وقع حادث للغنم فى الحظيرة ، فإنه على الراعى الأجير أن يبرىء نفسه أمام الله، وعلى ملك الحظيرة أن يتحمل الخسارة. (أنظر خروج ٢٢ : ١٠ و ١١)

وتختلف آيات سفر الخروج التى تعالج موضوع اقتراب الإنسان من الله عن تلك التى تعالج الشئون الإجتماعية. وذلك لأنه كان فرضاً على الشعب أن يدرك قداسة الله وبره فى زمن اعتنقت فيه شعوب بلدان الشرق ديانات وثنية قامت فيها العبادة على الشهوانية والرذيلة . فضلا عن هذا فإن طقوس العبادة فى خيمة الإجتماع تضمنت مبادىء روحية لم يفطن إليها القوم فى بادىء الأمر ، وقد تولّى كاتب الرسالة إلى العبرانيين شرح هذه المبادىء فيما بعد ، وأضاف إليها الآباء الأولون والعلماء المسيحيون أشياء أخرى كثيرة، ولو أنهم تطرفوا أحياناً فى تأويلهم وخرجوا به عن جادة الصواب . ومهما يكن من أمر فإننا نرى فى شرائع العهد الأول ظلالاً لأشياء سماوية أعلنها الروح القدس فيما بعد .

سفر اللاويين

فى سفر الخروج تكلم الله من خلال رعود سيناء ، أما الآن فى سفر اللاويين، وقد أُبرم العهد مع الشعب ، فهو يتكلم فى هدوء « خيمة الاجتماع »(١ : ١). وفى اصحاحات هذا السفر السبعة والعشرين قيل فى ست وخمسين مرة ان الله هو الذى أعطى موسى هذه الأحكام والشرائع . وأصحاب الرأى القائل ان موسى هو الذى كتب الأسفار الخمسة يستندون إلى هذه الحقيقة .

الأنبياء والذبيحة

فى أسفار الأنبياء نجد تلميحات دفعت كثيرين من المفكرين إلى الزعم بأن شريعة الذبائح لم تُفرض على الشعب فى سيناء . فالآيات الواردة مثلا فى مزمور ٤٠ : ٦ « بذبيحة وتقدمة لم تُسر . . . محرقة وذبيحة خطية لم تطلب » . وفى أشعياء ١ : ١١ « لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب . . . بدم عجول وخرفان وتيوس ما أُسرُّ . مَن طلب هذا من أيديكم . . . » — هذه الآيات وغيرها تقدم لنا اتجاها آخر . ولكن الأرجح أن الأنبياء عُنوا بالحالة الفكرية التى غلبت على الشعب ، فذهبوا إلى أن الذبيحة هى الغاية فى حد ذاتها ، لا الوسيلة إلى بلوغ التقى والقربى إلى الله ، وأنها لن يمكنّ أن تكون بديلا عن برِّ الحياة ، بدليل ما قاله النبى هوشع « إنى أريد رحمة لا ذبيحة ، ومعرفة الله أكثر من محرقات » (هوشع ٦ : ٦) .

تحليل السفر

ص ١ — ٦ شرائع التقدمات والذبائح . تقدمة المحرقة (ص ١) . قربان

التقدمة المخبوزة (ص٢) ذبيحة السلامة (ص ٣).
ذبيحة الخطية (ص ٤). ذبيحة الاثم (ص ٥).

ص ٦ — ٨ : ٣٨ تعليمات للكهنة عن هذه الذبائح والتقدمات.
ص ٨ و ٩ تكريس الكهنة.
ص ١٠ موت ناداب وابيهو.
ص ١١ — ١٥ شرائع النظافة والتطهير. الحيوانات الطاهرة والنجسة (ص ١١). ولادة الأطفال (ص ١٢). البرص (ص ١٣ و ١٤). السيل (ص ١٥).
ص ١٦ يوم التكفير.
ص ١٧ -- ٢٠ أحكام دينية وإجتماعية مختلفة.
ص ٢١ — ٢٢ تعليمات للكهنة.
٢٣ — ٢٥ تقويم الفصول المقدسة.
٢٦ بركات الطاعة ولعنات العصيان.
٢٧ شرائع النذور.

الحيوانات الطاهرة والنجسة :

قال علماء الطب ان هناك أسباباً وجيهة قوية لتحديد الأنواع المحللة والمحرمة من الحيوانات والطيور، وليست هى مجرد أحرام غير معقولة. والله يريد الإنسان معافى سليماً عقلاً وجسداً ونفسا. ومن اولى مبادىء هذا التحريم الوقاية من الأمراض والأوبئة والعدوى. وكثير من أحكام سفر اللاويين يجب أن يُنظر إليها بهذه العين، فمثلا جاء فى ص ١١ : ٣٢ — ٣٧ شرح لغسل الآنية والأوعية التى مسَّت جثة حيوان من الحيوانات المحرمة النجسة. وتقضى هذه الأحكام أن الآنية يجب أن تغسل أو تعدم، ويجب إلا يؤخذ شىء من الأكل

أو الشراب الذى مسّ الجثة . وتقتصر هذه الأحكام على الحيوانات والطيور النجسة بعد موتها (آية ٣٢) ، وكان المقصود منها الوقاية من الفساد والتعفن الذى يلازم الاجساد المتحللة العفنة . وهذا واضح من الآيتين ٣٩ و ٤٠ اللتين تقضيان بأن لمس الجسد الميت ، حتى لحيوان طاهر ، يترتب عليه عزل مؤقت وغسل كامل .

ولا يخفى أن الذبائح تولّد عادة مباءات خطرة للذباب، مما قد ينشأ عنه توالد الميكروبات والجراثيم . ولذلك أقترنت الذبائح — علاوة على معناها الروحى — بتعليمات صحية تقتضيها الضرورة . فقد نص مثلاً أن تُستهلك كلها بحيث لا يتخلف منا شىء. فهى تحرق أولا على المذبح ،وإذ اتبقى منها شىء يؤكل فوراً (٧ : ١٥ — ١٨) . وأما الأجزاء الباقية فكانت تنقل خارج المحلة وتحرق بالنار (٤ : ١١ و ١٢). وهنا يحق لنا الظن بأن الفضلات الأخرى كانت تحرق معها منعاً لانتشار الأوبئة . أما الدم فكان يُصفى من المذبح وتمتصه الرمال ويغطى بطبقة جديدة من تراب الأرض. وبهذه الوسائل قلت الإصابات بالأمراض المعدية التى تنشأ عن توالد الذباب فى مثل هذه الأحوال .

وكان البرَص من الأمراض الخطرة يومئذ . ولم يكن قد عُرف له دواء ، فكان علاجه عزل المريض عن محلة الأصحاء بأمر من الكاهن . وقد ظلّت طريقة العزل العلاج الوحيد لهذا الداء إلى عصور متأخرة ، حتى انك لتجد حتى اليوم فى بعض كنائس انكلترا القديمة طاقات خلفية صغيرة ، كان البرص المعزولون يطلّون منها من بعيد لسماع العبادة الدينية .

والشرائع الخاصة بالحيوانات الطاهرة والنجسة مشحونة بالحكمة الطبية ، ويؤيدها الاختبار الحديث . فمثلا حرّمت الشريعة لحم الخنزير . واليوم يأكله بعض الناس ، ولكن الواقع أن لحم هذا الحيوان يتعفن

سريعاً ، ويصير خطراً على الصحة العامة إذا لم يُحفظ بعناية تامة . ولذلك كان تحريمه من الحكمة فى ذلك الزمن الذى لم تُعرف فيه وسائل الوقاية من الميكروبات .

وهنا يزعم الباحثون أن الشريعة قد أخطأت فى موضع معين فى (ص ١١ : ٥ و ٦) حيث قيل إن الوبر والأرنب من الحيوانات المجترة، وهما فى الواقع ليسا كذلك . والظاهر أن كاتب السفر استند إلى الظواهر الخارجية ، ولم يكن الإنسان قد عرف فى ذلك الزمن السحيق الميكرسكوبات وأدوات التحليل الأخرى .

سفر العدد

يتضمن هذا السفر ، مثل السفرين السابقين ـ تاريخاً وأحكاماً . وتسير القصة فيه سيراً رتيباً طبيعياً إذ يسرد البداية والنهاية للتيه فى البرية ، والأسماء التى ذكرت ثم نسيت فيما بعد ، والأناشيد البدائية التى كتبت فى الفصل الحادى والعشرين ، والأحكام والشرائع المؤقتة التى بطل العمل بها بعد عصر موسى ، والإشارات المتكررة إلى مصر وأنواع الأطعمة فيها ، والصعوبات التى لاقاها الشعب فى تدبير مواد خيمة الاجتماع وهم فى الصحراء ـ كل هذه وغيرها تدل على أن مواد الكتاب تنتسب إلى العصر الموسوى .

وعنوان السفر فى اللغة العبرية «فى البرية» .ولا نظن أن كلمة «فى البرية» تنبىء عن صحراء قاحلة جرداء لا شىء فيها غير كثبان الرمال والصخور الصماء، فحتى اليوم نجد فى شبه جزيرة سيناء واحات وموارد للمياه . وتثبت الادلة الجيولوجية والتاريخية أن هذه المنطقة شملت فى الماضى السحيق رقاعاً من المزروعات الخضراء . والواقع أن « رثمة» معناها «مكان أشجار العرعر» و « حضيروت» معناها «القرى» (أنظر ٣٣: ١٨) « ثم أرتحلوا من حضيروت ونزلوا فى رثمة ».

ولا يفوتنا ان رعاة مديان بحثوا عن المراعى والمياه لقطعانهم (خروج ٢: ١٥ و ١٦). وهذه المراعى تكثر طبعاً عند الإقتراب من مديان وأدوم (٢٣: ٣٧).وما نظن أن العبرانيين كلهم تكتلوا فى جماعة واحدة ومكان واحد، بل قد تبعثروا جماعات بقطعانهم فى أماكن متفرقة حيث المراعى والمياه، على عادة أهل البدو فى تاريخهم .

تحليل السفر

ص : ١ و ٢	عدد العشائر ونظام المحلة .
٣ و ٤	خدمة اللاويين .
٥ — ٨	شرائع العزل . شريعة النذور . التقدمات وتكريس اللاويين .
٩ و ١٠	الفصح الأول والسير إلى الأمام .
١١ و ١٢	الشكوى والعصيان . تعيين سبعين شخصاً . التذمر يزداد .
١٣ و ١٤	تقرير الجواسيس . التنبؤ عن التيه أربعين عاماً
١٥ و ١٩	شرائع وحوادث مختلفة فى فترة سبعة وثلاثين عاماً فى التجول والتوهان . عصيان قورح . عصا هرون التى أفرخت .
٢٠	الماء ينفجر من الصخرة . موت هرون .
٢١	الحية النحاسية . هزيمة عوج وسيحون.
٢٢ — ٢٤	بالاق وبلعام
٢٥	خطية بعل فغور
٢٦	الإحصاء الثانى
٢٧ — ٣٠	شرائع الميراث والتقدمات والنذور .
٣١	هلاك المديانيين .
٣٣	تحديد منطقة شرق الأردن .

٣٣ و ٣٤ سجل رحلات البرية وتخوم الأرض.

٣٥ مدن الملجأ.

٣٦ ميراث البنات.

الرحلات :

فى الفصل الثالث والثلاثين بيان للأماكن التى اجتازها الشعب فى رحلاته عبر البيداء خلال الأربعين عاماً. على أنه لايمكن تحديد معالم الطريق بالضبط. وحتى اليوم أمكن فقط تحديد إثنى عشر موقعاً من الإثنين والاربعين موقعاً التى ذكرت فى السفر . وبعد أن اجتاز العبرانيون فى جنوب شبه جزيرة سيناء ، ثم شمالاً إلى قادش ، عادوا واتجهوا جنوباً ، وهناك قضوا ثمانية وثلاثين عاماً تائهين فى جيرة خليج العقبة . ولسنا ندرى إن كانوا قد دخلوا أرض الحجاز . وقادش هذه (ومعناها مقدس) اسم ربما يكون قد أطلق على أكثر من مكان واحد. وأحدها حيث وجد نبع مشهور دعى «عين مشفاط» أى « نبع الدينونة » (تكوين ١٤ : ٧)

احصاء العبرانيين :

قيل ان عدد الرجال فوق العشرين الذى خرجوا من مصر كان ٦٠٣ر٥٥٠ (١ : ٤٦ وأنظر أيضاً خروج ١٢ : ٣٧ ر٣٨) . ويؤخذ من هذا الرقم أن جملة عدد السكان بلغ حوالى مليونين . وقد قيل ان هذه الأرقام خيالية وفيها كثير من الاصطناع . والحق أنها تشكل معضلة للباحثين ، فمثلا لا يمكن التوفيق بين هذا العدد الضخم وبين عدد اللاويين الذين لم يزد عددهم عن ٢٢ر٠٠٠ (٣ : ٢١ — ٣٩) وعدد الابكار الذين لم يزد عددهم عن ٢٢ر٢٧٣ (٣ : ٤٣). وأغلب الظن أن هذا الرقم نقل عن سجلات قديمة. ولم يقصد كاتب السفر اختراعاً أو اصطناعاً.

ويقول الأستاذ فلندرز بترى ، العالم المشهور ، ان كلمة « ألف » التى يشار إليها بالكلمة العبرانية «Eleph» يجب أن تقرأ هنا وفى خروج ص ١٢ بحيث تعنى أسراً أو جماعات . ولئن تكن هذه الفكرة تزيل بعض الصعوبات ، فإنها

تخلق صعاباً أخرى . وذهب غيره من الباحثين وعلماء الشرح إلى أن الأرقام نقلت خطأ ، وأن النساخ هم الذين شوهوها .

بلعام :

وقبيل نهاية رحلات البرية نصطدم بقصة مثيرة ، هى قصة بلعـــام . وكان هذا الرجل يعرف الله . وقيل عنه انه كان قادما من آرام (٢٣ : ٧) . ويقول التاريخ ان ملك موآب أرسل فى طلبه من جبال الشرق « فأرسل ملك موآب رسالة إلى بلعام بن بعور إلى فتور التى على النهر (أى نهر الفرات) فى أرض بنى شعبه » (٢٢ : ٥) . والظاهر أن بلعام قدم من حاران حيث كان إبرهيم وعشيرته (تـكوين ١١ : ٣١) وحيث سكن لابان (تـكوين ٢٨ : ٥) . ويؤخذ من نصوص الآيات أن الرجل تلقى نبواته فى حالة غيبوبة (٢٤ : ٣و٤) . وانا لواجدون بعض أشارات عن المستقبل فى نبوته الأخيرة (٢٤ : ١٥ — ٢٤) وبعض هذه النبوات قد حـيَّرت الباحثين ولم يجدوا لها حلا .

أما عن قصة أتانة بلعام التى نطقت ، فقد زعم كثيرون من الباحثين أنها قصة من القصص الشعبي ، كما قال البعض انه يمكن تأويلها بأن النبي تأثر من موقف الأتانة ، وتخيلها تحدثه بالألفاظ التى فـكر بها . والله أعلم !!

سفر التثنية

هذا هو السفر الخامس من التوراة . وهو يختلف فى روحه وطريقة كتابته عن الأسفار الأربعة الأخرى . والجزء الوحيد الذى يتفق فيه مع تلك الأسفار هو « شريعة القديسين » (لاويين ١٧ — ٢٦) . فهى فى وضعها أحاديث تفوه بها موسى ، وكان الشعب يوشك أن يعبر نهر الأردن للدخول إلى فلسطين .

تحليل السفر

ص ١ — ٤ بيان مختصر لتاريخ الشعب من وقت هربه من مصر إلى الزمن

الذى كان موسى يتحدث فيه . وفى نهاية الحديث احتجاج قوى صارم ضد عبادة أخرى غير عبادة يهوه (٤ : ١ — ٤٠)

٥ — ١١ تتضمن حثّ الشعب على محبة الله الذى صنع بهم خيراً كثيراً. وفى الفصول نقرأ صياغة جديدة « للكلمات العشر » تختلف قليلا عن صياغة سفر الخروج (٢٠ : ٢ — ١٧) ، وكذلك بيانا عن اعطاء لوحى الحجر (٩ : ٨ — ١٠ : ٥)

١٢ نقرأ فاتحة الشريعة ذاتها من فرائض وأحكام . وأولها أحكام التقدمات التى يجب أن تقتصر الآن على مكان واحد .

١٣ فى لهجة قوية صارمة يشدد الكاتب على عبادة يهوه ، فلا يكون للشعب آلهة أخرى سواه مهما كانت البواعث .

١٤ — ٢٦ تتضمن هذه الفصول سفر الشريعة وفيها توسع « لكتاب العهد» (خروج ٢٠ — ٢٣) مع بعض الإضافة والتعديل . فأحيانا تضاف فرائض وأحكام جديدة (كما فى ص ١٥ حيث خفّفت الشريعة من أثقال المدين وتبعاته) . ثم ان فيها اتجــاهات لجعل الشرائع والأحكام أكثر شفقة وليونة وخاصة للفقراء والبائسين . وإنا لواجدون ثلاثة أحكام اقتضى إدماجها بعد أن تقرر أن تكون التقدمات والذبائح فى مكان واحد : (١) حكم يخول للشعب سلطانا لإستخدام لحوم حيوانات الحقل غذاء لهم دون تقديمها كذبائح (١٢ : ١٥ — ١٦) . (٢) حكم يخول اللاويين سلطانا أن يجيئوا إلى بيت الله ويشتركوا فى تقديم الذبائح (١٨ : ٦ ــ ٨) (٣) حكم يذكر أسماء مدن معينة « كملاجىء » يهرب إليها من يقتل إنسانا عن عمد (١٩ : ١ ــ ٧)

ص ٢٧ بيان اللعنات التى تقع على الذين يخالفون أحكام الشريعة .

٢٨ بيان البركات التى تسبغ على من يحفظونها .
٢٩ — ٣١ حديث موسى الرابع والأخير .
٣٢ نشيد قيل ان موسى هو الذى كتبه .
٣٣ نشيد آخر أحصى البركات على كل جماعة .
٣٤ موت موسى .

قلنا فيما سبق ان هناك رأيين عن مؤلف وتاريخ كتابة الأسفار الخمسة : أحدهما يقول ان موسى هو كاتبها ، ويقول الآخر انها كتبت فى تواريخ متأخرة وبأيدى كتّاب كثيرين لم يمكن الإهتداء إلى أسمائهم . ويرجح علماء الكتاب المقدس الرأى الثانى . على أنه حتى إذا أخذنا بهذا الرأى الأخير ، فان سفر التثنية يمتاز بخاصية فريدة فى كتابته ، حتى لقد أجمع غالبية العلماء على أنه كتب بيد واحدة ، لا بأيد كثيرة ، ويذهبون إلى الظن أن السفر ظهر — أول ماظهر — خلواً من الفصول الأولى (١ — ٤) التى أضيفت اليه بعدئذ . وقد رأينا أن الفرائض والأحكام الواردة به مستمدة من كتاب العهد (خروج ٢٠ — ٢٣) . وأهم ما فيه من إضافة إلى الشرائع التى أعطيت من قبل ، هى الفصول الخاصة بتقديم الذبائح والعبادة فى مكان واحد . وواضح من أسفار الكتاب المقدس الأخرى أن الشعب لم يكن يعرف — حتى عهد الملكية — شيئا عن هذه الفريضة الإضافية، بدليل أن النبى إيلياء أقام مذبحا فوق جبل الكرمل وقدم الذبائح عليه. وقد كان لهذا القانون الإضافى أثر ظاهر فى التغيير الذى أدخله الملك يوشيّا مما حدا بكثيرين إلى الظن بأن سفر التثنية هو بعينه سفر الشريعة الذى عثر عليه سنة ٦٢١ ق . م . (الملوك الثانى ٢٢ : ٨) . والمرجح كثيراً أنه وضع فى صيغته وشكله الحالى قبل هذا التاريخ بزمن قليل. وربما يكون قد كتب فى الشمال، فى بيت ايل، ثم حُمل إلى أورشليم فى عهد الملك منسى ... هذه آراء اجتهادية لا يمكن الجزم فيها برأى حاسم ، على أنه يبدو لنا أن السفر لم يكن موجوداً قبل سنة ٧٠٠ ق.م وأن ظهوره لم يتأخر عن سنة ٧٤٠ ق.م.

ثانياً – الأنبياء المتقدمون

يشوع – القضاة – صموئيل الأول – صموئيل الثانى
الملوك الأول – الملوك الثانى

تحت عنوان « الكتب التاريخية » فى العهد القديم ، يصح أن نذكر يشوع، والقضاة، وراعوث ، وصموئيل الأول ، وصموئيل الثانى ،والملوك الأول والملوك الثانى ، والأيام الأول ، والأيام الثانى ، وعزرا ، ونحميا ، واستير . والخمسة الأخيرة مدرجة ، فى النصوص العبرية ، تحت « الكتابات » .

وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وسفرا صموئيل تسير بنا إلى بداية عهد الملكية . أما سفر الملوك الأول وسفر الأيام الأول فتحكى لنا قصة التاريخ إلى زمن السبى . وسفرا عزرا ونحميا يتحدثان عن العودة من السبى. أما سفر أستير فتقع حوادثه فى الفترة الفارسية من التاريخ .

وفيما عدا عزرا ونحميا لا نعرف شيئاً عن كتّاب هذه الأسفار . ومما لا شك فيه أن كتّاب أسفار يشوع وصموئيل الأول والثانى قد استقوا كثيراً من مواد هذه الأسفار من أبطال القصة . على أنها قد كتبت فعلا بعد موت البطلين ، وهما يشوع وصموئيل .

وهذه الأسفار كلها التى تسجل تاريخ الأفراد والشعوب، إنما تعنى قبل كل شىء بموقف الله حيالها ، وعلاقة الله بالأفراد والشعوب من حيث قربهم منه أو بعدهم عنه . وقد أختيرت الحوادث لإثبات هذه الحقيقة . أما الملوك فقد سجّلت حوادثهم ومصائرهم تبعاً لموقفهم الروحى والأخلاقى ، وهل ساروا باستقامة أمام الله ، فى خطوات داود أبيهم ، أم اتبعوا مسالك الشر مثل يربعام بن ناباط .

فهذه الاسفار تحكى إذاً أعمال الله العجيبة ، وكيف رفع المتضعين وأنزل الأعزاء عن الكراسى ، وتكشف عن قداسته ، وصبره وطول أناته ، وغفرانه للتائبين ، وسعيه وراء الضالين ، ثم هى تقص اختبارات الأنبياء وكيف أدوا رسالتهم ، وتعلن لنا قصد الله فى التاريخ ، الذى سار بناء الهويناء حتى وصل بنا إلى عهد الفداء فى المسيح .

وهذه الأسفار ـ فى نظر العهد الجديد ـ ليست تاريخاً وحسب ، وإنما هى معلنات من الله ، أشبه بلوحات قائمة فى مسار الطريق إلى نهايته السعيدة ، وهى قصد الله النهائى لخير الجنس البشرى .

سفر يشوع

هو السفر الأول من القسم الثانى من الكتاب العبرى ، وعنوان هذا القسم هو « الأنبياء المتقدمون » ، وهو حلقة اتصال بين الناموس « التوراة » وبين أساليب تطبيقه فى التاريخ المتأخر . أما هذا العنوان « الأنبياء المتقدمون » فمردّه إلى أن هذه الأسفار قد كتبها أنبياء وشهود عيان ، بعضهم عاصر الحوادث ، والبعض الآخر استقاها من مصادر المعاصرين .

و « يشوع » هو إسم البطل فى السفر ، وليس كاتبه ، ولو أن بعض المصادر اليهودية تدّعى انه هو الذى كتب السفر الذى يحمل إسمه . وليس لهذا السفر كاتبٌ معين بالذات ، انما هو سجل للحوادث ذات الأهمية الخاصة .

تحليل السفر :

ص ١ ـ ٥ الاستعداد للغزو . عبور الأردن .

٦ ـ ٨ سقوط اريحا وعاى . خطية عخان .

٩ ـ ١٢ أعمال الغزو والمهادنة مع جبعون .

وليس يخلو هذا السفر من الصعاب التى تعترض القارىء فى العصر الحديث. فوقوف الشمس فوق جبعون مسألة حيرّت الباحثين ووقفت عثرة أمامهم . وقد حاول العلماء تحليلها والاجتهاد فيها .وليس هنا مكان الخوض فى النظريات المختلفة ـ اللفظية والجغرافية والفلكية الخ .

وثمة صعوبة ثانية تتصدى للقارىء فى هذا العصر وهى أمر الله باهلاك السكان الكنعانيين كما فى « عاى » (٨ : ٢ و ٦ : ٢١) . والله الرحيم ، الآب المحب ، لا يرتضى أن يهلك شعوباً بأكملها .

على أنه يمكن القول فى هذا الصدد ان الله « يدين » الشعوب والأفراد على السواء حين يحيدون عنه ويقترفون الآثام والشرور . ولعلَّ الله قد سلط أولئك الغزاة على أن يكونوا عصا تأديب للقوم الظالمين . هذه فكرة يقبلها الأكثرون من قراء الكتاب المقدس .

ويعلّمنا هذا السفر فى جملته أهمية الطاعة للناموس الإلهى بكل مطالبه الأدبية والأخلاقية، وخاصة من جانب الذين يختارهم الله لتنفيذ مقاصده الإلهية. والجزء الأول من السفر مشحون بالتعاليم الروحية القيّمة . فقصة راحاب والجواسيس ، وعبور الأردن ، والحوادث الأخرى التى تعلو وتتسامى فوق وقائعها ومعانيها التاريخية ـ هذه كلها تحدثنا عن الشروط التى يجب توافرها للظفر ببركات الله الروحية .

سفر القضاة

تقول تقاليد أحبار اليهود ان صموئيل هو كاتب السفرين اللذين يحملان

إسمه ، وسفرى القضاة وراعوث . وقد سلّم الآباء الأولون فى تاريخ الكنيسة بهذا الزعم ، على أنه ليس لدينا أى دليل يثبت ذلك . والواقع أننا لا نقدر أن نجزم بقول فاصل عن اسم أو أسماء الكتّاب الذين جمعوا وقائع هذا السفر ، ولا التاريخ الذى ظهر فيه . ومما لا شك فيه أن البيان الخاص بهلاك سيسرا كتبه شخص عاين الحوادث (قبل سنة ١٢٠٠ ق.م.) . ثم انتهى فى العصور المتأخرة إلى الذين جمعوا السفر دون أى تغيير إلاَّ هفوات النسخ البسيطة . ومما هو جدير بالذكر أن آخر كاتب جمع هذه الوقائع مشبع بروح سفر التثنية ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن كتابات « الكهنة » . ويرجح الباحثون أنه أتم جمع السفر بين سنة ٦٠٠و٤٠٠ ق. م. وفيما عدا هذا لا نعرف شيئاً عن زمن كتابة هذا السفر .

تحليل السفر :

١ ــ ٣ : ٦ استعراض تمهيدى . عمل الأسباط المستقل . فشل إسرائيل فى قهر أعدائها .

٣ : ٧ ــ ٣١ عثنيل وإهود بن جيرا ينقذان الشعب من أعدائه الشرقيين .

٤ و ٥ الخلاص من محالفة قبائل الشمال على أيدى ديورة وباراق . نشيد ديورة .

٦ ــ ٨ قصة جدعون الذى ينقذ الشعب من المديانيين ولكنه يسقط فى خطيئة عبادة الأوثان .

٩ و ١٠ قصة ابيمالك وتولع ويائير .

١١ يفتاح ينقذ الشعب من العمونيين . نذره .

١٢ شكوى الافرايميين ، وشبولت .

١٣ ـ ١٦ إثنتا عشرة حملة يقوم بها شمشون ضد الفلسطينيين .

١٧ ـ ١٨ قصة ميخا وانشاء المقدس فى دان .

١٩ ـ ٢١ شر رجال جيعة وعقابهم .

وكلمة «قضاة» فى العبرية تعنى «القضاة» أو «الحاكمون»، أو «المنقذون».

وتستهدف إقامة شخص يعيد الحياة إلى الشعب لتتمشى مع الناموس الالهى. وكانت هذه فعلا وظيفة «القاضى» فى هذا السفر، إذ كان يقوم الواحد تلو الآخر لانقاذ الشعب من التورط فى عبادة الأصنام والابتعاد عن عبادة الله الواحد .

أما البيانات الخاصة بكل «قاض» فكانت تختلف طولا وقصراً ، اسهاباً أو إيجازاً ، تبعاً للأثر الذى طبعه «القاضى» فى حياة الشعب.

وقارىء السفر يجد فيه فترات متفاوتة زاغ فيها الشعب عن شريعة الله وسلك مسالك الضلالة والاثم ، وعبد آلهة غريبة ، فترات شُحنت بالفساد والفوضى واختلال النظام والتحزبات القبَلية .. وفى كل فترة كان يُستدعى زعيم «قاض» يحاول إستعادة الشريعة الأدبية وقهر الأعداء وتوطيد أسباب الحياة الصالحة . والحق ، أن قصة هذا السفر إنما هى دورات متلاحقة من السقوط والنهوض، والتردى فى هاوية الإثم ثم التوبة والندم ، والموات والأحياء ، وهكذا دواليك .

صموئيل الأول والثانى

كان السفران الأول والثانى فى النصوص العبرية كتابا واحداً .. ولم يتم هذا الفصل إلاّ فى الترجمة السبعينية . وقد عُرف هذا الكتاب منذ العصور الأولى ، بكتاب صموئيل ، على أن هذا لا يعنى أن صموئيل هو كاتبه . كما أن

« راعوث » و « استير » مثلا لا يدلاَّن على أن البطلة فى كلتـا القصتين هى كاتبة القصة ..

وبيِّن أن كاتب السفرين قد استقى معلوماته من مصادر شتى . . ففى سفر صموئيل الثانى مثلا نقل الكاتب القسم الأكبر منه (ص ٩ ـ ٢٠) من سجلات مملكة داود . وفى أجزاء أخرى من السفر نقرأ أحياناً أكثر من بيان واحد عن الحادثة الواحدة يختلف أحدها عن الآخر . فمثلا حين يعتلى شاول عرش الملك ، يقال فى سفر صفر صموئيل الأول (ص ٨ و ١٠ : ١٧ ـ ٢٧) ان انتخابه كان وفقاً لرغبات الشعب الذى ارتضاه ملكا ، وكانت هذه الرغبة نتيجة فقدانهم الإيمان بالله .. بينما جاء فى (ص ٩ : ١ ـ ١٠ : ١٦) أن المملكة نعمة أمر بها الله لانقاذ الشعب من الفلسطينيين ..

كذلك سجل لقاء داود الأول مع شاول مرتين ، فى احداهما كموسيقىّ يلعب على قيثارته لتهدئة أعصاب شاول وخضد ثائرته (صموئيل الأول ١٦ : ١٤ ـ ٢٣) والمرة الثانية عقب انتصاره على جليات الجبار (صموئيل الأول ص ١٧) . . كذلك جاء فى صموئيل الثانى (٢١ : ١٩) أن « ألحانان » هو الذى قتل جليات ، وليس داود . فضلا عن هذا يمكن القول ان هناك مجموعات من القصص عن بيت داود وأسرته تتميز بكثير من الفوارق .

ويزعم بعض العلماء أن كاتباً عاش بعد موت داودَ بزمن وجيز آلى على نفسه أن يجمع بعض القصص عن صموئيل وشاول وداود انتهت بصموئيل الثانى (٩ ـ ٢٠). ثم جاء بعده كاتب آخر فى عصر متأخر وأضاف بعض القصص من سجلات أخرى متقدمة ، وقد أضيفت هذه بين الأصحاح العشرين من صموئيل الثانى والاصحاح الأول من سفر الملوك الأول .

وتستغرق قصص الكتاب قرناً من الزمن ، وهو متصل إتصالا وثيقـاً

بسفر القضاة كأنه مسلسل منه ، وقد يدلّ هذا على ان الكاتب كان قريباً من الحوادث .. وكانت فترته فترة انتقال من حكم القضاة إلى الملكية ، وكان التحول سياسياً وروحياً .. فثيوقراطية موسى ويشوع قد أعقبها منازعات ومشاحنات بين القضاة مما مهد الطريق لعهد الملكية .. وذكريات داود عن حياته الخاصة الخاصة إما أن يكون هو الذى اثبتها فى سجلات نقل عنها الكاتبون فيما بعد ، أو سجلها شخص من ندمائه وأخصائه (صموئيل الأول ٢٤: ٣ و٧ و٢٢ و ٢٦ : ٦)

تحليل السفر :

صموئيل الاول :

ص ١ ـ ٣ ولادة صموئيل وتربيته ودعوته .

٤ ـ ٧ النزاع مع الفلسطينيين ، ضياع التابوت واسترجاعه.

٨ ـ ١٠ صموئيل يدين اسرائيل . شاول يمسح أميراً.

١١ ـ ١٤ تأييد ملكية شاول ـ انتصاراته على الفلسطينيين .

١٥ المعركة مع عماليق. عصيان شاول .

١٦ ـ ١٨ مسح داود . انتصاره على جليات ومسلكه الحسن .

١٩ ـ ٢٤ داود ويوناثان . داود كطريد خارج على القانون .

٢٥ : ١ موت صموئيل .

٢٥ : ٢ ـ ٣٠ داود وابيجال . الاختفاء فى جت . غروب شمس شاول تدريجاً.

ص ٣١ هزيمة شاول ويوناثان وموتهما.

صموئيل الثانى :

ص ١	نواح داود على شاول ويوناثان .
٢ ـ ٥	المناداة بداود ملكا فى حبرون . وحكمه فى أورشليم .
٦ـ١٠	إعادة التابوت إلى صهيون . انتصارات داود وتفوقه على بيت شاول .
١١ـ ١٣	خطية داود وتوبيخ ناثان له . هروب ابشالوم .
١٥ ـ ١٨	ثورة ابشالوم . هرب داود. موت ابشالوم .
١٩ ـ ٢١	عودة داود ومعاملته لبعض الأشخاص .
٢٢ ـ ٢٣	أناشيد النصر .
٢٤	احصاء الشعب والطاعون . اقامة المذبح على بيدر ارونة .

من ثمّ نرى السفر يحوى أهم الأحداث فى حياة صموئيل وشاول وداود ، وخاصة الحوادث ذات العلاقة بالقصد الالهى . ويمرُّ الرجال الثلاثة فى دورة من التدريب والترويض ، وتتداخل سيرة أحدهم فى الآخر . فأولا نقرأ أيام صموئيل الأول (صموئيل ١ — ٧) ثم عمله النبوى (٨ ـ ٢٥) . وفى مستهل هذه الفترة نقرأ عن مسح شاول والحوادث التى أدت الى تتويجه ملكا (٨ـ١٠). وفى أيام حكم شاول الأولى يمسح داود سراً (١٦) . وبعد موت صموئيل ، ثم شاول ، يتابع السفر الثانى قصة حكم داود (٢— ٢١)

وتحت زعامة صموئيل نشهد نشأة النظام النبوى ، وارتقـائه ، وتزعم صموئيل « جماعة الأنبياء » (١٩ : ١٨ — ٢٤). وصموئيل هو الذى كتب للشعب « قضاء المملكة » الذى وضعه أمام الرب فى المصفاة (١ صموئيل ١ : ٢٥) . وبذلك مهد الطريق من الحكم الشيوقراطى إلى الحكم الملكى .

الملوك الأول والثانى

تقول التقاليد اليهودية ان إرمياء هو كاتب سفرى الملوك الأول والثانى ، ولكنه زعم لا يستند إلى دليل ، وخاصة لأن السفر الثانى تمتد حوادثه إلى ما بعد عصر إرمياء ، فلا يعقل أن يكون هو كاتبه. وهما فى النص العبرى سفر واحد ، ولكن تمّ الفصل بينهما فى الترجمة السبعينية ويروى السفران قصة المملكتين . إسرائيل ويهوذا ـ من موت داود إلى سقوط أورشليم . ويمكن قسمتهما إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

أولا ــ مملكة سليمان (١ ملوك ١ ـ ١١) .

ثانياً ــ المملكتان (١ ملوك ١٢ ـ ٢ ملوك ١٨)

ثالثاً ــ مملكة يهوذا (٢ ملوك ١٨ ـ ٢٥)

أولا : يبدو أن الاصحاحين الأول والثانى من السفر الأول هما تتمة لسفر صموئيل الثانى ، إذ يشرحان كيفية جلوس سليمان على العرش . وفى الاصحاح الثالث تبدو حكمة سليمان وكيفية استخدامها . والرابع وصف لمملكته ونظامها. والخامس شرح لعلاقته مع حيرام ملك صيدا . وفى السادس والسابع بيان للأبنية التى شيَّدها ، وخاصة بيت الله الذى أحصيت بركاته فى الثامن . والتاسع تفصيل لنظام ملكه . والعاشر يصف أمجاده وزيارة ملكة سبأ ، ثم سفائنه التى مخرت أعالى البحار .

ومن الفصل الحادى عشر تتبدل الصورة ، فترسم الفصول التالية سليمان فى أخريات أيامه ، وقد تعلق قلبه بعبادة آلهة أخرى ، فيحلُّ به العقاب، ويتآمر عليه الأعداء فى الداخل وفى الخارج ،وتتحرر أدوم وسورية من حكمه ، ويحاول يربعام الثائر أن يحدث انقلاباً لعزل سليمان والجلوس على العرش مكانه . ولكنه يفشل ويفرُّ إلى مصر لاجئاً هناك حتى موت سليمان .

ثانياً : فى الاصحاح الثانى عشر تنقسم المملكة ، وينفرد يربعام بمملكة الشمال ، وينفرد رحبعام بالجنوب . ويروى الاصحاح الثالث عشر خطية يربعام الذى صنع عجلين من الذهب لعبادتهما فى دان وبيت إيل ، والرؤيا التى رآها أحد الأنبياء عن القضاء المنتظر والعقاب العادل . ويسرد الاصحاح الرابع عشر بقية قصة يربعام ورحبعام .

ومن هنا نحس تناسقاً منظماً فى سرد تاريخ المملكتين فى مستوى واحد . وقد كانت حياة يربعام أطول من حياة رحبعام ، ولذلك يستطرد الكاتب فى سرد قصة ملوك يهوذا الذين جاءوا بعده حتى موت يربعام . ثم يتناول الخيط مرة أخرى فيتحدث عن ملوك الشمال إلى آخر ملوك يهوذا الذى ذكر إسمه . ثم يعود بعد ذلك إلى مملكة يهوذا . وهكذا يتناول المملكتين كلاً بدورها .

وفى بداية قصة كل ملك ، يذكر السنة التى ملك فيها ملك المملكة الاخرى ، فيقول : « ... صار ملكا على يهوذا فى سنة كذا .... التى ملك فيها ... على إسرائيل » وهكذا . ثم يذكر الكاتب اسم أم الملك (إذا كان ملكا على يهوذا) . وبعد ذلك يذكر عدد سنى حكمه ويقيِّم حياته وأخلاقه وسيرته . وفى نهاية قصة كل ملك ، فقرة عن موته وعن خلفه فى العرش .

وفى الاصحاح السابع عشر نقرأ قصة الملك هوشع آخر ملوك الشمال ، وسحق المملكة ، وأسباب زوالها وفنائها ، ثم الشعبَ الجديد الغريب الذى حمله الأشوريون لإحلاله محل اليهود المسبيين ، ومن هذا التاريخ ظل العداء قائماً بين اليهود والسامريين حتى اليوم .

ثالثاً : بعد ذلك يتحدث التاريخ عن مملكة يهوذا مبتدئاً بحكم حزقيا (ص ١٨ — ٢٠) . ويسجل المؤرخ أخبار الحرب بين يهوذا وأشور ، وهى الحرب التى دمرت فيها البلاد ولكن بقيت أورشليم ذاتها قلعة حصينة ، وقد

علّل المؤرخ خلاصها دليلا على قوة يهوه وعنايته بالمدينة التى أحبها . ويتناول المؤرخ بعد ذلك قصص الملوك واحداً بعد الآخر ، حتى ينتهى بحكم صدقيا آخر ملوك يهوذا (ص ٢٤ : ١٨ — ٢٥ : ٢١) .ولأن هذا الملك لم يحفظ عهده مع نبوخذ نصر ، استولى البابليون على أورشليم ، ودمروها تدميراً ، وأحرقوا الهيكل ، وحملوا أبناء الشعب مسبيين إلى بابل . وأقام نبوخذ ، جدليا حاكماً على يهوذا ، ولكن الشعب ثار عليه وقتله ، وفرّ الزعماء إلى مصر . وكان هذا خاتمة العهد الملكى للعبرانيين . وينتهى السفر بقوله انه بعد سبعة وثلاثين عاماً فى السجن ، يطلق سراح يهوياكين، ويعطف عليه ملك بابل الجديد ويعامله بالحسنى (ص ٢٥ : ٢٧ — ٣٠) .

وبيّن أن آخر كتّاب سفرى الملوك قد استعان بكتابات مبكرة أقدم فى تاريخها من عصره . ومن هذه الكتابات مدونات الملوك العامة والخاصة. وبعض تلك المدونات كانت مسهبة مثل تاريخ سليمان وآخاب ، والبعض الآخر كان موجزاً . وكانت هناك أيضاً سجلات « بيت الله » فى أورشليم التى أخذت منها حتما تكاليف البناء وأحجامه . ثم كانت هناك أيضاً قصص الأنبياء وأكثرها إسهاباً قصص إيلياء واليشع وإشعياء ... كل هذه قد تناولها الكاتب ونسقها ونضدها فى سفر تاريخى رتيب . وكان هدف الكاتب أن يقدم بياناً ، لا عن التاريخ السياسى للشعب ، بل بالأولى عن الطرق والأساليب التى تغلب فيها الدين على التاريخ . وقد اتخذ من المملكتين قصة واحدة مسلسلة . ونلاحظ مثلا أنه أغفل بعض الحوادث الهامة مثل حرب آخاب مع شلمناصر ، لأنها لم تكن فى نظره ذات قيمة ، إذ لم يكن لها علاقة مباشرة بمسلك الملك والشعب حيال الله . كذلك أوجز فى تعليقه على حروب يربعام الثانى وخلاصه السياسى، بحيث لم يخصص لها أكثر من ثلاثة سطور ، بينما أسهب كثيراً فى سيرة ملوك آخرين مثل آخاب وحزقيا ، وذلك لأن أعمالهم ، صالحة كانت أو سيئة ، كان

لما قدرها من الناحية الدينية . وجدير بنا ألا نغفل هذه الحقيقة عند قراءة هذه الأسفار التى نسميها « تاريخية »، لأن حوادث التاريخ فيها مقترنة اقتراناً وثيقاً بالمبادىء الدينية .

وبيّن أيضاً أن المواد المدرجة فى الكتاب كتبت فى أزمنة مختلفة . وأكثرها سجل للحوادث التى شاهدها الكتّاب بعيونهم ، أو التى تلقوها من شهود عيان . على أن آخر الكتّاب دوّن تاريخه بعد سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ ق . م . وهذا واضح ، ليس لأنه ذكر هذه الحادثة بالذات وحسب، بل لأنه أصدر حكمه على عهود الملوك ، وقدَّر قيمتها ومعناها فى ضوء التغييرات التى قام بها يوشيا سنة ٦٢١ ق. م. وفى ضوء كتاب الشريعة (تثنية) الذى أُتخذ أساساً لهذه التغييرات . ولم يكن سفر الملوك الأول والثانى من عمل فئة خاصة من الكهنة ، والذى رجحه الباحثون أن السفرين كتبا فى وضعهما الحالى ، بينما كان اليهود فى بابل ، أو بعد عودتهم بقليل .

الأنبياء المتأخرون

إشعياءَ

اختلفت آراء الشراح والباحثين حول هذا السفر إختلافاً لا نظير له فى أى سفر آخر . وقد أجمع النقاد على أن إشعياء كتب جزءاً من هذا السفر ، على أن بعضهم قد ذهب إلى أنه كتب السفر كله ، وذهب البعض الآخر إلى أن السفر كتبه اثنان ، وقال آخرون ان الكتّاب ثلاثة .

والحق إننا حين نقرأ سفر إشعياء ، نرانا أمام بداية جديدة ومرحلة جديدة من الاصحاح الأربعين. ويذهب بعضهم إلى ان الاصحاحات من ٤٠ إلى ٦٦ كانت فى

الأصل كتاباً منفصلا عن الاصحاحات الاولى(١ ـ ٣٩) . ولعل الجزئين قد أدمجا معاً بطريق الصدفة عند نسخ أسفار الأنبياء ، ويرجع السبب إلى أن إسم النبي لم يُذكر فى بداية الجزء الثانى ، أى الاصحاح الأربعين .

ولا يتسع المجـــال هنا للافاضة فى إيراد الأدلة ، على أن نظرة مجلى إلى الجزئين كافية لأن تبرز لنا الفوارق بينهما .

وواضح أن إشعياء (١ ـ ٣٩) يتألف من عدة كتب صغرى أو مجاميع من الـكتابات . وفى أسفار الأنبياء أنواع مختلفة من الـكتابة أهمها :

أولا ـ كتابة شعرية، وهذه تتألف عادة من الأقوال التى نطق بها النبى.

ثانياً ـ كتابة نثرية وفيها يتكلم النبى شخصياً.

ثالثاً ـ كتابة نثرية فيها يتكلم شخص آخر عن حياة النبى .

هذه الأنواع الثلاثة نجدها فى سفر إشعياء الأول (١ ـ ٣٩) .

وفى السفر سبعة أقسام متميزة أحدها عن الآخر :

(١) ـ ص ١ وهو يشمل مجموعات من الإعـلانات الشعرية عن خطية مملـكة يهوذا وعقابها وخراب أورشليم . وبعضها، وربما كلها، يرجع إلى التاريخ الذى هجم فيه سنحاريب على البلاد . ولا نجرؤ على القول إن ترتيب الاعلانات المنفصلة فى السفر يتفق تماماً مع الترتيب الذى أعلنت فيه هذه الأقوال للنبى .

(٢) ص ٢ ـ ٥ ـ فى مستهل هذه المجموعة نقرأ اعلاناً رائعاً (٢ : ٢ـ٤) أدرج مرة أخرى فى سفر ميخا (٤ : ١ ـ ٤) وفى ص ٤ : ٢ ـ ٤ عبارات مشحونة بالرجاء وفى ص ٥ : ١ ـ ٧ أنشودة الـكرم . ولعل هـــذه كانت نشيداً أحبه عامة الشعب ، واستخدمه النبى لإيضاح تعليمه . أما الجزء الباقى من هذه المجموعة فقد شغل بعقاب يهوذا المرتقب . ومما يسترعى النظر فى هذه

المجموعة قسمان : الأول تهجم النبي على نساء أورشليم فى ص ٣ : ١٦ – ٤ : ١ هجوماً عنيفاً قاسياً . والثانى ست من المقطوعات الشعرية تبدأ كل مقطوعة منها بعبارة الويل والتهديد لأنواع مختلفة من الخاطئين الآثمين (٥ : ٨ – ٢٨) .

(٣) ص ٦ – ١٢ – أكثر الإعلانات فى هذه الفصول يرجع تاريخها إلى الفترة التى كان فيها ملوك إسرائيل ودمشق فى حرب شعواء مع عاهل أشور ، وهم يحاولون إقناع آحاز ملك يهوذا للانضمام إليهم . (حوالى سنة ٧٣٥ أو ٧٣٤ ق . م .) . وأكثر الناس يعرفون هذه المجموعة – أو على الأقل بعض أجزائها – مثل الأبيات الشعرية المتعلقة بعمانوئيل (٨ : ١٠ – ١٧) « اللهمعنا » وهو المسّيا الآتى (والمسيّاهى اللفظة العبرية الدالة على «المسيح») – (٩:١–٧) والقضيب الخارج من جذع يسى (١١ : ١ – ٩). وتنتهى أقوال اشعياء فى وضعها الحالى فى ص ١٠ .

أما معلنات ص ١١ فيرجع تاريخها إلى الفترة التى كان اسرائيل فيها مسبياً فى بابل ،أو بعد ذلك التاريخ ، لأن الكلمة « جذع » تعنى جزء الشجرة المدفون فى الأرض بعد قطعه . ولو أن الحكم كان باقياً فى أسرة داود ، لصيغت العبارة صياغة أخرى .وفى ص ١٢ نقرأ نشيدى حمد ، هما خاتمة هذه المجموعة .

وقد تضمنت هذه المجموعة أنواع الكتابة الثلاثة . فالجزء الأكبر من ص ٧ قصة عن إشعياء يرويها شخص آخر . وفى ص ٨ قطعة نثرية يتحدث فيها النبى نفسه ، مختلطة بقصيد شعرى يستخدمه الأنبياء عادة . وجدير بنا أن نشير إلى قطعة شيّقة (٩ : ٨ – ١٠ : ٤) وهى نشيد يتألف من أربعة مقاطع أو مقطوعات شعرية يختتم كل منها بهذا القرار :

« مع كل هذا لم يرتد غضبه » .

« بل يده ممدودة بعد » .

(٤) ص ١٣ ـ ٢٣ مجموعة من الإعلانات كلها تنبىء عن الخراب المتوقع على بعض الشعوب والأمم الأخرى. وأولى هذه الأمم بابل (١٣ ـ ١٤) والمرجح أن هذا النذير لم يعطه إشعياء نفسه، بل جاء عن طريق نبيّ متأخر عاش فى بابل فى الخمس مائة سنة الأخيرة قبل الميلاد، وذلك لأنه فى زمن إشعيا لم يكن ثمة خطر يهدد إسرائيل من جانب بابل. وفى ص ١٤ : ٥ ـ ٢١ نقرأ نشيداً مشحوناً بالأسى والشجن والنواح، وهو فى الواقع نموذج للفكاهة الساخرة المرة. أما الأمم الأخرى التى سيحلّ بها قضاء الله المحتوم فهى: موآب (ص ١٥ ـ ١٦) ودمشق (ص ١٧) والنوبة (ص ١٨) ومصر (ص ١٩ و ٢٠) «وبرية البحر» (ص ٢١ : ١ ـ ١٠) وأدوم (ص ٢١ : ١١ ـ ١٢) وبلاد العرب (ص ٢١ : ١٣ ـ ١٧) وصور (ص ٢٣). أما الاصحاح ٢٢ فهو فى غير مكانه فى هذه المجموعة، لأنه يتعلّق بيهوذا، لا بأمة غريبة.

(٥) ص ٢٤ ـ ٢٧ ـ تختلف هذه المجموعة عن كل ما عداها فى إشعياء. فهى فى الواقع ليست من عمل نبى بالمعنى المفهوم من النبوة، إنما هى من أسفار الرؤى، وترسم صورة ليهوه ـ الله ـ يتخذ كرسيه ملكاً بعد دمار كل أعدائه. وفى الصورة وليمة كبرى تتضمن أناشيد يغنيها القديسون حمداً وتسبيحاً. وهذه الأناشيد وردت فى ص ٢٥ : ١ ـ ٥ وص ٢٥ : ٩ ـ ١٢ و ٢٦ : ١ ـ ١٩ و ٢٧ : ٢ ـ ٦

(٦) ص ٢٨ ـ ٣٥ ـ هذه آخر مجموعة فى إعلانات إشعياء وتنتسب أجزاؤها المختلفة إلى أزمنة مختلفة، يرجع بعضها إلى تاريخ مبكر قبل سقوط السامرة (٧٢١ ق.م.)، ويرجع بعضها الآخر إلى العصر الذى رفع فيه حزقيا السلاح ضد سنحاريب. ومما لا شك فيه أن الاصحاحات ٣٣ ـ ٣٥ ليست من صنع أشعياء نفسه، بل من تاريخ متأخر، من السبى أو ربما بعد السبى، وذلك

لأن الصورة الجميلة الرائعة للطريق الجديد فى البرية تبدو لنا قيمته وروعته حين نقرنه بالعصر الذى أمل فيه اليهود العود من السبى إلى أورشليم .

(٧) وفى ختام مجاميع هذه الإعلانات التى أذاعها إشعياء، وغيره من الأنبياء أضاف جامع هذا السفر فى وضعه الحالى ، منتخبات من مواد استقاها من تاريخ يهوذا (ص ٣٦ ـ ٣٩) . وفى هذا النوع من الكتابة نجد بعض الحوادث من سيرة النبى ، وهى متعادلة مع ماجاء فى سفر الملوك الثانى (١٨ : ١٣ و ١٧ و ٢٠ : ١٩) . على أن هناك بعض الفوارق الطفيفة ، ففى إشعياء ٣٨ : ٩ ـ ٢٠ نقرأ نشيد حزقيا فى تسبيح يهوه من أجل خلاصه من داء ألم به ، وهذا النشيد لم يرد إطلاقاً فى سفر الملوك . ومن المحتمل أن إشعياء لم ينقل عن سفر الملوك ، بل أن الإثنين نقلا هذه البيانات من مصدر ثالث ، ربما كان سجل حكم حزقيا الملك .

ونظن أن فى هذا القدر الكفاية لنستبين أن سفر إشعياء (ص ١ ـ ٣٩) قد كتبته أيد مختلفة، وأغلبها من صنع إشعياء نفسه ، وهى تزودنا بقسط وافر من المعرفة عن حوادث عصره ، وعن الطريقة التى صانت بها مملكة يهوذا إستقلالها وحياتها بعد سقوط السامرة عاصمة مملكة الشمال .

وفى وسعنا أن نحدد أزمنة بعض هذه الحوادث ، مثل حوادث الاصحاح الأول. وهى بلا شك تتحدث عن زمن كانت فيه مملكة يهوذا نهباً لجيوش أمة أخرى . وقد تكون هذه الحوادث هى بعينها التى جاءت فى ص٧و٨ التى يمكن تحديد تاريخها بالضبط حوالى سنة ٧٣٥ق.م . أو سنة ٧٠١ ق . م. حينما كان سنحاريب فى فلسطين. أما بعض الحوادث الأخرى فقد دونها أنبياء متأخرون ، عاش بعضهم فى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد، والبعض الآخر عاش فى فلسطين بعد عودة اليهود من بابل . ويتضح مما سبق أن سفر إشعياء (١ ـ ٣٩) لم يوجد فى وضعه الحالى إلا بعد السبى بزمن طويل . على أن المجموعات التى تألف منها السفر يرجع تاريخها إلى زمن مبكر ، وربما حدث بعضها قبل سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ق.م .

وحين نجىء إلى إشعياء (٤٠ ـ ٥٦) نقف مشدوهين متسائلين : كيف اتحدت هذه الاصحاحات بما سبقها ، وكوّنت كتاباً واحداً نُسب إلى الكاتب عينه . وذلك لأن طريقة الكتابة تختلف إختلافاً بيناً ، وبها ألفاظ لم ترد إطلاقاً فى السفر الأول . والأهم من هذا كله أن ظروف الشعب الذى وجّه إليه النبى أقواله تختلف فى السفرين . فإشعياء وضع كتابه فى زمن كانت فيه مملكة يهوذا حيّة ترزق ، وكان شعبها يعيش فى ربوع فلسطين . ولكن حين نجىء إلى ص ٤٠ نرانا أمام حديث يؤخذ منه أن الشعب لا وجود له فى فلسطين ، إنما هو مسبىٌّ فى بابل . وفى السفر الأول نقرأ أسماء خمسة أو ستة من الملوك ، هم أحاز وحزقيا فى يهوذا ، وفقح ملك إسرائيل ، ورصين ملك دمشق ، وسنحاريب ملك أشور ، ومردوخ بلادان ملك بابل ـ وهؤلاء كلهم عاشوا فى زمن واحد فى السبع مائة سنة الأخيرة قبل الميلاد .

أما فى السفر الثانى فلا نقرأ إلا عن ملك واحد هو داريوس ملك الفرس ، الذى استولى على بابل وجعل نفسه سيد المملكة البابلية سنة ٥٣٨ ق . م . ـ أى بعد انقضاء مائة وخمسين عاماً على زمن إشعياء . وليس هذا وحسب ، ولكن يوم أذيعت تلك الإعلانات فى ص ٤٠ كانت أورشليم قد نُهبت واختفى الهيكل من عالم الوجود . وعلى أساس اليقين أن الله قد تخلى عن أرضه ، يقدم لنا إشعياء فى ص ٤٠ صورة لعودته عن طريق كبير عبر البرية . ونحن لا ننكر أنه ربما يكون الله قد لقّن إشعياء تعاليم عن تعزية الشعب ، وملأ قلوبهم بالرجاء فى العودة بعد مائة وخمسين عاماً من يومه ، على أنه لا يوجد نموذج لمثل هذا العمل فى غير هذا الموقف ، ويؤيد جمهرة العلماء أن هذه الإعلانات من عمل نبى آخر عاش فى بابل فى وقت داريوس ، وهذا النبى هو الذى أذاع نداء العزاء والأمل فى الخلاص من السبى . على أن اسم هذا النبى قد طُمر فى بطن التاريخ . وحين أضيفت بعض أقواله بعد أقوال إشعياء ، كان يسيراً على الناسخ أن يستمر فى الكتابة دون فاصل بين هذه وتلك . ثم جاء الناسخون بعده فظنوا أن السفر كله كتاب واحد منسوب إلى إشعياء .

ومرة أخرى نجيء إلى ص ٥٦ فنرانا أمام تغيير آخر في طريقة الكتابة، وفي ظروف القوم الذين أعطيت لهم المعلنات . وليس التغيير بارزاً بروزه بين القسم الأول والثاني، ولكنه تغيير ظاهر على كل حال .

ومرة أخرى نجد اليهود في وطنهم بعد السبي . وفي بعض المواضع يبدو لنا أن الهيكل قد قام من جديد (٥٦ : ٦). على أنه لم يذكر إسم أحد من الملوك ، والأحوال الراهنة ليست أحوال يهوذا قبل سقوط أورشليم . وفي هذا المجال يقال الشيء الكثير عن السبت وعن الصوم ، وتُفصَّل أمامنا خطيئة يهوذا وما نجم عنها من متاعب وعقوبات . وفي ص ٤٠ ـ ٥٥ نقرأ أن زمن العقاب والدينونة قد ولَّى، وأن يهوذا قد اقترفت في الماضي أخطاء، ولكن الله أوقع عليها من العقاب ضعف ما صنعت يدها من أخطاء . ويخيل الينا أحياناً أن لغة النبي في ص ٥٦ ـ ٦٦ أقرب إلى كتابات الأنبياء المتقدمين مثل عاموس وهوشع، منها إلى لغة النبي الذي خلَّف لنا القسم الثاني من اشعياء (٤٠ ـ ٥٥) . ولكن أغلب الظن أن كتابات هذا القسم الثالث لا ترجع إلى ماقبل السبى ، وأفضل مااستنبطه العلماء والباحثون هو أن الاصحاحات (٥٦ ـ ٦٦) تتضمن تعليما لنبيّ متأخر عاش في فلسطين بعد عودة اليهود من بابل بحوالي مائة عام. ولا نعرف مَن كان ذلك النبي ، ربما كان أكثر من واحد. وبعد هذا ليس من العسير أن نرى كيف أدمج الكتابان ، الثاني (٤٠ـ٥٥) والثالث(٥٦ـ٦٦) مع الكتاب الأول (١ ـ ٤٩) ، وحسبها الناسخون كلها كتاباً واحداً منسوباً إلى صاحب الكتاب الأول .

وبسبب جهلنا أسماء الكاتبين، نقول عادة « إشعياء الثاني» (٤٠ — ٥٥) و « إشعياء الثالث» (٥٦ — ٦٦) .

عبد الله :

وإنه لمن الشيِّق أن نشير هنا إلى مجموعة من الأناشيد في إشعياء الثاني ترسم صورة عن « عبد الله » . وإنا لواجدون أربعة من هذه الأناشيد لا ترد كلها مجتمعة معا وهي :

١ — ٤٢ : ١ — ٤

٢ — ٤٩ : ١ — ٦

٣ — ٥٠ : ٤ — ٩ .

٤ — ٥٢ : ١٣ — ٥٣ : ١٢

وفى النشيد الأول يصف الله ذاته هذا العبد ، ويقول ان عمله سيشمل الدينونة . وفى النشيد الثانى يتكلم العبد نفسه ، ويقول ان الله قد اصطفاه ، وصانه ، وأرسله ليكون نوراً للأمم ، أى لكل شعوب الأرض .

وفى النشيد الثالث يتكلم العبد نفسه مرة أخرى ، ويتحدث عن العناء والآلام التى كافأه بها منَ ابتغى خدمتهم وخلاصهم . أما النشيد الرابع — وهو من أبرع المقطوعات فى الكتاب المقدس — فهو يسجل بيانا عن حياة العبد وعمله وموته ، وقد جاء النشيد على لسان الشعب الذى عرفه معرفة أكمل بعد موته .

ويتوارد على الذهن عديد من الأسئلة عن هذه الأناشيد : مَن هو كاتبها ؟ هل هو النبى الذى كتب الفصول ٤٠ ـ ٥٥ من سفر اشعياء، أم شخص آخر غيره ؟ وهل كان فى فكره إنسان معين بالذات عرفه شخصياً ؟ وإن كان الأمر كذلك فمَن هو ؟ وما هو التعليم الذى نتلقنه من هذه الأناشيد ؟

ويذهب بعض الشراح إلى أن كاتب هذه الأناشيد لم يكن النبى إشعياء الذى كتب الفصول ٤٠ ـ ٥٥، بل كان نبيا من المتقدمين الأوائل نقلت كتابته وأدمجت ضمن كتابات الأنبياء المتأخرين . ويذهب آخرون إلى أن الأناشيد من صنع إشعياء الثانى نفسه . وطريقة الكتابة لا تتسق دائماً مع بقية الكتاب.

على أن الفوارق فى الكتابة ليست بالقدر الذى يحملنا على اليقين بأن الأناشيد من صنع نبىٍّ آخر .

أما عن شخصية هذا العبد، فقد تفرعت الآراء، وتعددت مناحى التفكير. فقال فريق انه إرمياء أو إشعياء الثانى نفسه. (وهنا نسأل كيف استطاع هذا الأخير أن يكتب بياناً عن موته !). وذهب فريق آخر إلى الزعم بأنه زربابل أو موسى . ويقول بعض الخبراء ان العبد يمثل الشعب كله كأنه فرد واحد ، أو على الأقل هو النخبة المختارة من هـذا الشعب التى اصطفاهـا الله . أما الكنيسة المسيحية فقد فكرت أن العبد المشار إليه فى هـذه الأناشيد هو يسوع ذاته .

وبعد كل هذا يصعب علينا الجزم بقول فاصل فى شخصية ذلك العبد، الذى رسمه النبى فى أناشيده . وحسبنا القول ان كلام النبى هو إحدى الطرق التى أراد الله أن يشرح بها للانسان حقاً خالداً . وقلب الرؤيا حق لاريب فيه. فحيثما وجد عبد الله الحق ، فإن كلام النبى ينطبق عليه ويصدق فيه . على أنه فى التاريخ البشرى كله لم يظهر إلا إنسان واحد ، معصوم بلا خطية ، هو يسوع . وبهذا المعنى يحق لنا القول انه هو الإنسان الذى وصفه النبى فى قصيده الرائع . بيد أنه ينبغى أن نلزم جانب الحرص فى التطبيق والتخريج ، ذلك لأن العبد فى النشيد الرابع أبرص ، ويسوع لم يكن كذلك . ثم ينبغى أن نذكر أن الصورة التى رسمتها الأناشيد تنطبق ــ على الأقل فى بعض أجزائها ــ على كل إنسان يرتضى أن يكون عبداً لله .

وفى إشعياء الثالث (ص ٥٦ — ٦٦) نرانا أمام عديد من الآراء تفوق فى كثرتها الآراء المختلفة التى فصلناها عن إشعياء الثانى . وقد قيل فى هذا القسم الشىء الكثير عن الخطايا التى اقترفهـا إسرائيل ، السابقة منها والحاضرة ،

بعضها أعمال القسوة والاعنات التى حلّت بالفقراء والضعفاء (مثل ٥٩ : ١ ـ ١٥)، وبعضهـا التصرفات الناشئة عن عبادة الآلهة الكذبة (مثل ٥٧ : ٣ ـ ١٤ و ٦٥ : ١ ـ ١٢) . وقد شدد هـذا النبى على بعض طقوس العبادة مثل شريعة السبت (٥٦ : ١ ـ ٨) والصوم (٥٧ : ١ ـ ٧) ، وتنبأ عن مستقبل مشرق لأورشليم وكل الذين يحفظون شريعة الله (ص ٦٠) . وفى بعض المواضع نقرأ أناشيد السبح والحمد ، أو الندم والتأسى (مثل ٦١ : ١٠ ـ ١٢ و ٦٣ : ٧ و ٦٤ : ١٢) .

ويصعب علينا الجزم بقول فاصل عن تاريخ كتابة هذا السفر . والأرجح أنه كتب بعد السبى وقبل مجىء عزرا إلى أورشليم أى بين سنة ٥٠٠ ـ ٤٠٠ ق . م .

سفر إرمياء

إن هذا السفر حافل بالروعة وعمق الخيال فى عباراته ومعلناته ، وفى كشفه شخصية الكاتب وحياته وأحاسيس نفسه . وهو يقرن نبواته بكثير من الروايات الشخصية والمناجاة الفردية، بحيث يحسُّ القارىء أنه واقف إلى جانب ذلك النبى الباكى ، يقاسمه تقلبات حظه العاثر ، ويشاركه فى مصارعاته التى انطوت عليها جوانحه ،ويعجب به فى توسلاته الخارجة من أعماق نفسه، وفى إيمانه الأصيل المتأصل الذى يعلو منتصراً فوق خيبة الأمل التى دهمته ، وهو الغيور الملتهب بالنار .

ومثل سفر إشعياء يتألف سفر إرمياء من مجموعات من الأقوال ، بعضها نثر وبعضها نظم، يضاف إليها مختارات من القصص من سيرة النبى وحياته . وبين هذا السفر وأسفار العهد القديم الأخرى فارق بارز . فالأسفار الأخرى إنمـا هى

رسالات قام الأنبياء بابلاغها للشعب كما تلقّوها من قبل الله . أما سفر إرمياء فهو رسالة اقترنت بكثير من الشئون التاريخية والسياسية التى كان لها شأن فى دول ذلك العصر ، كما اقترنت أيضاً بكثير من حياة النبى الخاصة وشئون نفسه .

والسفر كما هو بين أيدينا اليوم، وبشهادة كاتبه ، ليس من وضع النبى، ولا من تأليفه، بل قد دبجه وصاغه صديقه وكاتبه باروخ بن نيريا . ونصوص السفر ذاته تحدثنا عن كيفية جمع أجزائه المختلفة، والأسباب والعوامل التى لعبت دورها فى صياغته، والزمن الذى جمعت فيه هذه الأجزاء المتناثرة ، وماذا حلّ ببعضها. وأكبر الظن أن باروخا هذا ،أو مؤلفاً غيره فيما بعد ، هو الذى أضاف الفصول التاريخية عن حياة النبى ، وعن الحوادث السياسية التى جرت فى ذلك العصر .

ويمكن تقسيم رسالة إرمياء إلى ثلاث فترات، يفصلها بعضها عن بعض حادثتان خطيرتان، كان لهما أعمق الأثر فى حياة الأمة ، وهما هزيمة مصر أمام بابل فى موقعة كركميش فى السنة الرابعة من حكم يهويا قيم (٦٠٥ ق . م .) وسقوط أورشليم سنة ٥٨٦ ق . م .

الفترة الأولى :

قبل دعوة إرمياء بخمس سنين، أى فى السنة الثالثة عشرة من حكم يوشيا الملك (٦٢٥ ق . م .) قام الملك بحملة ناجحة ضد عبادة الأوثان . وبعد ذلك بقليل استكشف «سفر الشريعة» فى الهيكل ، فأثار عاصفة من الإصلاح والتجديد ، كان لإرمياء بلا شك اليد الطولى فيها (ص ١١ و ١٢) . وفى الوقت عينه كانت تتجمع سحب فى الشمال تنذر بغزو الأشوريين . وفى تلك الفترة كان البيت المالك يقف إلى جانب البر والصلاح ، ولو أنه كان يميل إلى الإتكال على دول أجنبية (٢ : ١٨ و ٣٦) .

ولكن بعد موت يوشيا أقام فرعون يهوياقيم ملكا ، فتبدل الحال غير

الحال . وكانت بابل قبل ذلك بسنوات قلال خلعت عنها النير الأشورى ، وغدت بعد موقعة كركميش سيدة العالم المحيط بها. وهنا يتصدى إرمياء ويعلن نُذره فتلقى آذانا صاغية من بعض الأمراء ، ولكن تلقى عناداً من الكهنة والأنبياء الكذبة والملك ، فيلقى القبضّ عليه فى الهيكل ثم يطلق سراحه (٢٠ : ١ — ٦ و ٢٦ : ٧ — ٢٤) . ويعقب ذلك حــــرق درج السفر (٣٦ : ٥ — ٢٥) وهرب إرمياء .

الفترة الثانية :

أما الفترة الثانية فكانت صراعاً مريراً ، وذلك لأن يهوياقيم ، وأخاه يهوآحاز ، وأخيراً صدقيا — الملوك الثلاثة « صنعوا الشر فى عينى الرب » . وقد نجا الشعب من اشور ليقع فى قبضة بابل ، وجلس على العرش ملوك ضعفاء آثمون ، يخضعون تارة لسلطان الغاصب ، ويقلبون له تارة أخرى ظهر المجن ، حتى ينفد صبر نبوخذنصر عاهل بابل ، ويحمل يهوياكين أسيرا مسبياً ، ويقيم صدقيا على العرش مكانه (٥٩٧ ق . م .)

وفى هذه الفترة يلح إرميا على الوفاء بالعهود والاتفاقيات التى أبرمت مع بابل . وكان صدقيا ميالا إلى قبول النصح ، ولكن الكهنة والأمراء أبوا قبول نصيحة النبى ، فراحت مملكة يهوذا تتردى فى الهاوية إلى القضاء المحتوم . ومرة أخرى يلقى القبض على إرمياء ويسجن ، أولا فى جبّ مظلم ، ثم فى دار السجن ، على أن إيمانه فى محبة الله يظل قوياً ، ومحبته لأمته لا يعروها تبديل ، كما تدل على ذلك أقواله التى تفوه بها فى السجن (ص ٣١ — ٣٣) . والآن يفصح بجلاء فى نبواته عن السبى ، وعود البقية الأمينة فى المستقبل البعيد .

الفترة الثالثة :

تبدأ الفترة الثالثة بسقوط أورشليم . وبرضاء حكام بابل يبقى إرميا مع البقية

الباقية فى أورشليم ، ينصح ويدبر ويبث رسالة العزاء والرجاء فى النفوس الحائرة اليائسة. ومع ذلك كله يصمُّ الشعب آذانه كعادته ، ويرفع راية العصيان مرة أخرى.وبعد مصرع جدليا يهرب الشعب إلى مصر — إلى تحفنحيس — وإرمياء معهم حيث ألقى هناك رسائله الختامية (٤٣ : ٩- ١١ و ٤٤ : ٣٠) . وتقول التقاليد انه رُجم فى مصر ودفن فيها .

رسالة السفر :

رسالة السفر مزيج من المعانى، فهى وطنية . دينية . فردية .نبوية .

رسالة وطنية : دعى أرمياء ايواجه ملوكاً وشعوباً (١ : ١٠ و ١٨) وحفلت أقواله بوقائع الفترة التاريخية التى عاش فيها ، ولكنها تقدم العبر والعظات لهذا العصر. رأى الممالك القوية أدوات يستخدمها الله للدينونة، وعرف أن قيامها وسقوطها ومصير الدول الصغرى حولها رهن لمشيئة الله .

رسالة دينية : رأى أن نجاح أمته إنما يقوم على البرّ والعدل والتمسك بمكارم الأخلاق فى الحياة اليومية. ثم عرف أن هذه كلها لاتقوم لها قائمة إلا متى استندت إلى العوامل الروحية ، ترك الآبار المشققة التى لاتضبط ماء، والعود إلى ينبوع المياه الحيّة (٢ : ١٣) .

دعا الشعب إلى أن يطرقوا السبل القديمة (٦ : ١٦) ، ويسلكوا فى شريعة الله (٢٦ : ٤) بالحق والأمانة . وما لم يفعلوا هذا ، لاينفعهم تابوت العهد ، ولا الهيكل ، ولا الذبائح (٣ : ١٦ و ٦ : ٢٠ و ٧ : ١٠ و ٢١). وفى المخاطر التى تهددهم لاينقذهم ذراع البشر ، إنما ربهم هو معقل الرجاء ، والمخلص والفادى (٢ : ١٨ و ١٨ : ٦ و ٢٣ : ٧) .

رسالة فردية : كان إرمياء مبشراً بالدين الفردى ، دين القلب ، وقد ذكر كلمة القلب فى رسالته إحدى وسبعين مرة ! وكانت هذه الدعوة منسجمة مع

الإصـــلاح الذى قام به يوشيا (٣ : ٦ ـ ١٠ و ٧ : ٨ـ١١ و ٩ : ٢ـ٦ و ١١ : ٢٠) .

وقد أبصر بعينه الدامعة الحزينة أن رسالته يرفضها الأكثرون، ولا يقبلها إلا الأقلون ، فأدرك أن قصد الله لن يتم عن طريق الأمة بأسرها ، بل عن طريق أقلية مختارة تُكتب على قلوبهم شريعة الله فى عهد جديد من النعمة (٣١ : ٣١ ـ ٣٤ و ٥٠ : ٥) .

رسالة نبوية : وقد تحققت فى حياته بعض النبوات التى أعلنها ، وتحقق بعضها بعد يومه بزمن قصير ، ولكن أكثرها تحقق فى تاريخ العهد الجديد . فنبوته عن العهد الجديد (٣١ : ٣١ ـ ٣٤) قد عالجها كاتب سفر العبرانيين فيما بعد (عبرانيين ٨ : ٨ ـ ١٣ و ١٠ : ١٥ ـ ١٧) . ولعلّها كانت فى فكر ربنا فى كلماته الأخيرة فى العشاء الأخير (لوقا ٢٢ . ٢٠) : كما أن كاتب سفر الرؤيا يقتبس بعض أقواله فى مواضع مختلفة وخاصة عن تدمير بابل (رؤيا ١٨ : ٢٢ و ١٤ : ٨ و ١٧ : ٢ ـ ٤ و ١٨ : ٢ ـ ٥ يقابلها إرمياء ٢٥ : ١٠ و ٥١ : ٧ ـ ٩ و ٤٥ و ٦٣ و ٦٤) .

حقاً ، إن سفر إرميا ، مثل رسائل بولس ، يرسم لنا صورة واضحة عن كاتبه. وهو فى طبيعته شديد الحساسية مكبوت النفس ، ولكنه تقوّى وتشجع بنعمة الله . وقد وقف ضده واضطهده الكهنة والشعب ، ولكنه لم يتقاعس ولم تلن قناته ، بل ثابر وصابر فى تقديم النصح الحكيم ، فى صبر باسل وإيثار يوقظ أكثر القلوب بلادة وبرودة ، معلناً محبة الله الفائقة لشعب جاحد ناكر للجميل، صلب الرقبة .

سفر حزقيال

يشمل سفر حزقيال — مثل سائر كتب الأنبياء — انواعاً مختلفة من الكتابة : نثراً ونظماً : ففى الأجزاء النثرية نرى النبى نفسه هو المتكلم ، ويبدو لنا من هذا أن السفر كله من صنع النبى حزقيال . على أن الرأى السائد بين الخبراء وعلماء الكتاب أن بعض أجزاء هذا السفر كتبتها أيد فى تاريخ متأخر ، وأن حزقيال لم يضع السفر كله فى وضعه الحالى الذى بايدينا . وفى بعض المواضع القليلة نرانا أمام أساليب مختلفة من الكتابة مما يثبت أن أكثر من كاتب واحد اشترك فى صياغته . وليس يتسع المجال هنا للافاضة فى هذا الشأن ، ولكن حسبنا القول ان أهم الأجزاء فى هذا السفر وأكثرها، كتبها حزقيال نفسه، وآخرين أضافوا اليها القليل جداً، وأهمها فى القسم الاخير من الكتاب. ولكن حتى فى هذه الإضافات القليلة نحسُّ فكر النبىّ وتعليمه وعلو قدره فى تطوير دين الشعب .

وقبل يومه كان الكهنة والأنبياء على طرفى نقيض. ويبدو لنا أن الأنبياء اعتقدوا أن المكان المقدس، والتقدمات المقدسة ، والعبادة المادية بكل أوضاعها، ليست بذات قيمة فى الدين الحق. ولكن حزقيال كان كاهنا ونبياً فى آن واحد . كان كاهناً فى بيت الله القديم قبل أن يدمره نبوخذ نصر . ويوم أُخذ النبى مسبياً إلى بابل كان الهيكل مازال قائماً وعبادته قائمة . وفى رأى النبى أنه بدون بيت الله لا يكمل الدين الحق ، ولا يمكن حفظ طقوس العبادة . وبعد عصره وقف النبى والكاهن فى صف واحد، وذهب بعض الأنبياء إلى أنه من الخطأ ألاّ تقدم الذبائح على المذبح .

حزقيال وارمياء :

وقد اختلف حزقيال عن إرمياء اختلافاً بيناً — فإرمياء كان رقيقاً هادئاً تاقت

نفسه إلى السلام . وقد تألم أشد الإيلام بسبب خطايا شعبه ، وجعل نفسه واحداً معهم ، وحسب خطاياهم خطاياه ، وآلامهم آلامه — أما حزقيال فكان على نقيض ذلك . كان قاسياً بارداً ، اتخذ موقفه فى عزلة عن شعبه ، كأنه قاض على كرسى القضاء ، يصدر أحكامه لعقاب الجريمة ، ولم يحسب نفسه واحداً من الشعب . وكان هذا الموقف أثراً طبيعياً لعقيدته بأن كل إنسان مسئول عن أعماله ، لا عن أعمال الآخرين . فالآخرون قد أخطأوا ، ومن واجبه الآن أن يبصِّرهم بآثامهم وأن يحثَّهم على الأنابة والاستغفار . وعند ذلك تنتهى مهمته ، فإذا أمعن المذنب فى ذنبه ، ولم يرعو عن غيِّه ، فلا شأن للبشير المنذر بعد ذلك . وفى موضع واحد فقط نحسُّ بعاطفة الحب والرقة تفيض فى نفسه ، وذلك حين ينعى وفاة المرأة التى أحبها . وبعد هذا لا ننكر أنه كان للنبىِّ رسالة عظمى ومهمة نبيلة أداها على أحسن ما يكون الأداء بالقوة المعطاة له من الله .

تاريخ السفر :

فى أكثر الأحيان يذكر النبى اليوم بالضبط الذى تلقّى فيه إعلانه . فأولى أقواله جاءته فى السنة الخامسة بعد سبى يهوياكين من أورشليم إلى بابل ، أى سنة ٥٩٣ أو ٥٩٢ ق . م . وآخر أقواله ترجع إلى سنة ٥٧٢ ق . م . أى بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً . لذلك يصح القول ان أكثر أجزاء الكتاب يمكن وضعها تاريخياً بين سنة ٥٩٣ و٥٧٢ ق . م .

محتويات السفر :

ينقسم سفر حزقيال إلى ثلاثة أقسام : الأول من ص ١ — ٢٤ يندد بخطايا الشعب وآثامه ، وينذر بالعقوبات المتوقعة . والثانى من ص ٢٥ — ٣٢ مجموعة من الإعلانات والرؤى عن الشعوب الأخرى . والثالث من ص ٣٤ — ٤٨ يحفل بالأمل المرموق فى العود من السبى ، وفى مستقبل سعيد فى بيت الله .

القسم الأول :

ص ١ ـ ٣ حزقيال فى بابل يرى رؤى عجيبة غريبة ، إذ يجىء إليه الله فى مركبة متلمعة مصنوعة ، لا من مواد ميتة ، بل من كائنات حيـّة ، بعضها فى أشكال حيوانات ولـكن بأجنحة مثل الطيور وبوجوه آدمية . ومن مركبته يقدم يهوه للنبى رسالته ، ويضع كتابا فى فمه ، يشتمل على الأقوال التى يتفوه بها .

ص ٤ ـ ٥ بأمر الله يأتى حزقيال أعمالا غريبة ، فقد غمرته قوة يهوه بحيث لم يعد قادراً على التفوه بألفاظ ، ولذلك يقدم تعاليمه بواسطة أعمال . وتلك الأعمال (خمسة فى عددها) إنما هى علامات لهجوم نبوخذ نصر على أورشليم وتدميرها تدميراً .

ص ٦ و ٧ وهنا يشرح العقوبة فى ألفاظ ، أولا ضد جبال إسرائيل التى عبدوا فوقها الآلهة الـكذبة ، ثم يصف النهاية المحتومة . وكل أقواله حتى الآن يصيغها نثراً ، ماعدا الاصحاح السابع فهو نظم شعرى .

ص ٨ — ١١ يرى حزقيال بيت الله وما فيه من رجاسات عبادة الأوثان والآلهة الشريرة ، وتدمغ وجوه الذين حفظـــوا الشريعة ويهلك الآخرون . وبعد ذلك تحرق أورشليم بالنار ويغادر يهوه بيته فى مركبته .

ص ١٢ — ١٩ عقاب مملـكة يهوذا من أجل ذنوبهـــا . وهنا أيضاً نرى أعمالا يأتيها النبى نُذراً بسقوط أورشليم . ويعدد النبى الخطايا التى اقترفها الشعب ـ محاولة بعض النساء اصطياد نفوس الرجال وإزهاق حياتهم . عبادة الآلهة الـكذبة .

وفى ص ١٦ نجد مقارنة بين يهوذا وبين إمرأة رعاها يهوه طفلة صغيرة ، ثم تزوجت إلهها . ولكنها خانت عهده وركضت وراء عشاق آخرين، فحلَّ بها القصاص . ولكن بعد أن احترقت خطاياها يردها يهوه إليه . وفى ص ١٧ يشرح النبى مسلك يهوذا وخيانة الأمة لسيدها ملك بابل والتجاءها لمعونة مصر ، فيرسل يهوه عاهل بابل للاقتصاص منها. ولعلَّ ص ١٨ هو أهم فصل فى الكتاب من حيث علاقته بالدين اليهودى . وهنا يتناول حزقيال تعليم النبى إرمياء الذى كان قد رآه وهو شاب فى أورشليم ويتبسط فى هذا التعليم . ففى غابر الأزمان درج الناس على أن يقبلوا إلى إلههم (أو آلهتهم) بوساطة الشعب كله أو الأسرة . ولم يمكن ممكناً للانسان أن يتقدم إلى إلهه بنفسه . ولذلك كان يظن أن الإنسان يناله قسط من القصاص من أجل ذنوب لم يقترفها هو . وكان من أمثالهم السائرة : « الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست » . ولكن ارمياء نادى بخطأ هذه الفكرة (ارمياء ٣١ : ٢٩ و ٣٠) وجاء بعده حزقيال، فأسهب فى شرحها بألفاظ أقوى وأسلوب أشد صرامة . وقال إذا أخطأ إنسان ، فالقصاص يقع عليه ، لا على أبنائه ولا على أى إنسان آخر . وكانت تلك فكرة جديدة فى الدين مافتئت باقية حتى اليوم .

ص ٢٠ ـ ٢٤ هنا نجد مجموعة أخرى من الأقوال بعضها فى شعر منظوم ، تفضح خطايا إسرائيل ويهوذا . وضمنها صورة صانع معادن يدخل فى صناعته زغلا ومواد غريبة ، فتحترق لكى تصفى

من الزغل (٢٢ : ١٧ ـ ٢٢ وانظر ارمياء ٦ : ٢٧ ـ ٣٠).
وثمة صورة أخـــرى عن مقارنة بين إسرائيل ويهوذا
فى الجانب الواحد ، وأختين فى الجانب الآخر ، تزوجت
الأختان من يهوه . وقد حلّ القصاص بالأخت الكبرى
منذ زمن ، ولكن سلوك الصغرى أقذر وأشرّ ، فحلّ
عقابها واقترب دمارها . وفى (ص ٢٤ : ١٥ ـ ١٨) نقرأ
الحادثة الشخصية الواحدة فى حياة النبى ، إذ تموت زوجته
فيتحطم قلبه، ويرى فى هـذه النكبة الشخصية نذيراً
بسقوط أورشليم .

القسم الثانى : الرؤى ضد الشعوب الأخرى (ص ٣٥ ـ ٣٢) أما هـذه
الشعوب فهى :عمون ، وموآب ، وآدوم ، والفلسطينيين ،
وصور، ومصر .

القسم الثالث : إسرائيل الجديد (ص ٣٣ ـ ٤٨)، وفى هذا القسم يصف
النبى حالة الأمة فى السبى فى بابل والقصاص الذى حلّ بها .
ولكنه يتنبأ عن العود من السبى وإعادة بناء الهيكل. وقد
أمل أن يراه مثل الهيكل القديم الذى كان هو كاهناً فيه .

وأما بقية الكتاب فقد عالج معظمه طقوس العبادة ، والقواعد التى يتحتم
على الكهنة الحرص عليها . وفى ص ٤٧ يرى حزقيال رؤيا عن نهر عظيم ينبع
من تحت بيت الله ، ويجرى جنوباً بشرق ، ويتسع مجراه ، وتتعمق مياهه ، إلى
أن يصب فى البحر الميت ، فتستحيل مياهه المرة حلوة عذبة .

هـوشع

سفر هوشع هو أول سفر فى المجموعة التى أطلق عليها « صغار الانبياء » . وفى الكتاب المقدس العبرى نجد هذه الاسفار كلها يضمها كتاب واحد تحت عنوان « الانبياء الأثنى عشر » .

وأبرز الوقائع فى حياة هوشع اختياره كنبى ، واختباره مع الزوجة التى تزوج منها . ففى الاصحاح الأول يأمره الله أن يتخذ له زوجة سيئة السلوك ، فيتزوج « جومر » وتلد له ثلاثة أطفال يسميهم بأسماء ذات دلالة فى حياة شعبه : الأول صبى أسماه « يزرعيل » تذكاراً للفعلة الشنيعة القاسية التى أتاها ياهو يوم ذبح عبدة البعل . ولئن كانت فعلة الملك دفاعاً عن عبادة يهوه ، الا ان الطريقة التي اتاها بهـا كانت مشينة رهيبة تستوجب قصاصا يحلّ باسرائيل .

والطفل الثانى كانت بنتاً اسماها « لورحامة » ومعناها « الطفلة الطريدة من محبة ابيها » ، إشارة إلى بيت اسرائيل الذى لايرحمه الله بل ينزعه نزعاً .

والثالث كان صبياً آخر أسماه « لوعمى ». ومعناه « ليس شعبى » . ويذهب بعضهم إلى حدّ القول ان هذه الأسماء انما اختيرت استناداً إلى ما عرفه هوشع من سوء سلوك جومر زوجته . وقد تؤخذ دليلاً على ان الأطفال الثلاثة ليسوا من صلبه ، وأنه هو ليس أباهم . وكلّ ما يقوله السفر المقدس إن هذه الأسماء تتضمن دلالة على غضب الله على شعبه وسخطه عليهم بسبب خطيتهم وعبادة الآلهة الأخرى .

وفى ص ٣ يتلقى هوشع أمراً آخر مشابهاً للامر فى ص ١ — وفى هذه الحالة يقول السفر انه اشترى زوجته بعد أن انزلقت إلى مهاوى الرذيلة وبيعت فى سوق العبيد . وكان عليها بعد شرائها أن تبقى بعيدة عن كل الرجال وعنه

هو ايضاً فترة من زمن . وهذا يمكن تأويله بأن الشعب سيحرم من خدمة الكهنة ومن وسائل العبادة فترة من الزمن طويلة .

وإذا سئلنا : ماذا كانت علاقة هوشع بزوجته ، نجد أنفسنا فى موقف يصعب علينا فيه الجزم بقول فاصل ، وهناك احتمالات ثلاثة :

إما أن يكون النبى قد تزوج مرتين من امرأتين . وزوجة الاصحاح الثالث ليست « جومر » .

وإما إن يكون قد تزوج من امرأة واحدة ، هربت منه وباعت جسدها إلى رجال آخرين ، وراحت تنحط إلى أسفل الدركات حتى أمست خادمة . ومع هذا فإن محبة هوشع لم تفتر ، بل بذل جهد طاقته لانتشالها من هوة الرذيلة والأثم ، واشتراها من سوق الرقيق ليعتقها ويردها زوجة له .

وإما أن تكون الزوجة فى الأصحاحين الأول والثالث واحدة ، ولكن البيانات اختلفت فى تفاصيلها . وذلك لأن قصة الاصحاح الأول يرويها شخص آخر ، واما قصة الاصحاح الثالث فيرويها هوشع نفسه .

ويضيق المقام هنا عن تفصيل النبوات التى تضمنها السفر ، وحسبنا أن نشير إلى أهمها :

فى ص ٢ يرسم لنا النبى صورة عن العبادة الباطلة التى تعلق بها الشعب فى شكل الاعوجاج الجنسى الماجن . وخطايا الجنس وادمان المسكر من أبرز الموبقات التى رسمها النبى فى ص ٤ : ١ ــ ٥ : ٧

أما فى ص ٥ : ٨ ــ ١٥ فنشهد صورة الزيغان السياسى ، أولاً فى أعمال القسوة والاعنات التى يأتيها الاغنياء ضد الفقراء ، وفى مسلك الحكومة الضعيف الشائن حيال الشعوب الأخرى مثل مصر وأشور .

وص ٦ هام جداً . إذ يصف فيه النبى ندم الشعب وحزنه على خطاياه

ورغبته فى الغفران . ولكن الحزن لم يكن من الأعماق ، وفكرة الغفران طاشت فى عقولهم عن سبيلها السوىّ .

وفى ص ٧ يسرد النبي الجرائم السياسية مرة أخرى . ويرددها فى ص ٩ و ١٠ وأيضاً فى ص ١٢ و ١٣ — على أنه يختم رسالته فى ص ١٤ بالأمل فى الغفران والإنابة إلى الإله الحىّ .

وسفر هوشع — مثل كتابات الأنبياء الأخرى — بعضه نظم وبعضه نثر . والقليل جداً فى هذا السفر كتبته يد أخرى غير يد هوشع . ففى ثلاثة مواضع توصف يهوذا ، حين تقاس باسرائيل ، شعباً مستقيماً . وهناك مقارنة بارزة بين بر يهوذا وخطية اسرائيل . وقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الآيات من صنع نبىّ متأخر واضيفت فيما بعد ، لأنه ليس ثمة سبب يحملنا على الاعتقاد بان هوشع حابى يهوذا وأجزل لها الثناء . ذلك لأن عصر نبوته يكاد يكون مؤكداً ، فهو قد كتب سفره فى أواخر أيام مملكة إسرائيل ، ربما بعد موت يربعام الثانى ، يوم كانت الأمة تركض سراعاً نحو دمارها وفنائها . وفى مثل هذه الحالة رسم النبي صورة رائعة لمحبة الله ، لا يقرب منها فى جمالها وروعتها فى التاريخ البشرى غير تلك التى قدمها المسيح على الصليب .

يوئيـــل

لفظة « يوئيل » تعنى « يهوه هو الله » . وهى اسم ذائع فى الاسفار المقدسة . ويدلّ سياق الحديث فى السفر على أن النبى كان من مملكة يهوذا ، ومن سكان أورشليم ، وكان نبياً لا كاهناً . أما اسلوبه فكان مجلواً دقيقاً ، حلو الجرس ، خفيفاً . وقد خلا السفر من أى تاريخ ، على انه يمكن الاسترشاد بالادلة التريخية فى هذا الشأن . ونظراً لعدم ذكر سورية واشور وبابل واختفاء كلمة

« ملك » ، يُظن ان السفر كتب بعد السبي . ويكاد يجمع الثقات على ان يوئيل هو آخر الأنبياء ويضعونه حوالى سنة ٣٠٠ ق . م .

ويرسم استهلال السفر صورة لغمامة كثيفة من الجراد طغت على البلاد فاحالتها خراباً يبابا ، ويبساً بلا زرع . ولغة الوصف تصويرية قوية النبرات ، مما حدا ببعضهم إلى الظن ان هذا الوصف لم يكن واقعة تاريخية ، وانما حدثت فى فَكر النبي وتصوراته فقط للدلالة على « يوم الله » القريب الرهيب .

على انه من المحتمل جداً أن تكون الواقعة تاريخية ، وان اسراباً من الجراد فتكت بالزرع ، واحدثت دماراً شاملا ، فنقلت هذه الصورة التى رآها النبي فكرة إلى ذهنه عن « يوم الرب » . وقد جاء وصف الجراد فى ص ١ وص ٢ : ١ ـ ٤١ . وفى ص ٢ : ١٥ ـ ١٧ تقدَّم صلاة لرفع هذه النكبة الماحقة . وفى ص ٢ : ١٨ ـ ٢٧ يشفق الله على الشعب ويرفع عنه هذه الغمّة ، ويعيد الخصب إلى الأرض .

أما بقية السفر فهو بيان عن « يوم الرب » القريب . وهو اقرب الى اسفار الرؤى منه إلى أسفار النبوات . فروح يهوه يجىء بقوة أعظم من ذى قبل . الشيوخ يحلمون والشباب يرون رؤى (٢ : ٢٨ ـ ٣٢) . ثم تنشب حرب عظمى ، تتجمع فيها كل شعوب الأرض للهجوم على اورشليم ، ولكن الله يتدخَل ، ويهزم هذه الشعوب فى وادى « يهوشافاط » . ولم يذكر التاريخ وادياً بهذا الاسم ، على مانذكر ، ونحسبه من قبيل الرؤى ، لا الواقع التاريخى .

عاموس

لم يكن عاموس نبياً بالمهنة ، ولا بمولده وثقافته ، بل كان راعى غنم وجانى جميز . وكان موطنه فى « تقوع » مسافة اثنى عشر ميلا جنوب أورشليم .

وكانت أشجار الجميز تزرع فى تلك المنطقة للانتفاع بثمارها وأخشابها المتينة .
وقد حفلت رسالته واقواله بالآثار والتعابير المشتقة من طبيعة عمله : فعناصر الطبيعة ومظاهرها وغضباتها ، والعجلة الملآنة حزما ، وزمجرة الأسد فى الوعر ، ونزع الراعى من فم الاسد كراعين أو قطعة أذن ، والدب الذى يخافه الراعى أكثر مما يخاف الأسد ، والفخ الذى تصاد به العصافير ، والحرث ورعى الماشية ، وغربلة الحنطة ، والجراد يأكل الحشيش ، وسلة القطاف — هذه كلها من المصطلحات والتشابيه التى جرت على لسانه جريانا ليناً فى غير عناء ، كما يُنتظر طبعاً من راع وزارع .

ويقع هذا السفر فى ثلاثة اقسام :

أولا — اقوال ضد الشعوب الأخرى (١ : ٣ ـ ٢ : ٥) وكلها على نمط واحد ، فتذكر أولا خطية الشعب ، ثم العقوبة التى تنتظره . أما هذه الشعوب فهى : دمشق . الفلسطينيون . صور . أدوم * عمون . موآب . يهوذا .

ثانياً — اقوال ضد شعب اسرائيل . ارأيت إلى هذا النبيّ يهجر قطعانه ومواشيه وجميزه بعد إذ يتلقى الدعوة ، وينطلق توا إلى بيت إسرائيل . وهناك تحت ظلال القصر الملكى ومقدس العبادة يطلق رسالته صيحات داويات!

يفكر فى ظلم الأغنياء للفقراء ، وابتزاز أصحاب الاملاك لأجور الفلاحين والرعاة لكى يظفروا بآرائك من العاج يتمرغون عليها ، وكؤوس من الخمر يثملون بها ، وغوان من الحسان يفسقون فيها .

وفى العبادة يرى الشعب سادراً فى غيهّ ، فهو يزعم ان تقديم الكباش والتيوس على المذابح تشفع لهم ، وأن مراعاة السبوت والأعياد ، وترديد الأناشيد والادعية فى المقادس كافية لمرضاة الله . وهنا نراه يرغى ويزبد هائجاً مغيظاً حيال هذه العبادة الطقسية الزائفة : « بغضت ، كرهت اعيادكم ولست

اتلذذ باعتكافاتكم . إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا ارتضى ... ابعدعنى ضجة اغانيك، ونغمة ربابك لا اسمع».

ثالثاً — رؤى مقترنة بأقوال— ثم بيان عن حادثة فى حياة النبى (ص٨—٩) والرؤيا الأولى عن جراد يدمر الأرض ، ولكن عاموس يصلى حتى لا تقع المصيبة ، فيجيبه يهوه إلى سؤل قلبه (٧ : ١—٣). والرؤيا الثانية عن نارمشبوبة هائلة . ومرة أخرى يصلى النبى فيستجيب الله اليه (٧ : ٤ — ٦) . والرؤيا الثالثة عن « زيج » وهى الاداة التى تضبط بها استقامة الحوائط ، وبهذه الاداة يرى الله اسرائيل حائطاً مائلا، لاتقوم له قائمة . ولا مناص من سقوطه .

ويعقب ذلك القصة الوحيدة التى تروى على لسان غيره . وخلاصتها ان أمصيا كاهن بيت إيل يثير غضب الملك على عاموس ، ويأمره ان يرحل من بيت ايل إلى يهوذا . ولكن النبى يستشيط غضباً، ويهدد الكاهن بالفاظ قاسية راعدة ، « امرأتك تزنى فى المدينة، وبنوك وبناتك يسقطون بالسيف. وارضك تقسم بالحبل . وأنت تموت فى ارض نجسة . واسرائيل يسبى سبياً عن ارضه » . (٧ : ١٠—١٧)

أما الرؤيا الرابعة فعن سلة القطاف (٨ : ١ و٢) التى دنا قطافها كما دنت دينونة اسرائيل وهلاك الشعب وتدمير المقادس .

والكلمات الختامية فى هذا السفر تحفل بالرجاء ، وانقضاء المحنة ، والعود من السبى .

وقد تنبأ عاموس فى عصر يربعام الثانى ملك اسرائيل . وكانت الامة قد اتخمت بالثروة فاستفحل فسادها . وفى (ص ٨ : ٩) يشير النبى إلى قتام — كسوف — الشمس فى وقت الظهيرة . والمعروف تاريخياً انه حدث كسوف شامل للشمس فى شهر يونيه سنة ٧٦٣ ق . م . ولا بد ان النبى شهد هذا

الكسوف ورتب عليه النتائج الرهيبة المنتظرة . وهذا يثبت لنا ان السفر كتب حوالى سنة ٧٦٠ ق . م .

عوبديا

هذا هو أقصر سفر فى العهد القديم يشمل فقط أحد وعشرين عدداً (آية) . ويدور هذا السفر حول نبوات تتعلق بمملكة أدوم ، اثنتان منها وردتا فى سفر أرميا (عوبديا ١ : ٤ = أرمياء ٤٩ : ١٤ — ١٦ وعوبديا ٥ = أرمياء ٤٩ : ٩) .

ولسنا نعرف شيئاً عن هذا النبى سوى اسمه الذى معناه « عبد يهوه » . وقد يصح اطلاقه على أى نبى ، لا على شخص معين بالذات . ولسنا ندرى متى كتب السفر . إنما يمكن القول ان العداء بين إسرائيل وأدوم كان على أشده حين عاد شعب يهوذا من السبى . وربما يكون هذا هو العصر الذى كتب فيه السفر .

يونان

يونان معناها « حمامة » . ويختلف هذا السفر عن بقية أسفار الأنبياء . وهو لا يتضمن تعليما خاصاً ألقاه النبى ، إنما هو قصة تصف سلسلة من الحوادث. أما عن شخصية يونان التاريخية فلا نعرف عنها شيئاً إلا ما جاء فى سفر الملوك الثانى (١٤ : ٢٥) . ولعله كان نبيا قومياً من الأنبياء العاديين فى عصر يربعام الثانى ملك إسرائيل . أما القصة فلا نعرف من وضعها . ولعل كاتبها لم يقصد أن يروى قصة تاريخية عن نبى عاش قبله بقرون ، إنما أراد أن يكتب موعظة فى قالب قصة .

وقد تباينت أقوال الشراح فى تأويل حادثتى الحوت الذى ابتلع يونان، واليقطينة التى ظللته ووقته لفح الشمس. فقال بعضهم ان الحادث تاريخى، وذهب آخرون إلى أنه رمزى. على أن جوهر القصة ليس فيما تضمنته من عناصر معجزية بل فى رسالتها. ولقد أجمع المفسرون على أن القصة كتبت بعد عصر النبى -- ربما فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ـ فى الفترة التى كان يحاول فيها شعب إسرائيل الأنطواء على نفسه، والابتعاد عن أمم العالم وشعوبه، والاعتداد بشرائعه ودينه وماضيه التاريخى، والإغراق فى الغـــيرة القومية والحماس الوطنى. والظاهر أن واضع القصة أراد أن يصحح هذه النظرة الضيقة، ويوسع وجهة نظر الشعب لينظر إلى الآفاق البعيدة، لا إلى خلاص نفسه وحسب، بل إلى خلاص الشعوب الوثنية الأخرى التى تعيش حوله.

محتويات السفر :

يُوفد يونان من قبل الله إلى نينوى المدينة الوثنية الخاطئة ليدعو أهلها إلى التوبة والندم، ولـكنه يرفض هذا التـكليف خشية أن ترجع نينوى عن شرها، فيرحمها الله ويعفو عنها.

يهرب النبى من وجه الله وينزل فى سفينة إلى ترشيش، بحارتها من الوثنيين وتثور عاصفة هوجاء. ويزعم البحارة أن الآلهة غاضبة عليهم، ثم يكتشفون أن يونان هو علة هذا الهياج. ويحاولون إنقاذه والابقاء على حياته وهو الغريب عنهم. ولـكنهم يضطرون فى آخر الأمر إلى إلقائه فى قاع اليم. فتبتلعه سمكة كبيرة قيل انها حوت (ص ١).

وفى جوف الحوت يرفع يونان صلاة، فيقذفه الحوت إلى الأرض اليابسة (ص ٢).

ثم يطيع اليونان الدعوة ويذهب إلى نينوى. وإذ يتوب أهلها ويندمون

يصفح الله عن شرها . يغضب يونان وتكمد نفسه (ص ٣) . ثم يخرج من المدينة ويقف ليرى ماذا يحل بها بعد توبتها . وتلفحه الشمس بحرارتها ، فينبت الله يقطينة (شجرة صغيرة) يتفيأ بظلها . ولكن دودة تأكل الشجرة وتيبسها ، فيحزن يونان حتى الموت ويسمع هاتفاً يقول له : « أنت شفقت على اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربيتها ، التى بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت ، أفلا أشفق انا على نينوى المدينة العظيمة » .

ويرى النبي فى هذه الأمثولة الرائعة أن الله — الذى كان يظنه إله إسرائيل فقط — يُعنى بالمدينة الوثنية ويعطف على شعبها ، لا بل على ماشيتها أيضاً ، وأن الله يشاء أن يخلص جميع البشر بدون محاباة ، لأنه خلق من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون عل وجه الأرض .

ميخـــا

كان ميخا قروياً ساذجاً ، من سلالة وضيعة غير معروفة ، ومن قرية لاشأن لها بين المدن . ولم يذكر أسم ابيه بل أطلق عليه فقط لقب « المورشتى » أى من أهل « مورشة » . ولعلها « مورشت جت » التى ورد ذكرها فى (ص ١ : ١٤) . وهى قرية فى منبطحات اليهودية تبعد نحو عشرين ميلا جنوب غرب أورشلم . ونستدل من نبواته على أنه كان يعطف على الفلاحين أشد العطف ، والأرجح أنه كان واحداً منهم ، شأنه شأن عاموس ، والفلاح القروى يتخيل كل شرور الأمة متجمعة فى عواصمها وكبرى مدنها ، ولذلك نراه ينذر السامرة وأورشليم بالدمار المحتوم .

ولم يُعن النبي فى سفره بشئون السياسة الداخلية ولا الخارجية — كما فعل معاصره حزقيال مثلا — ولكنه عنى بما هو أخطر وأجل ، بالآداب الاجتماعية والواجبات الدينية .

عصر النبي :

يدلُّ مستهل سفر ميخا على أن النبي عاصر يوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا . والمساوىء الاجتماعية التي نعاها تشبه تلك التي نعاها اشعياء في عصر يوثام . وقد تفاقمت تلك المساوىء في عهد آحاز بسبب ضعف ذلك الأمير الخانع وويلات الحرب والضرائب الباهظة التي ابتزها من الشعب ليدفع الجزية التي فرضها عليه ملوك أشور . ومن الراجح جداً أن النبي قصد هذه الفترة بما سجله في الفصلين السادس والسابع . وكان آحاز قد هجر عبادة الله ، وكان الشعب قد مالأه وسار وراءه . وأقام آحاز نفسه نموذجا سيئاً لشعبه في تقديم الضحايا البشرية ، بأن قدم بكره ذبيحة محرقة على النار (٢ ملوك ١٦ : ٣) . وحسب الشعب أن تضحية الولد البكر من أسمى أوضاع التعبد (٦ : ٧) .

رسالة النبي :

لذلك كانت رسالة النبي رسالة دينونة ، وتحل الدينونة الرهيبة بالسامرة وأورشليم ، كأن فيهما قد تجمعت كل ذنوب الأمة . فالسامرة تخرب خراباً ، وهو ينعى سقوطها بويلات مرجفة وزعقات مخيفة . ثم تزحف النائبات على أورشليم ذاتها . وهو يشجع مواطنيه على أن يصمدوا للتجربة لئلا يشمت بهم الأعداء : « لا تخبروا في جت ، لا تبكوا في عكا »[1] . وهو يرقب بعين النبوة الخارقة جيوش الغزاة تكتسح سهول بلاده ، وتتوارد إلى ذهنه أسماء القرى التي عرفها ويذكر كلا منها باسمها ، والنكبة التي ستمحقها . ففي « بيت عفرة » يتمرغ في التراب باكياً نادبا . ومن « صانات » يخرج أهلها عراة حفاة إلى السبي والتشريد . و « الزيب » تصير كنبع صيف جاف يخيب آمال المتكلين عليه .

---

(١) عكا هي المدينة التي لم يستطع الاسرائيليون أن يطردوا الكنعانيين منها (قضاة ١ : ٣١) . وقد اختيرت هي وجت شعارين للبلاد الاخرى التي تغتبط لنكبة اسرائيل .

ونبلاء اسرائيل والاشراف يهربون إلى كهوف « عدلام» ليتخذوها ملجأ كما فعل داود من قبل (١ : ١٠ — ١٦) .

محتويات السفر :

صيغ هذا السفر كله نثراً لا نظما . ويتألف من ثلاثة أجزاء — الأول ص ١ — ٣ — والثانى ص ٤ — ٥ — والثالث ص ٦ — ٧ .

وفى الجزء الأول يسهب النبي فى التنديد بخطايا إسرائيل ويهوذا ، مثل عبادة الآلهة الأخرى (ص ١) وقسوة الملاك والأغنياء (٢ : ١ — ٣ : ٤) واعوجاج مسلك القضاة والأنبياء .

وفى الجزء الثانى يرسم صورة للامم التى تهجم على يهوذا . وفى ص ٥ : ٢ — ٤ يذيع نبأ الملك الآتى «المسيا» ، أى المسيح الذى سيولد فى بيت لحم . وبعد ذلك يرسم صورة للخلاص من الأشوريين (٥ : ٥ — ٧) .

ويشتمل الجزء الثالث معلنات شتى . وفى إجابته على السؤال : «ماذا يريد الله من الإنسان ؟ » يقدم النبي جوابه الرائع : « تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك » . ويختم نبواته كسائر الأنبياء الأخرين بالأمل فى صحو روحى وعود إلى حياة حافلة بالخير .

ناحوم

معنى اسمه « الرحوم » . ولا نعرف عنه شيئاً إلا لقبه « الالقوشى » (١:١) . ولا ندرى أين كانت « ألقوش » هذه ، والأرجح أنها كانت فى شمال الجليل على قول القديس ايرونيموس . وقد عاش النبي فى يهوذا — المملكة الجنوبية (١:١٥) وربما كان معاصراً لصفنيا .

ويمكن تحديد زمن السفر فى الفترة بين الاستيلاء على « توأمون » (أى

طيبة) سنة ٦٦٤ ق م. وسقوط نينوى سنة ٦١٢ ق. م. وذلك لأنه يشير إلى الحادثة الأولى كأنها من تاريخ مضى ، وأما الثانية فيشير اليها كأنها من تاريخ مقبل .

وأسلوب هذا السفر قوى اللهجة ، صارم النبرات ، تجرى عباراته جرياناً رتيباً ، كوقع حوافر الخيل ، أو ومضات البرق ، أشبه بالخيل والمركبات التى يصفها . وكلها تتنبأ عن خراب نينوى عاصمة الأشوريين ، وعدو إسرائيل المدود . وإن كنا نرى فى ألفاظ هذا السفر وعباراته بعض الشطط فى القسوة ، فذلك لأنه عرف بعض مظاهر القسوة والظلم التى عاناها شعبه على يد عاهل نينوى ، وأهوال الحصار المفجعة التى حلت ببنى قومه .

ووراء هذا كله لا نحرم من رؤية جود الله وخيره وطول أناته مع المتكلين عليه .

حبقوق

لا يمكن تعيين التاريخ بالضبط الذى ظهر فيه هذا النبى . على أن كثرة الشراح يذهبون إلى أنه كتب رسالته فى عهد الملك يهوياقيم ملك يهوذا (٦٠٩ ـ ٥٩٧ ق. م.). وكان الكلدانيون قد أخذوا يزحفون من المشرق ويكتسحون البلدان فى طريقهم بعد أن قضوا على دولة الأشوريين ، وحلت بابل محل نينوى ، وانتهت إلى أورشليم انباء زحفهم وبطشهم . ويخيل الينا أن النبى رسم فى ذهنه صورة لمظالمهم وعسفهم . ولعله كتب أقواله بعد أن قام نبوخذ نصر بهجمته الأولى على أورشليم فى سنة ٦٠١ ق. م. وارتد عنها بعد أن اذاق الشعب مرارة الحصار وهول الحرب . ومما يكاد يكون فى حكم اليقين أن يهوذا لم تكن قد دانت بعد لدولة الكلدانيين ساعة أن كتب النبى

رسالته ، فانه يتكلم عن فتوحاتهم وغزواتهم بصفة عامة ، ويشير إلى آلام الشعوب الأخرى واوجاعها ، دون أن يذكر ان يهوذا وقعت فريسة بين براثن الوحش الكلدانى .

محتويات السفر :

كانت أقوال النبى ثمرات تفكير دينى عميق ، وصراع روحى طويل ، فيها اثبت الأسئلة التى حيرت عقله ، والأجوبة التى تلقاها من الله لإزالة أسباب هذه الحيرة . ويقع سفره فى ثلاثة أجزاء :

الأول : جزء روائى ، وهو حديث ثنائى بين النبى وبين ربه (ص ١ : ١ — ٢ : ٨) .

الثانى : مجموعة من الويلات والنداءات الشعرية ضد الشر وفاعليه .

الثالث : مزمور أو صلاة تصاعدت من قلب النبى بعد أن هدأت نفسه الحائرة .

فى الجز الأول يسأل حبقوق : « حتى متى يارب. ما معنى كل هذا ؟ لماذا ينتصر الشر والجور » : وقد ورد السؤال الأول وجوابه فى ص ١ : ١ — ١١ وكان الباعث اليهما تلك الفترة المظلمة فى تاريخ مملكة يهوذا حين كان يهوياقيم ملكا عليها . ذلك لأن الأمر كان قد آل بالملك الصالح « يوشيا » إلى نهاية مفجعة ، يوم ذبحه المصريون وأخذوا أبنه اسيراً إلى مصر ، واقاموا اخاه يهوياقيم ملكاً نائباً عنه خاضعاً لمصر . وفى الخارج رأى النبى الكلدانيين الغلاظ يبطشون بالأمم الضعيفة ، وينكلون بالابرياء ويدوسون تحت مواطىء الاقدام نواميس الحق والعدالة .

وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة يكتب النبى سؤاله الثانى (ص ١ : ١٢ — ١٧) . « لِمَ تنظر إلى الناهبين وتصمت حين يبلع الشرير من هو ابرّ منه .

وتجعل الناس كسمك البحر ، كدبابات لا سلطان لها» .

وفى الجزء الثانى مجموعة من الويلات يختم بها النبى على مصير الكلدانيين الطغاة الظالمين. وفى براعة شعرية يدخل الأمل إلى قلوب الشعوب الصغرى التى وقعت فرائس بين أيديهم .

أما الجزء الثالث فهو صلاة ، أو مزمور رائع ، من مزامير الثقة فى الله والايمان به . ولم يجد النبى وسيلة لاثبات قوله « البار بالايمان يحيا » أفضل من أن يُشعر الناس أن الله الحىّ يتسلط على العالمين ، وان برّه هو الحق المبين .

صفنيا

صفنيامعناه «الذى يحميه الرب» ، ويبدو أنه منأسرة ملوك يهوذا ، لأن تسلسل اسرته يرجع إلى حزقيا الذى كان ملكا على يهوذا . وقد كتب سفره فى عهد يوشيا الملك على قول ثقات الشراح . ومن المحتمل أن أول وازع دفعه إلى الكتابة كانت الهجمة العنيفة التى قام بها السكيثيون فىسنة ٦٢٦ق.م وهذه الحادثة كانت أيضا الفاتحة لأعمال إرمياء. وأقوال صفنيا وإرمياء تكاد تتشابه ، إلا أن صفنيا كان ضيقاً فى الفكر ، وحصر همّه فى يوم الرب دون أن يتوسع فى التعاليم التى افتقر إليها الشعب فى تلك الفترة من تاريخه .

محتويات السفر

اقترنت أقوال صفنيا بيوم الربالآتى ، فهى لذلك اقرب إلى اسفار الرؤى منها إلى اسفار النبوة . والفصل الأول يشير إلى هلاك يهوذا (١ : ٢ ـ ٦) . يعقبه بيان عن يوم الرب وما يتخلله من خوف وحزن . والفصل الثانى مجموعة مختصرة من الرؤى عن الامم الاخرى : الفلسطينيين (٢ : ١ ـ ٧) وموآب

وعمون (٢ : ٨ ــ ١١) والكوشيين (الأحباش) ـ (٢ : ١٢) والاشوريين (٢ : ١٣ ــ ١٥) . وفى ص ٣ : ١ ــ١٣ نقرأ بيانات عن عقاب يهوذا المرتقب بسبب ذنوبها وآثامها . أما خاتمة السفر (٣ : ١٤ ــ ٢٠) فهو نشيد يفيض بالفرح إذ يرقب من بعيد خلاصاً ليهوذا .

حجى

حجى معناه : « عبد الرب » وفيما عدا إسمه لا نعرف شيئاً عن تاريخه ، إلا أن التقاليد تقول انه ولد فى بابل وعاد من السبى مع جماعة زربابل . ويذكر النبى تاريخ أقواله بالضبط ، فقد كانت كلها فى السنة الثانية من حكم داريوس ملك الفرس ــ أى سنة ٥٢٠ ق . م . أو ثمانية عشر عاماً بعد أن أطلق كورش اليهود أحراراً للعود من السبى و بناء هيكل أورشليم .وقد اذاع النبى اعلانه الأول فى اليوم الأول من الشهر السادس، والثانى فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر السابع ، والثالث والرابع فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر التاسع .

محتويات السفر :

يشمل هذا السفر أربعة اعلانات إلى زربابل حاكم فلسطين الخاضع لعاهل الفرس ، وإلى يهوشع رئيس الكهنة يومئذ . وفى الاعلان الأول (ص ١) يشرح النبى رغبة ربه فى بناء بيت الله، الذى كان لا يزال خراباً يباباً ، مع ان الشعب كانوا قد شادوا لأنفسهم العمائر والقصور . وبناء على دعوته شرع القوم فى بناء الهيكل .

وفى الاعلان الثانى (ص ٢ : ١ ــ ٩) يزلزل النبى الأرض بقوة يهوه ، ويقول ان بيت الله الجديد ، ولو أنه أقل حجماً وروعة من القديم سيمتلىء بمجد الرب. وفى الإعلان الثالث (٢ : ١٠ ــ ١٦)يقول إن الأمة لن تطهر فى عين

الرب ما لم يكمل بناء البيت . وفى الاعلان الرابع (٢ : ٢٠ ـ ٢٣) يحاول النبى أن يملأ قلب زربابل بالأمل المرموق فى أن يحتل مكانة علياء فى فلسطين ، وربما فى أن يكون ملكا عليها .

زكريا

زكريا ومعنى اسمه « الذى يذكره الرب » وهو ابن برخيا بن عدّو. وكان معاصراً للنبى حجى . والارجح انه عاد إلى اورشليم مع الجماعة الأولى التى رحلت من بابل بعد اطلاق أسرها . وكان بينهم جده المدعو « عدو » أحد رؤساء الكهنة الأثنى عشر (نحميا ١٢ : ٤).وقد ورث زكريا فيما بعد جدّه فى وظيفته الكهنوتية (نحميا ١٢ : ١٦) . ولذلك يمكن القول انه كان شاباً يافعاً حين أذاع أولى اعلاناته فى السنوات الأولى بعد العود .

محتويات السفر :

يتألف السفر من ثلاث مجموعات منفصلة . الأولى من ص ١ ـ ٨ والثانية من ص ٩ ـ ١١ والثالثة من ص ١٢ ـ ١٥ وتبدأ المجموعة الثانية والثالثة بعبارة « وحى كلمة الرب » .

المجموعة الأولى (ص ١ـ٨)

فى هذه المجموعة يتكلم النبى بنفسه فى عبارات نثرية . ويسرد الرؤى التى ظهرت له مضافاً إليها التعاليم المستقاة منها . أما هذه الرؤى فهى :

١ ـ رجل واقف بين اشجار الآس (١ : ٧ ـ ١٦)

٢ ـ أربعة قرون وأربعة صناع (١ : ١٨ ـ ٢١) .

٣ ـ رجل وبيده حبل قياس (ص ٢)

٤ ـ يهوشع الكاهن العظيم والشيطان (ص ٣)

٥ ــ منارة كلها ذهب (ص ٤)

٦ ــ درج طائر (٥ : ١ ــ ٤)

٧ ــ أيفة طائرة فى الهواء (سفينة كبرى) — (٥ : ٥ ــ ١١)

٨ ــ اربع مركبات (٦ : ٦ ــ ٨)

٩ ــ تاج يوضع على رأس يهوشع الكاهن (٦ : ٩ ــ ١٥)

وبعد ذلك يصف الصوم الحقيقى (٧ : ١ ــ ٧) ، ثم بيان عما يطلبه الله من عباده الصالحين، وعلاقة الانسان باخيه الانسان (٧: ٨ ــ ١٤). ويختم أقواله (ص ٨) بالأمل المرموق فى مستقبل سعيد .

ويشرح النبى المعنى المقصود من كل من هذه الرؤى .

المجموعة الثانية (ص ٩ ــ ١١)

تبدو بعبارة « وحى كلمة الرب » ضد الشعوب الأخرى — حدراخ . دمشق. حماة. صور وصيدا . أرض الفلسطينيين (٩ : ١ ــ ٨) . ويعقب هذا قوله الرائع عن المسيّـا الملك الذى يجىء إلى أورشليم راكباً على حمار . وفى مجيئه يرقب النبى عهداً جديداً من السلام والرخاء (٩ : ٩ ــ ١٧) . وبعد ذلك بيان عن قصاص الرعاة الذين يمثلون حكام الشعب ، والذين نكصوا على أعقابهم وأرتدوا عن الإيمان القويم . وفى محلهم سيوضع راع آخر يحسن صنعاً وينقذ شعبه (ص ١٠).

وفى (ص ١١ : ٤ ــ ١١) نقرأ اعــلاناً شيقاً ، لأن النبى هو المتكلم فى عبارة نثرية . وهنا يحدثنا عن الرعاة مرة أخرى . ويمسك الراعى الصالح (وهو النبى نفسه) بعصوين سمّـيت إحــداها « نعمة » وسمّـيت الأخرى « حبالا » . وتنكسر العصوان دلالة على الانقسام بين طائفتى اسرائيل . أما الإعلان الأخير من هذه المجموعة فهو عن راع ، وهذه المرة راع أحمق ، (١١ : ١٥ ــ ١٧) .

ولسنا نقدر أن نحدد بالضبط تاريخ هذه الإعلانات ، فإن طريقة كتابتها وأسلوبها يدلاَّن على أنا ليست من عمل زكريا . ولا يسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا فى الحدس والتخمين. ففى ص ٩ : ١٣ مثلا يذكر الاغريق (ياوان) مما يدل على أن هذه النبوات كانت فى عصر متأخر، ربما فى نهاية الثلاث مائة ق . م. ثم يذكر فى ص ١٠ : ١٠ أشور بلداً يعود منه الشعب ويتجمع . وهـذا يدل طبعاً على تاريخ متقدم، لأن المعروف تاريخياً أن مملكة اشور دالت صولتها قبل سنة ٦٠٠ ق . م . على أنه فى المائتى سنة الأخيرة قبل الميلاد اطلق اليهود لقب «اشور» على مملـكة سورية اليونانية. ولعل هذا هو المعنى المقصود فى هذا الصدد . لهذا يرجح علماء الـكتاب المحدثون أن هذه المجموعة لم تتخذ شكلها الحالى إلا بعد الاسكندر الأكبر (٣٢٣ ق . م .) .

المجموعة الثالثة (ص ١٢-١٤)

تبدؤ بكلمة «وحى كلام الرب ». وهى أقرب ماتـكون إلى الرؤى ، منها إلى النبوات . وهى تصف دمار الشعوب الأخرى وخلاص اليهود . وفى ص ١٣ يرسم النبى صورة ينبوع تطهر مياهه أرجـاس البشر . وفى (١٣ : ٢ ـ ٦) يصف الـكاتب عقوبة الأنبياء نزعهم من الأرض . ولـكن فى ص ١٣:٧ـ٩ يرسم صورة للخلاص .

وهنا أيضاً يصعب تحديد زمن كتابة هذا السفر . وبـيّن من الرؤى أنها ليست فى تاريخ مبكر ، وذلك لأنه فى (ص ١٣ : ٢ ـ ٦) نحسُّ هجوماً شديداً على الأنبياء ، وهذا الاسم كان يطلق علىَ أى إنسان يقول شيئاً ، ولو كان من الحمقى الجهال . ثم فى (ص ١٤ : ٨ ـ ١١) نشهد صورة نهر ينبع من أورشليم ، والظاهر أن هذه الرؤيا تستند إلى رؤيا سبقتها فى حزقيال (ص ٤٧) وأغلب الرأى أن هذه المجموعة ، مثل الثانية ، كانت بعد عودة اليهود من بابل بزمن طويل .

ملاخى

سفر ملاخى هو المجموعة الثالثة التى تبدؤ بعبارة « وحى كلمة الرب » مثل المجموعة الثانية والثالثة فى سفر زكريا . ويبدو لنا أن هذه المجموعات الثلاث وضعت يوما ما فى نهاية أسفار الأنبياء . ولأن المجموعتين الثانية والثالثة فى نبوات زكريا خلتا من الاسم، فقــد جرى نسخهما بدون فاصل بعد المجموعة الأولى فى زكريا (١ ـ ٨) . أما المجموعة الثالثة فقد تعيّن لها اسم « على يد ملاخى » . ومعناه « الذى أرسله » . وربما هذا الأسم لم يـكن هو الشخص الحقيقى الذى أعلنت الرؤى على يديه .

وفى مستهل السفر نقرأ أن يهوه أحب يعقوب أكثر من عيسو (١ : ٢ـ ٥) . ثم نرى كيف يخطىء الناس حينما يتقاعسون عن تقديم أفضل ما لديهم للرب (١ : ٦ ـ ١٤) . ويعقب هذا بيان عن قصاص الـكهنة لأنهم نقضوا العهد الذى أبرمه الله معهم(٢ : ١ ـ ٩) . وفى (ص ٢ : ١٠ ـ ١٦) يسفّـه النبيمسلك الناس الذين أرادوا التخلى عن زوجاتهم ،لأنهنّ ليسوا من بنات اسرائيل، لأن يهوه هو محب البشر جميعاً. وفى ص ٣ يشير النبى إلى مرسل يبعثه يهوه ليعد الطريق أمامه ، هو الديان العظيم. وقد حلّـت بالبلاد لعنة لأن الناس باتوا لصوصاً لأنهم لم يقدموا للرب تقدمات مقبولة (٣ : ٧ — ١١) . ويردد بقية السفر عقاب الخاطئين المارقين ، وثواب الأبرار الصالحين(٣ : ١٢ ـ ٤ : ٦) . والـكلمة الأخيرة عن ايليا (٤ : ٥ ـ ٦) الذى سيعود ثانية إلى العالم قبل مجىء المسّـيا .

وبيّن أن السفر من عمل نبى واحد، لا نعرف مَن هو . وطريقة الـكتابة واحدة فى كل فصوله ، ويسلك الـكاتب مسلـكا غريباً فى تلقين تعاليمـه فى

قالب سؤال وجواب ، على نسق بعض فلاسفة الإغريق القدماء .

وهناك، مع ذلك، بعض التلميحات التى قد تدلنا على الزمن الذى كتب فيه السفر . فاللاويون كلهم كهنة ، مما يدل على أن الكاتب جهل الناموس الكهنوتى ، وأنه عاش قبل عصر عزرا واضع هذا النظام . وفى تعليم النبى عظة لم يأت بمثلها غيره من معاصريه ، وتلك هى أن الله رب جميع الشعوب (١ : ١١ و ٢ : ١٩) . لذلك يخطِّىء الشعب فى التخلى عن الزوجات غير الإسرائيليات. وكان نحمياً وعزرا قد سنَّا شريعة تقضى بالتخلى عن هؤلاء الزوجات . ولكن كاتب سفر ملاخى يحتج على هذا الشرع ، موقناً أن أولئك الزوجات هنَّ من بنات يهوه مثل الإسرائيليات.

ويبدى النبى اهتماماً بارزاً بنظم العبادة، مما يؤكد لنا وضع سفره فى الفترة بين نحميا وعزراً ، فى الجزء الأخير من الأربع مائة سنة قبل الميلاد .

ثالثاً : الكتابات

يقسم اليهود الكتاب المقدس ثلاثة أقسام : أولا التوراة وهى تتألف من الأسفار الخمسة الأولى . والثانى أسفار الأنبياء وهذه تتألف من الأنبياء المتقدمين أى الأسفار التاريخية المسماة يشوع والقضاة وصموئيل والملوك كتبها أو جمعها ملهمون تحت إرشاد روح الله ، ومن الأنبياء المتأخرين أى أسفار أشعياء وارمياء وحزقيال وصغار الأنبياء . والثالث كتابات العبرانيين القانونية ، وبعضها شعرى مثل المزامير وأيوب والمراثى ونشيد الإنشاد ، وبعضها تاريخى مثل الأيام وعزرا ونحميا ، وواحد منها فقط فى صيغة الرؤى والنبوة هو دانيال .

وقد سرنا فى هذا الكتاب حسب ترتيب الكتاب المقدس العبرى ، وفرغنا من القسمين الأول والثانى . وها نحن أولاء نبدأ بالقسم الثالث ، أى الكتابات .

المزامير

« المزمور » هو نشيد يردّده العابدون جماعة أو أفراداً . وقد انتهت إلينا مزامير العهد القديم من حقب مختلفة فى تاريخ إسرائيل . وليس لدينا إلا النذر اليسير من معلومات عن أسماء كتّاب هذه المزامير . ويبدو أن بعضا منها يرجع إلى تاريخ متقدم ، وقد أدخل عليها بعض التعديل فى اللفظ . على أن هذا السفر لا تقوم أهميته على كاتبه أو تاريخ كتابته ، وذلك لأن قيمته الروحية إنما تستند إلى الخصب الروحى الذى تستمده النفوس الخاشعة ، وهى تردد هذه المزامير فى

مناسبات مختلفة. فاليهودى فى القديم وهو فى هيكله، والمسيحى فى العصر الحديث فى بيعته، كلاهما ألفى مدداً روحياً غزيرا فى حياته الحاضرة وآماله المستقبلة.

وتنقسم المزامير فى وضعها الحالى إلى خمسة كتب :

١ ـ مزمور ١ ـ ٤١

٢ ـ « ٤٢ ـ ٧٢

٣ ـ « ٧٣ ـ ٨٩

٤ ـ « ٩٠ ـ ١٠٦

٥ ـ « ١٠٧ ـ ١٥٠

ويبدو أن هذا التقسيم قد وضع فى عهد متأخر تمشياً مع أسفار التوراة الخمسة. على أن بعض علماء الكتاب المقدس يرون أن هناك تقسيما مبكراً يضع المزامير فى ثلاثة أجزاء فقط :

مزمور ٤٢ ـ ٨٩ فى الكتاب الثانى، ومزمور ٩٠ ـ ١٥٠ فى الكتاب الثالث. والكتاب الأول كما هو من مزمور ١ ـ ٤١

ويختلف الكتاب الثانى (مزمور ٤٢ـ ٨٩) عن الأجزاء الأخرى. ففى أسفار التوراة الخمسة، نجد ألفاظاً مختلفة للدلالة على اسم الجلالة : منها « يهوه » وهو الاسم الخاص لإله اسرائيل، و« الوهيم » وهى لفظة عامة لاسم الله. وفى القسم الأوسط من المزامير (٤٢ ـ ٨٣) لا نجد لفظة «يهوه» إلا قليلاً، والكلمة العادية المألوفة هى «ألوهيم». وحين نقارن مثلا مزمور ١٤ بمزمور ٥٣ نجدهما نصاً واحداً فى اللغة العربية، والفارق الوحيد فى اللغة العبرية هو اننا نجد لفظة « الوهيم » فى مزمور ٥٣ و « يهوه» فى مزمور ١٤ ـ وهذا التغيير متعمد على قول ثقات العلماء. وهم يؤيدون أن المزامير ٤٢ ـ ٨٣ جمعت معاً فى عصر

أحسّ فيه اليهود أنه ليس من اللياقة أن يستخدموا اسم الله المقدس « يهوه » .

وهنا قد نسأل : هل هذا التقسيم — أى تقسيم المزامير إلى ثلاثة كتب هو أقدم الأوضاع ، أم هناك تقسيم آخر سابق له ؟

ويجدر بنا أن نشير إلى أن هناك الفاظاً معينة وضعت فى مقدمة أكثر المزامير ، نذكر منها ستة أنواع فقط :

٧٢ مزموراً وضع فى مقدمتها (لداود)
٥٥ » » » » (امام المغنين)
١٥ » » » » (ترنيمة المصاعد)
١٥ » » » » (الحمد والتسبيح)
١٢ » » » » (آساف)
١١ » » » » (بنو قورح)

ومزامير قورح وآساف تقع كلها فى القسم الثانى ، ومن المحتمل أن هاتين المجموعتين كانتا منفصلتين فى وقت ما عن بقية المزامير ، ثم أدمجتا بعد ذلك . ولكن مجموعة « داود » تشمل مزامير القسم الأول كله (ما عدا مزمور ١ و٢ و١٠ و ٣٣) . ومن المحتمل أيضاً أن المزامير من ٣ إلى ٤١ (ما عدا ٣٣) كانت فى كتاب منفصل .

وفى ختام مزمور ٧٢ نقرأ هذه العبارة « تمت صلوات داود بن يسى » ، ولكن المزمور نفسه يحمل اسم « سليمان » فى مقدمته .

وفى القسم الثالث نجد بعض المزامير باسم « داود » ، ويبدو أنه كانت هناك مجموعتان أو ثلاثة باسم داود ولم تجمع كلها فى كتاب واحد .

أما مزامير قورح وآساف فقد وضعت كلها فى مجموعاتها . وتقع مزامير قورح فى مجموعتين هما ٤٢ — ٤٩ و ٨٤ — ٨٨ (يتوسطهما مزمور ٨٦ لداود) .

ووضعت مزامير آساف (٧٣—٨٣) فى مجموعة واحدة ، ما عدا مزمور ٥٠ فقد وضع منفصلاً . وكذلك مزامير « المصاعد » (١٢٠—١٣٤) جمعت معاً .

أما مزامير « الحمد والتسبيح ـ هللويا » فقد وضعت متفرقة . وهى مزامير ١٠٤ ـ ١٠٨ و ١١١ ـ ١١٣ و ١١٧ و ١٣٥ و ١٤٤ ـ ١٥٠ .

وقد ظنّ فريق من الشراح أن هذه الاسماء الاستهلالية هى أسماء المؤلفين ، ولكن أغلب الثقات فى هذا العصر يذهبون إلى أنها أسماء مجموعات من المزامير وليست أسماء المؤلفين . وكان اسم داود مكرما بين الناس، وكان أيضاً مرنماً ، لذلك كان من الطبيعى أن يُسند اليه عدد كبير من المزامير ولو أن بعضها كتب بعد عصره .

موسيقى العبرانيين :

ليس لدينا الاّ قسط ضئيل من المعرفة فى هذا المضمار . ومن المؤكد أنه لم يكن لديهم التناسق ، والتآلف الصوتى (هارمونى) . وإنما استخدموا بعض الالآت الموسيقية المختلفة لا نعرف عنها الكثير . وربما كان بعضها مثل « الطبلة » يضربونها بايديهم ، وبعضها مثل الصفارة ، وبعضها صنع من أوتار غشيمة أشبه بالحبال الرفيعة . وأحيانا تقابلنا فى المزامير كلمة « سلاه » . ولعلها كانت مرشداً إلى نوع من الموسيقى ، ويظن بعضهم انها كانت خاتمة مقطع موسيقى .

أنواع المزامير وأهدافها :

أقترنت المزامير كلها بالعبادة ، العبادة الفردية أو الجماعية ، والعبادة التى اشتملت على الاستغفار وطلب النجاة ، أو تقديم الحمد والشكر لله من أجل بركاته وخيراته . وبعض المزامير يتسم بنغمة حزينة باكية ، هى زفرات قلب أو قلوب تئن بثقل الخطية وشناعة الوزر . وثمة نوع خاص من المزامير نجده فى

« قصائد المصاعد » ، ولعلّها هى التى كان ينشدها الحجاج وهم منطلقون إلى المدينة المقدسة. وانّا لواجدون فى المزامير الشخصية ـ التى للافراد ـ أناشيد التوجع والبكاء من جراء الوقوع فى مصيبة أو اقتراف الخطأ ، وأناشيد للحمد من أجل مراحم الله كالشفاء من مرض أو الانتصار على عدو . وأحيانا نقرأ أناشيد اللعن والذم يصبّها المرنم على عدوه الذى أراد به شراً.

ونلقى نوعاً آخر من المزامير عن حوادث وقعت فى الماضى، أو أحداث سوف تقع فى المستقبل . وبعض هذه المزامير يسرد لنا تاريخ إسرائيل والآباء فى صياغة شعرية، والبعض الآخر يرسم لنا صورة لليوم العظيم الذى يصير فيه الله ملكا للعالمين .

تاريخ المزامير :

لا يمكننا أن نحدد الزمن الذى كتبت فيه المزامير . . وواضح أن بعضها يرجع إلى عصر الملكية، لأن للملك ذكراً فيها . وبعضها يرجع إلى زمن السبى، وبعضها إلى ما بعد السبى . وفى رأينا أن كل مزمور يحتاج إلى دراسة خاصة لامكان تحديد زمنه والظروف التى وضع فيها .

سفر الأمثال

ان تاريخ نهضة الحكمة فى العهد القديم قد احتوته صفحات سفر الأمثال . ومن المتفق عليه اجماعا بين علماء الكتاب ، أن هذا السفر ، فى وضعه النهائى ، يرجع تاريخه إلى بعد عصر عزرا ، وهو العصر الذى ازدهرت فيه مدارس الحكمة . ولكن سفر الأمثال — مثل أسفار التوراة الخمسة الأولى — يمثل الطور النهائى لأحاديث متواترة ترجع فى بداءتها ، على الأقل إلى عصر سليمان ، الذى ربما يكون قد وضع أو جمع نواتها الأصلية الأولى . وتدل الأبواب التالية

على أن هذا السفر يشمل مجموعات كثيرة من أقوال الحكمة :

١ – أصحاح ١ – ٩ « أمثال سليمان » .

٢ – « ١٠ : ١ – ٢٢ : ١٦ « أمثال سليمان » .

٣ – « ٢٢ : ١٧ – ٢٤ : ٢٢ « كلام الحكماء » .

« ٢٤ : ٢٣ – ٣٤ « هذه أيضاً للحكماء » .

٤ – « ٢٥ – ٢٩ « هذه أيضاً أمثال سليمان التى نقلها حزقيال » .

٥ – « ٣٠ « كلام أجور ابن متقية » .

٦ – « ٣١ : ١ – ٩ « كلام موئيل ملك مسّا » .

٧ – « ٣١ : ١٠ – ٣١ « قصيد شعرى عن المرأة الفاضلة » .

ونظرة عجلى إلى هذا التبويب كافية أن تبين لنا تنوع هذا السفر وكثرة مواده . وهنا نلاحظ أن الأقسام الأربعة الأولى فى هذا التبويب تنتمى إلى أحاديث سليمان وأقواله ، أما الأقسام الباقية فمأخوذة عن أصول أجنبية غريبة . ويذهب جمهرة العلماء إلى أن المجموعة الثانية هى أقدم المجموعات فى سفر الأمثال ، أما المجموعة الأولى فهى أحدثها . ولكن بالنظر إلى العناصر الكنعانية فى هذا القسم ، يظن بعض العلماء أن جزءاً من هذه المجموعة الأخيرة على الأقل ، تضمنته أحاديث الحكمة قبل تاريخ السبي . والذى يمكن الجزم به فى يقين أن سفر الأمثال يشمل مجموعة عجيبة من الأقوال والأحاديث يمتد تاريخها إلى كل فترات التاريخ تقريباً فى العهد القديم .

أمثال الفهم وحسن الادراك :

وأمثال الحكمة فى هذه الأبواب قصيرة العبارة ، سهلة المأخذ ، تتألف من عبارات لا تربو على سطرين ، وتعالج مظهراً معيناً من مظاهر الاختبار فى الحياة. وفى بعض الحالات يتمشى السطر الثانى فى المثل مطابقا متوازيا مع فكرة السطر

الأول . ومثال هــذا التوازن المترادف ، المشترك فى معناه ، نلقاه فى أصحاح ١ : ٢٢

« الصيت أفضل من الغنى العظيم .

« والنعمة الصالحة أفضل من الفضة والذهب » .

وفى حالات أخرى نلقى سطرين متضادين ، وتطابقا غير مشترك فى المعنى ، كما فى أصحاح ١٠ : ١

« الأبن الحكيم يسرّ أباه .

« والأبن الجاهل حزن أمه » .

وأحيانا نجد السطر الثانى يكمل الفكرة فى السطر الأول ، فى لون من ألوان التطابق الصاعد فى التفكير ، كما فى أصحاح ١١ : ٢٢

« خزامة ذهب فى فنطيسة خنزيرة .

« المرأة الجميلة العديمة العقل » .

والذى يقرأ سفر الأمثال يحسّ لأول وهلة أنها عالمية « دنيوية » . وهذا إحساس لا يزكيه الواقع ، ولا تسنده فكرة الوحى الكتابى . صحيح أن الامثال القديمة فى تاريخها تبدى اهتماماً إيجابياً سلبيا بالشئون الدنيوية ، وإذ يتأمل الحكاء فى مسلك الأخلاق والتصرفات الإنسانية المختلفة ، يقولون ان الحياة الصالحة لاتُنال إلا بالجد ، والنشاط ، والصحو ، والفطنة ، وان مميزات الحياة الصالحة هى النجاح ، والوفرة ، وطول العمر ، وكثرة الأثمار . ومن هذه الناحية تماثل الأمثال مع أقوال الحكمة والفهم التى نطق بها حكماء بابل ومصر وغيرهم . وكثير من الامثال الكتابية تعالج المشاكل العادية التى تعوق الإنسان عن بلوغ ملء الحياة وكمال الوجود : مثل الكسل (٦ : ٦ — ١١ و ٢٤ :

٣٠ ــ ٣٤) والسكر (٢٣ : ٢٠ ــ ٢١ و ٢٩ ــ ٣٥) والعلاقة بالعاهرات (٥ : ٩ ــ ١٠) والمعاملات التجارية غير الحكيمة (٦ : ١ ــ ٥) وهكذا . وحين نلاحظ كثرة الاقوال عن المرأة النكدة النقاقة ، يتبادر إلى الذهن ، أن هذه المشكلة قد شغلت بال الحكماء .

« الوكف المتتابع فى يوم ممطر .
« والمرأة المخاصمة سيّان .
« من يخبئها يخبىء الريح.
« ويمينه تقبض على زيت » .

(أمثال ٢٧ : ١٥ ــ ١٦ وأنظر أيضاً ١٧ : ١ و ١٩ : ١٣ و ٢١ : ٩ و ١٩ و ٢٥ : ٢٤) .

ولكن بعد أن نقول كل هذا ، وبعد أن نحصى كل النصائح والحكم « الدنيوية » ، لا معدى لنا من القول ان سفر الامثال يجعل الدين ، والإيمان بالله ، أساساً جوهريا لكل حياة صالحة . وذلك لأن مؤرح أسفار التوراة أبرز نظام التوبة والعقوبة، وبيّن للشعب أن الطاعة لاحكام التوراة ووصاياه تضمن النجح والفلاح للامة فى تاريخها، أما عصيانها فيورث العناء والشقاء . وجاء الحكماء بعد ذلك وقالوا ان النجاح فى الحياة هو ثمرة من ثمار التعقل والوعى والحكمة ، ولكنهم أصروا على تطبيق أحكام التوراة على الفرد من حيث علاقة الإنسان بالله ، ومزجوا الحكمة بالدين ، وجعلوا مخافة الله رأس الحكمة .

سفر أيوب

أهو تاريخ واقعى ، أم هو قصة تمثيلية روائية . يرى قدامى الشراح أنه تاريخ واقعى، بل نسبه بعضهم إلى موسى. والسفر فى الترجمة السريانية موضوع بين سفرى التثنية ويشوع. ويضيفونّ إلى ذلك أن أيوب شخصية تاريخية بدليل قول الـكاتب فى مستهله « رجل فى أرض عوص » . وقد أشير اليه فى سفر حزقيال (١٤ : ١٤) .

على أن العلماء المحدثين يحسبونه قصة روائية ، من أروع قصص الـكتاب المقدس عن مشكلة الألم . وهو من الأسفار الشعرية فى العصر القديم ، بل هو أقدم بيان فى التاريخ عن مشكلة الألم ، رائع فى حواره ، بسيط فى أحاديثه ، منسق فى إيقاعه ، مريح للنفس المتعبة فى ختامه .

وكان الاعتقاد الراسخ عند الأنبياء أن يهوه هو سيد الأرض وما عليها ومَن عليها ، وان من صفاته البر والخير . لذلك كان القصاص من أجل الخطية منسجماً مع صفاته وطبيعته، وأن الخير نصيب الأتقياء الصالحين . ولـكن فى عالمنا هذا رأى البشر غير هذا ، رأوا الصالح التقى يصيبه أحياناً الألم والحزن ، ورأوا الشرير الأثيم ينال سؤء قلبه . فما علة عدم المساواة فى هذا التوزيع . كان النبي حبقوق ـ على قدر ما نعرف ـ أول من سأل هذا السؤال ، ولـكنه لم يكن الأخير ، ولست تجد حتى اليوم حكيماً أو فيلسوفاً أو أحداً من رجال الدين يجرؤ على القول انه عثر على الحل الـكامل لهذه المشكلة التى استعصت على عقول المفـكرين أجمعين .

وكاتب هذا السفر الرائع واحد من أرباب الفـكر والحجا ، الذين تصدوا لتحليل هذه المشكلة . وتمتاز قصته بروعة وجمال فى نظمها ، وعمق وعاطفة فى

وقوفها إلى جانب الحق . فهو لا ينجذب إلى أى حل يميل إلى البطل والبهتان ، ولا تبهره أية نظرية لا تستقيم مع الواقع ، ولا يقعده عن السعى والاجتهاد ألم أو خوف .

ويقع السفر فى أربعة أجزاء :

١ — قصة آلام أيوب ونكباته (ص ١ و ٢)

٢ — الحوار بين أيوب وأصدقائه (ص ٣ ـ ٣٧)

٣ — جواب الله (ص ٣٨ : ١ ـ ٤٢ : ٦)

٤ — الخاتمة السعيدة (ص ٤٢ : ٧ ـ ١٧)

والقسم الأول والأخير كتبا نثراً ، أما الأقسام الاخرى فكتبت نظماً فى الأصل العبرى . وتتحدث القصة النثرية عن ثروة أيوب واستقامته (١ : ١ ـ ٥) . ثم يأخذنا الكاتب إلى حيث يجلس يهوه ملكا على عرشه وحوله خدامه يقدم كل منهم حسابا عما فعل . وبين أولئك « الشيطان » ووظيفته تجربة الناس ليعرف مدى أخلاصهم وولائهم لربهم . ويهوه يسأل الشيطان عن عبده أيوب ، فيقول « هل مجانا يتقيك أيوب .. خذ ماله وبنيه ، فيلعنك ولا يحمدك » .

ويعطى الله إذنا للشيطان أن يقوم بالتجربة ، بشرط ألاَّ يضع يده على أيوب نفسه (١ : ٦ ـ ١٢) .

ثم نعود إلى الأرض لنرى أيوب وقد حُرم من كل ثروته . وفجأة يموت أبناؤه السبعة وبناته الثلاث . ولكن يبقى أيوب صامداً فى إيمانه بالله (١ : ١٣ ـ ٢٢) .

ومرة أخرى يمثل الشيطان أمام الله ، ويقول ان التجربة لن تكمل إلاَّ

إذا مسسنا أيوب فى شخصه . ومرة أخرى يُعطى الشيطان إذناً للتصرف كما يشاء ، فيصاب أيوب بأخبث صنوف الادواء . ويقول علماء البكتريولوجيا ان أيوب كان مصابا بمرض جلدى خبيث ـ لعله الزهرى ـ ويؤيدون تشخيصهم هذا بدليلين : الاول أن أيوب ـ شأنه شأن العرب فى العصر الحديث ـ كان يحك قروحه بقطعة من الفخار المكسور (٢ : ٨) . وقد جرى المصريون فيما بعد على أن يسموا الزهرى «مرض أيوب» . والدليل الثانى أن أيوب يقول عن نفسه انه سلك مسلكا أخلاقياً حميداً نظرياً وعملياً ، وبقى مخلصاً أمينا لزوجته الواحدة (٣١ : ١ ـ ٩) .

وفى حدة مرضه تجىء إليه زوجته وتحثه على أن يلعن الله قبل أن يموت . ولكنه يبقى مخلصاً لربه . وأخيراً يقبل إليه ثلاثة من أصدقائه ـ اليفاز وبلدد وصوفر ـ لتعزيته .

والجزء الثانى أهم ما فى الكتاب . فهو حوار شعرى بين أيوب وأصحابه عن علته وبلواه (ص ٣ ـ ٢٧ و ٢٩ ـ ٣١) . وقد أصرَّ أصحابه فى حوارهم على أن الله لا يرسل البلاء إلاَّ للاشرار الخاطئين ، وأن علة بلوى أيوب هى خطية دفينة هو مسئول عنها ، وأن الله سيرحمه إن تاب واستغفر . ولكن أيوب يحتج فى مرارة على إدعائهم ، ويصرُّ على أنه لم يقترف وزراً يستحق عنه هذا البلاء الماحق . وإذ يحس أن الله ناقم عليه ـ وإلاّ لما أصابه بهذه النقمة ـ يدرك أن لا سلطان له على الله ، وان لا وسيط بينه وبين ربه ، وأن الله ديانه . لذلك يأمل أن يستمع الله إلى شكواه ويوقفه أمامه ليزكى نفسه قدامه . ولكنه يعود مرة أخرى إلى نفسه ويرى عقم هذه الفكرة ، فليست هناك حكمة أو قوة تقدر أن تبرئه من هذا الداء الذى استفحل ، وليس أمامه إلا الموت .

وأخيراً من أعماق الألم الجسمانى والنفسى ، يخطو أيوب أوسع خطوة فى

سبيل الإيمان ، ويقول ان الموت ليس نهاية كل الأشياء ، فحتى بعد فناء جسده العليل المضنى ، سيبقى هو حياً فى وضع ما ، وفى حالة يرى فيها الله ويدافع عن نفسه أمامه . عندئذ سيكون الله إلى جانبه ، ويعلن بره ، ويهبه خلاصه (١٩ : ٢٥ ـ ٢٧) .

هذا هو الجواب على سؤال أيوب الأول : إنه الآن على يقين أن الله بعد كل هذا واقف إلى جانبه . ولـكن الحوار يمتد ولا ينقطع . إن الخطية هى علة كل ألم فى العالم ، ولـكنها ليست للـكل ، وهناك حالات من الألم لا يمكن تعليلها . ولذلك تستمر المناقشة حتى تفرغ جعبة الأصحاب الثلاثة . وعندئذ يُصعد أيوب صرخته الداوية متوسلاً إلى الله أن يضىء على بصيرته بنور، ييسِّر له أمره (٢٩ ـ ٣١) .

أما الفصول (٣٢ ـ ٣٧) فهى أقوال صديق رابع لأيوب يدعى « اليهو » . ولـكن الآخرين فى القصة لا يقيموا لـكلامه وزناً ، ولا يعيروه أذناً صاغية . ومن رأى كثيرين من الشراح أن أقواله هذه أضافها كاتب متأخر زعم أن لديه جواباً أقوى فى الحجة والإقناع مما تقدم فى السفر . وفى ص ٣٨ يجىء الله ويضع أمام أيوب صورة لبعض عجائب الـكون الذى صنعه ، ويشرح له مبلغ ضآلة الإنسان إذا قيس بعظمة الله . وقد يبدو لنا مستغرباً أن الله لم يجب على أسئلة أيوب . ولـكن أيوب لم يعد فى حاجة إلى جواب . لقد رأى الله وحَسْبه هذا . وقد انتهت أسئلته ومتاعبه (٤٠ : ٣ ـ ٥ و ٤٢ : ١ ـ ٦) . والمرء حين يرى الله ، تمتلىء نفسه بالرهبة والروعة والمجد ، فتتضاءل كل الأشياء ، حتى أوجع الأحزان وأعمق الشكوك ، ولا يكون لها متسع فى تفـكيره .

وفى ص ٤٢ : ٧ نعود إلى القصة النثرية القديمة ، ونرى الله يزكى أيوب فى أقواله ، ويبطل آراء أصحابه الخاطئة . ولـكن الله يغفر لهم استجابة لصلاة

أيوب . ثم تعود إلى أيوب كل ثروته لأنه خرج سليماً من التجربة المحرقة . ويلد سبعة بنين وثلاث بنات بدل الذين هلكوا .

تاريخ السفر :

لا ندري متى كتب هذا السفر . ولكن يبدو أن القصة قديمة العهد ، يرجع تاريخها إلى ما قبل السبي ، لأن النبي حزقيال يذكر في (ص ١٤ : ١٤) رجلاً اسمه أيوب مثالاً للبر ، مع نوح ودانيال . وما نظن أن حزقيال استقى الفكرة من سفر أيوب في وضعه الحالي ، ولعل صورة من القصة النثرية كانت في ذهن النبي — عن رجل خرج مبرراً من أقسى تجربة ، وأمر محنة جازها إنسان . أما الجزء الشعري من السفر فيرجع إلى تاريخ متأخر . وذلك لأن الإيمان بإله واحد ثابت فيه بوضوح . ومن الخطايا التي حاول أيوب ان يبرئ نفسه منها عبادة الشمس والقمر (ص ٣١ : ٢٦ و ٢٧) ، ولم يذكر شيء عن البعل أو الآلهة الأخرى التي عبدها بعض الشعوب قبل السبي . ثم أن طريقة الكتابة وأسلوب اللغة يدلان على تاريخ متأخر . ومن المحتمل — على قول الثقات — أن السفر كتب في الثلاث مائة سنة قبل الميلاد .

والسفر ذو قدر كبير في تاريخ الفكر الإنساني ، لأنه يتضمن أول بادرة عن الحياة الحقة بعد الموت ، الحياة التي يتصل بها الإنسان بالله ، ولا يضيع في متاهات شيول كما آمن الأولون . وقد عرف بنو اسرائيل عقيدة الحياة بعد الموت في تاريخ متأخر ، وكان قد سبقهم فيها المصريون والإغريق . على أن بين بني إسرائيل والإغريق تفاوتاً في التطور ، فقد قامت عقيدة الأخيرين على نظريات فلسفية حول الإنسان ، أما اليهود فقد استندوا في عقيدتهم إلى بر الله ذاته .

نشيد الأنشاد

هذا السفر مجموعة من أناشيد الحب ، بعضها من رجل إلى أمرأة ، وبعضها من امرأة إلى رجل ، وبعضها من لفيف من الناس إلى رجل أو امرأة . وقد اعتقد اليهود أن سليمان كتب هذا السفر فى أيام شبابه ، وكتب الأمثال فى عهد رجولته ، وكتب الجامعة فى سنى شيخوخته .

وقد تضاربت الآراء حول هذا السفر والهدف الذى يرمى إليه . فقال اليهود إنه بيان عن علاقة الحب بين الله وبين إسرائيل ، وقال المسيحيون المحافظون إنه بيان عن العلاقة بين المسيح والكنيسة . على أن بعض الشراح المحدثين يحسبونه رواية تمثيلية يقوم بالأدوار فيها شخصان أو ثلاثة : أحدهم الملك سليمان ، والثانى فتاة من شولم ، والثالث أحد رعاة الأغنام .

وإن كانت الرواية من شخصين ، فيكون مدار القصة أن سليمان شهد هذه الفتاة القروية وأحبها ، وأخذها إلى أورشليم وحاول أن يستميلها إليه بمعسول القول ونجوى الغرام . ولكنه لم يظفر بأمنيته إلا بعد أن عاد بها إلى موطنها الريفى .

وإن كانت الرواية من ثلاثة اشخاص ، فتكون الفتاة قد أحبت راعياً شاباً قبل نقلها إلى أورشليم ، وهناك تبقى على ولائها فى حبه على الرغم من نعومة الحياة وبذخ العيش فى قصور سليمان . وإذ يفشل سليمان فى الظفر بقلبها ، يعيدها إلى بيتها فى الريف لتقترن بحبيبها الأول .

هذا رأى بعضهم ، على أن روايات من هذا النوع لم تكن معروفة فى الأدب العبرى القديم ، وكانت — ان وجدت — تدور حول طقوس العبادة ، وأعمال الله فى خلق العالم . لذلك ذهب آخرون إلى حد القول إن السفر مجموعة

أناشيد كان القوم ينشدونها على آلات الموسيقى فى الأفراح وحفلات الزواج . وحتى هـذا الرأى اجتهادى فقط ، وليس لدينـا دليل يسنده . وكل مانستطيع الجزم به أن لدينا سفراً حوى أروع الأناشيد وأعذب الأغانى التى تصور الحب المتبادل بين الرجل والمرأة .

تاريخ السفر

هناك أدلة تثبت أن هذا السفر فى وضعه الحالى يرجع إلى تاريخ متأخر ، وربما كان أحدث أسفار العهد القديم من حيث تاريخه. وذلك لأنه حوى بعض الألفاظ اليونانية التى لم تدخل اللغة إلا بعد السبى بزمن طويل . وليس فى الكتاب المقدس كله سفر آخر كتب على طريقته وفى اسلوب هذا السفر ، على أن بعض الأناشيد قد تكون قديمة العهد ، وقد تطورت على مسار الزمن، ولكنها لم تكمل فى وضعها الحالى إلا قبل المائتى سنة الأخيرة قبل الميلاد بزمن وجيز. أما الكاتب فلا نعرف من هو . وإن يكن سليمان قد وضع فعلا طرائف من الأناشيد ،فليس من المحتمل ان يكون هو نفسه واضع هذا السفر .

راعوث

قصة راعوث من أمتع القصائد فى الأدب العربى . وسواء أكانت مذكرة سياسية ، كما يعتبرها بعض البحاثة ، قد دونهـا كاتب للقضاء على ميول الاجحاف والتعصب والتحامل ، تلك الميول التى زكاها عزرا ونحميا ـ أم كانت قصيدة من قصائد الحب المعروف بين الرعاة كما يفسرها كثيرون ـ أم كانت درساً فى الطاعة المثلى وفى الإيمان المثالى — فهى على كل حال تراث ثمين يُعد من أروع ما دبجته يراعة فى الأدب الإنسانى .

وكانت قد حدثت مجاعة فى بيت لحم ، فرحل رجل وزوجته وابناهما إلى

اقليم مجاور للاقامة بأرض موآب . أما الرجل فكان أليمالك ، والزوجة نعمى ، والابنان محلون وكليون (ص ١ : ١ – ٥)

ولقد حلّت بساحتهم النكبات والنوازل، إذ مات الزوج ، ومات الولدان ، وكان قد اختار كل منهما شريكة حياته من الموآبيات . وها هى نعمى ، خالية الوطاب ، كسيرة القلب، تحماق فى الفراغ المخيّم على وادى الأردن تجاه تلال يهوذا المقابلة ، فتقرر العودة إلى أهلها وهى بلا معين . وحملت قرارها هذا إلى عرفة وراعوث كنّتيها ، فقبّلتها عرفة والدموع تغمر وجهها ، ثم أدارت ظهرها وعادت . أما راعوث فقد لصقت بها (ص ١ : ٦ – ١٧) .

توجهت نعمى وراعوث معاً إلى بيت لحم حين كان موسم حصاد الشعير. وهناك تذكرت « وليّها الغنى » بوعز الذى كان ولياً ثانياً لها . وانطلقت راعوث إلى حقل هذا الولىّ لتلتقط السنابل وراء الحصادين (٢ : ١ – ٤) .

وإذ يقع نظر صاحب الحقل على راعوث ، ويقال له إنها « فتاة موآبية قد رجعت مع نعمى من بلاد موآب » (٢ : ٦) يتحدث إليها فى رقة ولطف ، موجهاً لها الدعوة كى تتناول الطعام فى وقت الوجبات مع أتباعه، « وتغمس لقمتها فى الخلّ بين الباقين » . وقد جرت العادة فى عهد راعوث ، أن يُعطى الحق لأقرب ولىّ للمتوفى أن يبنى بالزوجة الشابة إذا توفى رجلها لكى ينقذ إسمه من الانقراض. ولذلك كان من حق أية أرملة شابة، مثل راعوث، أن تنظر إلى أقرب ولىّ لزوجها الراحل نظرتها إلى زوجها الشرعى . ولا بدّ لنا من أن نتفهّم هذه العادة الغريبة تفهماً تاماً ، وإلا بدت لنا الفعلة كاحبولة نصبتها نعمى ، وأشتركت معها راعوث ، لإصطياد بوعز .

ورأت نعمى فى بوعز الولىّ الثانى الذى عليه أن يفدى ، فألزمت راعوث أن تضع نفسها فى حمايته . وكان الوقت المتفق عليه ليلاً ، إذ جرت العادة على

أنه بعد أن يذرّى بيدر الشعير، ينام بوعز فى البيدر كى يمنع اللصوص من سرقة شعيره ، كما يفعل العرب فى هذه الأيام . (ص ٣)

وما أن خيّم الظلام ولفّ بوعز نفسه فى ردائه لينام، حتى تسللت راعوث إلى البيدر، ورقدت عند قدميه، فامتدح عفتها وفضيلتها، ولكنه أخبرها انه يوجد مع ذلك ولىّ أقرب منه، فإذا لم يتمكن من قضاء هذا الحق لها ، فسيأخذ هو على عاتقه ما يترتب عليه من مسئولية (ص ٣ : ١٠ — ١٥)

وفى مطلع الفجر ذهب بوعز للتوّ إلى مدخل بيت لحم ، ودعا الشيوخ حوله ، وتشاور معهم فى الأمر بطريقة تضعنا أمام نظام اجتماعى مجهول لدينا غريب علينا . وقد دعاهم جميعاً ليشهدهم انه اشترى العقار الذى كان يملكه زوج نعمى وأبناها، كما انه « اشترى » راعوث ليقيم اسم البيت على ميراثه (ص ٤).

وتزوج بوعز وراعوث فولدت له ابناً ، وكان الولد عوبيد ، الذى صار فيما بعد أباً ايسى أبى داود . ومن نسل داود ، بل فى بلدة داود ، ولد يسوع المسيح فى ملء الزمان .

تاريخ السفر

ويدلّ اسلوب الكتابة على أن القصة كتبت فى تاريخ متأخر . وقد ذهب جمهرة العلماء إلى انه كتب فى زمن اشتدت فيه رغبة اليهود فى التخلىّ عن زوجاتهم الأجنبيات ، وكان هدفها ان تثبت انه حتى داود كان فيه دم امرأة موآبية . وأغلب الظن ان القصة كتبت فى زمن عزرا ونحميا أى فى النصف الثانى من الأربع مائة سنة قبل الميلاد .

المراثى

المراثى هى أناشيد التوجع والبكاء من أجل أورشليم يوم أذلّها وأفناها الكلدانيون ، ومن أجل المدينة الخربة أيام السبي . ويذهب بعضهم إلى أن إرمياء هو كاتب هذه المراثى ، ولكن يرى آخرون أن اسلوب كتابتها يختلف عن أسلوب ارمياء اختلافاً تاماً ، وأنها تضمنت أفكاراً لا يقرّها هذا النبي .

ويقع السفر فى خمسة فصول :

ص ١ ـ يندب النبي شقاء المدينة وويلاتها ويعترف بآثامها .

ص ٢ ـ خراب اورشليم وغضب الله .

ص ٣ ـ يتحدث النبي بالنيابة عن الشعب ، ويستند إلى رحمة الله وأمانته .

ص ٤ ـ أيام الرخاء ومقارنتها باهوال المجاعة .

ص ٥ ـ الأمة تتوسل طالبة الغفران والخلاص .

ويصوّر لنا الفصلان الثانى والرابع أروع صورة لأيام أورشليم الأخيرة ، والآلام المريرة الخانقة التي عاناها الشعب . وهى مصوغة فى أسلوب أخاذ فى اللغة العبرية ، ويرجع تاريخها حتما إلى ما بعد سقوط اورشليم بزمن قصير ، يوم كانت الذكريات الأليمة مازالت نابضة بالحياة فى نفوس الأحياء ، ويوم كان الاحساس بألم التوجع مازال حاداً يحزّ فى قلوب الباقين .

أما الاصحاح الأول فهو أقل روعة فى أسلوبه من الفصلين الثانى الرابع . ويبدو أن الاصحاح الثالث جاء متأخراً ، وآخرها الاصحاح الخامس .

استير

ليس هناك أى دليل ينبىء عمن هو كاتب هذا السفر ، وعن تاريخ كتابته. وأحشويرش الملك الفارسى فى القصة كان ملكاً على فارس فى الفترة من ٤٨٦ إلى ٤٦٤ ق. م. وتبدؤ القصة فى السنة الثالثة من حكمه (١ : ٣) . وفى السنة السابعة يتزوج من أستير (٢ : ١٦) . ولا ندرى متى كتبت القصة ، ويذهب بعضهم إلى أنها كتبت حوالى سنة ١٣٠ ق. م. لأنها تعكس وجهة نظر المكابيين .

وتنبىء لغة القصة وأسلوبها على أنها كتبت بعد زمن حدوثها بوقت طويل . ومن غريب الأمر أن القصة تخلو تماماً من ذكر « يهوه » ، على أن عناية الله وتدبيره تبدوان بمعنى جلىٍّ . وقد علَّل بعضهم خلو القصة من ذكر « يهوه » بأنها نقلت حرفياً من سجلات المملكة الفارسية الرسمية ، أو أن اسم الجلالة قد حذف لكيلا يعثر قراء فارس ، أو خشية تدنيس اسم الإله الذى لا يؤمنون به .

والسفر قصة متكاملة تسير سيراً منطقياً إلى أن تبلغ ذروتها . وهى تبدؤ بوصف وليمة أقامها ملك فارس لنبلائه وحكام أقاليمه ، ثم إقصاء زوجته « وشتى » ، واتخاذ أستير الفتاة اليهودية ملكة بدلها . وتروى القصة بعد ذلك كيف أراد هامان استئصال شأفة اليهود ، وكيف يلغى الملك قراره بعد تدخل أستير ، ويأمر بصلب هامان على أداة الإعدام التى كان قد أعدّها لمردخاى الذى كان فى القصر الملكى ، ومن ذوى قرابة أستير .

شوشن :

على بعد مائة ميل من الخليج الفارسى بين نهر أولايوس (أولاى)

وشهبور ، تقع حفريات مدينة قديمة تتـكون من عدة جبال متجاورة تتناثر حولها وفوقها آثار قديمـــة يرجع زمنها إلى أكثر من ألفين وخمسمائة عام . ويكاد محيط هذه المدينة يبلغ ستة أميال أو سبعة .

هذه خرائب مدينة «شوشن» أو «سوسا» التي جعلها كورش الـكبير مؤسس الدولة الفارسية عاصمة لملـكه . وقد اكتشف الباحثون على أحد هذه الجبال خرائب قصر قديم تدل معالمه على أنه القصر الذى ابتناه داريوس الفارسى أعظم ملوك هذه الدولة ، بعد كورش . فى هذا القصر ، فى جناته وجنباته وابهائه وممashيه وغرفه وقاعاته ، عاشت أستير الملـكة ، وفيه وفى مدينة شوشن القصر المحيط به وقعت حوادث قصة أستير .

هل القصة تاريخية :

على أن طائفة من الشراح يذهبون إلى أن القصة ليست تاريخية واقعية . فليس فى سجلات الملك الفارسى أحشويرش — وهى باقية حتى اليوم — ذكر للملـكة وشتى ، أو أستير ، أو مردخاى ، أو هامان . وتستهدف القصة أمرين: أولهما تعليل حفظ عيد البوريم الذى تمسك به اليهود ، والثانى تشجيع اليهود للمثابرة والمصابرة فى وجه العداء الشديد والـكراهية البالغة والاضطهاد المرير الذى كانوا يعانونه فى تلك الفترة، وهم يرزحون تحت نير حكم ملوك سورية الذى ثار المـكابيون للقضاء عليه .

سفر الجـــامعة

« الجامعة » مشتقة من « جمع » أو « جماعة » . والظاهر أن الـكلمة فى أصلها العبرى تشير إلى شخص « بشير » أو « واعظ » يحدِّث جمعا من الناس . وليست « الجامعة » اسما علما على فرد بالذات ، بل هى وصف لوظيفة . وكان المعتقد أن هذه الوظيفة قام بها سليمان ، الذى كان من عادته أن « يجمع شيوخ الشعب و كل رؤوس الأسباط رؤساء الآباء » ، ويبدو بينهم كأنه البشير الحكيم المجيد المتفوق : « أنا الجامعة كنت ملـكا فى أورشليم ، ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحـكمة عن كل ما عمل تحت السموات » .

على أن سفر الجامعة ليس عظة بالمعنى المقصود من الحـكم والعظات ، إنما هو أشبه بمحاضرة متناثرة أفـكارها عن معنى الحياة ، يلقيها معلم حكيم فنىّ ، وليس من الهواة . والسفر ليس منظما على نسق معين ، أو نظام متطور ، ولـكنه أقوال متفرقة تستهدف ، فى البداية وفى النهاية ، غاية معلومة ، هى أن كل نشاط بشرى باطل وقبض الريح :

« باطل الأباطيل الـكل باطل ، قال الجامعة » . (١ : ٢)

« باطل الأباطيل ، قال الجامعة ، الـكل باطل » . (١٢ : ٨)

وكما فعل الفيلسوف عمر الخيام فى « رباعياته » ، نرانا هنا أمام حكيم يعلن أن حكمة الإنسان لن تقدر أن تـكون جامعة شاملة . وللحكمة فضلها وقيمتها ، لا شك فى ذلك ، لأنها تمـكن الإنسان من السير فى حذر ورزانة ، واضعاً نصب عينه قيود الحياة الفانية ومقتضياتها : « الحـكيم عيناه فى رأسه . أما الجاهل فيسلك فى الظلام » (٢ : ١٤) . أجل ، ان الحـكمة « تقوّى الحـكيم أكثر من عشرة مسلطِّين » (٧ : ١٩) ، ولـكن مزاياها فى الحياة العملية مشكوك فى أمرها :

« قلت فى قلبى كما يحدث للجاهل ، كذلك يحدث أيضاً لى أنا .

« فلماذا أنا أوفر حكمة ، فقلت فى قلبى هذا أيضا باطل .

« لأنه ليس ذكر للحكيم . ولا للجاهل إلى الأبد ... » (٢ : ١٢ ـ ٢٣) .

وذلك « لأن فى كثرة الحكمة كثر الغمّ ، والذى يزيد علما يزيد حزنا . (١ : ١٨) ، وفى النهاية يموت الحكيم ، كما يموت الجاهل »(٢ : ١٤ ـ ١٧)

وينصح الجامعة تلاميذه ومريديه أن يستمتعوا بالحياة ، وهم بعد أحياء ، يحيون فى الحاضر ويتجاهلون المستقبل :

« ليس للانسان خير من أن يأكل ويشرب ويُرى نفسه خيراً فى تعبه » (٢ : ٢٤ ـ ٢٥) .

« عرفت أنه ليس لهم خير إلا أن يفرحوا ويفعلوا خيراً فى حياتهم » (٣ : ١٢ ـ ١٥)

والحق الأليم فى كل هذا أن الحكمة، على الرغم من فضلها وقيمتها ، تعجز عن اكتناه أسرار الحياة، وعلاج المشاكل الدفينة، التى يتوقف عليها وجود الإنسان. وإذ يعجز الحكيم عن أن يصل إلى الحكمة الإلهية التى انطوى عليها الكون، يضطر للرجوع إلى نفسه وعقله فى تأويل معنى الحياة . ولذلك يغالبه اليأس، ويتولاه القنوط فى هذا الفراغ الرهيب ، بل تتولد فى نفسه كراهية للحياة ، تذكرنا بذلك الغثيان الذى ينضح من نفوس بعض « الوجوديين » فى عصرنا الحديث .

قصد الله الخفى :

ويعتقد بعض العلماء أن كاتب سفر الجامعة ، وقد عاش فى فترة التاريخ اليونانى التى عاصرت الاسكندر الأكبر ، قد تأثر بالفلسفة اليونانية وبفكرة القضاء والقدر ،التى أشبعت بها الثقافة اليونانية ، وهناك على الأقل بعض التماثل بين أقواله وبين فلسفة الابيقوريين ، لأن الحكيم ينصح باقتناص الفرص ،

وافتداء اليوم ، والتمتع بالملاذ الزائلة قبل ضياعها . « لنأكل ونشرب لأن غداً نموت » . (١ كور ١٥ : ٣٢) . « لأنه ليس للانسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح ... » (جامعة ٨ : ١٥)

وفضلا عن هذا ففى سفر الجامعة نوع من القدرية ، يفيد أن كل الأحداث سبق فقدِّرت منذ زمن بعيد ، ولذلك يقبل الحكيم فى طمأنينة وهدوء نفس ، أفراح الحياة وأتراحها ، دون أن ترتعد فرائصه بما يخبئه له الزمن ، ودون أن يتأثر بإقبال الزمن أو إدبار الحظوظ : « الذى كان فقد دعى باسم منذ زمان وهو معروف أنه إنسان ، ولا يستطيع أن يخاصم من هو أقوى منه » (٦:١٠) . « ما كان فمن القدم هو . وما يكون فمن القدم قد كان » (٣ : ١٥) . ويذهب بعض المفكرين إلى أن هذا التعليم يقرب من فلسفة الرواقيين ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فقالوا ان كثيرا من الألفاظ مأخوذة من أصل يونانى .

ويبيّن بين ثنايا السطور ، أن الجامعة كان متأثراً إلى حد ما بروح الثقافة اليونانية ، وأنه استنشق عبير هذا الجو فى تفكيره والهامه . على أنه لايمكن القول جزافا أن الأفكار اليونانية وحدها هى التى غلبت عليه ، فعلى الرغم من نظرته المتألمة إلى الحياة ، واعتباره إياها مأساة مفجعة ، لم يرض أبدا التنازل عن عقيدته الراسخة بأن الله هو السيد المتسلط على شئون البشر . وليست مأساة الحياة فى نظره أن سطوة القضاء والقدر التى لا رادّ لها ، تحكم أعمال الإنسان وأعمال الله معاً ، بل أن حكمة الله خافية لايدرك الإنسان كنهها ، بحيث أمست الحياة من وجهة النظر البشرية ، عاطلة عن المعنى . وما دام الإنسان لا يقدر أن يعرف طرق الله ، فإن الأحداث تبدو للعين وليدة الصدف خاضعة للحظوظ . والحق يقول الجامعة « ليس جديد تحت الشمس » ، وذلك

لأن سير الحياة الوئيد المنهك يعود فى دورة إلى البداية التى بدأ منها . » . . . «رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس، فاذا الـكل باطل وقبض الريح . الأعوج لا يمكن أن يقوم ، والنقص لا يمكن أن يجبر » (١ : ٤ — ١١) ومع هذا كله فإنه لا يفتأ يردد فى يقين أن كل شىء « فى يد الله » (٩ : ١) .

والمشكلة أن سلطان الله خفىٌّ عن العين البشرية، والإنسان يتعسس طريقه فى الظلام لا يعرف شيئاً من قصد الله وتدبيره . ولذلك باتت الأحداث، فى نظر الحـكمة البشرية فريسة للأوهام والوساوس . والأيام تأتى وتعود فى دورات مليلة لاتتجه فى سيرها إلى قصد معين أوهدف مروم .

ظلال اليأس :

ومما لا شك فيه أن الجامعة لم يدّع أبدا أنه يلقّن الناس تعاليم إلهية على نسق تعاليم الأنبياء أو الـكهنة ، ولـكن أراد بالأحرى أن يقدم مشاكل مستقاة من اختباراته ومشاهداته وتأملاته . ولـكن فكرته عن الله متأصلة فى كل متجهات تفكيره. وخلاصة تعاليمه الدينية أن الله خفىٌّ عن أفهام البشر ، ولهذه الفـكرة نظائر فى التراث الدينى اليهودى ، لأن الله منذ القديم الذى يعلن ذاته ، يمكن أن يُخفى ذاته أيضاً . فالله الذى أعلن إسمه « ذاته » ، هو بعينه القدوس الذى لا تفهمه مدركات البشر . والله الذى خلّص وأنقذ ، هو بعينه الذى أغرق الناس فى الحيرة ، بل اليأس أحياناً . ولقد أعطى الناس « علامات » على قوته وحضرته . ولكنه لم يقدم أدلة تنفى احتمال الشكوك والريب فى بعض المواقف . وحسبنا أن نشير إلى اعترافات النبى إرميا التى ترسم صورة لليأس الذى يقترن بالإيمان كظل لا يحيد عنه . والجامعة يـكتب تحت ظلال من اليأس . فالله فى نظره متعال منزه يفوق العقل ، تفصله عن الإنسان فجوة هائلة « لأن الله فى السموات وأنت على الأرض » (٥ : ٢) .

ولست تجد كاتبا فى العهد القديم يبرز سلطان الله الفائق ، والتنزيه الإلهى ، كما يبرزه الجامعة . فالله يأمر ويتسلط . ولـكن سلطانه مستور ،

قد خفى عن الأفهام البشرية : « مهما تعب الإنسان فى الطلب فلا يجده. والحكيم أيضاً وإن قال بمعرفته لا يقدر أن يجده » (٨ : ١٧) . « كما أنك لست تعلم ما هى طريق الريح ، ولا كيف العظام فى بطن الحبلى ، كذلك لا تعلم أعمال الله الذى يصنع الجميع » (١١ : ٥) . على أنه مع عجز الإنسان وقصوره فى هذا المضمار ، لا يرتاب الجامعة فى سلطان الله وقدرته ، « من يقدر على تقويم ما قد عوجه » (٧ : ٢٣) .

إن سفر الجامعة نفى قوى صريح لما يدّعيه الحكماء من حيث قدرتهم على فهم مقاصد الله . ولقد ادعى حكماء سفر الأمثال ، فى كثير من التفاؤل ، أن الحكمة التى تبدأ بمخافة الرب ، قد تهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ، ولكن الجامعة أنكر هذا على نفسه ، وأبى كل الاباء أن يسلمّ بأن حكمة الإنسان تقدر أن تتغلغل إلى أعماق حكمة الله .

دانيال

فى الكتاب المقدس اليونانى يوضع سفر دانيال بين « أسفار الأنبياء ». وأما فى الكتاب المقدس العبرى فيوضع بين « الكتابات » . وهذا هو الوضع الصحيح . وذلك لأن السفر لا ينسجم مع أسفار الأنبياء ، ولكنه أقرب مايكون إلى أسفار « الرؤى ». ولا ننكر أن بعض أسفار الأنبياء تضمنت « رؤى »، ولكنها كانت على نطاق ضيق، أما هذا السفر فيكاد يكون « رؤى » فى جملته .

وينقسم السفر إلى جزئين رئيسين : (أولا) قصص عن دانيال وصحابته (ص ١ ـ ٦) ـ (ثانياً) رؤى يراها دانيال (٧ ـ ١٢) .

اولا : قصص عن دانيال :

يبدؤ السفر بوصف ترحيل دانيال مسبباً إلى بابل مع يهوياقيم سنة ٥٩٦ ق.م.

وكيف أنه تربى وتهذب مع شباب النبلاء على يد رجال حاشية ملك الكلدانيين فى بابل . وفى ذات يوم يقرر دانيال وثلاثة من أصحابه ألاّ يذوقوا طعاماً من على مائدة الملك ، وأن يكتفوا بالقليل من الزاد . ولما مثلوا أمام الملك بعد فترة من زمن ألقاهم أقوى بنية ، وأصلب عوداً ، وأوفر حكمة من الباقين (ص ١) .

وفى ص ٢ يحلم الملك نبوخذ نصر حلماً ، ويفشل حكماء بابل فى تفسير هذا الحلم ، ولا يقدر على ذلك إلا دانيال .

وفى ص ٣ يختفى اسم دانيال وتدور القصة حول أصحابه الثلاثة ـ شدرخ وميشخ وعبدنغو ـ وكان الملك قد أقام تمثالاً وأمر رعاياه أن يسجدوا له ، ومَن يخالف أمره يُحرق بالنار ، ولكن الأصحاب الثلاثة أبوا الخنوع لأمر الملك ، فألقاهم فى أتون النار التى لم تمسسهم بضرّ . فأصدر الملك أمراً أن يُعبد إله اليهود فى كل أنحاء المملكة .

وفى ص ٤ يحلم نبوخذ نصر حلماً آخر ، لم يقدر أحد على تفسيره غير دانيال . وكان تفسيره أن الملك سيفقد قواه العقلية ويهيم على وجهه فى الفضاء كالسائمة . وقد صدق هذا التفسير ، فلما عاد الملك إلى وعيه قدَّم الحمد والعبادة ليهوه .

وفى ص ٥ نقرأ عن وليمة بلشاصر . وفى وسط الوليمة تخطُّ يد خفية سطوراً على الحائط ، فلا يقوى على شرحها غير دانيال ، وكان مضمونها ان بلشاصر سيموت وتخرب بابل فى تلك الليلة . وقد صدق هذا التفسير أيضاً ، وجلس على العرش داريوس المادى .

وفى ص ٦ يرفع داريوس دانيال إلى مرتبة علياء فى حاشيته ، فيغضب حسَّاده ، ويأتمرون على قتله ، ويوعزون إلى الملك أن يصدر أمراً بأن يعبده كل إنسان مدة ثلاثين يوماً . ولكن دانيال يأبى الانصياع لهذا الأمر ويبقى على

ولأنه فى عبادة ربّه. فيوضع فى جب الأسود ، ولكن تُكَمُّ أفواه الأسود فلا تؤذيه . وفى الصباح التالى يخرجه الملك سليما ويلقى غرماءه طعاماً شهياً للأسود الجائعة .

ثانيا : رؤى دانيال :

١ — الأربعة الحيوانات (ص ٧)

٢ — الكبش وتيس الماعز (ص ٨)

٣ — يقدم دانيال سؤالا لله عن رؤيا كان قد سبق فأعلنها ارمياء النبى عن استمرار خراب أورشليم مدة سبعين عاما . وها قد انقضت السنون السبعون ، فماذا عسى أن يحدث بعدها . فيأتيه الجواب من الملاك جبرائيل .

٤ — رؤيا عن الأحداث المقبلة وضمنها حروب الملوك الذى خلفوا اسكندر الأكبر (ص ١٠ :١ـ ١٢: ٤) .

٥ — رؤيا عن ملاكين (١٢ : ٥ ـ ١٠) .

وهذه كلها رؤى . وهى تقدم لنا دليلاً على التاريخ الذى وضع فيه السفر كما هو الآن. ففى ص ١٠ : ١ ـ ١٢ : ٤ نقرأ بياناً عن زمن تاريخى يمتد إلى عصر انتيخوس ابيفانوس ، الذى وضع تمثالا للاله زيوس اليونانى فى بيت الله فى اورشليم لكى يستأصل اليهودية وشعبها. على ان قدماء الشراح يرجحون ان السفر كتب فى بابل وحمله عزرا معه مع الاسفار الأخرى عند عودته إلى اورشليم .

ويذهب جمهرة من الشراح إلى ان القصص فى الجزء الأول من الكتاب أقدم من الرؤى ، ولكنها ليست تاريخية . فالتاريخ العالمى لم يذكر شيئاً عن شخص يدعى « داريوس المادى » يجلس على العرش مباشرة بعد سقوط بابل ، كما ان بلشاصر لم يكن ملكا ولم يكن ابنا لنبوخذ نصر . ويذكر علماء التاريخ

هفوات تاريخية أخرى فى هذه القصص. على ان هذا كله لا يقلل من قيمتها وقدرها. فقد كان الهدف منها تقوية ايمان الشعب وهم يرزحون تحت نير ملوك سورية. وقد كانت تلك القصص ذائعة قبل عصر كاتبها، ولكنه استخدمها لتحقيق الهدف الذى رمى اليه.

وثمة شيء غريب نلاحظه فى هذا السفر، هو أن الاصحاحات ٢ — ٧ مكتوبة باللغة الأرامية وليست العبرية. وهى اللغة التى ذاعت فى فلسطين فى عصر ربنا وما قبله بمئات من السنين. ولسنا نعرف بالضبط متى تغيرت اللغة من العبرية الى الارامية، وأغلب الظن ان التطور كان طويلا وعلى فترات. ويبدو لنا ان السفر كان كله فى الاصل لغة واحدة. فانبرى أحدهم وحاول ترجمته إلى اللغة التى يفهمها الشعب ولكنه لم يكمل هذه المهمة.

وقد ذهب الخبيرون مذاهب مختلفة فى تأويل اللغة المزدوجة فى هذا السفر، وقال بعضهم ان كتابين أو اكثر قد أدمجا فى كتاب واحد. على أننا أمام مشكلة لانجد لها حلا جازما.

عزرا ونحميا

لابدّ من وضع هذين السفرين معاً، لأنهما كان مدمجين فى الأصل، ولم يتم الفصل بينهما إلاّ فى زمن متأخر. وهما يسرّدان لنا تاريخ يهوذا بعد عود الشعب من السبى، من بيانات تفصيلية واسماء الذين عادوا نقلا من السجلات الرسمية. وهذه هى القصة:

فى السنة التى استولى فيها كورش ملك فارس على بابل (سنة ٥٣٨ ق.م.) اصدر امراً يقضى بعود اليهود إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل، وكان قد أمسى خراباً بعد سقوط اورشليم سنة ٥٨٦ ق. م. وقد عاد فريق منهم تحت زعامة

شخص يدعى «شيشبصر» وحملوا معهم الآنية المقدسة التى كان قد انتزعها نبوخذ نصر من الهيكل (عزرا ص ١) . وفى ص ٢ يذكر عزرا قائمة باسماء الذين عادوا تحت زعامة زربابل وليس شيشبصر . والظاهر ان تلك كانت حادثة أخرى . ثم يبدأ اليهود فى اعادة بناء الهيكل فيغضب جيرانهم ، ويحاولون وقف البناء . ولذلك تتوقف العملية إلى السنة الثانية من حكم داريوس — أى سنة ٥٢٢ ق .م. (عزرا ص ٣—٤) . وطوعا لتعاليم حجى وزكريا تبدأ العملية من جديد ولا يبالى اليهود باعتراض جيرانهم بعد أن أذيع الأمر الذى كان قد اصدره كورش. فيتم بناء الهيكل (عزرا ٥ و ٦)

وفى السنة السابعة من حكم ارتحشستا ملك فارس (أى سنة ٣٩٨ق .م.) يجىء عزرا الكاتب إلى اورشليم لتنفيذ الشريعة التى أخذها معه . والظاهر ان تلك الشريعة كانت جزءاً من الأسفار الخمسة ، ويعود عزرا حاملا معه أيضاً عدداً من الآنية المقدسة من الذهب والفضة . (ص ٧ و ٨) . وهو يرى أشخاصا من اليهود قد اتخذوا لأنفسهم زوجات من الامم الأخرى ، فيأمرهم ان يتخلوا عن زوجاتهم لمناقضة هذا العمل لشريعة يهوه (ص ٩ — ١٠).

والآن ينقطع حبل القصة ، ويتجه الحديث الى الاهتمام بنحميا وعمله وكان نحميا ذا مكانة وحظوة لدى ارتحشستا ، وكان قد تلقى انباء من أورشليم عن الحالة السيئة فى المدينة وبؤس سكانها . فتوسل إلى الملك ان يأذن له بالعودة الى اورشليم ، فأذن له الملك بذلك وزوده بالسلطات اللازمة (نحميا ١ : ١ — ٢ : ٨). ولما عاد إلى المدينة شرع قبل كل شىء فى بناء أسوارها .وكما حدث فى عهد زربابل اغتاظ جيران اليهود وحاولوا وقف البناء . ولكن نحميا كان رجلا حكيما قويا ، فلم يأبه بهذه الاعتراضات واكمل بناء الاسوار (نحميا ٢ :٩—٤: ٢٣) . وراح بعد ذلك يجاهد لتحسين احوال الشعب ، وكان عدد غفير منهم

يرزح تحت ديون ثقيلة، فرفع عن كواهلهم هذا الكابوس (ص٥).

وفى ص٦ نقرأ عن المكايد الشريرة التى حبكها الجيران للاعتداء على حياة نحميا، وعلى رأسهم «سنبلط» حاكم السامرة . ويسرد ص ٧ اسماء الاشخاص الذين منحوا بيوتاً للسكنى فيها فى أورشليم . وص ٨ يأخذنا مرة أخرى الى عزرا ويصف كيف جمع الشعب وتلا الشريعة على أسماعهم . ويستمر السفر إلى نهايته فى سرد بعض الحوادث والوقائع .

متى كتب السفران

بين ان هذا السفر الواحد — أو السفرين — اشتمل على عدة كتابات. وفى وضعه الحالى لم تكتبه يد عزرا ولا يد نحميا ، وان تكن بعض اجزائه من صنعهما . فهما قد دونا الحوادث التى وقعت لهما وبواسطتهما ، واستخدمها بعد ذلك الكاتب الذى نسق السفر وصاغه فى الوضع الحالى الذى بأيدينا . والظاهر ان الناسخ أو الجامع قد اخطأ فى وضع عزرا قبل نحميا — على قول كثيرين من ثقات المؤرخين — والعكس هو الصحيح . ذلك لأنه كان هناك ملوك ثلاثة باسم ارتحشستا ، وقد اختلط الأمر على الكاتب فوضع عزرا فى زمن ارتحشستا الأول. وأن صح هذا الرأى فيكون عزرا قد عاد إلى اورشليم سنة ٤٥٨ ق . م أى قبل نحمياً بأربعة عشر عاماً . على انه وجد — من الناحية الأخرى — يهود فى مصر سنة ٤٠٨ ق . م لم يعرفوا شيئاً عن شريعة عزرا مما يثبت أن عزراً عاد إلى اورشليم فى عهد ارتحشستا الثانى — أى سنة ٣٩٨ ق . م

والأدلة التاريخية تثبت صدق القرار الذى أصدره الملك، وصدق الحوادث التى تضمنها السفر، والتى دونها عزرا ونحميا كلاهما ، وأوامر الملك ومدونات عزراً مكتوبة باللغة الأرامية . أما نحميا فقد سجل مذكراته باللغة العبرية .

ويقول علماء الكتاب المقدس ان السفر لم يكمل إلا بعد زمن الأسكندر

الأكبر . وذلك لأن تسلسل أسماء الكهنة الذين ذكرهم نحميا فى ص ١٢ ينتهى باسم « يدوع » . وكان هذا رئيس الكهنة فى أيام الاسكندر الأكبر . ولذلك يكاد يكون مؤكداً ان السفر انتهى إلينا فى وضعه الحالى حوالى سنة ٣٠٠ ق. م.

سفرا أخبار الأيام الأول والثانى

كان هذان السفران كتاباً واحداً ، ولم ينفصلا إلا فى تاريخ متأخر . وهما سجل لتاريخ مملكة يهوذا من وجهة نظر كهنة أورشليم. ولا حاجة بنا هنا للاطالة فى هذا التاريخ ، فقد ذكرنا بعض حوادثه فى سفرى الملوك الأول والثانى. وكان هذا السفر فى وقت ما جزءاً من سفر عزرا ونحميا لأن العدد الأخير من سفر الأيام هو بعينه العدد الأول من سفر عزرا .

وقد تمّ الفصل، لأن عزرا ونحميا سجلا الحوادث التى لم تذكر فى سفر الملوك ، وسفر الأيام كرر الحوادث التى سبق ذكرها . ولعلّ هذا هو السبب الذى من أجله وضع سفر الأيام آخر كتاب فى الكتاب المقدس العبرى . ولم يكن هذا ضرورياً بالطبع ، ولكن جزءاً من الكتاب كان قد سبق وضعه، ولم يكن من اللائق أن يحذف الباقى ويُستغنى عن السفر كله .

وكاتب سفر الأيام نقل عن سفر الملوك نقلا مباشراً فى مواضع كثيرة ، بعد أن أدخل بعض التغييرات والإضافات . وذلك لأن معرفة الناس لله كانت قد تطورت وتكاملت ، ورأى الكاتب فى بعض مواضع سفر الملوك بيانات لا تتسق وما عرفه الناس من طبيعة الله فى أيامه . ويبدو لنا أنه كان لديه مصادر أخرى موثوق بها لم يستعملها كاتب سفر الملوك . فهناك مثلا قوائم طويلة بأسماء كثيرين، ولا يعقل أن يكون قد ابتكرها. وأحياناً نلتقى بحوادث ووقائع لم يدونها سفر الملوك ــ مثل قصة الحرب التى أباد فيها يهوشافاط بنى عمون (الأيام الثانى ٢٠ : ١ ــ ٣٠). على أن أكثر المـــواد التى أُضيفت اقترنت ببيت الله ، والكهنة، والعبادة .

بين العهدين

بين الوقائع التاريخية التى لم تنلْ حظها من العناية فى دراسة الكتاب المقدس فترة الأربع مائة سنة التى تقع بين خاتمة العهد القديم وفاتحة العهد الجديد . وهى دراسة لها قدرها ، لأن فى غضون هذه القرون الأربعة تغيرت أحوال اليهود وبلاد فلسطين تغييراً تاماً . ومتى ادركنا مدى هذا التغير، اختفت كثير من الصعاب التى تتصدى لنا .

وقبل ظهور النبى ملاخى — صاحب آخر سفر من أسفار العهد القديم ، كان قد عادت ثلاث قوافل من اليهود إلى أرض الوطن تحت قيادة زربابل وعزرا ونحميا . وأولئك هم الذين أعادوا بناء مدينة أورشليم والهيكل ، وأحيوا الطقوس والمراسم الموسوية القديمة. وما حلَّ ختام العهد القديم حتى كانوا قد استقروا فى الأرض تحت حكم نحميا الأمين مع احتفاظهم بالتبعية الاسمية للعاهل الفارسى . على أن كثرة اليهود ظلوا فى الشتات فى كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية، يتمتعون بكامل مزايا الرعوية الفارسية للمواطن العادى . وقد ظل قائماً سلطان دولة مادى وفارس مدة قرن بعد موت ملاخى . ولولا الحروب المتوالية بين الفرس والمصريين ، لكانت تلك الفترة عهد رخاء ويسر لدوله يهوذا الصغرى . وذلك لأن الشعب استمتع بالحرية الدينية كاملة ، وقد استقل رئيس الكهنة بتبعات الإدارة المدنية .

على أن امبراطورية مادى وفارس لم تلبث طويلاً حتى انهارت كما سبق وانبأ النبى دانيال، لتحلّ محلها دولة اليونان . وفى فتوحات الاسكندر الباهرة سقطت سورية ودولة يهوذا بين أيدى أولئك الغزاة الفاتحين الذين أقاموا صرح امبراطورية جديدة . ولكن اليهود لم يعانوا شيئاً بسبب هذا التعديل ، والواقع أنه على أثر حلم عجيب ظهر فيه رئيس الكهنة فى مظهر بارز ، حاباهم الاسكندر وخصّهم بأكبر قسط من الاحترام والتسامح .

وبعد موت الاسكندر فى بكور حياته ، انقسمت الامبراطورية العظيمة التى كان قد شيّد صرحها بين قواده الأربعة العظام ، وسقطت دولة يهوذا أولا بيد سورية ثم بيد مصر . وبعد حروب متوالية تناقلتها فيها الأيدى ، استولى عليها أخيراً بطليموس سوتر ملك مصر ، وراح بطليموس هذا يرحّل إلى مصر ألوفاً من اليهود ، حيث استوطنوا هناك فى مستعمرات خاصة بهم . وسلالة أولئك اليهود المصريين هم الذين قاموا بالترجمة السبعينية للأسفار المقدسة فى عهد بطليموس الثانى فيلادلفوس . ومن المحتمل جداً أن تكون فكرة انشاء المجمع اليهودى قد نبتت فى ذلك العهد .

وبعد انقضاء مائة وثلاثين سنة تحت حكم البطالسة انتزع انتيخوس الكبير دولة يهوذا من أيدى المصريين وضمّها إلى سورية . وظل اليهود بضع سنوات ينعمون بقسط من السلام والاطمئنان ، ولكن فى سنة ١٦٨ ق . م . قام انتيخوس على أثر نشوب ثورة صغرى — واقتحم المدينة المقدسة أورشليم ، وهتك قدسية الهيكل ، وسلب كنوزه ، وأكمل عملية التدنيس بتقديم خنزير على المذبح ، ورش (المرق) فى كل أرجاء الهيكل . وبذلك أبطل عبادة الهيكل وحمل معه جماهير غفيرة من الشعب أسرى . ونجد فى كتابات المؤرخ يوسيفوس وفى أسفار الأبوكريفا فى العهد القديم ، وخاصة أسفار المكابيين ، ما يدل على الاضطهاد المريع والفظائع الوحشية التى اتسمت بها تلك الفترة . وقد كانت رهيبة مرعبة تلك الآلام التى عاناها اليهود الذين أبوا التخلى عن

دين آبائهم أو أكل لحم الخنزير . وأخيراً أذكت تلك المظالم وقسوة الأعنات روح المقاومة فى الشعب وحملته على التمرد والانتقاض . ونهض يهوذا المكابى واخوته الأربعة بثورتهم اليائسة على ظالميهم وأفلحوا فى الاستيلاء على أورشليم. وفى وسط مظاهر التهليل والابتهاج طهروا الهيكل وكرّسوه من جديد لعبادة ربهم . (ومايزال اليهود يحتفلون حتى اليوم بذكرى هذا الحادث فى العيد الذى يسمونه عيد التكريس) .

وبعد جهاد وكفاح قرابة عشرين عاماً ساد السلام ، واستقرت البلاد تحت حكم رئيس الكهنة .

على انه بقيام الامبراطورية الرومانية، انتقلت دولة يهوذا إلى أيدى الرومان، وحكمها وال من قبل يوليوس قيصر . وبعد مصرع قيصر عيّن هيرودس — ابن الوالى — بأمر أغسطس قيصر ملكا على اليهود (على الرغم من كونه أدومياً) وكان هيرودس يملك بهذه الصفة عند استهلال العهد الجديد .

وتحدثنا روايات الأناجيل عن وجود فوارق وخلاف بين اليهود لا نجد له أثراً فى العهد القديم ، ويدلنا التاريخ على أن هذه الفوارق ظهرت بعد ختام أسفار العهد القديم القانونية .

الفريسيون

وكانت أهم الطوائف اليهودية وأكثرها عدداً طائفة الفريسيين . وقد ظفر أعضاء هذه الطائفة بشىء كثير من التوقير بسبب قداستهم الشخصية المتطرفة (حقيقية كانت أو وهمية) ، وبسبب تعلقهم الصارم وولائهم الملتزمت لكل دقائق الناموس وأحكامه . ولم يقتصر ولاؤهم على شريعة موسى ، بل امتد أيضاً إلى احاديث الأشياخ وتقاليد الأئمة . وكثيراً ماوضعوا هذه — من حيث الاستناد إليها — فى مرتبة تعلو فوق الأسفار المقدسة. وكانت تعاويذهم وأهداب ثيابهم اعرض مما كان يرتديه اليهودى العادى . وكانوا يصلون بأصوات عالية فى زوايا الطرقات . ومالوا إلى التفاخر والتظاهر

فى إعطاء الصدقات الخ . وحسبوا انفسهم بمعزل عن اليهود العاديين ، والواقع انهم أطلقوا على أنفسهم لقباً مستمداً من كلمة عبرية تعنى « الانفصال » .

وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هذا التزمت الصارم ، والتشبث بالحرف ، والتظاهر بالافراط فى التدين ، أن تدهورت الوسوسة فأمست رياء .

وغير خاف أن الرسول بولس كان عضواً فى طائفة الفريسيين هذه قبل اهتدائه .

الصدوقيون

وثمة طائفة أخرى هم الصدوقيون . وكان أولئك من الأثرياء اصحاب النفوذ وإن قل عددهم . أما لقبهم فمشتق من اسم مؤسس هذه الطائفة — وهو صادوق الذى عاش حوالى سنة ٢٥٠ق . م .

ولم يتقيد الصدوقيون بأحكام الناموس ، بل على نقيض ذلك جنحوا إلى الاستهتار ، والتحلل من هذه القيود ، ومالوا إلى فن الذوق والجمال، وراموا أن يخدموا الله — على حد قول أحدهم « مسوقين إلى ذلك بدافع المحبة والشكر له ، لا ابتغاء مثوبة مرجوة ، ولا اتقاء عقوبة متوقعة » . والحق أنهم لم يخشوا دينونة مستقبلة لأنهم لم يؤمنوا بحياة فى المستقبل ولا بقيامة من الأموات .

وكثيراً ما أثارت هذه الآراء نزاعاً بين الفريسيين والصدوقيين ، وقد استغلّ بولس الرسول هذا الخلاف أحسن استغلال أثناء محاكمته ، وحاول أن يوقع بين الفريقين ويثيرهم فى الجدل والنقاش .

الاسينيون

وهناك طائفة الاسينيين التى لم تذكر فى الإنجيل ، وكانت طائفة صغيرة قليلة الشأن ، حاول أعضاؤها أن يبلغوا نموذج الطهر الكامل ، ومارسوا إنكار الذات وكبح جماح النفس . على أن نفوذهم كان ضعيفاً نسبياً ، ولم يكن لهم تأثير ظاهر على الآراء القومية ومتجهات التفكير فى عصرهم ، وقد شرحت لنا كشوف قمران كثيراً من عادات هذه الطائفة وعباداتهم .

الهيرودوسيون

وكان الهيرودوسيون حزباً سياسياً ، أكثر منهم طائفة دينية ، ويدل اسمهم على أنهم كانوا من أنصار الغاصب الأدومى هيرودس الذى كان صنيعة رومية . ولم يكن لهم ميل إلى الأمور الروحية ، بل هدفوا فقط إلى الجـاه والعظمة والسلطان . وكان همّ الهيرودسى العادى إرضاء نفسه وتمجيد ذاته .

السنهدريم

وكان السنهدريم والمجمع أهم المؤسسات التى تألفت عقب السبى . وفى هذه الفترة من التاريخ ظهرت أيضا الترجمة السبعينية والأسفار الأبوكريفية فى العهد القديم .

أما السنهدريم فـكان المجلس الأعلى أو الهيئة الحاكمة لشعب اليهود . وكان لها سلطان كامل ، لا فى الشئون الدينية فقط ، بل فى المسائل المدنية أيضاً . ولم يتعرض الرومان لهذا الاختصاص ، وإن كانوا حرموا السنهدريم سلطة الحـكم بعقوبة الموت . وكان هذا المجلس مؤلفاً من ٧٢ عضواً أكثرهم من الـكهنة والشيوخ ، وله ضباطه وجنوده الذين منحوا سلطة إلقاء القبض على المتهمين . وكان رئيس المجلس هو عادة رئيس الـكهنة الذى جمع فى شخص واحد السلطتين الدينية والمدنية .

ولا نعرف بالضبط أصل تـكوين هذه الهيئة ، ولـكن الأرجح أن المـكابيين هم الذين أنشأوها . وكانت هيئة أتوقراطية متعصبة ، كما يستدل على ذلك من إجراءات المحاكمة التى اتبعوها مع المسيح ومع الرسول بولس أيضاً .

ولأنه كان متعذراً على اليهود الذين فى الشتات أن يقيموا العبادة فى هيكل أورشليم ، فقد درج القوم على أن يجتمعوا فى أماكن معينة للصلاة وقراءة الأسفار المقدسة . ولسدّ هذه الحاجة التى هى وليدة الظروف الجديدة ، أقيمت المجامع فى كل مدينة . ولم تـكن تلك الأبنية عادة أكثر من مجرد قاعة بسيطة قبلتها أورشليم ، وأهم ما احتوته من أثاث ، تابوت بداخله نسخة من أسفار العهد القديم .

وقد خلت عبادات المجمع من الطقوس والمراسيم . فبعد أن يتلو القارىء الأسفار المقدسة على مسامع الشعب ، كان يُترك المجال لأى حبر من الأحبار الحاضرين أن يتولى شرح ما قرىء والتعليق عليه . وبيِّن من أسفار الإنجيل أن المسيح كثيراً ما اغتنم هذه الفرصة ، وحذا حذوه بولس والرسل الآخرون .

وكان من آثار الشتات أن أُهملت اللغة العبرية إهمالا بالغاً . وفضلاً عن ذلك فإن فتوحات الاسكندر جعلت اللغة اليونانية أداة التفاهم والاتصال فى كل أرجاء العالم المتحضر . ولكى تكون الأسفار المقدسة فى متناول كافة اليهود ، أحسَّ القوم بحاجتهم إلى ترجمة يونانية لأسفارهم المقدسة . ولهذا ظهرت فى تلك الفترة الترجمة السبعينية .

وكان بطليموس سوتر ملك مصر ، الذى خضعت له فلسطين ، نصيراً للعلوم والفنون ، وهو الذى أسس متحف الاسكندرية الشهير ومكتبتها العظيمة . وأضاف ولده بطليموس فيلادلفوس إلى هذه المكتبة الشىء الكثير . وبناء على مشورة ديمتريوس فيلاريوس رئيس أمناء المكتبة شرع فى ترجمة الأسفار المقدسة العبرية .

ولتحقيق هذا الغرض أوفد بعثة إلى أورشليم لتحصل من اليعازر رئيس الكهنة على نسخة من الأسفار المقدسة ، ولتطلب إيفاد اثنين وسبعين عالماً من المتضلعين فى العبرية واليونانية (ستة من كل سبط من أسباط إسرائيل) إلى اسكندرية للقيام بالترجمة . وقد أُحتجز هؤلاء الاثنان والسبعون فى جزيرة فرعون حتى أتموا الترجمة الجديدة وأودعوها مكتبة الاسكندرية .

وهذه الترجمة السبعينية تستمد إسمها من عدد العلماء الذين اشتركوا فيها . وهى الترجمة التى ذاع استعمالها فى فلسطين فى عصر ربنا ، وكثيراً ما اقتبس هو ورسله الكرام من آياتها .

اسفار الابوكريفا

حين نقارن الكتاب المقدس العربى الذى تستعمله الكنائس البروتستانتية بالكتاب المقدس الذى تستعمله الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية الشرقية، نلاحظ أن النسخة الأخيرة تشمل أسفاراً أكثر من الأولى. وتُعرف تلك الأسفار التى لم تدمج فى النسخة الأولى (بالأبوكريفا). وفى بعض الكتب المقدسة الانكليزية نجد تلك الاسفار مجتمعة معا وموضوعة بين العهدين القديم والجديد . أما فى الكتب المقدسة الكاثوليكية والارثوذكسية ، فإن هذه الأسفار موضوعة فى أماكن مختلفة . ويرجع الخلاف فى الرأى بين الكنائس عن أسفار الأبوكريفا إلى قرابة ألفى سنة، وكان مصدر الخلاف بين فلسطين ومصر. ولسنا نستطيع تفهم هذا الخلاف فى الرأى وتقدير أسبابه وتمحيصها إلا بعد دراسة طويلة يعتورها شىء من التعقيد .

الكتاب المقدس القانونى العبرى

رأينا أن الأحبار اليهود قسموا الكتاب المقدس العبرانى ثلاثة أقسام :

١ — **الناموس** : (من سفر التكوين إلى التثنية) .وقد تقرر نهائياً اعتبار هذه الأسفار رسمية قانونية حوالى سنة ٤٤٠ ق٠م. ولفظة « قانونى Canonical» فى المؤلفات الدينية تطلق على كل كتاب تقرر أنه يحوى قاعدة من قواعد الدين والحياة، وثبت من صحته ما يجعله مرجعاً يستند إليه. ويكون الكتاب «قانونياً» بمعنى انه أفرز عن الكتب الأخرى، ولا يمكن أن يضاف إليه شىء ما فى المستقبل.

٢ — الانبياء

(ا) الأنبياء المتقدمون (من يشوع إلى الملوك الثانى) .

(ب) والأنبياء المتأخرون (وهم اشعياء وارمياء وحزقيال وصغار الأنبيــاء الاثنا عشر). وقد نُظر إلى هذه المجموعة من أسفار الأنبياء نظرة احترام وتقدير، واعتبرت قانونية ربما من سنة ٢٠٠ ق . م .

٣ — **الكتابات** : وهى المزامير والأمثال وأسفار أيوب ونشيد الانشاد وراعوث والمراثى والجامعة ودانيال وعزرا ونحميا والأيام الأولى والثانية .

وليس من الميسور على الباحث أن يبين بدقة تامة الخطوات التى تــكوّن بها الــكتاب المقدس القانونى العبرى . (وهنا لا بد لنا من القول انه من الناحية الفنية لا يجوز لنا أن نستعمل كلمة « قانونى » من وجهة النظر اليهودية. لأن اللفظة من حيث اطلاقها على الــكتاب المقدس مسيحية فى نشأتها، ولم يستعملها اليهود. وكان هؤلاء قد اصطلحوا على عبارة أخرى تقوم مقام « غير قانونى »، فقالوا « تدنس الأيدى ») .

على أنه فى أواخر القرن الثانى برزت فــكرة الــكتاب القانونى . وقد نشأت الفــكرة عن عاملين. أولهما ظهور الثقافة والآداب والمؤلفات اليونانية ، والثانى انتشار الــكتب التى حوت التنبؤات عن المستقبل التى كتبها اليهود وأذاعوها فيما بينهم . ورغبة فى إبعاد ما حسبه قادة الفــكر اليهودى خاطئاً وضاراً ، تعين عليهم أن يفرزوا من مجموعة الــكتب المتداولة ما اعتقدوا أنه حق . ولم تــكن ثمة صعوبة فى تقرير رأى حاسم عن الأسفار المسماة بالتوراة وكتب الأنبياء ، لأنها كانت قد اكتسبت بمضىِّ المدة الــكرامة والتوقير . اما عن النوع الثالث من الــكتب وهى المسماة « كتابات »، فلم يكن الاجماع حولها معقوداً . فشجر خلاف فى الرأى مثلا حول اسفار نشيد الانشاد والجامعة واستير . وظل الجدل حول قانونية بعض الأسفار زمناً طويلا . على أن هناك ما يحملنا على الاعتقاد ان القوم بلغوا المرحلة النهائية فى تقرير الــكتاب المقدس

القانونى فى مجمع اليمنية الذى انعقد حوالى سنة ٩٠ ق. م. وكانت اليمنية قد صارت مركز اليهودية الفلسطينية بعد سقوط اورشليم. وهناك تقررت قانونية الكتاب المقدس اليهودى، وتضمن هذا الكتاب المعترف به كل الأسفار الموجودة الآن فى العهد القديم باللغة العربية، وغيرها لم يكن شىء.

الكتاب المقدس القانونى الأسكندرى

على انه منذ أواسط القرن الأول قبل الميلاد، لم يتبع اليهود اليونانيون — وخاصة يهود الاسكندرية — أحبار فلسطين فى تحديد الكتب الرسمية القانونية، ولم يوافقوهم فى نظرتهم العامة إلى اسفار العهد القديم. فمن ناحية واحدة سلكوا مسلكا مغايراً فى ترتيب الأسفار، ومن الناحية الأخرى وضعوا بين الأسفار العبرية القديمة الكثير من الكتابات المتأخرة. وبعض هذه كتب فى الأصل بالعبرانية مثل سفر المكابيين الأول وحكمة يشوع بن سيراخ وطوبيا ويهوديت وباروخ، والبعض الآخر كتب فى الأصل باليونانية مثل اسفار حكمة سليمان والمكابيين الثانى، وبعض الكتب الأخرى مثل نشيد الفتيان الثلاثة. من ثم نرى العهد القديم الاسكندرى المسمى بالسبعين أوسع مدى من الكتاب الفلسطينى.

موقف الكنيسة من الكتابين الى عهد الاصلاح

لما انفصل المسيحيون الأولون عن اليهودية، لم يأخذوا معهم كتاباً مقدساً معين الأوضاع. ووجدت الكنيسة نفسها أمام كتاب مكبر (هو الاسكندرى أو اليونانى) وكتاب مصغر (هو الفلسطينى أو العبرى). وبقيت الكنيسة تستعمل الكتاب اليونانى، وصار الكتاب القانونى الاسكندرى هو الكتاب المقدس المعترف به فى الكنيسة المسيحية أجيالا طوالا. وما من شك أن ادماج اسفار الابوكريفا فيه خلع على كثير من تلك الاسفار أهمية، ما كانت تحصل عليها لولا ذلك.

على أنه كان معروفاً — وخاصة بين العلماء الذين كان لهم مع اليهودية شأن — ان هناك كتاباً قانونياً آخر اصغر حجما ، هو الكتاب اليهودى . فالقديس ايرونيموس مثلا (سنة ٤٢٠) اتخذ الكتاب اليهودى من معلميه اليهود. وكان أول مَن قام فى الكنيسة المسيحية ببحث شامل للتمييز بين الأسفار القانونية وأسفار الابوكريفا. وهو يقول فى إحدى كتاباته — بعد تعداد أسفار الكتاب العبرى: إن كل كتاب آخر (يشير بذلك طبعاً إلى الكتاب الاسكندرى) يعتبر من اسفار الابوكريفا . « ولذلك فإن اسفار الحكمة ويشوع ابن سيراخ ويهوديت وطوبيا ليست من الأسفار القانونية » . ثم يقول عن بعض أسفار الأبوكريفا انها تقرأ لبنيان الشعب ، لا لتأييد العقائد . وبسبب كتاباته علق فى الأذهان الفارق بين الكتابين العبرى واليونانى . وبسبب بحوثه العلمية مال الناس إلى الحيطة والحذر فى استخراج الأدلة الجدلية من كتابات الابوكريفا .

ولكن القديس أوغسطينوس، من الناحية الأخرى (سنة ٤٨٠) عمل على تقوية اسفار الابوكريفا . ففى بعض المجامع الكنسية التى انعقدت فى افريقية — فى هبو (سنة ٣٩٣) وقرطاجنة (سنة ٣٩٧)، وكان اغسطينوس حاضراً فى كليهما — ذكر ان بعض الأسفار مثل الحكمة ويشوع بن سيراخ يعتبران قطعاً من الكتب القانونية .

ومع ذلك فقد ظل التمييز قائماً — طوال القرون الوسطى — بين الكتابات القانونية والكتابات الكنسية، ورسم العلماء الاعلام فى الكنيسة فاصلا واضحاً بين النوعين .

الابوكريفا وعهد الاصلاح

وفى عهد الاصلاح تبلورت الآراء المختلفة التى شاعت فى الكنيسة الأولى وصارت عقائد ثابتة .

١ — فألغت الكنيسة الكاثوليكية فى مجمع ترانت (سنة ١٥٤٦) كل تمييز بين الكتابين ، وادمج هذا المجمع فى الكتاب المقدس القانونى كل الأسفار الموجودة فى الابوكريفا، ما عدا عزرا وصلاة منسى ،واعتبرها حجة رسمية فى مسائل العقيدة. وفى هذا يقول قرار المجمع « من لا يقبل هذه الكتب بكل اجزائها كأسفار مقدسة قانونية كما تقرأ فى الكنيسة الكاثوليكية ، وكما هى فى الطبعة اللاتينية القديمة ... فليكن ملعوناً (اناثيما) » . على أن بعض علماء الكاثوليك المتأخرين ميزوا بين الأسفار القانونية الأصلية وبين أسفار الابوكريفا .

٢ — وأما لوثر زعيم الاصلاح فقد فصل فصلا تاماً بين الأسفار القانونية واسفار الابوكريفا . وأدمج هذه الأخيرة فى الكتاب المقدس ، ولكنه وضعها فى تذييل تحت عنوان : « ابوكريفا أى أسفار لا تحسب فى مستوى واحد مع الأسفار المقدسة ، ولكنها مع ذلك صالحة للقراءة ونافعة للتعليم » .

٣ — وقد أخذت الكنيسة الأسقفية بوجهة نظر لوثر. فى المادة السادسة من المواد الثلاثين جاء: « ...وأما بقية الأسفار (كما قال ايرونيموس) فإن الكنيسة انما تقرأها لقدوة السيرة وتهذيب الأخلاق . ولكن لا تستند إليها فى اثبات أحد التعاليم » . وهكذا تقرر استعمال اسفار الابوكريفا للاغراض الكنسية،ولكنها لم تقبل كجزء من القواعد التعليمية العقائدية . واحتفظ بها فى العبادات العامة كذات قيمة أدبية تاريخية ، ولكن لم تعط أية قيمة عقائدية مستقلة أو أى سلطان فى التعليم .

٤ — أما أنصار كالفن فقد رفضوا اسفار الابوكريفا كلية . وجاء فى قرار وستمنستر (١٦٤٣) انه ليس لهذه الأسفار «أى سلطان فى كنيسة الله، ولا يجوز قبولها أواستعمالها إلا ككتابات بشرية » . وقد رغبت جماعة

الطهورين الانكليز ان تحذو الكنيسة حذو الكالفينين ، ومن آثار هذا الميل مانراه الآن من استبعاد أسفار الابوكريفا من الكنيسة الارلندية اطلاقا ، وفى امتناع جمعية التوراة البريطانية والأجنبية عن طبع هذه الأسفار . وقد منعت هذه الجمعية بأحكام دستورها منذ سنة ١٨٢٥ من ادماج أسفار الابوكريفا فى الكتاب المقدس .

تاريخ الكلمة ابو كريفا

« الابوكريفا » كلمة تقلّبت عليها الحظوظ ، سعيدها وسيئها . ففى الأصل أُستعملت بمعنى حسن ، ثم انقلّبت إلى معنى سيء . كانت فى الأول شعاراً للكرامة ، ثم هبطت من عليائها وأمست سبة وعاراً ، ومعناها فى اللغة اليونانية الكلاسيكية الخاصة بالكتاب المقدس — « خفىّ » وأُستعملت أيضاً بمعنى غامض أو سرّ .

١ — فى أوائل العصر المسيحى أُستعملت الكلمة للدلالة على الكتب التى حوت تعاليم خفية مستورة لا يعرفها إلا الأقلون المختارون . فانطوت بذلك على المدح والثناء ، وأشارت إلى الكتب التى «خفيت» عن العالم الخارجى بسبب تفوقها وترفعها عن الأحياء العاديين . وسفر عزرا الرابع أحد الكتب التى حسبها المؤلف سراً من الأسرار .

٢ — ولكن كثيراً مايكون الشيء المستور الخفى عرضة للريب والشبهات . ولذلك انتقل معنى الكلمة من اطلاقها على الكتب الخفية ، أو الخاصة فى محتوياتها ، الى اطلاقها على المؤلفات التى كانت خفية أو غامضة فى اصلها . وكان طبيعيا أن يقترن بالكلمة حوالى أواخر القرن الثانى معنى آخر لا يشرّفها . وأضيف إلى فكرة السرّية فكرة الشبهة .. وصارت كلمة «ابوكريفا» مرادفة لكلمة باطل أو مزيف . ومامن شك ان الفكر العام تأثر كثيراً ، فلم يكن منصفاً لأسفار

الابوكريفا بسبب المعنى الوضيع الذى اقترن بالكلمة . فسفر الابوكريفا — فى نظر كثيرين من البروتستانت — ليس كتابا لامحلّ له بين أسفار الكتاب القانونية وحسب ، بل هو كتاب تحيط به الشبهات والريب .

ومما يجب ذكره هنا ان القديس اثناسيوس قسم الكتابات الدينية إلى ثلاث فئات :

(ا) الكتب القانونية الرسمية .

(ب) الكتب الكنسية أى الكتب ذات القيمة الثانوية التى لاتعتبر مصدراً للتعليم ، ولكنها تقرأ فى الكنيسة لتهذيب الأخلاق . وقد شمل هذا النوع من الكتب بعض أسفار الابوكريفا .

(ج) أسفار الابوكريفا أى الكتابات التى اصطنعها الهراطقة عمداً ، الذين أرادوا ترويج التعاليم الخاطئة تحت ستار أسماء كبيرة .

٣ — وعلى مرّ الزمن أُستعملت الكلمة ـ وخاصة فى الكنيسة ـ للدلالة على الكتب الكثيرة ذات الصبغة النبوية مثل سفر اخنوخ ، وخطب سيبلين ، وسفر اليوبيل ، وهى التى كتبها مسيحيون يهود وراجت رواجاً عظيما . وقد اطلق اوريجانوس ايضاً (سنة ٢٥٤) الكلمة على هذه الاسفار . أما اليوم فتحسب هذه الكتب من المؤلفات التى كتبت تحت اسماء منتحلة مزورة .

٤ — وبتطور هيّن غدت الكلمة « ابوكريفا » تطلق على الأسفار « غير القانونية » . وكان ايرونيموس (سنة ٤٢٠) أول من استعمل الكلمة ابوكريفا فى معناها الفنى المعروف اليوم للدلالة على الأسفار غير القانونية ، وعنه أخذنا الكلمة فى معناها المصطلح عليه فى هذا العصر . وتدريجاً صار لقب « الابوكريفا » مقتصراً على الكتب الكنسية أو الأسفار التى لم يكن لها وجود فى الكتاب المقدس العبرى ، وإن تكن متضمنة فى الكتاب المقدس اليونانى واللاتينى .

واستعملت اللفظة بهذا المعنى المحدد منذ عهد الإصلاح . وتقصد الكنائس اليونانية والكاثوليكية بلفظة « ابوكريفا » معنى آخر ، فهى تأبى استعمال الكلمة بالمعنى الذى قصد اليه ايرونيموس ، وتقول ان هذا الاصطلاح يشير إلى المؤلفات المكتوبة تحت أسماء منتحلة مزورة ، وليست صحيحة تاريخياً ،على انه فى أواخر القرن السادس عشر، كان معنى الكلمة قد تأصل فى الأذهان بحيث اضطر علماء اللاهوت إلى الإذعان والقبول .

قيمة الابوكريفا :

وبينما لا ينكر أحد أن أكثر أسفار الابوكريفا من الكتب القيّمة جداً بسبب ما تلقى من نور على العصر الذى شهد مولدها ، فإنه من المسلّم به إجماعاً أن السبعة عشر سفراً التى يتألف منها كتاب الابوكريفا تتفاوت تفاوتاً كبيرا فى قيمها . فالرأى يكاد يكون مجمعاً على أن أسفار حكمة سليمان وحكمة يشوع بن سيراخ والمكابيين الاول — تمتاز بخواص سامية وقيمة روحية ، حتى لتحسب من المؤلفات القديمة التى لاتقدَّر قيمتها . ويرى كثيرون من الباحثين أن إقصاء هذه الاسفار بالذات عن الكتاب المقدس القانونى، وبالتالى إخراجها من كثير من الكتب المقدسة المطبوعة — من الأمور التى يؤسف لها ، والتى انطوت على خسارة للحياة التعبدية والروحية . ولوثر نفسه الذى لم يتردد فى مقارنة الاسفار القانونية بغيرها من الاسفار غير القانونية ، رغب فى أن يدمج سفر المكابيين الأول بدلا من سفر استير فى الكتاب المقدس القانونى . ولا يتردد كثيرون فى القول ان حكمة سليمان وحكمة يشوع بن سيراخ تعادل — إن لم تفضل — سفر الجامعة . وقد رأينا فيما سبق أن الكنائس المختلفة قد وقفت من أسفار الابوكريفا مواقف مختلفة ، على أنه لايمكن أن يحكم عليها حكما صائباً إلا بعد قراءتها .

اسفار الابوكريفا

اسفار الابوكريفاهى : عزرا الأول ـ عزرا الثانى ـ يهوديت ـ طوبيت ـ تتمة سفر أستير ـ الحكمة ـ يشوع بن سيراخ ـ باروخ النبى ـ رسالة ارميا ـ نشيد الفتيان الثلاثة ـ قصة سوسنة ـ قصة بعل والتنين ـ صلاة منسى ـ سفر المكابيين الأول ـ سفر المكابيين الثانى .

عزرا الأول .

يشمل هذا السفر ، الذى كتب باليونانية ، مواد كثيرة مما احتوته اسفار العهد القديم القانونية . فهو يتضمن مقتطفات من سفر الأيام الثانى (٣٥ : ١ — ٣٦ : ٢٣) — وسفر عزرا كله — ونحميا ٧ : ٣١ — ٨ : ١٢ وفيه قسم (٣ : ١ — ٥ : ٦) تضمن قصة داريوس والفتيان الثلاثة التى لا مقابل لها فى الاسفار القانونية .

وليس لهذا السفر قيمة تاريخية، مستقلا عن سفرى عزرا ونحميا القانونيين، ولا يمكن الاعتماد عليه كحجة فى تاريخ تلك الفترة . أما تاريخ ومكان كتابته فمن الأمور المشكوك فيها كثيراً . ولعل أرجح النظريات هى التى تقول ان السفر كتب فى مصر ، بين اليهود الناطقين باليونانية فى أواخر القرن الثانى أو أوائل القرن الأول قبل الميلاد .

وفى الكتب المقدسة اللاتينية يسمى هذا السفر عزرا الثالث ، وذلك لأن سفر عزرا القانونى يسمى عزرا الأول ، ونحميا يسمى عزرا الثانى .

عزرا الثانى .

هذا سفر غزير المعنى ، عميق الأثر ، يعالج المشاكل العويصة التى تخطر ببال المفكرين من أهل الرؤى والإلهام ، والتى يصورونها عادة فى صور واستعارات مجازية . وهو من هذه الناحية يشبه سفر الرؤيا، ويحصى بين المؤلفات

النبوية . ويحلل هذا السفر المشاكل الكثيرة ، التى يحار فيها عادة الإنسان المتدين المفكر . وهو مكتوب فى عبارات فصحى مثيرة للشجون ، ونغمات حزينة مكبوتة جعلته بين أشهر أسفار الابوكريفا ، وقد كتب السفر تحت اسم مستعار (مزيف) . ويتبين من محتوياته أن الوثائق التى تضمنها كتبت بعد زمن عزرا بقرون .

وفيه فصلان تمهيديان يشكو فيهما الله شعبه ، ويكلف عزرا أن يعزّى الشعب ويقويه ، وهذه الفصول كتبها مسيحى يهودى حوالى سنة ١٠٠ب.م.

ويشمل باقى السفر ، ما عدا التذييل (ص ١٥ و ١٦) ، سلسلة من رؤى سبع أعلنت لعزرا ، بدليل قوله « كنت فى بابل ، واضطجعت مهموماً على فراشى ، وفاضت أفكارى على قلبى » . ويتمثل المشهد التاريخى كأنه وقع فى عصر نبوخذ نصر ، وإلى تلك الفترة ينقل القارىء بفكره ، وإن يكن الكاتب يفكر فى الواقع فى سلسلة من الحوادث والمشاكل المقترنة بعصره . وقد كانت هذه حيلة شائعة لدى الكتّاب الأقدمين ، وكانوا يلجأون إليها رغبة منهم فى ترويج كتبهم ، واستمالة القراء إليهم ، واظهار الكتاب كأنه حجة وسند . وكان الكتاب يفوز برواج وسعة انتشار إذا استعان الكاتب بفترة تاريخية معينة ، واستعار اسماً مشهوراً لكى يغطى بها شخصيته المجهولة .

وقد نشرت الرؤى الأربع الأولى (فصل ٣ — ١٠) فى الأصل باللغة العبرية حوالى سنة ١٠٠ ب.م. ولكن كثيراً من المواد التى أدخلها الكاتب يرجع تاريخها إلى عصور سابقة للعصر المسيحى . ويعالج الكاتب فى هذه الرؤى النبوية المشاكل الأساسية التى ما فتئت تشغل عقل الإنسان ، وإن يكن قد صاغها فى وضع يهودى : من أين تجىء الخطية وما يقترن بها من شقاء ؟ لماذا وقع شعب إسرائيل فى الخطية والضيق ، بينما الأعداء الذين لا يعرفون الله

مفلحون ناجحون ؟ ويعطى الكاتب الجواب الإلهى عن هذه الأسئلة : إن عقل الإنسان لا يفهم إلا قليلا ، وطرق الله من يعرفها ؟ إن الإنسان عاجز عن فهم طرق الله ، الذى لا يضمر إلا الحب لشعبه .

ويعالج الكاتب أيضاً المسائل المختصة « بالاخرويات »، مثل الدينونة التى هى مصير الأشرار ، وهل يمكن لإنسان أن يشفع فى آخر يوم الدينونة ، وكيف يمكن التوفيق بين هلاك الكثيرين وبين رحمة الله . وكيف يتخلى الله عن خلائقه البشرية العجيبة ويسلمها للهلاك الأبدى ؟

ويصوّر الموقف التاريخى فى الامبراطورية الرومانية من عصر يوليوس قيصر (٥ ق . م .) إلى أواخر القرن الأول بعد الميلاد بصورة استعارية رمزية فى رؤيا النسر (ص ١١ و ١٢) التى كتبت حوالى ٩٦ ب . م .

أما رؤيا الإنسان الصاعد من جوف البحر (ص١٣) فقد كتبت قبل سنة ٧٠ ب . م . بقليل وهى متعلقه بالرجاء فى مجىء المسيّا .

والفصلان الأخيران تذييل للكتاب كله ، وتدل الدلائل المختلفة على أنهما كتبا بين سنة ٢٦٠ — ٢٧٠ ب . م . وقد لعبت بالكتاب كله بالتصويب والإضافة يد كاتب قام بتنقيحه .

والجزء الأكبر من الكتاب كتب بلاشك فى الأصل باللغة العبرية ، ولكن هذه النسخة — كالنسخة اليونانية — لم يمكن العثور عليها . أما النسخ التى انتهت إلينا فهى السريانية والعربية والأرمنية واللاتينية .

ويُسمى هذا السفر فى الكتاب المقدس اللاتينى عزرا الرابع ، وطبع مع عزرا الأول فى نهاية الكتاب المقدس ، على أن مجمع «ترانت» لم يعتبره قانونياً .

طوبيت .

قد يكون هذا السفر المؤلف من أربعة عشر فصلا — الذى كتب على

الأرجح فى الأصل بالغة الأرامية فى مصر بين سنة ٢٠٠ و ١٧٠ ق . م . — تاريخ حياة انسان عاش فعلا، على أن الأرجح أنه قصة فقط . ويتمثل المشهد فى أشور ، وفى عصر الملك سنحاريب وعصر خلفه أسرحدون ، وكان طوبيت هذا أخذ مسبياً إلى نينوى . واقتنى ثروة طائلة لاشتغاله كمتعهد توريد مؤونة الملك ، ولكنه افتقر بسبب الاضطهاد الذى أصابه جزاء تقواه ووطنيته ، ثم عميت عيناه لسوء طالعه . ولكن البطل الحقيقى للقصة هو ابنه طوبياس الذى يرسله أبوه الفقير لاسترداد مبلغ من المال، كان قد أودعه فى أيام عزه ومجده لدى زميل من بنى وطنه المسببين . وقيَّض الله للشاب خادماً مرشداً ، سمّى نفسه عزاريا ، وهو فى الواقع الملاك رفائيل . وكان ذلك الملاك قد بُعث استجابة لصلاة طوبيت ، وصلاة لأخرى فى ضيق مثله تدعى سارة ابنة راجول ، التى أحبها واضطهدها الشيطان اسموديوس . وبفضل ارشاد الملاك تمكن طوبياس من صرع اسموديوس ، والتزوج من سارة ، وأفلح فى الحصول على المال ، وأخيرا عاد إلى بيته ليردّ إلى أبيه البصر ويفرح قلب أمه .

وإنها لقصة تمثل الحياة العائلية التقية ، الحافلة بالعطف البشرى ، وتعلن الحقائق الدينية العظمى بأن الله يسمع الصلوات ويستجيبها ، ويُحسب السفر أيضاً رواية دينية تمتدح الاحسان . وتمثل ما يعقبه من بركات وخيرات . وكثرة الطبعات التى انتهت إلينا من هذا السفر تثبت لنا رواجه وانتشاره بين الأسر اليهودية . وفى الكتاب المقدس اللاتينى يوضع هذا السفر بعد نحميا .

يهوديت

أما سفر يهوديت فهو من خير النماذج لكتب القصص اليهودى . وهو رواية تاريخية دينية من النوع المثير للعواطف .

فنبوخذ نصر يتوعد مملكة الغرب بالإنتقام، ويبعث بقائده «هولوفرنس»

على رأس جيش لتنفيذ وعيده ، وبعد أن يكتسح كل شىء أمامه ، يقترب من اليهودية . وعندئذ يصلى أهل اليهودية بلجاجة وحماس ، ويتأهبون للمقاومة فى شجاعة واستبسال . ويحاصر « هولوفرنس » مدينة « بثولية ». وإذ يقطع مورد الماء يرغم المواطنون اليائسون «شيوخ » المدينة الثلاثة على أن يعدوا بالاستسلام إذا لم يفك الحصار فى خلال خمسة أيام . وفى هذه الضائقة الخانقة تبرز من بين الصفوف يهوديت ، وهى أرملة من ذوات اليسار ، ونموذج للبر الطقسى الذى يعتز به العقل الفريسى — وتعتزم إنقاذ شعبها وتعريض حياتها للموت ، بل المخاطرة بكرامتها وشرفها . وتحت جنح الظلام تتسلل إلى خيمة العدو ، وتمثل أمام « هولوفرنس » ، الذى يودعها كل ثقته بعد أن تخلبه روعـــة قصتها ، ويستهويه سحر جمالها . وفى ذات ليلة ينام بعد وليمـــة كبيرة ، فتستل سيفه وتقتله ، ثم تعود أدراجها إلى مدينتها ، وتذيع فى الناس نبأ عملها الجرىء ، وترفع رأس العدو أمام الأنظار ، فيصفق لها القوم ويهللون ، ويخلص اسرائيل ويهرب الأشوريون .

وأقرب النظريات للعقـــل حول أصل سفر يهوديت ، أنه قصة كتبت للتشجيع على الصلاة،وتقوية الإيمان فى «تخليص من لارجاء لهم» . وهو رواية تاريخية كتبت فى عصر المكابيين (١٧٥ — ١٣٥ ق . م .) لإنعاش روح الوطنية وتشجيع اليهود على مقاومة طغيان الدولة السورية فى عهد انتيخوس ابيفانوس . وإبعاد هذه القصة من الكتاب المقدس اليهودى القانونى لابد راجع إلى خواصها الروائية، التى لاتمت إلى التاريخ الحقيقى بصلة .

ومؤلف السفر لا يعنى بالدقة التاريخية . ويتعذر على الباحث أن يجد أثراً للحوادث التى يسجلها فى أى تاريخ معروف خلال القرون الستة السابقة لميلاد المسيح . وبعض أجزاء الكتاب أملتها حملة كسرى عاهل الفرس التى قام بها

ضد فينيقية ومصر فى سنة ٣٥٠ ق.م. التى اشترك فيها القائد « هولوفرنس » .
ومن الواضح جدا أن الكاتب نسج فى رواية دينية كل أنواع الوقائع التاريخية
التى استقاها من مصادر مختلفة وعصور متفرقة،ليخدم بذلك المغزى الأدبى الذى
رمت إليه القصة .

وقد كتب السفر بالعبرية ، ولكن لم يبق أثر للنسخة العبرية الأصلية .
وكل النسخ الباقية الآن ترجع فى أصولها عن طريق اليونانية إلى النسخة العبرية
الأصلية الفاقدة .

وقد وضع هذا السفر فى الكتاب المقدس اللاتينى بعد طوبيت وقبل
استير .

تتمة سفر استير

هذه الإضافات التى كتبت فيما بين سنة ١١٤ ق . م . وسنة ٩٠ ب . م .
والتى يبدو أنها كتبت بغير يد واحدة ، وضعت فى الأصل باليونانية وأدخلت
بعد ذلك فى الترجمة السبعينية لسفر استير القانونى .

وسفر أستير القانونى — كما هو معروف — عار عن أية صبغة دينية ،
وحتى اسم الله لم يذكر به إطلاقاً . وفى هذه الفصول الإضافية يظهر الطابع الدينى
الذى ينقص السفر العبرى القانونى ، فيذكر اسم الله بكثرة ، ولعل بعض القصد
فى هذه الإضافات اليونانية أن يكمل النقص الدينى فى النسخة العبرانية .

وإنك لتجد هذه الفصول فى النسخة الانكليزية (وفى الكتاب المقدس
اللاتينى) مجتمعة معاً بعد أن أخذت من سياقها ، وعنونت كأنها فصل ١٠ :
٤ ـــ ١٣ و ١١ : ١٦،وكأنه ينبغى أن تقرأ على التتابع بعد ص ١٠: ٣ فى سفر
أستير القانونى . وهذا الترتيب مدعاة إلى الاضطراب وخال من المعنى ، وهو

من وضع أيرونيموس الذى نزع من النسخة اليونانية المقتطفات التى ليس لها أصل عبرانى ووضعها فى آخر الكتاب ، كتذييل فى ترجمته اللاتينية . على أن النسخة اللاتينية القديمة تتضمن المقتطفات الستة الإضافية فى مواضعها الأصلية . وبإعادة ترتيب أجزاء الكتاب على هذا الوضع ، يكون الكتاب كله مفهوماً .

سفر حكمة سليمان

ينتمى هذا الكتاب إلى طائفة معينة من المؤلفات يطلق عليها « مؤلفات الحكمة » ، وهى نتاج عقل يختلف كل الاختلاف عن عقل الكاهن أو النبي. ومن هذه الطائفة الأمثال والجامعة بين الأسفار القانونية ، وحكمة يشوع بن سيراخ وحكمة سليمان هذا بين الأسفار غير القانونية .

والإجماع معقود على أن « الحكمة » تشغل مكاناً ملحوظاً فى أسفار الأبوكريفا . وحتى حين نقارن هذه بأسفار الحكمة القانونية فى العهد القديم ، نجدها تمتاز عليها ، لا من حيث أسلوبها الأدبى والخيالى فقط ، بل من حيث التفكير الفلسفى واللاهوتى أيضاً . فإن القارىء يجد نفسه محمولا على أجنحة حيث يقرأ أوصاف الكاتب للحكمة وصفاً حماسياً رائعاً ، ويتمثلها من جهة كأنها صفة شخصية لله أو شبه شخصية ، ومن الجهة الأخرى كأنها منحة للانسان يخلّصه بها ويحييه ويجمّله، وهى تقدم لكل إنسان ، ولكنها لا تخلع فى الواقع إلا على الأبرار الصالحين استجابة لصلواتهم الحارة اللجوجة .

ومن المظاهر البارزة ، الجاذبة للفكر فى هذا السفر ، موقف المؤلف فى دفاعه الحماسى الغيور للاحتفاظ بمستوى رفيع فى الآداب ، الفردية والاجتماعية ، وهو موقف أراد به الكاتب أن يفرّج عن كربة نفسه وهو يرى الصورة القاتمة التى رسمتها مواهب الطبيعيين والليبرتيين وأنصار اللذة والسعادة . ويسفه

الكاتب أشنع تسفيه يهود الإسكندرية المرتدين (وأكثرهم من الطبقات الثرية المثقفة)، الذين لم يصيروا وثنيين فقط، بل وثنيين أشرارا ساءت سمعتهم . وهو يتهجم أيضاً على الوثنية وعلى تعدد الآلهة ، اللذين ينظر إليهما كعلة الإنهيار الأدبى والروحى للجنس البشرى . وقد وضع المؤلف كتابه ، وهو محاط بكثيرين ممن أضاعوا دينهم القومى ، أو تهاونوا فيه ، ويحثهم على الارتداد عن الباطل والرجوع إلى الدين الحق أو الحكمة ، والتحول من التشاؤم والمذاهب الأبيقورية إلى الإيمان بإله حى متسلط على كل شى . وقد اتخذ لنفسه اسم «سليمان» ، ولم يكن قصده أن يخدع أو يضلل ، لأن اسم « سليمان» كان قد صار رمزاً ولقباً دالا على كل مؤلفات الحكمة ، كما كانت تعزى عادة كل الخرافات اليونانية إلى « ايسوب » .

وتقرب « الحكمة » أكثر من أى كتاب آخر فى العهد القديم إلى عقيدة العهد الجديد ، التى مؤداها أن الله محبة . فالله فى مؤلفات العهد القديم اليونانية رب وملك قبل كل شيء ، ولكن كاتب سفر «الحكمة» يجعل المحبة الباعث الأول إلى الخلق ، ممثلا إياه كآب يحب كل خلائقه ، صبور طويل الأناة فى موقفه حيال الأشرار المسيئين . « أنت تحب كل الأشياء ، ولا تبغض شيئاً مما خلقت . فانك لو كنت تبغض شيئا لما خلقته .. أنت تبقى كل الأشياء لأنها لك ، أيها الملك الرب ، يامحب البشر » (١١ : ٢٤ — ٢٦) .

والمشكلة العاصية فى نظر كتاب « الحكمة » هى مشكلة الألم البشرى ، وقد حصروا أفكارهم كلها فى هذه الحياة إلى أن أوعز إليهم هذا الكاتب اليهودى الاسكندرى بأن الحل النهائى لا نجده إلا فى عالم آخر ، لا فى هذا العالم فقط . وتبدو عقيدة الخلود فى هذا السفر أكثر وضوحاً منها فى أى سفر آخر فى العهد القديم: « خلق الله الإنسان ليكون خالداً . وأنفس الأبرار بين

يد الله ، فلا يمسسهم ضر . فى أعين الجهال يبدون أنهم ماتوا ، وأن فى انتقالهم سوءاً .. ولكنهم فى سلام » (٢ : ٢٣ — ٣ : ٣) .

ويشمل السفر مصطلحات كثيرة أدخلت فى مؤلفات الكنيسة الخشوعية مثل « مملوء بالخلود »،و « أنت يا محب البشر».وهو إصطلاح مألوف محبوب فى العبادات الشرقية .

وللسفر فى نظر المسيحيين منزلة خاصة من حيث أنه أول اجتهاد للتوحيد والتأليف بين الحقائق التى علَّم بها موسى والأنبياء (دين الوحى) ،وبين أفضل العناصر فى الفلسفة الوثنية (الدين الطبيعى) .

وينقسم الكتاب إلى جزئين منفصلين ، وفى مواقف كثيرة متباعدين : الأول (ص ١ — ٩) فلسفى تحذيرى ، والثانى (ص ١٠ — ١٩) تاريخى . والجزء الثانى أقل جداً من الأول فى الأسلوب الأدبى وفى لذة القراءة . ويكاد يجمع كل النقاد على أن لغة الكتاب الأصلية كانت يونانية ، وأن المؤلف كان يهودياً يونانياً من المحافظين ، ومن المقيمين فى الاسكندرية أو على الأقل فى مصر . أما تاريخه فاختلفت حوله الآراء وأرجحها الرأى القائل انه كتب حوالى سنة ١٠٠ ق . م .

وفى الكتاب المقدس اللاتينى وضع هذا السفر بعد نشيد الأنشاد وقبل الجامعة .

سفر حكمة يشوع بن سيراخ

ينتمى هذا السفر إلى طائفة مؤلفات الحكمة ، وقد كتبه رجل يمتاز عقله بالتفكير ومعالجة المشكلات التى تشغل أذهان كُتّاب هذه المؤلفات، ولكنه يمتاز بطابعه الخاص . فبينما سفر « الحكمة » اسكندرى النزعة ، نجد هذا السفر فلسطينياً فى نغمته ونزعته ، كتب بالروح العبرانية وعلى النسق العبرانى.

وقد خلا من الفلسفة اليونانية والعقلية اليونانية التى نراها واضحة فى سفر « الحكمة ». ولعلَّ هذا السفر أقدم أسفار الأبوكريفا كلها .

أما الكاتب فيهودى ، من طائفة الكتبة الفريسيين ، ومن الجيل القديم، أى ليس من الطراز الفريسى المتأخر . ولم يُعن فى تعاليمه الأخلاقية بالطقوس القانونية عنايته بالسلوك البشرى فى معناه الواسع . فكتابه إذا مرشد أخلاقى إلى السلوك القويم . ولئن تكن الأخلاقيات هى المظهر البارز فيه ،فانه لم يغفل العنصر الدينى . وفى الكتاب مقتطفات كثيرة تشهد للمؤلف بالتقى والتدين والحياة الدينية العميقة . ومن المرجح جداً أن يكون الكتاب خلاصة للتعاليم الشفوية التى ألقاها الكاتب . ومع أنه متأثر كل التأثر بسفر الأمثال ، إلا أنه قد خطا خطوة أبعد فى طريق التطور ، من حيث أنه قد توسع فانتقل بالمثل من وضعه البسيط إلى ما نحسبه مقالا أو رسالة . وهذا نراه بارزاً فى الآية الأولى : « كل الحكمة من عند الرب ، وهى معه الى الأبد » .

وقد ألمَّ الكاتب إلماماً كاملا بالطبيعة البشرية ، ومن الشيِّق أن نرى بعض أقواله تنطبق على هذا العصر ، انطباقها على عصره قبل ألفين من السنين .

وتعاليمه عن الحكمة تساير إلى حد كبير ما جاء فى سفر الأمثال . فهو ينظر إلى الحكمة نظرة واسعة ، وهى تشمل فى عرفه النشاط العقلى فى كل ناحية من نواحى الحياة — الدقة ، والحرص فى القول والفعل ، والكفاية فى العمل ، والذكاء ، والحذق فى الصناعة ، وقوة التمييز ، وضبطِ النفس ، والفطنة ، والعلم وحسن التصرف ، والحياة السليمة — وهذه كلها تبلغ ذروتها فى مخافة الرب . وذلك لأن سنداً دينياً يقف وراءها كلها ، من حيث أن كل نوع من أنواع الحكمة هى موهبة من الله وفضل منه ، وان اختلفت فى مشتملاتها ومداها . ويقول الكاتب انه ليس ثمة إلا طريق واحد للحياة العاقلة السليمة ، وهى السير وفق الوصايا الإلهية . وهو يرى أن الحكمة الأرضية من نوع

الحكمة الالهية، تنقص عنها مرتبة فقط . وهو بذلك يسلّم بقيام العروة التى لا تقبل الانفصام بين الدين وبين الحياة اليومية . ويبرز هذه الحقيقة فى كل صفحة من صفحات كتابه .

ويفرز الكاتب قسما من سفره (٣٨ : ١ ــ ١٥) للاطباء . فالله هو الذى يمنح الحكمة للطبيب ، الذى يجب مصادقته كخادم الله . ومن دواعى الغبطة أن يجعل الطبيب تشخيصه للداء موضوع صلاة ، أما إذا أساء التصرف فهو يخطىء ضد الله ذاته .

وقد كتب السفر بالعبرية حوالى سنة ١٩٠ — ١٨٠ ق . م . (وإلى سنة ١٩٠٠ ب . م . لم يكن قد عثر على مخطوطة منه باللغة العبرية . ولكن فى سنة ١٨٩٦ عثر فى مدينة القاهرة على أجزاء من مخطوطة عبرية يرجع تاريخها إلى القرنين العاشر والحادى عشر) . والذى حدث أن حفيد المؤلف حمل كتاب جدّه إلى مصر حوالى سنة ١٣٢ ق . م . وهناك ترجمه إلى اللغة اليونانية ونشره على الملأ ، بعد أن كتب مقدمة هو نفسه .

ويوضع هذا السفر فى الكتب المقدسة اللاتينية بعد الحكمة وقبل اشعياء . وفى نظام قراءآت الكنيسة الأسقفية خصصت مقتطفات من هذا السفر للقراءة أيام الآحاد ، وأيام الأسبوع ، وأيام الأعياد .

سفر باروخ

يقع هذا السفر فى جزئين ، وكل جزء ينقسم إلى قسمين . وكتب الجزء الأول نثرا وهو يشمل مقدمة واعترافاً عاماً .

وقيل ان هذا السفر كتبه باروخ فى بابل ، وقت سقوط أورشليم ، وقرأه على مسامع الملك يهوياكين والأسرى اليهود الآخرين الذين سباهم الغاصب من

فلسطين . وإذ قد تأثر المسبيون بكوا وصلوا وجمعوا قدرا من المال بعثوا به إلى أورشليم مع السفر، وألحقوا به خطاباً خاصاً .

ويتضمن الإعتراف العام اقراراً بالذنب ، وصلاة للرحمة ، ثم استرحاماً شخصيا أخاذا ، ويختتم بنغمة حزينة كأن الكاتب يقول : نحن مازلنا فى السبى وإن كنا قد تبنا و ندمنا .

وليس من اليسير تحديد الزمن الذى كتب فيه هذا الجزء من سفر باروخ . ولكن يحتمل أنه كتب فى العقود الأولى من القرن الثانى قبل الميلاد . ومما لاشك فيه أن الجزء الأول كتب فى الأصل بالعبرانية .

أما الجزء الثانى من السفر ، وهو فى أسلوب القصيد العبرى المنظوم ، فيشمل عظة عن الحكمة وسبع قصائد فى التعزية . وفى عظة الحكمة يتساءل الكاتب عن علة بقاء اسرائيل فى السبي ، وجوابه أن إسرائيل يعانى السبى لأنه حاد عن ينبوع الحكمة ، ويتوسل الواعظ إلى آل يعقوب لكى يعودوا ويعتصموا بحبل الحكمة ، كما أعلنت فى الناموس . وفى الثلاث قصائد الأولى تمتزج أنات التوبة والحزن بنفثات التعزية والرجاء . أما الأربع الأخيرة فكلها تعزيات ووعود لأورشليم بأن الدائرة ستدور يوماً على أعدائها . ولا يمكن أن يكون تاريخ هذا الجزء الثانى قبل سنة ٧٥ — ١٠٠ ب . م وذلك لأن الظالم المستبد الذى ستحرق مدينته بالنار انتقاماً لأورشليم هو رومية ، كما أن فى هذا الجزء تلميحا صريحاً إلىّ المسيحية (٤ : ٣) .

وتاريخ جمع هذا الكتاب لا يمكن تحديده بقول جازم ، على أنه من المحتمل أن الجزء الأول كان فى الأصل منفصلا ، ثم أضيفت القصائد الشعرية بعد ذلك تذييلا له . ولا يمكن تعيين التاريخ الذى انضم فيه الجزآن فى سفر واحد . ويبدو من شكل الكتاب أنه جمع فى سورية الشمالية ، لأن اليهود السوريين كانوا يستعملون مقتطفات من سفر باروخ فى عبادتهم مرتين فى السنة ،

كما أن لدينا أدلة مستقاة من سورية تثبت لنا أن هذا السفر كان يقرأ فى العبادات المسيحية .

وفى الكتاب المقدس اللاتينى وضع هذا السفر بعد مراثى أرمياء ، وفى قراءات الكنيسة الأسقفية خصصت دروس منه ليوم أحد واحد،وبعض أيام الأسبوع .

رسالة ارميا

لئن تكن هذه الرسالة موضوعة فى الكتب المقدسة الانكليزية واللاتينية عقب سفر باروخ النبى مباشرة بدون فاصل كأنها الفصل السادس من هذا السفر ، إلا أنها فى الواقع كتاب منفصل ، كما يظهر لنا من بعض المخطوطات اليونانية الهامة ، حيث وضعت منفصلة عن سفر باروخ ، وتوسط بينهما سفر المراثى .

ويؤخذ من الرسالة أن أرمياء هو الذى كتبها إلى اليهود المسبيين عشية ترحيلهم إلى بابل ، على أن الاعتقاد العام يجزم من مشتملات الرسالة أنها ليست من وضع أرمياء . ويخيل إلينا أن الاشارة إلى أن أرمياء قد كتب مثل هذه الرسالة ، (أرمياء ٢٩ : ١) ، قدأوحت إلى كاتب يهودى متأخر فكرة إنشاء رسالة ثانية .

ووجود مشابهات كثيرة بين أجزاء هذه الرسالة وبين بعض عبارات سفر أرميا مثل ص١٠ : ١ــ١٦ يدل صراحة على أن خواص هذه الرسالة ومحتوياتها قد تشكلت على نسق أسلوب أرمياء . والواقع أن الرسالة يمكن وصفها بأنها شرح لذلك الفصل فى سفر أرمياء .

وليس لدينا دليل قاطع يثبت تاريخ الرسالة ، وقد ذهب بعض الشراح

إلى أن تاريخها يقع حوالى سنة ١٠٠ ق . م . ولـكن آخرين يرجحون أنها كتبت فى تاريخ قريب من السبى ، ويقول غيرهم ان تاريخها يقع حوالى عصر الاسكندر الأكبر (فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد) .

وظلّ العلماء زمناً طويلا يعتقدون أنها كتبت فى الأصل باللغة اليونانية، ولـكن الرأى فى هذا العصر يكاد يكون مجمعاً على أنها جمعت أولا فى اللغة العبرانية ، على أنه لم يبق أثر للمخطوطة العبرانية الأصلية .

والرسالة بمثابة حملة عنيفة على عبادة الأوثان وما تنطوى عليه من جهالة . وينذر الكاتب قراءه بطول مدة السبى، وبعبادة الأوثان التى سوف يشاهدونها فى الأرض الغريبة ، ويحثّهم على الابتعاد عن عبادة الأوثان ، والترفع عن عادات الغاصبين وأساليب حياتهم . وهو يشدد عزائمهم بقوله ان ملاك الرب سيكون معه ويحرسهم . ثم يتبع هذا كله بعظة يدلل فيها بشتى الأدلة على أن هذه الأوثان لن تنفع عبادها شيئا فى شئون الحياة . وتتخلل العظة عبارات يقول فيها الكاتب « وهذا دليل على أنها (أى الأوثان) ليست آلهة ، فلا تخشوها » .

نشيد الفتية الثلاثة

يتألف هذا السفر الملحق بسفر دانيال من ٦٨ آية وهو موضوع فى الترجمة السبعينية وفى الـكتب المقدسة اللاتينية بعد فصل ٣ آية ٢٨ وينقسم النشيد إلى أربعة أقسام .

١ ـــ آية ١ و ٢ تقرنان هذا الملحق بالقصة السابقة .

٢ ـــ آيات ٣ ـ ٢٢ صلاة عزاريا فى وسط أتون النار .

٣ ـــ آيات ٢٣ ـ ٢٧ تتحدث عن زيادة وَقد النار فى الأتون ونزول ملاك إلى الأتون بالنيابة عن الفتية .

٤ ــ آيات ٢٨ ــ ٦٥ تتضمن نشيد الفتية الثلاثة ، وهى دعوة لكل الناس ولكل الأشياء فى الخليقة لتبارك الرب ، وتحمده ، وتعظمه إلى الأبد . وتتحدث أنغامها ومقاطعها عن عظمة عالم الله وبهائه واتساعه . وليس من هذا كله شىء فى الكتاب المقدس العبرى . ويكاد الاجماع ينعقد اليوم على أن صلاة عزاريا ونشيد الفتية الثلاثة كتبا فى الأصل فى اللغة العبرية فى فلسطين ولكل منهما أصل مستقل . ويرجح أن صلاة عزاريا كتبت فى بكور حركة المكابيين التى طالبوا فيها بالحرية الدينية (١٦٨ ــ ١٦٥ ق . م .) لأنها تذكر أنه ليس ثمة كاهن ولا نبى ولا ذبيحة ولا مكان للعبادة . أما نشيد الفتية الثلاثة فتشعُّ من ألفاظه ما ينمّ عن النجاح والتوفيق ، ولعله كتب بعد فوز ثورة المكابيين .

ونشيد الفتية الثلاثة مطبوع فى كتاب الصلاة الذى تستعمله الكنيسة الأسقفية فى عبادتها العامة ، كتسبحة فى خدمة الصباح ، وكثيراً ما ينشده العابدون فى آحاد الصوم وفصل الأدفنت أى (مجىء المسيح) .

قصة سوسنة :

تعتبر قصة سوسنة فى النسخة السبعينية والنسخة اللاتينية كأنها الفصل الثالث عشر من سفر دانيال . وتقول الأسطورة انه فى الأيام الأولى من السبي كانت الفتاة اليهودية الجميلة المدعوة «سوسنة» تتمشى فى حديقة زوجها . وهناك رآها شيخان من أشياخ الدين وكانا قاضيين أيضاً ، فأثار مرآها فى نفسيهما عواطف الشهوة ، وتقدما لها بمطالب بذيئة فاجرة . ولما ردّت هذه المطالب بعنف لفّقا ضدها تهمة الزنى . وحوكمت أمام محكمة الشعب ، وحكم عليها بالموت . وإذ يهمّون بجرّها إلى مكان الإعدام ، يتدخل شاب يدعى دانيال ويستجوب

الشيخين كلاً على انفراد ، ويثبت تناقض أقوالهما ، وبذلك يقنع محكمة الشعب ببطلان التهمة .

ويُستدل من الصيغة الأصلية لقصة سوسنة أنها قد تكون وضعت فى عصر اسكندر يانوس (١٠٦ — ٧٩ ق . م .) تشجيعاً على الإصلاح التشريعى حيال إصرار الفريسيين على أن كل من يقيم على أحد تهمة باطلة من التهم التى يعاقب عليها بالإعدام ، يجب أن يحكم على المدعَّى باطلا بالموت ، حتى وإن نجا المدعَى عليه من الموت . وأما الصدوقيون فكانون يقولون ان المتهم بإقامة تهمة باطلة لا يحكم عليه بالموت إلا إذا نفذ حكم الإعدام فعلا فيمن كان ضحية التهمة الباطلة .

وكتبت القصة فى الأصل باللغة العبرية ، ولكن بقيت نصوصها مع تعديل طفيف فى نسخ مختلفة كالسريانية واللاتينية .

قصة بعل والتنين

فى هذه القصة روايتان مستقلتان ، يبدو دانيال فى كلتيهما هادماً للوثنية . فتروى القصة الأولى (١ — ٢٢) أنه كان فى بابل تمثال لبعل ، أبى دانيال أن يسجد له بتقديم غذاء للإله . فلما أومأ الملك إلى دانيال مشيراً إلى كمية الغذاء الهائلة التى يستهلكها الإله دليلا على ألوهيته ، أجاب دانيال أن بعل مجرد صنم ولا يأكل شيئاً . فغضب الملك، ولكن دانيال لمعتزم أن يثبت أن الغذاء لا يأكله بعل ، وطلب إلى الملك أن يختم أبواب الهيكل بعد أن يضع المائدة الحافلة بألوان الأطعمة . وبعد مغادرة الكهنة للهيكل وقبل ختم الأبواب ، أمر دانيال أن ترش أرضية الهيكل بطبقة خفيفة من الرماد . وفى الصباح ، بعد أن فضت الأختام وفتحت الأبواب ، اختفت الأطعمة . ولكن دانيال أثبت للملك من آثار أرجل الكهنة العارية المطبوعة فوق الأرض المغطاة بالرماد —

أن الـكهنة هم الذين دخلوا خلسة من أبواب سرِّية وحملوا الأطعمة . فأمر الملك بقتل جميع الـكهنة .

وتتحدث الرواية الثانية (٢٣ — ٤٢) عن إهلاك دانيال للتنين الذى كان يعبده الشعب ، ويخلعون عليه كرامات إلهية بإلقاء مادة سوداء حالكة بين فكيه . فلما وُضع دانيال فى جب الأسود بإيعاز من الشعب ، كان يقتات بطريقة معجزية من طعام يحمله إليه النبى حبقوق من أرض اليهودية . وذلك أن ملاكا كان يحمل حبقوق إلى جب الأسود فى بابل بشعرة من رأسه ، ثم يعود به ثانية إلى اليهودية .

ومن المحتمل أن تـكون القصتان كتبتا بالعبرانية فى القرن الأول قبل الميلاد . ولا شك أن مثل هـــذه الأقاصيص لقيت رواجاً كبيراً كمناظرات جدلية ضد الدين الوثنى فى الفترة بين ١٠٠ ق . م و ١٠٠ ب . م .

وتُعتبر قصة بعل والتنين كأنها الفصل الرابع عشر من ســـفر دانيال فى النسختين السبعينية واللاتينية .

صلاة منسى :

كان منسى ابن الملك حزقيا . ويؤخذ مما جاء فى سفر الملوك الثانى (٢١ : ١ — ٢٨) أن منسى هبط — فى خلال مدة حكمه التى استطالت خمساً وخمسين سنة — إلى أحط دركات الخزى والعار فى حياته الدينية . ولـكن سفر الأيام الثانى (٣٣ : ١٢ ـ ١٩) يتحدث عن توبته وهو أسير فى بابل ، وعن صلاته لله . ويقال ان هذا السفر الصغير من أســفار الأبوكريفا هو صلاة ذلك الملك . وقد يكون هذا حقاً ، ولـكن يرجح العلماء أنه من وضع يهودى فى تاريخ متأخر ، جعل نفسه فى مكان منسى ، وجعل نفسه الناطق بلسانه

والمعبرّ عن مشاعره . ولم تتفق الآراء عن التاريخ الذى كتب فيه هذا السفر ، ولا عن اللغة التى كتب بهـــا فى الأصل ، أهى اليونانية أم العبرانية أم الآرامية . وقد وجدت الصلاة لأول مرة فى مخطوطة مسيحية قديمة العهد تسمى الدســقولية، أدمجت فيما بعد فى كتاب القوانين الرسولية ، وهو مؤلف يرجع تاريخه إلى القرن الرابع أو الخامس . والمرجح أنهـــا نقلت من موضعها فى كتاب القوانين الرسولية إلى النسخة السبعينية حيث وجدت مكتوبة بالحروف الـكبيرة . ومهما يكن أصل هذا السفر وتاريخه ، فمما لا شك فيه أنه يحوى صلاة استغفارية رائعة ، ذات أســلوب رفيع وبسيط فى آن واحد . وهو يقع فى ثلاثة أجزاء :

١ — توجُّـه لإله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، خالق السماء والأرض ، الذى هو إله رؤوف ، طويل الأناة ، كثير الرحمة ، وعد بالمغفرة لـكى يتوب الخاطئون ، وجعل التوبة لـكى يخلص الناس (آية ١ ـ ٧) .

٢ — اعتراف بالخطية (آية ٨ ـ ١٠) .

٣ — ابتهال لطلب الغفران (آية ١١ ـ ١٥) .

وقد وجد هذا السفر مطبوعاً فى نهاية النسخة اللاتينية ، ولـكنه لم يدمج بين الأسفار القانونية فى مجمع ترانت . وهو مقرر فى الـكنيسة الأســقفية كالقــراءة الأولى من عبادة المســـاء فى يوم أربعاء الرماد ، أى بداية فصل الصوم .

سفر المكابيين الاول :

هـــذا السفر الذى يروى تاريخ فترة من الزمن تمتد إلى أربعين سنة من جلوس انتيخوس ابيفانوس على العرش (١٧٥ ق . م .) إلى موت سمعان المـكابى (١٣٥ ق . م .) هو المصدر التاريخى الوحيد الذى بأيدينا عن

جهاد اليهود فى سبيل الاستقلال الدينى والسياسى خلال تلك السنوات . ويبدأ السفر بلمحة موجزة عن فتوحات الإسكندر الأكبر ، ثم يسرد عيوب انتيخوس ابيفانوس ومظالمه ، ويشرح كيف أدت محاولة هذا الملك السورى لمحو دين اليهود وقوميتهم إلى التمرد الوطنى بزعامة المكابيين ، ثم يتابع قصة هذا الجهاد إلى موت سمعان المكابى .

وفى ص ١ : ١٠ ـ ٦٤ يشرح الكاتب أسباب الثورة والجهاد . وفى ص ٢ : ١ ـ ٧٠ بداية هذا الجهاد الذى قامت به أسرة المكابيين . وفى ص ٣ : ١ لغاية ص ٩ : ٢٢ وصف لتطورات هذا الجهاد إلى موت يهوذا . وبزعامة يهوذا تمكن اليهود من الظفر بحريتهم الدينية . وفى القسم الثانى ص ٩ : ٢٣ـ ١٢ ـ ٥٣ يتابع الكاتب قصته إلى موت يوناثان ، وكان أول رئيس كهنة من أسرة المكابيين . والقسم الأخير ١٣ : ١ ـ ١٦ : ٢٤ يجىء بنا إلى موت سمعان المكابى ، وجلوس يوحنا هركانوس على العرش . وبزعامة سمعان أزيل النير الوثنى عن كواهل اليهود .

ومع أن الكاتب لم يذكر اسم الله ، فإنه يهودى محافظ مؤمن بالله ، غيور على الناموس والأسفار المقدسة والهيكل . على أنه حصر كل همه فى أعمال أسرة المكابيين وجهودها ، التى كان لها الفضل فى إنقاذ إسرائيل من براثن الغاصبين . وهو يؤمن بالله الذى يعين من يعينون أنفسهم . ويقال — وحق مايقال — ان الكاتب كان صدوقياً من الطراز المتدين جداً .

ولهذا السفر قيمته التاريخية الجليلة، وله أيضاً لذته الشيقة فى القراءة وخاصة فى أزمان الاضطهاد والأزمات الحادة ، لأنه ينفث فى قارئه روح الولاء والإخلاص والاحتمال حتى الموت .

أما تاريخ كتابة السفر — الذى كتب فى الأصل بالعبرانية ثم نقل

بعد قليل من الزمن إلى اليونانية — فالأرجح أنه يقع بين سنة ١٠٠ و ٧٠ ق . م .

وفى الكتاب المقدس اللاتينى يوضع هذا السفر كآخر سفر فى العهد القديم ، وتنتخب فى عبادات الكنيسة الأسقفية قراءات منه، تقرأ أيام الآحاد، وأيام الأسبوع ، وأيام أعياد القديسين .

سفر المكابيين الثانى :

ليس هذا السفر تابعاً ولا ملحقاً لسفر المكابيين الأول ، بل هو كتاب ثان عن ثورة المكابيين . وتبدأ القصة بعصر سلجوق الرابع وتنتهى بهزيمة نيكانور ، وهو يروى حوادث فترة تمتد خمسة عشر عاماً فقط من ١٧٦ — ١٦١ ق . م .

والسفر خلاصة تاريخ احتوته خمسة أسفار كتبها كاتب يونانى يدعى ياسون القيروانى . وكان الغرض منه فى الأصل الحثّ على مراعاة عيد التكريس (١٠ : ٨) وعيد نيكانور (١٥ : ٣٦) . وينحصر اهتمام الكاتب فى الدين أكثر منه فى التاريخ . وهو يعترف بأنه لم يلخص فقط ، بل يزوّق ويجمّل ، أى يعيد كتابة التاريخ فى أسلوب بديع خلاب . والواقع أن التاريخ يتحول بين يديه وبسحر براعته نوعاً من أنواع الدراما العاطفية الدينية فى الأسلوب الخصيب المنمق الذى ابتكره كثيرون من كتّاب الأدب فى الاسكندرية فى تلك الفترة . وهو بلا شك يعظّم من شأن العناصر المعجزية والدينية .

وكان الكاتب فريسياً ، والظاهر أنه كان خصيما لأسرة المكابيين ، والأرجح أن السفر كتب بين سنة ١٢٥ وسنة ٧٥ ق.م. وتنتخب منه دروس لأيام الأسبوع فى قراءات الكنيسة الأسقفية .

١

العهد الجديد

بزوغ الفجر

خيلَّ للذين وقفوا فوق تلة الجلجثة تحت صلبان ثلاثة أن تلك كانت نهاية المطاف . فقد مات يسوع الناصرى بين لصين . وكان ذلك بعد ظهر يوم الجمعة فوق تلة جرداء خارج أسوار أورشليم. وفى وقت الظهيرة أظلمّت الشمس ، وتحت ستار هذه الظلمة الرهيبة أسلم يسوع الروح ، وانتهت الأيام القلال التى قضاها معلماً وشافياً . ولم تعد الجموع تسمع من شفتيه كلمات الحق والحياة . ولم تعد تطأ قدماه — هو وحفنة من أتباعه، طرقات الجليل واليهودية المعفرة بالتراب. انتهت مهمته التى خالها الناس بعثة المسيا المرتقب .

فى خلال ظلمة يوم الجمعة ، أحس التلاميذ أن رجاءهم قد بات ملفوفاً بالسخرية . فلا يعقل أن مَن حسبوه ابن الله يحكم عليه قادة دينهم ، وتصلبه السلطات الرومانية . ولم يكن مستساغاً أن تحقيق المواعيد التى حفلت بها أسفارهم المقدسة يتمُّ عن طريق إنسان مائت على الصليب . من ثمَّ يهرب بطرس والآخرون مثقلين بخيبة الرجاء وتحطيم الآمال العريضة . ولم يبق عند قدمى المصلوب غير التلميذ الذى أحبه سيده وأم يسوع .

وإذ تقترب النهاية ينسدل على المشهد ستار كثيف ، ويسوع لم يخلِّف

وراءه سجلا مكتوباً . ولم تختزن ذكريات أعماله وأقواله إلا فى قلوب وعقول فئة قليلة من مريديه وتلاميذه . والأعرج الذى طفر على رجليه ، والأعمى الذى غدا بصيراً ، والجائع الذى شبعت بطنه ، والأطفال الذين نعموا بلمسة محبته وعطفه ، والرجال والنساء الذين امتلأت قلوبهم بالأمل الكبير ، والتلاميذ الذين بهرتهم الرؤى المجيدة — كل هؤلاء سيذكرونه إلى حين ... ولكن ماذا بعد ذلك . فالعقول البشرية مهما قويت خزائن رقيقة . فكيف تخلد هذه الذكريات السعيدة ؟

لم يكن هذا أملا قابلا للتحقيق . فصدمة موته كانت كافية لمحو هذه الذكريات . وقد اقترن هذا الموت بالعار والخوف والأمل الضائع ، بحيث كان محتملا أن ينسى التلاميذ أحداث السنوات القلال التى قضوها معه .

وبعد ثلاث ساعات من الظلمة المدلهمة خرجت صيحة داوية من فوق الصليب « قد أكمل » . وبعدها همسات خافتة : « يا أبتاه فى يديك استودع روحى » .

أهذه هى النهاية المفجعة ؟

بقلوب ملفوفة بالغم والحزن ، اقتاد التلميذ المحبوب الأم المباركة إلى بيته فى أورشليم . وأشار الكهنة والشيوخ والكتبة إلى المائت على الصليب الأوسط إشارة الشماتة والتشفى قائلين : لم يعد له الآن حول لإثارة الشعب علينا .

وفى تلك اللحظة الحاسمة فى تاريخ البشرية ، كنت ترى مواطنى أورشليم يعودون إلى بيوتهم وحوانيتهم ومجامعهم ، وهم لا يدرون معنى ما رأوا وما سمعوا . أما الكهنة والكتبة فقد عادوا إلى أدراج الناموس والأنبياء ، وهم يجهلون إن هذا الذى مات قد كملت فيه كل المواعيد . وراحوا ينقبون فى كتبهم عن

المسيا المرتقب ، وملكوت الله ، والفادى ، والمنقذ ، ونور الأمم والشعوب وديان العالم . وظلوا فى أناتهم وتنهداتهم آملين أن يتحقق هذا يوما ما !

وفى قصر هيرودس كنت تشهد الوالى الرومانى ـ بيلاطس البنطى ـ يوقع على صك الإعدام رسمياً ويتأهب لإرساله مع حاشية عسكرية إلى طيباريوس قيصر لاعتماده .

لقد انتهى كل شىء . ولعلّ المدونات التاريخية يومئذ سطرت عبارات قليلةعن هذا الحادث . فإن تاسيتوس المؤرخ الرومانى يقول فقط : «إنسان اسمه المسيح حكم عليه بيلاطس البنطى بالموت فى عهد طيباريوس قيصر ».. . وذلك لأن التاريخ لا تتسع صفحاته للآمال الضائعة والحركات الخاسرة ! !

فى يوم السبت كان صمت وحزن وخوف. وفى فجر الأحد ، ارتفع الستار الأسود الذى أعمى أبصار الناس . فأبصروا أمجاد القيامة وأخذ التلاميذ والرواة يتحدثون عن هذه الأحداث الجسام ...

وكان نسوة قد انطلقن فى فجر ذلك اليوم حاملات الأطياب لتحنيط الجسد الموضوع فى قبر منحوت فى قلب الصخر . وقد رأين الحجر مدحرجاً والقبر فارغاً ، وسمعن ملاكاً يقول : المسيح قام ! وظفرت مريم المجدلية بأول حديث مع السيد المقام ، وهرولت مسرعة لتنبىء بطرس ويوحنا اللذين أقبلا سراعاً ورأيا فآمنا .

وفى بادىء الأمر لم تُصدق هذه الروايات عن القيامة ، حتى بعض التلاميذ أنفسهم حسبوها قصصاً خرافية ، ولكن يسوع ظهر لهم خلال أربعين يوماً أكثر من مرة . وشهده تلميذان في طريقهما إلى عمواس وتعشَّيا معه . ورآه بعيونهم خمسمائة من الأخوة . وتجمعت لديهم كل الأدلة المثبتة لحقيقة القيامة . وبدون هذا لا يمكن تأويل التغيير العظيم الذي طرأ على التلاميذ ، فقد غالبهم

يوم الصلب رعب هائل ، وحزن عميق ،ويأس مرير. ولـكن ما تنقضى أسابيع قلال حتى يخرجوا كالأسود من مخابئهم ليفتنوا المسكونة .

إذاً لم تنته رسالة يسوع عند الجلجثة فى ألم وعار. ولم تنس أقواله وأعماله،فإن التلاميذ أخذوا الآن يفهمون سيدهم، ويستذكرون أقواله وأعماله فى معان جديدة. وفى قلوب عامرة بهذه الذكريات راحوا ينادون ويبشرون جموع الشعب، وحلّ الروح القدس يوم الخمسين على جماهير غفيرة . . وولدت الـكنيسة . . ومن حياة الـكنيسة واستجابة لحاجاتها ورغباتها ، انبثقت هذه الـكتابات الخالدة التى نسميها « أسفار العهد الجديد » .

ويشمل العهد الجديد سبعاً وعشرين وثيقة ـ أربع منها هى بشائر الإنجيل ، وواحدة سفر تاريخى هو أعمال الرسل ، وإحدى وعشرون رسالة ، وسفر الرؤيا. وأقدم وثيقة فى رأى بعض الشراح هى رسالة بولس إلى تسالونيكى على أرجح الأقوال ، كتبها من كورنثوس حوالى سنة ٥٠ ب.م.أى بعد الصلب بعشرين سنة . ويقول آخرون ان الرسالة إلى غلاطية هى أقدم هذه الوثائق .

أما أقدم بشائر الإنجيل فهى بشارة مرقس كتبت فى رومية حوالى سنة ٦٥ ب . م . أى بعد أكثر من ثلاثين سنة من تاريخ الحوادث التى دونتها .

وهنا تتصدى لنا مشكلة : إن كانت أولى الوثائق المسيحية كتبت بعد حياة يسوع ، فـكيف نستوثق بأنها مدونات تاريخية صحيحة . ثم أن أكثر هذه الوثائق كتبها أشخاص غير التلاميذ الأصليين الذين عاشوا مع المسيح . فبولس لم يرَ يسوع بالجسد ، وإن يكن قد رآه فى رؤيا باهرة فى طريق دمشق . وقد يكون مرقس رأى يسوع ، ولـكن فى فترات متقطعة أهمها فى بستان جثسيمانى . فـكيف إذا نضع ثقتنا فى وثائق العهد الجديد ؟ وكيف نركن إلى مجرد ذكريات اختزنها الصحابة الأولون فى عقولهم ؟ أننا اليوم ندون تقاريرنا

ومذكراتنا بطرق شتى ، ولكن فى القرن الأول لم يكن لدى العالم غير الأصوات البشرية ، والذاكرات البشرية ، لتدوين الوقائع التاريخية. فكيف قام الأولون بتدوين هذه الوقائع ؟

لو أن تلك السنوات التى انقضت بين موت يسوع وبين كتابة أول وثيقة ، كانت صمتاً مطبقاً ، ولو أن الرسل وشهود العيان الأولين ماتوا دون أن ينطقوا باسم يسوع ، لما كانت هناك مسيحية على الاطلاق ، ولكانت أسفار العهد الجديد مجرد أحلام ابتكرها كتّاب أذكياء ، وكنا نحن المسيحيين نسلّم بأن أسفارنا المقدسة ليست إلا مصنفات أدبية لا تستند إلى حقائق راهنة .

ولكن تلك السنوات لم تكن صمتاً ، بل حفلت بنشاط عارم لنشر الدعوة المسيحية ، وحماسة منقطعة النظير فى الشهادة للمسيح. كانت تلك سنوات نادى فيها الرسل والمؤمنون جميعاً الذين رأوا سيدهم وسمعوه ، بعقيدتهم التى استندت إلى شهادة العيان . وقد تبدت آثار هذه الحركة الكاسحة ، وقوة المسيحية الأولى ، فى فصول سفر أعمال الرسل ورسائل بولس . وما حلّت سنة ٧٠ ب . م : حتى كنت ترى الكنائس المسيحية منتشرة ، لا فى فلسطين وسورية وآسيا الصغرى فقط ، بل فى مصر واليونان وإيطاليا ، وربما فى أسبانيا أيضاً . . .

كل هذا يشهد لدعاية واسعة النطاق ، وشهادة كانت تمتزج أحياناً بالعرق والدموع والدماء .

ولا شك أن أولى القصص التى اعتصمت بها الكنيسة وأحلّتها مكانة الإعزاز والتقديس هى موت المسيح وقيامته ،وذلك لأن القيامة كانت الشماعة التى أشعلت ضياء المسيحية ، وكانت استهلال البشارة المفرحة التى قهرت العالم ، وهى البشارة التى افتتح بها بطرس الرسول خطاباته الثلاثة الأولى (أعمال ٢ :

١٤ — ٣٦ و ٣ : ١٢ — ٢٦ و ٤ : ٨ — ١٢) وهى البداية التى بنى عليها الرسول بولس رسالته : « إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا ، وباطل أيضاً إيمانكم » (١ كورنثوس ١٥ : ١٤) .

وليس مستغرباً بعد هذا أنه عندما كتبت بشائر الانجيل ، احتلَّت قصة الآلام والصلب والقيامة التى لم تشغل إلا أسبوعاً واحداً من حياة يسوع — ثلث بشائر متى ومرقس ولوقا .

ومن هنا أخذت الكنائس تتناثر فى كل مكان ، لأن الرسل والمعلمين جابوا أصقاع العالم المعروف يومئذ حاملين هذه الرسالة الجديدة . وأذاع الرسل والدعاة من كنوز ذكرياتهم أقوال يسوع وأفعاله ، وقصة حياته وموته وقيامته. وقد كتبت البشائر فيما بعد من هذه المواد التى تلقفها المسيحيون الأولون . فلم تُنسج بشائر إنجيلنا من نظريات مجردة ، ولم تؤلف فى أبراج من العاج للتأمل والنجوى ، ولم تكتب بطريقة فنية مصطنعة وتزويق لفظى ، إنما كتبت من وقائع حفظها الناس عن ظهر القلب ، وتناقلوها شفاهاً فى كثير من البلدان . وسنرى هذا كله تفصيلا فى فصول تالية .

١ – بشائر الإنجيل

النقل الشفوى ـ كتّـاب الانجيل

إن الاستهلال الذى قدّم به البشير لوقا بشارته يصلح أن يكون مقدمة لدراسة أصول البشائر ، وذلك لأنه بمثابة دليل داخلى من البشائر ذاتها ، وهذا الاستهلال هو أقدم ما لدينا من بيانات فى هذا الموضـــوع ، ويلقى نوراً على المصادر التى استعان بها هذا المؤلف،وعلى أسلوبه فى التدوين والكتابة . وإليك نص الاستهلال :

« إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا . كما سلمّها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة . رأيت أنا أيضاً إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمّت به » .

ويبرز فى هذه المقدمة ثلاث حقائق : الأولى أن كتّـاباً عديدين قد حاولوا تدوين قصص معينة عن يسوع المسيح . والثانية أن هذه القصص عُنيت بالأقوال التى نطق بها يسوع والأفعال التى أتاها . والثالثة أن هذه الأقوال والأفعال قد نقلها فى الأصل شهود عيان صاروا فيما بعد خداماً للكلمة ، أى معلمـــين ومبشرين . وفى ختام هذه المقدمة ـ التى أهدى بها الكاتب كتابه ـ يذكر المؤلف ، الذى آثر إخفاء اسمه، بعض التفاصيل الشيّقة فى شرح الطريقة التى جرى عليها فى تأليفه . وهو يستند فى إثبات لياقته لهذه المهمة إلى توفر تلك الخواص التى لا بد منها فى كل كاتب مؤرخ ـ وهى المعرفة الملائمة ، والاستقصاء الدقيق ، والدقة المتناهية . والآن لنلق نظرة إلى هذه الحقائق الأساسية الثلاث التى يذكرها البشير لوقا دون التقيد بترتيبه الخاص :

فترة النقل الشفوى :

يتضح من أدلة العهد الجديد (الإنجيل) أنه بعد قيامة يسوع المسيح سار صحابته وتلاميذه الذين اصطفاهم وسمّاهم رسلاً ، على طريقة التعليم الشفوى، وتلقين الناس الوقائع البارزة فى سيرته . ولدينا نماذج من هذا التعليم فى سفر أعمال الرسل (مثل ٢ : ٢٢ و ٣ : ١١) . وعلى مرّ الزمن امتد نشاط أولئك الرسل إلى ما وراء أورشليم . وكان من المتعذر عليهم بطبيعة الحال أن يقوموا بكل التعليم ، فأنشأوا « مدارس » فى بعض المراكز الهامة مثل أنطاكية سورية وكورنثوس وأفسس وغيرها . وكان فى كل من هذه المراكز نفر من المعلمين لتعليم المهتدين وتلقينهم أصول الدين الجديد (أع ١١ : ٢٦ و ١٣ : ١ و ١٩ : ١٠) . وكان على أولئك المعلمين — ولا بد أن عددهم زاد زيادة هائلة فى فترة قصيرة من الزمن — أن يلقنوا الباحثين والمهتدين أقوال يسوع وسيرة حياته وموته وقيامته التى تسلمُّوها هم أنفسهم . وفى بعض الحالات كان أولئك المعلمين قد تلقوا معرفتهم لوقائع السيرة من الرسل وشهود العيان ، ولكن فى أكثر الحالات — وخاصة فى رقاع الامبراطورية الرومانية خارج حدود فلسطين وسورية — تلقوا هذه المعرفة من معلمين آخرين . على أنه فى جميع الأحوال يمكن تتبع مصادر التعليم إلى شهود العيان الموثوق بهم ، الذين شهدوا الوقائع والحوادث بعيونهم .

محتويات التعليم:

لسنا ندرى ما القدر الذى عرفه المهتدون الأولون إلى الدين المسيحى من سيرة يسوع . والأرجح أن انتباههم تركز فيه كحىّ فى السموات أكثر منه إنساناً عاش على الأرض . ولئن كان المسيح قد عاش على الأرض ، فإنهم قد اهتموا قبل كل شىء بما صار إليه بعد موته ، وبما أحسوا من قوته فى حياتهم يوماً بعد يوم ، وبما سيكون عليه فى المستقبل عند ظهوره ثانية . ولا شك أن

الحقيقتين البارزتين فى سيرة يسوع وهما موته وقيامته ـ قد شغلتا المكانة الأولى فى التعليم ، كما نرى عند قراءة سفر أعمال الرسل ورسائل بولس ، ولا نشك أيضاً أن المهتدين أبدوا بعد زمن وجيز اهتماماً متزايداً بسيرته الأرضية وأرادوا أن يستزيدوا من معرفة «القوات والعجائب والآيات التى صنعها الله» (أعمال ٢ : ٢٢) ليتبينوا كيف جال يسوع « يصنع خيراً ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس » (أعمال ١٠ : ٣٨) .

لذلك يجب أن نسلّم أنه منذ البدء كانت تروى القصص عن يسوع وتنتقل من شخص إلى شخص لوصف حياته على الأرض . وكانت هناك أقاصيص عن أفعاله وطريقة نظره إلى الأشياء ، وبيان لصفاته وأخلاقه وأقواله البارزة ، وقد جمعت هذه كلها تدريجاً . وكانت تروى هذه القصص عند التعليم وفى مجتمعات المسيحيين للعبادة . وما من شك أنه فى الحالات التى كان فيها كثرة المهتدين او المجتمعين يهوداً ، كان يدور التعليم عن يسوع كأنه المسّيا المنتظر ، أما فى الحالات التى تكون فيه الكثرة من الأمم الوثنية ، كان يغضّ الطرف عن تعليم المسّيا هذا . وكل الذين قبلوه كمسيا وكمخلص وربّ حسبوا هذه الرسالة « أخباراً مفرحة» ولخصوها فى كلمة واحدة « الإنجيل » أو « البشارة » .

كتابة الانجيل ـ الطور الأول :

يقول لنا لوقا فى مقدمته انه فى الوقت الذى بدأ فيه كتابة إنجيله ، كان كثيرون قد أخذوا يدونون الحوادث . ولسنا نعرف متى شُرع فى هذه المجموعات المكتوبة ولا كيف كتبت ، لأنه لم يبق شىء من تلك المجموعات الأولى عن أقوال يسوع وفعاله (على الأقل فى وضع معين) .

ويسوع نفسه لم يكتب شيئاً ، ولا فكر أتباعه فى تدوين قصة مكتوبة عن سيدهم وتسليمها للأجيال اللاحقة . ونظراً لعدم وجود أدلة مباشرة

نسترشد بها من هذه الناحية، فإننا مضطرون إلى أن نلجأ إلى الحدس والتخمين. ومن المرجح جداً أن بعض تلاميذ يسوع الأولين قد جمعوا ، لاستعمالهم الخاص، مجموعات من أقوال يسوع والحوادث التي رأوها ذات شأن خطير . ونحن نعلم أن شيئاً من هـذا القبيل قد عمله المسيحيون في مصر في القرن الثاني ، وذلك لأنه قد كشف قبل حوالي أربعين سنة عن مجموعة من أوراق البردى تشتمل على بعض أقوال مختصرة تبدأ بعبارة « يقول يسوع . . . . . » . كذلك نظن أن المعلمين لم يروه ملائماً أن يركنوا إلى ذاكراتهم في استذكار الحوادث والقصص ، فكانوا يسجلون الأقوال والقصص كتابة ، ليستخدموها في تعليمهم ونشر دعايتهم . وكانوا يحتفظون بما كان نافعاً منها لجذب المهتدين وتعليمهم والإجابة عن أسئلتهم .

ويعتقد كثيرون من علماء العهد الجديد أن «الكتب المسيحية» الصغيرة الأولى كانت مجموعات من آيات العهد القديم التي كان يظن أنهـا تشير إلى يسوع وأنها تكمل فيه ، أو مجموعات من أقوال ربنا باللغة الآرامية . ولم يبق من هذه الكتب — كما سبق القول — شيء في شكل مخطوطات ، ولكن يعتقد العلماء أنه يمكن تتبع آثار تلك الكتب الصغيرة في البشائر التي بأيدينا الآن المنسوبة إلى مرقس ومتى ولوقا . وفي بشارة متى مجموعة من الآيات الإثباتية العديدة تبدأ بعبارة : « كل هذا كان لكي يتم ما قيل . . . . » ،

وفي بشارتي متى ولوقا مواد كثيرة متشابهة أكثرها من أقوال يسوع وتشمل أيضاً بعض القصص ، مما لا أثر له في بشارة مرقس . وقد أطلق العلماء حرف « Q » على المواد المشتركة بين لوقا ومتى وغير الموجودة في مرقس . (الحرف « Q » هو الأول من الكلمة الألمانية Quelle التي معناها مصدر) .

ويتفق أغلب العلماء على أن المواد المشار إليها بحرف Q مأخوذة من وثيقة قديمة العهد، وكانت أشبه بكتاب جدلىٍّ يستعين به المعلمون المسيحيون. وقد عُنيت مشتملاتها بإجابة بعض الأسئلة الأولى التى واجهها المعلمون الأولون فى الكنائس المحلية. وانك لتجد بحوث العلماء عن وثيقة Q هذه فى كثير من تفاسير الكتاب المقدس.

ولعلَّ هذه الوثيقة هى التى أشار إليها بابياس أسقف هيروبوليس حوالى سنة ١٤٠ ب. م. ويقول بابياس هذا (وقوله مدون فى التاريخ الكنسى الذى كتبه يوسوبيوس فى القرن الرابع):

« إن متى كتب الأقوال باللسان العبرى وترجمها كلٌّ حسب قدرته ».
وقد يكون هذا اللسان العبرى اللغة الآرامية التى كان يتكلم بها يهود فلسطين. والترجمة اليونانية للوثيقة ك Q تدل على أنها منقولة عن الآرامية. ثم أن « الأقوال » لقب ملائم للوثيقة الشاملة أقوال يسوع.

على أن علماء آخرين يذهبون إلى أن بابياس ربما يكون قد أشار إلى مجموعة العهد القديم التى برهنت على اتفاق الوحى المسيحى مع النبوات.

ولقب « أقوال » يصلح أيضاً لمثل هذه المجموعة لأنه الاصطلاح الذى كان يطلق عادة على أسفار اليهود (أنظر رومية ٣ : ٢). ووجهة النظر هذه تفضل الأولى من حيث أنها تعلل الشق الثانى من عبارة بابياس فى قوله ان كلاً كان يترجم هذه الأقوال حسب مقدرته.

والمرجح جدا أن الوثيقة (ك Q) ومجموعة آيات العهد القديم الإثباتية كانت ضمن القصص التى أشار إليها البشير لوقا فى مقدمته. وقد أدت البحوث الحديثة بالعلماء إلى الاعتقاد بأنه كان فى أورشليم قصة أطلق عليها الحرف M وتشبه الوثيقة Q المشار إليها آنفا، (ولعل Q هذه من وثائق كنيسة انطاكية)

وأن إحدى القصص الكثيرة التى أشار إليها لوقا صراحة جُمعت فى قيصرية (وقد أطلق عليها العلماء الحرف L) . ولا بد أيضاً أن لوقا وكاتب البشارة الأولى قد استعانا ببعض المصادر الآخرى - ربما مكتوبة - لسرد قصص الميلاد .

على أنه كما قلنا لم يبق شىء من هذه المجموعات الأولى فى الوضع الذى كتبت به أولا ، ومن المحتمل أنها أدمجت فى البشائر الثلاث التى بأيدينا الآن . والنتائج التى رتبها العلماء عن ماهية تلك الوثائق ومحتوياتها وأصولها تخمينية فقط . ولكنها تخمينات معقولة قد تسندها الأدلة والبينات القوية .

كتابه الانجيل - الطور الثانى

وحوالى سنة ٦٥ ب م . ظهر أول نموذج للسيرة وهو بشارة مرقس . وتحتلُّ هذه البشارة مكانة متوسطة بين المجموعات الأولى للاقوال والقصص المطولة فى بشارتى متى ولوقا اللتين كتبتا بعد بشارة مرقس بخمس عشرة سنة . أما بشارة يوحنا فقد كتبت حوالى أواخر القرن الأول وعلى مرِّ الزمن احتلت هذه البشائر الأربع مكانة فريدة فى الكنيسة واعتبرت أسفار الانجيل القانونية إذا قورنت بغيرها من البشائر الأخرى التى كتبت ، ولم تجد لها مكانا فى كتاب المسيحيين المقدس المسمى الإنجيل ، وأُطلق على تلك البشائر التى استبعدت من الإنجيل اسم « الأسفار غير القانونية أو الابوكريفا » .

وعند بحث موضوع تاريخ الانجيل ونقله نصطدم بالسؤال القائل : كيف نعلل تأخير ظهور كتب سيرة المسيح ، فإن بشارة مرقس التى أثبت العلماء أن تاريخها يرجع إلى سنة ٦٥ ب . م . كتبت بعد موت مؤسس المسيحية بخمس وثلاثين سنة . ويجب أن نذكر قبل كل شىء أن الكنيسة الناشئة الأولى عاشت فى دور الفطرة ، وهى تترقب يومياً عودة المسيح المنظورة التى ستقضى على نظام العالم الحاضر . وأنه لمن السخف على ضوء هذه الفكرة أن

يحاول أحد كتابة تاريخ للأجيال المقبلة التى لن تولد حسب زعمهم .

ثم إن التلاميذ الأولين قد نشأوا فى أحضان العادات اليهودية والتقاليد الدينية اليهودية، التى لم تُعن قط بالسير والتراجم . ولكن بحلول سنة ٦٥ كان كبار زعماء الكنيسة الذين تسلطت عليهم التقاليد اليهودية قد مضوا، أو على وشك الإنطلاك من هذه الحياة ، ولم تكن قد بدت علامات «انقضاء الدهور» التى ترقبوها . وظهرت فى رومية رغبة ملحة فى تدوين سيرة مؤسس المسيحية. وقد كان فيها اليونان والرومان الذين شغفوا بالتراجم والسير ، كما نتبين من مؤلفات بلوطارخس وسوستانيس وتاسيتوس . وكان ظهور بشارة مرقس استجابة لهذه الرغبة الملحة . وفى هذه البشارة أدلة تؤيد وجهة النظر القائلة انها كتبت لجماعة من الرومان بصفة خاصة . وبعد أن وضعت بشارة مرقس بدا نفعها للجميع ، على حد قول الكانون ستريتر «لا بد أن المسيحيين قد دهشوا — كما ندهش اليوم — كيف استطاعت الكنائس أن تدبر أمورها بدون كتاب من هـذا النوع . فإن سيرة يكتبها تلميذ كبطرس كانت تقابل بالترحاب واللهفة فى كل أنحاء الإمبراطورية ، وتسد حاجة كامنة فى النفوس». على أنه بعد ظهور بشارة مرقس ظهر الحافز لتأليف كتب سيرة المسيح . فما انقضت سنوات حتى كتب الطبيب لوقا قصته ، مهديا أياها لمواطن رومانى مثقف يدعى ثاوفيلس ، ولغيره أيضاً من القراء الآخرين أصدقاء ثاوفيلس . أما بشارة متى فقد كتبت لليهود خاصة . وهاتان البشارتان — لوقا ومتى — (وهما تشملان فيما بينهما كل شىء تقريبا ورد فى مرقس) ترميان إلى تكملة رواية مرقس باضافة بعض المواد التى تقتضيها السيرة عادة، مثل الميلاد والطفولة الأولى والحوادث الجديدة والأقوال والأفعال التى لم تدون من قبل . ثم كتبت البشارة الرابعة فى أواخر القرن الأول وتوسعت فى العقيدة الخاصة بالكلمة (Logos)محاولة بذلك تقديم المسيحية للعالم اليونانى المثقف بطريقة

مقبولة لديه ، كما توسعت أيضاً فى تعليمها عن عودة المسيح بالروح ، وذلك لإزالة أسباب الشك والحيرة التى ساورت قلوب المؤمنين من جرّاء تأخير عودة المسيح بالجسد كما كانوا يتوقعون . وكذلك أكملت ما كان ناقصا فى البشائر الثلاث الأولى ، وشرحت للقراء أثر المسيح فى شخص الكاتب نفسه . ومن ثمّ نرى أن كل بشارة من بشائر الأنجيل الكريم كُتبت لغرض خاص ، ولجماعة من الناس خاصة ، عنى بها الكاتب وهو يؤلف قصته .

٢ - بشائر الإنجيل

من هم مؤلفو بشائر الإنجيل - الفوارق فى روايات البشائر

من هم مؤلفو بشائر الأنجيل

إن البشائر الثلاث الأولى غفلة من اسم المؤلف ، ولم يذكر الكاتب شيئا عن نفسه ، أما الألقاب الحالية فقد وضعت بعد زمن ظهورها اعتمادا على وجهة نظر الكنيسة الأولى ، والرأى الذى كان شائعا عن واضعى هذه البشائر . ويصح القول ان العناوين الحالية للبشائر الثلاث (أى متى ومرقس ولوقا) إنما هى عناوين تقليدية ، وقد تكون هذه التقاليد صحيحة أو خاطئة ، ولذلك يجب بحثها فى ضوء الأدلة الداخلية والخارجية فى كل بشارة .

وقد أجمع العلماء على أن البشارتين اللتين تحملان اسمى مرقس ولوقا قد كتبهما التلميذان المعروفان بهذين الإسمين . وأقدم تقرير عن أصل بشارة مرقس هو الذى وضعه الأسقف بابياس،وليس يشك أحد اليوم فى نسبة البشارة إلى واضعها المسماة باسمه . ومما يقوله بابياس : « كتب مرقس بدقة ، بعد أن صار مترجم بطرس ، كل شىء تذكره مما قاله أو فعله المسيح ، وإن يكن هذا فى غير ترتيب . وذلك لأنه لم يسمع ربنا قط ، وما كان تابعا من اتباعه . ولكنه صار فيما بعد تابعا لبطرس الذى صاغ تعاليمه حسب حاجة سامعيه ، على أنه لم يكن يقصد وضع رواية متصلة شاملة لكل الأقوال التى جرت على لسان ربنا . من ثم نرى مرقس لم يرتكب خطأ فى تدوين هذه الأشياء كما تذكرها ، لأنه عُنى بشىء واحد : ألا يغفل شيئا مما سمع وألاّ يضيف شيئا لم يسمعه » .

والحديث الذى تواتر فى القرن الثانى بأن لوقا هو مؤلف البشارة الثالثة لا يشك أحد فيه اليوم . والأدلة الداخلية فى البشارة ذاتها تسند الأدلة الخارجية .

أما متى فلا ينعقد الإجماع على أنه مؤلف البشارة التى تحمل إسمه ـ ذلك لأن واضع هذه البشارة كان يهوديا غير معروف ، ربما من مدينة أنطاكية ، كتب سيرة يسوع فى اللغة اليونانية، وأدمج فيها أجزاء كثيرة من بشارة مرقس ومن المصادر الأخرى التى أشرنا إليها من قبل . على أن العنوان « إنجيل متى » لا يمكن أن يكون قد أُعطى لهذا الكتاب دون أن يكون للرسول متى علاقة به. وقد قلنا فيما سبق ان متى ـ فى رأى الأسقف بابياس ـ قد وضع « الأقوال » (أى اقوال المسيح) باللغة العبرية . ومن المحتمل جداً أن تكون هذه البشارة قد عرفت — تقليداً — بأنها بشارة متى، لأنها ضمّت تلك « الأقوال » التى جمعها متى أحد الرسل الأصليين . وكانت هذه العادة فى تسمية الكتب ، مثل عادة النقل عن مؤلف آخر بدون الإشارة إلى ذلك — ظاهرة شائعة فى تلك القرون الأولى . على أن كون متى ليس هو واضع هذه البشارة الأولى ، لا يؤثر مطلقاً فى صحة هذا الكتاب ومحتوياته وقيمته التاريخية ، ومن السخف أن نثير حوله الشك لأن التقاليد وضعت له عنواناً غير اسم المؤلف الحقيقى .

أما عن مؤلف البشارة الرابعة فقد ثار حوله جدل كثير ، فيقول بعض العلماء ان الكاتب هو يوحنا الرسول، ويقول آخرون انه يوحنا الشيخ . وجدير بنا أن نذكر هنا وجهة النظر التى ذهب إليها الحبر العلامة الدكتور تمبل رئيس أساقفة كنتربرى الأسبق فى تفسيره لهذا الإنجيل . قال : « لا بد من أن نسلِّم بوجود علاقة وثيقة بين البشارة وبين يوحنا بن زبدى . فإن مجموعة الأدلة الداخلية والخارجية هائلة . أما الأدلة الخارجية فنجدها فى تفسير « وستكوت» القديم . وأما الأدلة الداخلية ففى محاضرات « سكوت هولاند» الرائعة . ويثبت هذا الأخير — فى ظنى — المصدر الرسولى لهذه البشارة . وإلى عهد قريب كنت أعتقد أن كفة الميزان فى الأدلة تميل نحو وجهة نظر « وستكوت» القائلة ان يوحنا الرسول هو الذى أملى فعلا هــذه البشارة . على أنه يجب ألا نغضّ

الطرف عن الإشارة إلى يوحنا الشيخ والتمييز بينه وبين يوحنا الرسول . وإنى أستنتج الآن من مجموعة الأدلة أن البشير الكاتب هو يوحنا الشيخ ، الذى كان تلميذا مخلصاً ملاصقاً ليوحنا الرسول ، وأنه قد دون تعاليم ذلك الرسول بصدق وإخلاص ، وان الرسول هو « الشاهد » الذى يُشار إليه أحياناً ، وهو التلميذ «الذى كان يسوع يحبه» . ومن المحتمل أن الرسول أملى فعلا على الشيخ أجزاء من بشارته. وإنى أميل إلى الأخذ بهذا الرأى ، على أن أجزاء من البشارة هى مذكرات الشيخ نفسه نقلا عن الرسول ، وأجزاء أخرى هى تعليقاته الخاصة . وليس يمكننا تعيين الأجزاء المنقولة عن الرسول ، غير اننى واثق أننا نقرب إلى الصواب إذا نحن أكثرنا من هذه الأجزاء بدلا من اقلالها » .

ولا يدّعى كتّاب البشائر أنفسهم أنهم كانوا تحت إرشاد إلهى فيما كتبوا. ويبدو فى الظاهر انهم كتبوا من تلقاء انفسهم حسب مقتضيات الظروف . وهنا نذكر كلمات لوقا التى صدر بها بشارته : « رأيت أنا أيضاً إذ تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب إليك ... » ،على أنه من المؤكد أن أولئك الكتّاب قد ساقهم الروح القدس، وألهمهم أن يسجلوا ذكرياتهم ومعرفتهم عن سيرة يسوع وتعاليمه، لكى يدونوا أفعال يسوع وأقواله ويسلّموا للأجيال اللاحقة شخصيته وجوهر تعاليمه وعمل خلاصه ، ويكون الجميع على قدم المساواة مع الشهود الذى عاينوا تلك الحياة السماوية ، وينظروا إليها كما نظروا هم ، ويعرفوا الله بواسطتها فيخلصوا . وقد استحثّ الروح القدس عقل كل بشير ونفسه حسب حاجته ، ليدرك ويفهم وحى الله فى المسيح . وقد كانت كمية ذلك الوحى هائلة لا حصر لها ، على حد قول البشير الرابع: « وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة» . وقد أرشد الروح أولئك الكتّاب أن يختاروا من بين هذه المواد الكثيرة ما هو ضرورى ونموذجى ، فكانت أقوالهم كافية لإرشاد الناس إلى معرفة « الكلمة » المتجسد الذى صار به الخلاص . على أن

الروح القدس فى إلهامه لم يمحُ شخصية الكاتب ولا « فرديته » ، بدليل أن كلاًّ من الكتّاب الأربعة يرسم الصورة بأسلوبه الخاص وطريقته الخاصة . فبعض الحوادث وبعض الأقوال استرعت نظر كاتب أكثر مما استرعت نظر آخر . وقد احتفظ كل منهم، مع استرشاده بالهام الروح القدس، بشخصيته وفرديته وقوة تفكيره . لم يكن مجرد آلة صامتة تكتب ما يُملى عليها ، بل إنسانا حراً مملوءا بالروح القدس .

البشائر والانجيل :

بعد صعود المسيح ، راح الرسل وغيرهم يجوبون البلاد منادين ببشرى الخلاص فى يسوع المسيح — بواسطة حياته وموته وقيامته . وقد أُطلق على مادة مناداتهم كلمة « الإنجيل » . فمثلا يكتب بولس إلى أهل رومية يقول : « مستعد لتبشيركم أنتم الذين فى رومية أيضاً . . . بإنجيل المسيح » (١ : ١٥). وهكذا حينما كان يسمع أحدهم فى عصور المسيحية الأولى كلمة « إنجيل » ، يتجه تفكيره تواً إلى البشرى بالمسيح . وبعد زمن اقتضى الأمر لأسباب معينة سبق لنا شرحها، إلى تدوين بعض الأشياء من سيرة يسوع . وكان طبيعياً أن تطلق اللفظة التى عرفت فى المناداة الشفوية على السيرة المكتوبة التى تضمنت بعض تفاصيل هذه البشرى (فى إيجاز لا إسهاب) . وقد أُطلق على كل سيرة مكتوبة كلمة « إنجيل » أو «بشارة» ، لأن كل سيرة تضمنت البشرى عينها . لذلك نسمع الناس اليوم يتحدثون عن أربعة أناجيل أو أربع بشائر . ومعنى هـذا أن هناك إنجيلا واحداً فى أربع بشائر مختلفة لأربعة من الكتّاب . وحين نقول « إنجيل لوقا » مثلا ، نعنى البشرى أو البشارة كما شرحها الكاتب لوقا .

ومن الشيِّق أن نلاحظ هنا أنه فى المخطوطات القديمة للعهد الجديد جمعت السير الأربع (التى نسميها الآن الأناجيل الأربعة أو البشائر الأربع) فى كتاب واحد تحت عنوان واحد « الإنجيل » . وكتب اسم الكاتب

فى أول كل سيرة ، كأن يقال « الإنجيل كما كتبه لوقا » .

إذاً فالفكرة القائلة ان يسوع المسيح جاء إلى العالم بإنجيل فى شكل كتاب مجهز ، أو خلاصة للحق الذى كلف أن يسلمه للناس — خاطئة لا تطابق الواقع . ولا يصح أن يقال ان الإنجيل نزل عليه ، بل الأولى أن يقال انه عندما أنزل الله يسوع إلى العالم ، أعطى الإنجيل للناس ، الذى معناه كما قلنا « البشرى » . وكان مجىء يسوع المسيح إلى العالم بكل ما انطوى عليه بمثابة البشرى أو « الإنجيل » . وهو الاسم الذى يطلق على رسالة يسوع التى تلقاها العالم فى حياته وأفعاله وأقواله . « جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله » (مرقس ١ : ١٤) . وقصارى القول ان يسوع المسيح نفسه هو الإنجيل ، وهو البشارة من الله .

وقد يقال فى معرض الجدل انه كان الأصح أن تكون سيرة واحدة بدل أربع سير للمسيح . (وسنبين فيما بعد ، كيف ولماذا اختارت الكنيسة الأولى هذه السير الأربع من بين عدد من السير والبشائر الأخرى ولم تكتف بواحدة فقط) . ونحن لا ننكر أن فى وجود سير كثيرة شيئاً من الحرج ، وقد أحس بهذا الذين يقومون بالتعليم الدينى ، وخاصة للطالبين والباحثين من غير المسيحيين . ومما هو جدير بالذكر أنه فى أواخر القرن الثانى أحس « تاتيان » بهذا الحرج ، وحاول التخلص منه بجمع البشائر الأربع فى رواية واحدة متحدة . وصاغ منهـا اتفاقاً عُرف باتفاق البشائر « Diattesaron » . وظل مائتى سنة (إلى سنة ٤٣٠ ب . م) النسخة الوحيدة المتداولة للإنجيل التى كانت تقرأ فى الكنائس بين المسيحيين الناطقين بالسريانية [١] . وفى تلك الرقعة من العالم لم تكن تستعمل بشائر الإنجيل المنفردة إلا نادراً ، وأطلق

---

(١) اطلب هذا الإنجيل الشامل من دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية .

على هذه النسخة الشاملة روايات البشائر الأربع مسلسلة « الإنجيل » . ولو أن هـــذه النسخة الشاملة خلدت وبقيت على الزمن واختفى ما عداها ، لـكان المسيحيون فى الشرق الذين اختلطوا بالمسلمين تجنبوا متاعب لاحصر لها ، إذ كانوا يقفون وبين أيديهم « إنجيل واحد » . ولـكن لا . فإنه من حسن حظ العالم المسيحى أن هـذا لم يحدث . لأن فى البشائر الأربع التى بأيدينا نرى صوراً مختلفة أخاذة من صفات ربنا وحياته ، ومظاهر مختلفة من تعاليمه التى كانت تختفى عن أنظارنا أبد الدهر . والواقع أن وضع سـيرة واحدة رسمية مستقاة من البشائر الأربع لم ترق فى نظر الـكنيسة الجامعة . وفى هذا الصدد يقول أحد علماء الإنجيل : « إن الإنجيل يقدمّ لنا يسوع المسيح . فمن إنجيل مرقس نتعلم مَن كان يسوع المسيح وما الدور الذى لعبه على الأرض فى التاريخ البشرى . ومن أناجيل لوقا ومتى نتعلم شيئاً من تعاليم يسوع . ومن إنجيل يوحنا نتعلم المعنى العميق الذى استخلصه أتباعه من حياته » .

الفوارق فى روايات الانجيل :

إن البشائر الأربع على اتفاق تام فى الحقائق الجوهرية الأساسية — وهى أن يسوع جال بين الناس يصنع خيراً ، ويشفى المرضى والمنكوبين ، وأنه صلب وقام من الأموات ثانية ، وظهر للتلاميذ . وقد خضعت روايات الإنجيل لضروب من النقد الدقيق والفحص الشديد أكثر من أى كتاب قديم آخر . ومع هذا لا يستطيع إلا المـكابر أو المتحيز أو الجاهل أن ينكر الاتفاق التام بين البشائر فى الحقائق الأساسية من سيرة المسيح . فالنظريات القائلة ان يسوع نفسه لم يُصلب ، وأن آخر حلّ محله ، أو أنه لم يقم من الأموات — لا أثر لها إطلاقاً فى البشائر الأربع .

على أنه يجب التسليم فى غير مواربة أن هناك بعض الفارق أو التناقض أو الاختلاف فى قليل من الروايات . وقد لوحظت هذه الحالات منذ القرن الثانى

واتخذها الهراطقة مادة للنقد والتجريح . وكان النقد فى ذلك الزمن البعيــــد محصوراً فى الفوارق بين سلسلة نسب يسوع ، كما رواها كلٌّ من متى ولوقا ، وبين الترتيب التاريخى والتسلسل الزمنى لبعض الحوادث فى رواية يوحنا عند مقارنتها بروايات البشيرين الثلاثة الآخرين . ولم يدّع أحد العصمة اللفظية الحرفية لروايات الإنجيل ، فقد كان الـكتّاب خاضعين للعوامل العقلية والنفسية التى يخضع لها الـكتَّاب عادة فى كل جيل . ولا نجنى شيئاً إذا نحن تظاهرنا أو ادّعينا أن ليس بين البشائر بعض الفوارق التافهة ، ويمكن فى غير عناء تعليل بعض هذه الفوارق والمتناقضات . وقد ألقى العلماء فى العصور المتأخرة كثيراً من النور على هذه المشاكل .

على أن هذا كله لن يضير الصورة الرائعة التى رسمتها بشائر الإنجيل عن « النموذج الأسمى ، والإنسان الـكامل ، وإعلان الله الأزلى الخالد ، ذاك الذى كان إنساناً تاماً وإلهاً تاماً ، ابن الإنسان ، وكلمة الله ، ومخلص العالمين ، وربِّ الحياة » . هذه هى الصورة الجميلة التى رسمتها كلٌّ من بشائر الإنجيل . وإن كنا لا ندّعى العصمة اللفظية الحرفية لـكتابنا ، فإن من حقنا أن نشيد بصدقه ووحيه ومطابقته للواقع تماماً . وكما أنه من السخف والبعد عن النظرة العلمية الفاحصة أن نتجاهل المشاكل الـكثيرة التى تواجهنا فى روايات الإنجيل ، فإنه من الجهل المطبق أن يدّعى المكابرون أنه ليس لدى المسيحيين مصادر وثيقة يستندون إليهـــــا بسبب وجود هـذه الفوارق والمتناقضات التافهة فى الروايات .

٣ – بشائر الإنجيل

انتخاب البشائر الأربع – تكوين المجموعة القانونية

انتخاب البشائر الأربع .

ينبغى ألا نتصور أن مجمعاً من مجامع الكنيسة جلس فى هيئة لجنة وأمامه عدد من البشائر والرسائل ، وبعد بحث ومناقشة أخذت الأصوات لاختيار بعضها كأسفار قانونية (أى أسفار صحيحة فى مصدرها وموحى بها) ، ورفض البعض الآخر . إنما الواقع أن مجامع الكنيسة تناقشت لتقرير نتائج كان قد فرغ البحث منها، وانتهى الوصول إليها . وبحسب ما لدينا من أدلة تاريخية كان مجمع قرطاجنة الذى انعقد سنة ٣٩٧ ب . م . أول مجمع صدّق على المجموعة الكاملة لأسفار العهد الجديد . ولم يصدق نهائياً مجمع الكنائس الشرقية إلا فى سنة ٦٩٢ ب . م . على قانونية الأسفار التى اعترف بصحتها القديس أثناسيوس قبل هذا التاريخ بثلاث مائة سنة (أى سنة ٣٩٧) . ومن ثمّ نرى تكوين المجموعة القانونية الرسمية لأسفار العهد الجديد عملا تدريجياً تقوم به الكنيسة الجامعة تحت إرشاد الروح القدس . ولم تكن المهمة مقتصرة فقط على جمع الأسفار ، بل بحثها وغربلتها ورفض ما لم تثبت صحته ، وقد قامت الكنيسة كلها بنصيب فى هذا العمل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . فاستنار ميل الشعب وذوقه بعلم زعماء الكنيسة وثقافتهم الروحية . وجاءت قراراتهم مؤتلفة مع عقل الكنيسة كلها وضميرها .

ونحن لا نبحث هنا تطور مجموعة العهد الجديد كلها ، بل فى بشائر الإنجيل الأربع فقط . وبينما برز خلاف فى الرأى من القرن الثانى إلى الخامس –

بين كنائس المسيحية وممثليها من العلماء والأحبار — حول قانونية بعض كتابات العهد الجديد ، فإن الأدلة ناهضة على أن البشائر الأربع قُبلت كوثائق رسمية قانونية بالإجماع حوالى أواخر القرن الثانى . وفى الفترة بين القرن الثانى والخامس شجر خلاف فى الرأى عن بعض أسفار العهد الجديد مثل رسالة بطرس الثانية والرؤيا ، ولكن لم يرتفع صوت واحد بالطعن فى قانونية البشائر الأربع وصحة مصدرها . وربما وجدت هنا أو هناك جماعات صغيرة من المسيحيين مالت إلى بعض البشائر ذات الطابع الخاص بصفة مؤقتة ، ولكن هذه البشائر لم تنظر إليها الكنائس الكبرى نظرة جدية ، ولم توضع ضمن الكتب التى هى موضع النزاع ، لعلّها تجد طريقها ميسوراً إلى قبولها والإعتراف بصحتها .

وقد كان فى القرنين الأول والثانى من تاريخ الكنيسة ثلاث كنائس كبرى — انطاكية وأفسس ورومية — وبسبب علاقاتها الرسولية اكتسبت هذه الكنائس الثلاث بطبيعة الحال شهرة ونفوذاً تسلّطت به إلى حين على تطور المسيحية . (وبدأت كنيسة الاسكندرية الكبرى تبسط نفوذها القوى على الكنيسة العامة من نهاية القرن الثانى) . وكان العرف أن تقبل الكنائس الصغرى الواقعة تحت نفوذ تلك الكنائس الكبرى ما تقرره الكنائس « الأم » من عقائد وتعاليم وطقوس . كذلك كان قبول إحدى الكنائس الثلاث الكبرى للتعاليم والعقائد والطقوس المسحيية يمهد الطريق إلى قبولها فى الكنيستين الأخريين ، ولا تلبث طويلا حتى تحظى بالقبول العام .

ويقول العلماء انه فى هذه المدن الثلاث العظمى ظهرت البشائر لأول مرة — لوقا ومرقس فى رومية ، ومتى فى انطاكية ، ويوحنا فى أفسس . واشتهر كل من هذه البشائر فى الكنيسة والمدينة التى ظهرت فيها لأول مرة ، ثم ظهرت

فى الكنيستين الأخريين ، وبعد ذلك قبلتها جميع الكنائس . وكانت هذه الشهرة والمكانة العظيمة التى حظيت بها البشارة الواحدة فى مسقط رأسها هى التى حالت دون استبعادها أو إحداث أى تغيير فيها لتنسجم مع البشائر الأخرى. فبشارة مرقس مثلا مدمجة كلها، إما فى متى أو فى لوقا، ومع ذلك لم تتفوق عليها بشارة أخرى، وذلك لأن شهرتها ذاعت فى رومية وتأصلت مكانتها فيها . وقد سبق لنا القول ان الكنيسة شغلت فى بعض الصعوبات الجدلية بامتلاكها أربع بشائر موحى بها لم تتفق اتفاقا تاما فى بعض الروايات ، ولكن لم يمكن إزالة هذه الفوارق والاختلافات فى البشائر، وتحقيق الإنسجام التام بينها بتغيير النصوص وتحويرها ، وذلك لأن البشارة المحلية تأصلت فى بيئتها وكنيستها ، بحيث لم يكن يُسمح بإحداث شىء من التغيير فى نصوصها ، وأُعتبرت كل بشارة سفرا كلاسيكيا دينيا لا يجوز تغيير ألفاظه . وقد وضع الدكتور « ستريتر » وهو حجة فى دراسة بشائر الإنجيل كتابا عنوانه « البشائر الأربع » — جمع فيه الأدلة التى تثبت الزمن التقريبى الذى وصلت فيه البشائر المختلفة إلى كنائس أنطاكية ورومية وأفسس . وفى رأيه أنه فى سنة ١٨٠ ب . م . كانت البشائر الأربع قد جمعت فى مجموعة واحدة واعترفت بها الكنيسة كلها — ممثلة فى انطاكية وافسس ورومية — أسفارا موحى بها . ويقول الدكتور «ستريتر » : « أما دليلنا عن انطاكية فهو البيان الذى أدلى به القديس إيرونيموس من أن ثاوفيلس أسقف تلك الكنيسة فى سنة ١٨٠ ب . م . كتب تفسيرا عن البشائر الأربع ، وفى بحثه الوحيد الباقى حتى اليوم — يقتبس الأسقف ثاوفيلس من بشارة يوحنا كسفر موحى به . أما الدليل عن افسس ورومية معافهو إيرانيوس أسقف ليون ، وكان هذا قدسمع بوليكارب فى ازمير وهو بعد صبى صغير ، ثم أقام فى رومية وحاضر فيها سنة ١٧٧ ، ولعب دور الوسيط بين أفسس ورومية سنة ١٩١ يوم حرم فكتور أسقف رومية كنائس آسيا بسبب خلاف فى تحديد

موعد عيد الفصح وطريقة الاحتفاء به . والذى قاله هذا الأسقف عن البشائر يمثل وجهة النظر الرسمية فى رومية وافسس فى الوقت الذى كتب فيه (أى سنة ١٨٥) . وإلى القارىء بعض مقتبسات من أقواله :

« نشر متى بشارته المكتوبة بين العبرانيين فى لغتهم ، بينما كان بطرس وبولس يبثان الدعوة ويؤسسان الكنيسة فى رومية . وبعد موتهما ، دَّون لنا مرقس — تلميذ بطرس ومترجمه — الأشياء التى نادى بها بطرس . كذلك دون لوقا — مرافق بولس — فى بشارته الأشياء التى أذاعها بولس . ثم بعد ذلك نشر يوحنا ، تلميذ الرب الذى اتكأ على صدره ، بشارته بينما كان مقيما فى أفسس. ولا يمكن أن تكون بشائر الإنجيل أكثر أو أقل من هذا العدد. وبما أننا نسكن فى أقطار الأرض الأربعة ، وتوجد رياح رئيسية أربع ، والكنيسة أشبه ببزرة تغرس فى الأرض كلها ، والانجيل هو عامود الكنيسة وحياتها ، فانه من الطبيعى أن يكون لها أعمدة أربعة من جهات الأرض الأربع ، تبث فيها عدم الفساد وتشعل فيها نار الحياة. وواضح أن صانع كل الأشياء « الكلمة » الجالس على الشاروبيم ، والحافظ كل الأشياء — حين أظهر نفسه للناس ، قد اعطانا إنجيله فى أربعة أوضاع حفظها الروح الواحد ... وذلك لأن للشاروبيم أربعة أوجه . وهذه الأوجه صور لابن الله ... ولأن المخلوقات الحيَّة من ذوات الأربع . كذلك الإنجيل أيضا فى أوضاع أربعة » .

وقد يبدو هذا الكلام للقارىء العصرى خياليا. ولكنه كلام شيِّق من حيث ما انطوى عليه من معان . وما كان لأحد حتى فى ذلك العصر — أن يقوله إلا عن كتب أثبتت التقاليد الطويلة قدسيتها فى أعين أصحابها .

تكوين مجموعة قانونية رسمية لأسفار الانجيل :

يجب ألا يُظن أن أحدا من كتَّاب العهد الجديد فكَّر واعيا وهو يكتب

أنه يكتب أسفارا مقدسة ، سيجمعها المسيحيون فى السنوات المقبلة ، ويضعونها فى مستوى أسفار العهد القديم . إن مثل هذه الفكرة لم تخطر لأحد منهم على بال، وما كانوا يرضونها لو خطرت . ولم يكتب مؤلفو الأسفار المعروفة لدينا الآن فى العهد الجديد ، واضعين الأجيال المقبلة نصب أعينهم ، ولكنهم كتبوا أسفارهم لسد الحاجات المحلية العاجلة التى أحسّ بها أتباع المسيحية الأولون فى كنائسهم الخاصة . أما تكوين مجموعة قانونية رسمية من هذه الأسفار ، فكان تطورا طبيعيا دعت إليه الحاجة . وفى هذا يقول الدكتور ستريتر : « بما أن الوحى لا يكون كاملا مالم يُدون تدوينا صحيحا ، فقد كان منطقيا من البدء أن يتجه التفكير إلى تكوين العهد الجديد لتكملة العهد القديم . وكانت الكنيسة من الوجهة العقلية فى مركز ضعيف مالم تعمل على إسناد عقائدها بمجموعة من الأسفار المقدسة ، لا تقلّ من حيث قانونيتها وصدق مصدرها ووحيها عن أسفار التوراة اليهودية القديمة . ومع أن تكوين هذه المجموعة كان ضروريا ، فان القوم لم يحسّوا بالحاجة إليها إلا ببطء ، والجماعة عادة لا تخلع الصفة القانونية الرسمية على مجموعة من المؤلفات إلا بعد أن يتقادم عهدها وتبلغ درجة عليا من الشهرة وقوة السلطان بسبب خواصها الداخلية ، أما هذا العمل ذاته ، أى خلع الصفة القانونية ، فانه لا يجعلها أسفارا مقدسة » .

أما السبب الثانى الذى حمل الكنيسة على اختيار مجموعة رسمية من أسفارها وكتبها ، فهو ذيوع مدارس كثيرة من الثيوصوفية التى أُطلق عليها إسم عام « الأغنسطية أو اللاأدرية » : وقد استمالت هذه النظم الأغنسطية إليها أنصاف المتعلمين فى القرن الثانى . ومن الآراء التى اعتنقتها جميع الطوائف الأغنسطية ، تلك الفكرة القائلة « ان المادة بالضرورة شريرة ، ولذلك لا يكون الكون المادى من صنع الإله الصالح الاسمى ، بل من صنع قوة أقل منه مرتبة ، وقد جاء المسيح مرسلا من الإله الصالح لينقذ الإنسان من بين

براثن هذه القوة التى تملكته ». وبسبب هذه العقيدة الأساسية عن المادة ، لم يستطع الاغنسطيون أن يفكروا فى إمكان حلول المسيح فى جسد صحيح من اللحم والدم ، ولذلك قالوا انه لم يتألم على الصليب إلا تشبيها ظاهريا فقط . وكان الفوز الذى أصابه « مرسيون » الأغنسطى فى نشر دعوته ، من العوامل التى عجّلت فى تكوين المجموعة الرسمية لأسفار الإنجيل . أما مرسيون هذا فكان قد قدم إلى رومية من بنطس على شاطىء البحر الأسود فى سنة ١٣٩ ب.م وقضى أربع سنوات فى شركة مع الكنيسة . ولما فشل فى إقناع الكنيسة لاعتناق عقيدته ، عمد إلى تأسيس كنيسة جديدة ، ورفض الإيمان بأسفار العهد القديم، حاسبا إياه من وحى قوةٍ أقل درجة من الله الصالح . أما الإله الصالح فقد أعلن لأول مرة فى المسيح... ولكن الرسل الأصليين قد أساءوا فهم المسيح ، لذلك تكرر هذا الإعلان من جديد لبوس الرسول . وهو يحسب رسائل بولس وبشارة لوقا — زميل بولس ورفيقه — مع ما فيها من عبارات تناقض وجهة نظر مرسيون — هى الوثائق الصحيحة الوحيدة التى تضمنت الوحى الجديد الذى جاء به المسيح . أما مرسيون نفسه فكان على جانب عظيم من اليقين الشخصى والحماس الدينى والقوة على التنظيم . وقد أسس فى حياته كنيسة امتدت فى أطراف الإمبراطورية الرومانية . وكان ألد خصم للكنيسة ، لأنه كان أكثر الأغنسطيين مسيحية .

وقد قبلت الكنيسة تحدّى مرسيون هذا . ومما يقوله الكانن ستريتر : « إن وجود أسفاره الرسمية حمل الكنيسة على تكوين المجموعة الرسمية لأسفارها . وذلك لأنه لم يكن مستطاعا مواجهة نقده وتفنيد حجته، إذا كانت درجة الوحى فى البشائر والرسائل التى قبلتها أقل منها فى المجموعة التى خلع عليها مرسيون صفة قانونية رسمية . ولكن حين خطت الكنيسة هذه الخطوة وجدت نفسها

فى مكانة أقوى مما كانت تظن . وذلك لأن أربع بشائر أقوى فى إسنادها من واحدة ، ولأن مجموعة من الاسفار تشمل سفر الأعمال ومؤلفات منسوبة إلى متى ويوحنا وبطرس وبولس — أكثر شمولا فى تمثيل وجهات نظر الرسل جميعا . وبعد أن اعتبرت هذه المجموعة أسفارا رسمية قانونية للعهد الجديد — على قدم المساواة مع أسفار العهد القديم — وجدت الكنيسة فى حججها أساسا أمتن من البشارة الواحدة والرسول الواحد اللذين تمسك بهما مرسيون » .

من ثمّ نرى الكنيسة فى أواخر القرن الثانى — مسوقة بهذين العاملين الأساسيين — تملك فى حوزتها عهدا جديدا لصيانة التعاليم الرسولية . وكان المحك لقبول الأسفار فى المجموعة الرسمية القانونية مزدوجا : فأولا الاستيقان من صحة مصدرها الرسولى . وثانيا قيمتها فى البنيان . وأقدم محاولة لكتابة مجموعة كاملة من الأسفار المقبولة على أسس صحيحة نجـــدها فيما نسميه : «Muratoriun Canons » . وما تزال هذه المجموعة باقية فى ترجمتها اللاتينية ويرجع تاريخها إلى القرن السابع . وقد كتبت فى الأصل باليونانية حوالى سنة ٢٠٠ب٠م٠ وهذه الوثيقة التى تمثل وجهة نظر الكنيسة الرسمية فى رومية ليست بيانا عن الأسفار وحسب، بل تشمل تعليقات عن المؤلف ومشتملات كل سفر. وكان للعثور على الوثيقة البردية« Chester Beatty Papyri » منذ سنوات أهمية عظمى لمجموعة الاسفار الرسمية. ومما يقوله «السركنيون»،وهو حجة يُشار إليه بالبنان فى المخطوطات : « بين أيدينا الآن مجموعة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع مؤلفة من البشائر الأربع وسفر الأعمال ... وإن كانت هذه المجموعة قد عُرفت بين المسيحيين فى القرن الثانى ، فانهم بلا شك قد تعودوا على رؤية البشائر الأربع فى مجلد واحد ، وحسبوها وحدة واحدة مع اختلاف مصادرها » .

٤ — بشائر الإنجيل

البشائر غير القانونية ـ بشائر التحويل والانتقال ـ البشائر التكميلية ـ البشائر الضائعة المعادية

بشائر الأبوكريفا غير القانونية :

شقَّت البشائر الأربع طريقها واعترفت بها الكنيسة أسفاراً رسمية قانونية، وحظيت بالسلطان والسيادة على ما عداها من سنة ١٧٠ ب . م . فصاعدا . على أن هذه البشائر الأربع لم تكن هى الوحيدة المتداولة بين الأيدى ، بل كان هناك غيرها انتهى إلينا خبرها من كتابات الآباء الأولين ومن بحوث وكشوف العلماء والباحثين فى السنوات اللاحقة. وقد سمِّيت تلك البشائر « الأبوكريفا» أى غير القانونية . وقد أُطلق هذا العنوان على الكتابات التى لم يكن مصرحاً بقراءتها علانية فى الكنائس . وفى هذه التسمية شىء من التجريح ، ودلَّت على أن محتويات تلك الكتابات ، كانت باطلة مزيفة . وهذا حق يصدق على أغلب تلك الكتابات، ولكنك قد تجد هنا وهناك، عناصر صادقة مبعثرة . وأفضل مجموعة لتلك الكتابات غير القانونية باللغة الانكليزية هى التى جمعها الدكتور جميس وقامت بطبعها مطبعة اكسفورد تحت عنوان « The Apocryphal New Testament » وتنقسم بشائر الأبوكريفا إلى أربعة أنواع :

اولا — البشائر المرادفة أو المعادلة

وهى الكتابات التى تعتبر بحكم محتوياتها معادلة فى موضوعها للبشائر الرسمية ومعاصرة لها من حيث تاريخها. ومن هذا النوع بشارتان فقط :

١ — الأولى بشارة العبرانيين ، وقد أشير إليها فى كتابات الآباء مثل

ايرانيوس وا كليمندس الاسكندرى وأوريجانوس ويوسيبيوس، وخاصة فى كتابات الآب إيرونميوس . وكتبت البشارة فى القرن الأول وكانت بمثابة بشارة مرادفة لبشارة متى الرسمية، وإن تكن أقصر منها. ولعلها كتبت بالعبرية أو الآرامية واستخدمتها طائفة مسيحية تدعى طائفة الناصريين ، وقد عرفت فى مصر فى أوائل القرن الثانى .

٢ — والثانية بشارة بطرس . ولا يمكن تحديد تاريخها بالدقة . ولكنها كتبت فى خلال النصف الأول من القرن الثانى . وكانت تقرأ علانية فى كنيسة روسوس على مقربة من انطاكية. وأشار إليها أوريجانوس ويوسيبيوس . وفى سنة ١٨٨٤ أكتشف جزء طويل منها يصف الصلب ، فى قبر راهب ببلدة أخميم بمصر . وتقتبس البشارة من البشائر الأربع الرسمية فى وصف قصة الصلب، وتتماثل إلى حد كبير مع البشائر الثلاث الأولى . ولكنها تصف القيامة وصفاً لا وجود له فى البشائر القانونية الرسمية . وهى تقترن ببعض الهرطقات التى شاعت فى القرون الأولى ، وتتخذ موقفاً معاديا لليهود .

وهناك كتاب آخر منسوب إلى بطرس يدعى « دعاية بطرس » أشار إليه أكليمندس الإسكندرى واقتبس عنه كثيراً . وكان هذا الكتاب تأليف مسيحى من الأمم من أهالى الإسكندرية . ولعله كتب لاستخدامه فى نشر الدعوة كملحق لبشارة مرقس. ويرجع تاريخه إلى بكور القرن الثانى، وهو يكاد يكون معاصراً لبشارة بطرس ، ولكن لا صلة له بها .

اقوال يسوع وكلماته :

أكتشفت هذه المخطوطات الدقيقة ، التى مسخت مسخا شديدا فى بلدة او سرنخوس فى مصر منذ سبعين سنة . وقد أجمع العلماء على أن هذه المجموعة كتبت فى القرن الثانى . ومن المحتمل جدا أن بعض الأقوال الرائعة التى

تضمنتها نطق بها يسوع فعــــلا . وهى فى جملتها أقوال ذات صبغة تقشفية زاهدة وأشهرها :

« من يطلب ، فليطلب حتى يجد . ومتى وجد يبهت . ومتى بهت يملك، ومتى ملك يجد راحة. ارفعوا الحجر فهناك تجدوننى ، شقّوا الخشب ، فهناك أنا أكون . وقفت فى وسط العالم . وبالجسد تراءيت للبشر . فوجدت كل الناس سكارى . وما وجدت أحداً يعطش . فتضايقت نفسى من أجل أبناء البشر . لأنهم عميان فى قلوبهم لا يبصرون [١] » .

ولا يمكن نسبة هــذه الأقوال إلى بشارة معينة بالذات . ولـكن بعض العلماء ينسبها إلى إنجيل المصريين أو إنجيل توما أو إنجيل العبرانيين .

ثانيا — بشائر التحول والانتقال :

وهذا الاسم أُطلق على بشارتين كتبتا فى القرن الثانى. وبينهما وبين بشائر النوع الأول كثير من وجوه الشبه . ولـكنهما تمتازان ببعض الفوارق البارزة :

١ — وأولهما بشارة المصريين . وقد أجمع النقاد على أنها كتبت قبل سنة ١٢٠ ب . م . وأشير إليها فى كتابات أوريجانوس وا كليمندس الاسكندرى. وتدل الدلائل على أن هناك صلة بين هذه البشارة وبين نبذة « أقوال يسوع وكلماته »،التى عثر عليها فى مصر منذ سبعين سنة، والتى أشرنا إليها آنفاً. ويؤخذ من الأجزاء القليلة الباقية من اقتباسات أ كليمندس ان هذه البشارة كانت مؤلفة من أحاديث ثنائية كان فيها لسالومة النصيب الأ كبر . أما تعاليم البشارة فتميل إلى العقيدة الأغنسطية .

٢ — أما الثانية فهى بشارة الإثنى عشر . والظاهر أن هــذه عبارة عن

---

(١) أطلب كتاب « أقوال المسيح غير المدونة فى الإنجيل » من دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية أو من مركز الثقافة بالقاهرة.

اتفاق البشائر ذات صبغة تقشفية تصوفية، لأنها ترسم المسيح كإنسان يحرم أكل اللحم . وقد حكم عليها أوريجانوس وإيروثيموس وعاباها .

ثالثا – البشائر التكميلية :

وهذه البشائر على نوعين (١) النوع الأول الخاص بالطفولة (٢) والنوع الثانى الخاص بالمحاكمة والموت والصلب. وقد كتبت هذه البشائر، لا لتنافس البشائر القانونية الصحيحة، بل لتشبع رغبات حب الاستطلاع البشرية فى المسائل التى صمتت عندها البشائر الأربع . لذلك حفلت بكثير من التفاصيل الدقيقة ومالت إلى الإسراف والإسهاب فى التعبير . وقد أصدر يوسيبيوس حكمه عليها بأنها « باطلة مجردة عن التقوى ». ورددت الاجيال المتعاقبة صدى هذا الحكم ، وأشهر هذه البشائر :

١ — مجموعة بشائر يعقوب، وأقدمها كتب باللغة السريانية. وتشمل المجموعة فى وضعها الحاضر ثلاثة مؤلفات مستقلة : — كتاب يعقوب وقد كتبه يهودى قبل سنة ١٤٠ ب . م . وبه وصف مسهب عن مولد مريم العذراء وطفولتها وعن مولد المسيح . ثم كتاب يوسف وهو يروى قصة على لسان مولدة شهدت ميلاد المسيح . وربما كتبت سنة ٢٥٠ ب . م . ثم قصة موت زكريا ولعلها كتبت فى بداية القرن الرابع .

٢ — بشارة توما وقد كتبت حوالى سنة ١٦٠ – ١٨٠ ب . م . وهى تروى سيرة يسوع من المهد إلى الثانية عشرة من عمره فقط . وكان الغرض منها أن تثبت أن يسوع عرف منذ مولده أنه « كلمة لله». ولذلك حفلت هذه البشارة بكثير من المعجزات الباهرات، والمظاهر الخلابة التى أملتها خيالات الكاتبين . ولعل هذه البشارة هى المصدر الذى أقتبست عنه الروايات الإسلامية التى تحدثت عن طفولة المسيح .

والنوع الثانى من هذه البشائر التكميلية عُنى بالفترة الأخيرة من حياة المسيح—

محاكمته وصلبه وقيامته — وأشهرها بشارة نيقوديموس (أو سفر أعمال بيلاطس)، التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع . وتنقسم إلى جزئين : الأول قصة الآلام والثانى الهبوط إلى الهاوية . والجزء الأول كتبه مسيحى يهودى . ولعله كان رداً على سفر مزور يدعى « أعمال بيلاطس » ابتكره الآب راطور مكسيميان (٣١١ ـ ٣١٧) لإيقاع الأذى بالمسيحيين . أما الجزء الثانى فهو أقدم فى تاريخه من الأول. ولا يعلم بالضبط متى اقترن الجزءان معاً فى كتاب واحد .

رابعا – البشائر الضائعة المعادية :

ويشمل هذا النوع أكثر البشائر غير القانونية . أما قيمتها التاريخية فلا يؤبه لها ، لأن أغلبها مؤلفات أغنسطية معادية . وفى حالات كثيرة لم يبق منها إلا مقتبسات قليلة فى كتابات الآباء الأولين ، وفى حالات أخرى لم يبق منها إلا الإسم مجرداً . ومن هذه : بشـارة فيلبس وهى من تأليف مصرى من الغناطسة فى القرن الثانى .

وبشارة متياس وقد أشار اليها بالإسم فقط أوريجانوس وأمـبروس وإيرونيموس وبوسيبيسوس .

وبشارة برثلماوس، وتدور فكرة هذه البشارة حول النزول إلى الهاوية ، وعدد أنفس المخلَّصين والهالكين ، ورواية العذراء عن ظهور الملاك ، ودعوة الشيطان ليؤدى حساباً عن أعماله ، وأسئلة عن الخطايا المميتة، وتكليف الرسل بنشر الدعوة ، ورحيل المسيح إلى السماء .

وبشارة برنابا، ولم يُشر إلى هذه البشارة أحد الكتاب المسيحيين فى القرون الخمسة الأولى، وهذا أمر غريب إذا كان لمثل هذه البشارة وجود فى ذلك العصر، وذلك لأن الكتَّاب ، كما رأينا، لم يغفلوا الإشارة إلى البشائر الأخرى التى ذاع أمرها . أما البشارة الباقية حتى اليوم بهذا الاسم فهى مأخوذة عن مخطوطة إيطالية يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر ماتزال محفوظة فى فينا . ويظن

أن تاريخ هذه البشارة يرجع إلى القرن الرابع عشر. ولا يمكن الجزم إن كانت هذه البشارة كُتبت لأول مرة فى القرن الثالث عشر كما يقول بعض العلماء، أو أنه كان هناك بشارة بهذا الإسم ذات صبغة أغنسطية كتبت قبل تاريخ قرار جيلاسيان الذى وضع بشارة بهذا الإسم مع البشائر التى تقرر رفضها. أما الوصف المسهب فى هذه البشارة الذى يدّعى أن يهوذا الاسخر بوطى مات عوضاً عن المسيح، فربما يكون مأخوذاً عن بشارة أصلية لبرنابا هذا (إن وجدت)، وذلك لأن مثل هذا الرأى كان شائعاً بين الأغنسطيين. ويرجح المرحوم الأستاذ عباس العقاد أن كاتب هذه البشارة كان يهوديا.

خواص هذه البشائر:

ويلاحظ أن أكثر هذه البشائر منسوب إلى الرسل، وذلك لأن كتاباً يضعه شخص مجهول أو مؤلف من النكرات لا يقام له وزن، لاسيما إذا كان الكتاب يتحدث عن أعمال وطبيعة واحد لا يفهمه العقل البشرى بسهولة. لذلك كان من الضرورى أن ينسب الكاتب بشارته إلى الرسول، لتحظى بالقبول لدى الجماعة المسيحية التى يريد استمالتها إليه. ولم يكن الكاتب ليكتفى بنسبة بشارته إلى رسول معين، بل كان يحاول فى بعض الحالات ترديد الأقوال ذاتها على لسان الرسول المنسوبة اليه البشارة ونسبة الالفاظ اليه كأنه هو قائلها. فمثلا تفتتح بشارة بطرس بهذه العبارة: « أنا سمعان بطرس ...». وتبدأ بشارة توما بعبارة: « انا توما الإسرائيلى أقول لكم ». أما البشائر الأربع القانونية فعلى نقيض ذلك. وقد جاءت كلها عارية عن أسماء واضعيها. ولم يدّع كاتبوها شيئاً لأنفسهم. والواقع ان اثنتين منها — مرقس ولوقا — لم يكتبها أحد من الرسل. والإثنتان الأخريان — كما رأينا — قد لا تكونان من تأليف البشيرين اللذين تحملان اسميها: أما التشديد فى البشائر القانونية على نسبتها إلى رسل معينين، فهو أمر يثير الشبهات فى صحتها.

أسباب رفضها :

أما سبب رفض بشائر الأبوكريفا غير القانونية، فذلك مرجعه إلى قصورها عن تحقيق الغرضين الرئيسين اللذين كتبت من أجلهما -- وهما بث روح الدين الحق، ونقل التاريخ الصادق . ولدى قراءة هذه البشائر نتبين أن رفضها لا يرجع إلى استبعاد الكنيسة لها ، بل بالأولى إلى محتوياتها التي حكمت عليها بهذا الرفض. ومع أننا نأسف على ضياع بعض هذه الكتب التي كانت تُلقى بعض النور على تاريخ المسيحية في عهد الفطرة، فإن قراءة الإجزاء القليلة الباقية من تلك البشائر تردد في نفس القارىء ذلك الحكم الصائب الذي أصدرته الكنيسة الأولى على تلك المؤلفات ، وهو الحكم الذي قضى عليها بالإختفاء ، وفي بعض الأحيان بالفناء التام . وإذا استثنينا واحدة أو اثنتين من تلك البشائر -مثل بشارة العبرانيين- فأن أكثرها يمتاز بروايات مطولة شاذة متطرفة، وتختلف كلية عن روايات البشائر القانونية الهادئة المقتصدة في التعبير . وقبول الكنيسة للبشائر الأربع الرسمية، وعدم تفكيرها في إسنادها بغيرها، دليل على أن كلا من البشائر قد حقق الأغراض المرجوة منها . وتعلق الكنيسة المستمر بهذه البشائر الأربع مدى تسعة عشر قرنا كاف للاثبات بأن الكنيسة الأولى قد اختارت اختياراً صائباً، وأصدرت حكماً صحيحاً.

ويقول أحدهم : « ان بشائر الأبوكريفا غير القانونية كتب دينية ، كان الغرض منها إسناد العقائد المسيحية القائمة، إما بإعلان عقائد جديدة تختلف عن العقائد الشائعة ، أو تأويل العقائد القديمة في معان جديدة ، أو التشديد على بعض الفضائل المعينة مثل العفة والإعتدال ، أو تقوية بعض العقائد والحوادث الخاصة مثل الميلاد العذاروى، والقيامة، والمجيء الثاني، والحياة الأخرى. ويدّعي الكاتبون أنهم استقوا معلوماتهم من أوثق المصادر ، ويقولون انهم كانوا شهود عيان للحوادث، أو أنهم يدونون أقوال ربنا بالنص ..

« ولكنها قصرت عن تحقيق أغراضها . ولا شك أن بعض رواياتها قيِّمة خصيبة الخيال.. ولكن المؤلفين لا يتحدثون بصوت يوحنا، ولا بهدوء البشيرين الثلاثة الآخرين وبساطتهم . ولا نكون متجنين إذا قلنا انهم حينما حاولوا محاكاة صوت يوحنا، كانوا أشبه بممثلين ، وحينما حاولوا التشبه بالثلاثة الآخرين كانوا سخفاء ركيكين . وقصارى القول ان دراسة هذه البشائر الآن تدلنا مرة أخرى على إصالة رأى الكنيسة الجامعة الأولى ، وعلى حصافة علماء الاسكندرية وانطاكية ورومية . وليس من شك أنهم فى هذه الحالة قد تمسكوا بالحق والصواب ».

بشارة متى

انجيل الكنيسة الأولى

بعد سقوط أورشليم، مرّ القائد الرومانى فى طريقه المظفر إلى روما بمدينة انطاكية. ويذهب جمهرة الشراح إلى أنه بعد قليل من هذا التاريخ، كُتبت بشارة متى فى مدينة انطاكية هذه بيد زعيم من زعماء كنيستها. ولم يذكر لنا التاريخ إسم الكاتب الحقيقى، ولكننا ندعوه « متى » وهو الإسم الذى عُرف به هذا الإنجيل. ولما كانت انطاكية مدينة يونانية، كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية، ولكنه فى الوقت عينه، أكثر بشائر الانجيل يهودية. وما من شك أن متى هذا كان يهودياً، أراد أن يبين أن تراث إسرائيل قد انتقل الآن إلى الكنيسة المسيحية.

وكان متى فناناً أديباً، صاغ كتابه وفق خطة منسقة تنسيقا بديعاً. وكأنما أراد أن يصدر طبعة جديدة لبشارة مرقس، مضافاً إليها أقوال السيد المسيح. وذلك لأن الآيات ال٦٦٠ التى وردت فى بشارة مرقس، ظهرت منها ٦٠٠ آية فى بشارة متى. ولكن هذا الكاتب الأخير أضاف ثروة من أقوال المسيح إلى أفعال المسيح، التى صاغها مرقس صياغة بسيطة خالية من التكلف والاصطناع.

أما الوثيقة الأصلية التى أخذ عنها متى، فقد عبثت بها يد الزمن. وتبدو عبقرية متى وحذقه الفنى فى تبويب الأقوال المتناثرة التى تفوه بها المسيح. فلم يكتف بنقل مجموعات مبعثرة، بل قد جمعها فى أقسام خمسة حسب مادتها. وفى خمسة مواضع حاد عن رواية مرقس ليدخل هذه الأقوال. وأولى هذه المجموعات وأهمها وردت فى الأصحاحات ٥ و ٦ و ٧ وهى التى أسماها « الموعظة على الجبل ». وتنتهى كل مجموعة من المجموعات الخمس بعبارة مأثورة:

« ولما أكمل يسوع هذه الأقوال . . . ».

(متى ٧ : ٢٨ و ١١ : ١ و ١٣ : ٥٣ و ١٩ : ١ و ٢٦ : ١).

ولا يستغرق النطق بهذه المجموعات جميعها أكثر من ساعتين ، وذلك لأن متى لم يدون كل الأقوال التى فاه بها ربنا ، بل اكتفى بما كان ذا تأثير فعال نفاذ فى حياة الكنيسة .

وتقسم المجموعات الخمس من أقوال المسيح خدمته العامة إلى خمسة أجزاء ، ولعلّ البشير كان يفكر عند تخطيط بشارته فى أسفار موسى الخمسة .

ولئن يكن الجزء الأكبر من بشارة متى قد استند إلى ما كتبه مرقس وإلى أقوال المسيح، فإن هناك حوالى ٤٠٠ آية أصيلة فى هذه البشارة، لا تمتُّ بصلة إلى هذين المصدرين . وهى التى تتحدث عن انسال يسوع ، وزيارة حكماء المجوس ، والهرب إلى مصر ، ومشى بطرس على الماء ، وموت يهوذا ، وحلم امرأة بيلاطس ، وبيلاطس يغسل يديه ، والزلزلة ساعة الصلب . ومما لاشك فيه أن متى استقى هذه المواد المختلفة من روايات شفاهية متواترة ، ومن مجموعة مكتوبة فى أورشليم . وفى هذه البشارة نجد اشارات مبعثرة كثيرة إلى نبوات العبرانيين يقدمها الكاتب بعباراته المأثورة مثل: «لكى يتم ماقيل بالأنبياء» أو « لأنه مكتوب ... » . ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا انه كان فى زمن متى مجموعة من الآيات الكتابية استخدمها المعلمون والبشيرون ليثبتوا بها أن يسوع هو المسِّيا الذى أنبأ به الأنبياء. وقد انتقى متى هذه المقتبسات ليبين كيف أكمل يسوع النبوات ، إما من هذه المجموعة ، أو من دراسته الخاصة لأسفار الكتاب .

ولما صدر إنجيل متى بين سنة ٨٠ و ٩٠ ب.م . صار تواً مرجعاً مقبولا محبوباً . وقد وجد فيه المعلمون والبشيرون ضالتهم المنشودة لتلقين طلابهم ، وخاصة لأن أقوال المسيح المبوبة تبويباً منظما سهلُ استظهارها وحفظها . وفى مجلد واحد اجتمعت روايات مرقس وأقوال المسيح ، وظهر المسيح فى هذا السفر الجديد عاملا فى حياة الناس بحياته ، ومهذباً لعقولهم بأقواله وتعاليمه .

وفى الموعظة على الجبل شهدنا المبادىء المسيحية السامية التى ارتفعت فوق

القيم الأخلاقية التى عرفها العالم من قبل ومن بعد ، والتى تضمنت القواعد الذهبية الخالدة للحياة الإنسانية فى كل العصور .

وكنا نود أن نعرف مَن كان هذا الكاتب الذى أطلق على نفسه اسم « متى ». وبيّن أنه لم يكن أحد التلاميذ الاثنى عشر ، لأن هذا الإنجيل لم يذكر شيئاً من القصص والحوادث التى يرويها عادة شاهد العيان ، بل قد نقل نقلا عن إنجيل مرقس وعن أقوال السيد المحفوظة . ولو أن الكاتب كان تلميذاً للمسيح ، لروى من عندياته الكثير مما شاهد ومما سمع من قصصه الأصيلة . ولكن متى اتخذ مرقس مصدراً لإنجيله . فضلا عن هذا فقد كتب هذا الإنجيل بعد انقضاء فترة خمسين أو ستين سنة على الحوادث التى يرويها . وبعيد جداً أن شاهداً من التلاميذ الأولين ينتظر هذه الفترة الطويلة قبل أن يسجل الذكريات التى نقشت على قلبه .

فكيف إذاً اقترف اسم متى — تلميذ يسوع — بهذا الأنجيل ؟ كان متى هذا — أو لاوى كما يسمى أحياناً — الموظف الرسمى الذى لقيه يسوع جالساً عند مكان الجباية ، وقال له اتبعنى ، فنهض لساعته وتبعه . وفى حوالى سنة ١٤٠ ب . م . كتب بابياس يقول : « صاغ التلميذ متى أقوال يسوع فى اللغة العبرية، ونقلها عنه كل من أراد من الكتّاب اللاحقين » . ويبدو لنا أن هذه المجموعة القيّمة من أقوال السيد التى سجلها متى كانت موضع إعزاز وتقدير فى الكنيسة الأولى . ولسنا ندرى مَن الذى نقلها إلى اللغة اليونانية . على أنه من المحتمل جداً أن يكون كاتب بشارة متى هو الذى نقلها إلى إنجيله . وكان طبيعيا أن يقترن بها اسم متى التلميذ ، وخاصة لأن هذا الإنجيل شملت صفحاته قدرا كبيرا من الأقوال الأصيلة التى دونها متى . وهذا يشجعنا على القول ان بشارة متى إنما هى شهادة تلميذين أصيلين : أحدهما بطرس صاحب مذكرات مرقس ، والثانى متى جامع الأقوال التى تفوّه بها ربنا .

بشارة مرقس

اقدم البشائر

فى شهر يوليه من سنة ٦٨ ب . م . اشتعلت النيران فى المبانى الخشبية فى ميدان مكسيموس بمدينة رومية . وظلت مضطرمة أسبوعا كاملا قبل أن ينطفىء أوارها ، وبعد أن تركت شطرا كبيرا من المدينة خرابا ودخانا . وذاعت الإشاعات أن الإمبراطور نيرون هو الذى أمر بإحراق المدينة لكى يشيّد مدينة جديدة لمجده الشخصى . وقال المؤرخون إنه كان يعزف على قيثارته وهو يشهد النيران تلتهم عاصمة ملكه . ثم ألقى نيرون اللائمة على المسيحيين ، وكانت جماعة منهم قد استقرت فى المدينة قبل عشرين عاما كمواطنين مسالمين يؤدون واجباتهم اليومية .

ولكن نيرون أراد أن يجعلهم كبش الفداء من أجل هذا الحريق الهائل. ويقول التاريخ انه أحرق كثيرين منهم فى حدائق قصره ، وأن بولس و بطرس قد استشهدا فى هذه الفترة من التاريخ ، فى تلك المذابح الرهيبة التى حلّت بالمسيحيين. وتقول التقاليد ان المكان الذى استشهد فيه بطرس هو الآن موقع كاتدرائية القديس بطرس الكبرى ، مقر البابوية .

وفى تلك المدينة العاصمة ، واجه المسيحيون موقفا مغمورا باليأس الخانق ، فلقد قضى زعماؤها ، وارتعد أعضاؤها خشية مما قد يحدث فى المستقبل . ولم يعد الناس يسمعون رسالة المسيح على لسان بولس فى حجة واقتناع . وما عادوا يسمعون تأكيدات بطرس التى استند إلى وقائع تاريخية شهدها بعينيه .

وفى تلك الأزمة الخانقة راح مؤلف البشارة الأولى يؤدى أجلّ خدمة

للمسيحيّة . وذلك بأن يقدم المسيحيين فى رومية بيانا مكتوبا عن ربهم وسيدهم يستعيضون به عن صوت بطرس الذى غاب عنهم .

وتقول التقاليد ان مرقس هو كاتب البشارة الأولى ،والدلائل كلها تؤيد هذا التقليد . ولم يكن يوحنا مرقس (وهذا هو إسمه بالكامل) شخصية بارزة فى الأيام الأولى ، ولم يسهم إلا بنصيب ضئيل فى مستهل التاريخ المسيحى . واقترن إسمه بمن كان أكبر منه شأنا ، أولا برنابا، ثم بولس، وأخيرا بطرس. على أنه لم يكن فى الكنيسة الأولى شخص أقدر منه على متابعة الحوادث وفهم الوقائع .

وقد ذكر اسمه تسع مرات فى العهد الجديد ، ومن هذه التلميحات نقدر أن نرسم صورة عامة لسيرته . فان مريم كانت من سكان أورشليم ، وربما امتلكت داراً كبيرة ، صارت مقر اجتماع الرسل بعد القيامة ومركز دعوتهم . وربما تناول المسيح العشاء الأخير مع تلاميذه فى علّيّة فى تلك الدار . وذلك لأن بيان مرقس فى بشارته عن تدابير تلك الليلة جاء مفصلا منسقا ، كأنما يكتب عن حادثة وقعت فى داره وتمثلت أمام عينيه .

وفى بيانه عن القبض على يسوع فى بستان جثسيمانى ، يذكر كاتب البشارة حادثة غير ذات موضوع فى القصة كلها ، لا علاقة لها فى الواقع بالحوادث الجسام التى ترويها القصة :

«وتبعه شاب لابسا إزارا على عريه فأمسكه الشبان . فترك الإزار وهرب منهم عريانا» .

ويبدو لنا أن هذه قصة شاب أيقظه فى أثناء الليل إنسان يحمل له نبأ القبض على يسوع. وربما يكون هذا النذير قد جاء إلى البيت الذى كان يسكن فيه مرقس . وواضح أن الشاب عرف المكان الذى انطلق إليه يسوع بعد العشاء

لأنه أسرع على التو دون أن يرتد ى ملابسه الخارجية، وهرول إلى بستان جثسيماني،
وكانت الفرصة قد أفلتت منه ، وتمّ القبض على يسوع. فهل كان ذلك
الشاب يوحنا مرقس نفسه ؟! يذهب كثيرون من الشراح إلى أنه هو بعينه.
وبعد أن بدأ مرقس يكتب بشارته بعد سنوات أضاف هذه العبارة — التي
لا علاقة لها بموضوع الحدي ث — وذلك لأنها كانت الصلة الوحيدة التي
ربطته بقصة الإنجيل.

وكان مرقس من أبناء خؤ ولة برنابا. وفي سنة ٤٧ ب. م. رحل هو وبرنابا
برفقة بولس إلى قبرص في رحلة تبشيرية . وبعدئذ عاد مرقس وبرنابا إلى قبرص
في زيارة ثانية . وبعد ذلك نقرأ عن مرقس في آسيا الصغرى ، وفي رومية ، مع
بولس . ويتحدث عنه بولس بق وله « نافع لي للخدمة » . وأخيراً نشهده يعاون
بطرس في رومية ، وذلك لأن الر سول بطرس يقول عنه في رسالته الأولى
« مرقس ابني » . ومن ثمّ تتوافر لنا الأدلة الموثوق بها على أن مرقس قضى
خمسة وثلاثين عاماً يحمل راية الجهاد مع كبار الزعماء المسيحيين ، شريكا لهم
في حمل رسالة الإنجيل من أورشليم إلى ، عالم الأمم الوثنية .

ولدينا دليل قوي يثبت أن مرقس هو مؤلف أقدم بشائر الإنجيل ، قدمه
لنا بابياس أسقف هيرابوليس حوالي سنة ١٤٠ ب. م. وقد نقل بابياس بيانه
عن شيخ من شيوخ الكنيسة كان مع اصراً لمرقس . يقول بابياس :

« قال لي الشيخ ما يلي : كتب م رقس ، الذي صار مترجماً لبطرس ، كل
ما تذكره من أقوال ربنا وأعماله بدقة متناهية . ولكنه لم يكتبها في تسلسل
تاريخي ، وذلك لأنه هو نفسه لم يسمع ربنا ، ولم يكن من أتباعه المقربين.
ولكنه صار فيما بعد تابعاً لبطرس كما أ لفت . وكان بطرس يكيِّف أقواله وفق
الظروف، ليس كمن يروي سيرة منسقة منظمة . ولم يكن أمام مرقس إلا هدف
واحد : ألاّ يحذف شيئاً مما سمع على لسان بطرس ، وألاّ يضيف إليه شيئاً » .

ويلقي هذا الاقتباس المنقول عن الأ سقف بابياس أشعة من نور ، لا عل
قيام مرقس بكتابة البشارة فقط ، بل أيضاً على طريقة بطرس في التعليم ، وع

الطريقة التى تطورت بها مواد الإنجيل . ولم يكن بطرس أستاذاً فى التاريخ ، وما كان المسيحيون فى رومية يتلقون عنه برنامجاً دراسياً فى سيرة المسيح . إنما كانوا رجالاً ونساءً حاولوا أن يعيشوا حياة مسيحية فى عاصمة الامبراطورية الرومانية . وقد افتقروا إلى وقائع وحقائق تثبت إيمانهم فى المسيح ، وإلى أقواله لكى تكون هادياً فى مشاكل الحياة اليومية . وكان من عادة بطرس أن يستجيب إلى حاجاتهم ومطالبهم « وفق الظروف » . ونحن نعلم أن بطرس كان صياداً جليلياً . ولم يكن يتقن اللغة اليونانية ، ولا شك أنه تكلم بها فى لكنة آرامية ، بحيث كان لزاماً أن يترجمها مرقس للسامعين . وبعد أن مات بطرس، لم يكن هناك إنسان أكثر لياقة وكفاية من مرقس ليكتب كل ما علّم به بطرس . ويقول بابياس نقلاً عن تقاليد الكنيسة الأولى : « كان كتاب مرقس دقيقاً، وافياً، خلواً من كل باطل » .

وقراء بشارة مرقس كثيراً ما تسمَّعوا صدى بطرس وهو يتحدث فى عباراته المألوفة مثل :

« وخرج من هناك وجاء إلى وطنه وتبعه تلاميذه . ولما كان السبت ابتدأ يعلّم فى المجمع » .

« وفى الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع ».

« وجاءوا إلى ضيعة اسمها جثسيمانى فقال . . . »

والكاتب المدرَّب الحصيف يركز قصته حول شخصية واحدة، ولكننا نرى تنقلاً سريعاً من موضوع إلى آخر بين يسوع وتلاميذه . إنها إذا قيست بالأدب العالى تبدو غير فنية . وانظر مثلاً إلى عبارة مثل :

« وكانت حماة بطرس مضطجعة محمومة. فللوقت أخبروه عنها » .

لو أن كاتباً آخر كتب مثل هذه العبارات الركيكة ، لكان عرضة للنقد الفنى ، ولكننا نغتبط جداً أن نجد مرقس يرجِّع صدى النغم لأقوال بطرس وعباراته التى أطلقها على سجيتها أمام السامعين دون تكلف أو اصطناع :

« ذهبنا إلى كفر ناحوم . ودخل هو إلى المجمع » .

« لما رجعنا من بيت عنيا كان جائعاً » .

« جئنا إلى جثسيمانى فقال لنا ... » .

« كانت حماتى مريضة فأخبرناه عنها ... » .

كل هذه لمسات بطرس كأنه وقّع عليها بإمضائه فى بشارة مرقس ! ومن الأسلوب الذى كتب به مرقس ، ندرك تماماً انه لم يكن فى قدرته أن يبتكر هذه الأقوال ويصطنعها . وأسلوبه وعباراته أقوى دليل على صدق مصدره .

ولسنا نجد فى كتابات الإنجيل كلها قصة عن موت المسيح أروع وأبلغ من القصة التى رواها مرقس . فهو فى بساطته واقتصاده فى الكلام ينقل إلينا مأساة مروعة . وكان مرقس قد تأثر أيما تأثر بهذه الحادثة ، فعبّر عنها بألفاظ تسيل حشاشة القلب . على أنه لم يرد أن يطلق لقلمه العنان خشية أن يُخفى فى غمرة عواطفه المعنى العميق فى الصليب . وهو الوحيد الذى جرؤ على أن يكتب كلمات المسيح فى ساعات نزعه :

« الوى الوى لما شبقتنى » .

« إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى » .

ولم تكن مثل هذه العبارة مما يصح ابتكاره واصطناعه فى كتاب استهلّ بنغمة النصر والسموّ : « بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله » . ولكن مرقس كتب العبارة كما سمعها من بطرس ، وأضاف إلى القصة نغمة التآسى والحزن . وأثبت ناسوت يسوع .

وقد نقل كتّاب آخرون عن مرقس ، وهو فى الواقع نموذج للبشائر الأخرى . وفى استهلاله قال الكاتب « بدء إنجيل ... » والكلمة « إنجيل » صارت عنواناً للبشائر الثلاث الأخرى ولغيرها من البشائر غير القانونية . وقد تناول كل من متى ولوقا إنجيل مرقس . واعادوا كتابته لصنف آخر من القارئين . كما أن يوحنا أيضاً استعان ببعض عباراته .

بشارة لوقا

حمل المسيحيون الأولون دعوتهم إلى أصقاع العالم الغربى باللغةاليونانية ، وهم يجوبون خلال الطرقاتالرومانية على الأرض، وفوق السفائن عبر البحار، وكانت قوة المسيحية الدافقة هى العامل الأول فى نشر الدعوة واتساعها . على انه كانت ثمة عوامل أخرى هيأت الطريق إلى هذا الانتشار المريع .ذلك لأن فتوحات الاسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد كانت قد أخضعت الشعوب المغلوبة للحضارة اليونانية ، وأفلحت فى كسر الحواجز بين الجماعات القومية فى العهد القديم .. وفعلت اللغة والآداب والفلسفة اليونانية فعلها الذريع فى تحطيم الفواصل القائمة بين العناصر واللغات والاديان ، وجعلت العالم كله وحدة دولية قوية الروابط. وزالت النعرات القبلية والقومية فىعالم يتكلم اليونانية ويفكر بها . وغدا الفرد ذا قيمة على ممرح الحوداث ..

فى عالم كهذا جاءت المسيحية فى زمن كانت فيه قوى الوثنية تتهاوى متعبة مكدودة من فرط اليأس والإعياء . ونفخت المسيحية فى هذا العالمريحاً جديدة تحمل نسمات الفرح والانتصار، تعلن ايمانها ودعوتها لإنسان قال :« ثقوا أنا قد غلبت العالم ». وكنت تلقى فى ساحاتالأسواق العامة فى كل مدائن الامبراطورية الرومانية — مسيحيين غيورين يدعون إلى دينهم — وأقبل الى الكنائس الجديدة حشود منالمتنصرين، وكانت تلك الكنائس اشبه بحلقات مترابطة تجمع معا المراكز العظمى فى الامبراطورية مثل اورشليم وانطاكية ودمشق وافسس وفيلبى وأثينا وكورنثوس والاسكندرية ورومية . وفى أحيان كثيرة كان الدعاة المسيحيون يتوقفون خلال أسفارهم للاستراحة فى الفنادق على جوانب الطرق، وكانوا فى أحيان أخرى يركبون السفن، أو يسافرون كأسرى فىأيديهم السلاسل تحرسهم جنود رومينة . وفى مرار

كنت تراهم يقفون موقف الدفاع عن زملائهم امام المحاكم الرومانية .

كانت حركة دائبة : ثورات من الدهماء فى بعض المواقع ، وأعمال من العنف ضد المسيحيين، وزج فى السجون وإفلات منها، واضطهادات ثم استشهاد. ان المسيحية لم تشق طريقها وتنمو قوية مجاهدة ، وتسود المجتمع الانسانى فى عهدها الأول، إلا وهى فى نزاع مرير مع اليهود تارة ، ومع الوثنيين أخرى ، ومع الدولة أيضاً. ومع ذلك كنت ترى جماعات من اليهود ومن الموظفين الرومانيين يقبلون إلى دراسة هذا الدين الذى منح اتباعه وأنصاره إحساساً من الفرح والشجاعة والاستبسال لم يُعهد له نظير.

وكان بين الموظفين الرومانيين الذين استمالتهم المسيحية شخص يدعى « ثاوفيلس ». ولسنا نعرف بالضبط مَن كان هذا ، ولا أين كان موطنه . لم يُذكر شىء عن رتبته ومكانته ، ولكن لقَّبه البشير لوقا «أيها العزيز ثاوفيلس» (وفى بعض الترجمات « أيها العظيم المبجل ») . على أنه يتميز اليوم فى التاريخ ، لا برتبته ولا بوظيفته ، بل بإهداء انجيل لوقا وسفر الأعمال إلى اسمه الذى خلده التاريخ . وقد ورد سمه فى الآية الثالثة من الفصل الأول من انجيل لوقا ، وفى الآية الأولى من الفصل الأول من سفر الأعمال . ويبدو اسمه كحلقة تربط هذين السفرين معاً . فلولا اسم « ثاوفيلس »، ما كنا قد عرفنا أن هذين السفرين هما تاريخ واحد فى مجلدين عن نشأة وانتشار المسيحية. ويتحدث السفر الأول: «عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلِّم به ». وهو سجل أشبه بما ورد فى البشارتين الأولين . ولما قررت الكنيسة فيما بعد ادماج بشارة لوقا ضمن بشائر الأناجيل الأربع القانونية ، انفصلت عن سفر الأعمال بعد أن كان السفران قصة مسلسلة . وكان السفر الثانى استطراداً للتاريخ الذى بدأه الكاتب فى بشارته ، وانتقل به إلى ما فعله يسوع بروحه القدوس وما علّم

به . إن هذا السفر الثانى هو تاريخ المسيحية الأولى .

وكان ثاوفيلس وصحابته من المثقفين الذين أجادوا اليونانية ودرسوا الآداب الرومانية القديمة . وأحسبهم قد أسفوا أن يروا المسيحية لا تتحدث إلى العالم المثقف فى يومهم فى سفر تاريخى ، جزل الأسلوب ، رائع الفن ، صادق الرواية . وقد كان انجيل مرقس قوياً . ولكنه كان بدائياً لا تهضمه الثقافة اليونانية الرفيعة . وكان انجيل متى نافعاً للقراءة فى الكنيسة والتعليم ، ولكنه كتب مبدئياً للكنيسة . وقد افتقر العالم الناطق باليونانية إلى انجيل آخر يستميل إليه الطبقة المثقفة وعامة الشعب ، انجيل يثبت للناس أن المسيحية هى دين المحبة والأخوة والاشفاق والفرح ، وليست ديناً يتآمر على الدولة . ولإشباع هذه الحاجة الملحة كتب البشير لوقا انجيله .

واسم المؤلف لا يظهر فى أى من السفرين. ولكن منذ القرن الثانى نسب التقليد هذين السفرين إلى لوقا . ولم يكن لوقا نفسه أحد زعماء الكنيسة ، لأن إسمه اقترن دائماً بمن كان أعظم منه شأناً. ونراه فى سفر الاعمال يستخدم صيغة المتكلم «نحن» فى كثير من المناسبات، وخاصة فى الجزء الأخير من سفر الأعمال، وهو يصف الحوادث التى شاهدها بنفسه . وقد ذُكر اسمه ثلاث مرات فى العهد الجديد: مرة بلقب « الطبيب المحبوب »، وأطلق عليه بولس مرة أخرى «العامل معى»، والمرة الأخيره فى رسالة كتبها بولس من رومية : «لوقا وحده معى . خذ مرقس وأحضره معك لأنه نافع لى للخدمة» (٢ تيموثاوس ٤ : ١١) .

وكان لوقا طبيباً ، مما يدل على أنه كان مثقفاً ثقافة عالية . ونحن نعلم أن بولس كان يشكو من علّة جسمانية ، والأرجح أن لوقا انضم إلى البعثة التبشيرية كطبيب خاص الرسول ، وواضح أنه قام بأسفار عديدة ، ولعله كان أيضاً « سكرتيراً » لبولس يكتب له رسائله التى يمليها عليه ، ويدبر له

أسفاره واجتماعاته . و « منذ البدء » — على حد قوله فى استهلال بشارته ، توافرت له الفرص ليعرف الوقائع والمبادىء التى قامت عليها المسيحية ، ويرقب تطور الكنيسة بفكر الكاتب المثقف . وقد أحسن استخدام هذه الفرص المُتاحة له .

ولعلّه فى فيلبى بدأ يفكر فى كتابة مذكراته ويومياته ، وكان قد قدم إلى هــذه المدينة المكدونية مع بولس وسيلا وتيموثاوس حوالى سنة ٤٩ ب . م .

وكمؤرخ دقيق، ومراقب قوى الملاحظة، أدرك لوقا أهمية انتشار المسيحية فى أوربا ، ولعلَّ هــذا هو الذى دفعه إلى تدوين مشاهداته فى يوميات . ولم تكن « اليوميات » أمراً غريباً فى ذلك العصر ، فقبل مائة سنة من هــذا التاريخ ، روى لنا المؤرخون أن قيصر رومية كان يحتفظ بيومياته فى حملاته فى بلاد الغال (فرنســا) . وأغلب الظن أن القصــة التى جاءت فى الفصل السادس عشر (١٦ : ٩) من ســفر الأعمــال كانت أولى يوميات أسفاره .

وبعيد أن نتصور أن إنساناً يرافق الرسول بولس عشر أو اثنتى عشرة سنة فى رحلاته، ولا يدون مذكراته عن انتشار المسيحية فى أنحاء الامبراطورية الرومانية . على أن اهتمام لوقا لم يقتصر علىّ تلك اليوميات ، فربما يكون قد ابتاع وهو فى إنطاكية درجاً من أقوال يسوع التى جمعها الرسول متى ، والتى أشرنا إليها آنفاً .

ثم انه كان قد قضى السنوات من ٥٦ — ٥٨ ب . م فى ميناء قيصرية حيث كان بولس مسجوناً فى قلعتها انتظاراً للمحاكمة . وكان لوقا حــــــراً فى الذهاب والإياب ، ولا شك أنه قضى شطراً من الزمن فى جمع الوثائق

الجديدة والإصغاء إلى الأحاديث الشفوية . وكان فيلبس الشماس وبناته النبيات الأربع يسكنون فى قيصرية ، ولا شك أنه سمع منه ومنهن القصص المثيرة التى أعقبت الصلب ، ورجم استفانوس الشهيد الأول . وربما يكون قد وضع المسودة الأولى لإنجيله، وسفر الأعمال، أثناء إقامته فى هذه المدينة . وإن كان قد فعل ، فتلك كانت مسودة أولى فقط ، وذلك لأن لوقا أدمج فى بشارته أجزاء كثيرة من بشارة مرقس، ولم تكن هذه البشارة قد كتبت بعد .

ويذهب بعض العلماء إلى أن لوقا أكمل تاريخه فى السفرين حوالى سنة ٥ ب . م . قبل موت بولس ، وذلك لأن سفر الأعمال لم يذكر شيئاً عن استشهاد الرسول . ويذهب فريق آخر من العلماء إلى أن لوقا حذف عمداً حادثة الاستشهاد لغرض خطير لا نعرفه ، وإلى أنه أكمل سفريه حوالى سنة ٧٥ ب . م . وذلك لأن الإنجيل يذكر فعلا حادثة سقوط أورشليم . وكانت حوالى سنة ٧٠ ب . م . وهناك فئة أخرى من العلماء تعتقد أن البشارة كتبت حوالى سنة ٩٠ ب . م .

وإن صحّ أن أخلاق الإنسان تبدو واضحة فى كتاباته ، فإن لدينا أدلة متوافرة تلقى ضياء على شخصية لوقا . فقد كان أولا أديباً فناناً ، لأن كتابته تمتاز بتلك الطلاوة الحلوة والساحرية الجذابة ، وهى من أروع وأجمل ما كتب فى كتابنا المقدس . وتقول أسطورة قديمة ان لوقا كان فناناً وانه رسم صورة للعذراء المباركة . وفى هذه الأسطورة حق رمزى . فحتى لو لم يكن لوقا فناناً يرسم بالفرشاة والمادة الملونة ، فقد رسم لنا بألفاظه وعباراته صوراً ألهمت الفنانين مدى أجيال التاريخ .

وهل نقدر أن ننسى قصصه الرائعة عن الميلاد وعن زيارة المسيح إلى الهيكل . وهو وحده بين البشيرين الذى صور لنا أمثال السامرى الصالح ، والخروف الضال ، والابن الضال ، والغنىّ ولعازر .

ومثل البشارة سفر الأعمال ، فهو يحوى متحفاً من صور الرجال والنساء الذين وضعوا دعائم المسيحية . وعلى الرغم من صورهم المتفاوتة وشخصياتهم المتنافرة ، قد جمعهم لوقا الفنان فى إطار واحد وربطهم فى شركة الروح القدس وقوته . وبحذق بارع فى الفن الروائى ، يتحدث لوقا عن التصادم بين هذه الشخصيات . ويضع صورة بولس ومطارحاته مع اليهود فى ذرى القمة بين خلاّنه وزملائه. وفى الوقت عينه يزيح الستار ، فى مشهد آخر ، وفى عبارات موجزة ، عن المواقف الباسلة التى اعتصم بها المسيحيون الأولون . ويأخذنا الفنان البارع إلى مشاهد مختلفة — إلى الهياكل والمسارح ، والمحاكم والسجون ، والبيوت والقصور . ونعيش معه ، ونحن وقوف على أخماص أقدامنا ، وهو يشرح لنا هبوب زوبعة عاتية فوق لج البحر .

إن إنجيل لوقا وسفر الأعمال يمثلان قصة واحدة ، تسير بنا هوناً تارة ، وعلى عجل أخرى ، وفق خطة محكمة الوضع ، يُرفع الستار عن المشهد الأول فى أورشليم أمام ميلاد يوحنا المعمدان ، وينتهى المشهد الأخير فى دار اكتراها الرسول بولس فى رومية عاصمة الامبراطورية .

وقلما صوّر لنا الكاتبون سير التاريخ مجلواً نيِّراً كما فعل لوقا فى كتاباته. ولم يسبق من قبل أن صوّر كاتب الإنسانية فى أوضاعها المختلفة بألوان متلمّعة براقة .

البشائر الثلاث معاً

كانت العلاقة بين البشائر الثلاث الأولى موضوع دراسة وتحليل بين كثيرين من علماء الكتاب المقدس . وفي الفصول السابقة حاولنا تقديم تحليلا موجزاً لكل بشارة على حدة — متى ومرقس ولوقا . ويبقى علينا أن نُلقى نظرة إجمالية على هذه البشائر مجتمعة معاً . ويطلق على هذه البشائر كلمة أجنبية ، « Synoptic » وتتألف الكلمة من « Syn » ومعناها « معاً » و« optic » ومعناها «النظر» . والنظر إلى هذه البشائر معاً يلقى الضوء على بعض الوقائع المستغربة . وتتفق كلها في كثير من الروايات ، وأحياناً في الألفاظ ، مما يحمل إلى الذهن أن نقلا متبادلا قد تمّ بينها . وهنا تتصدى لنا مشكلة : إيها نقل عن الأخرى . وفي بعض المواضع نرى البشائر تقدم لنا بيانات مختلفة عن حادثة واحدة بعينها، أو تسهب إحدى البشائر في قصص أو أقوال تحذفها الأخريان. فهل يلقى هذا كله شيئاً من النور على كتّاب البشائر ، ومتى كتبت ، ولماذا كتبت ؟

قد شرحنا فيما سلف بعض هذه الأجوبة . وأفضل وسيلة لدراسة البشائر مجتمعة معاً هي وضع محتوياتها في أعمدة متوازية ، وتنسيق المواد والحوادث مقابل بعضها البعض . وقد قام العلماء فعلا بهذه المهمة الشاقة في مؤلفات أسموها «اتفاق البشائر » . وهنا نورد مثالا نموذجياً فقط :

متى ١٩ : : ١٣ ـ ١٥	مرقس ١٠ : ١٣ ـ ١٦	لوقا ١٨ : ١٥ ـ ١٧
حينئذ قدِّم له أولاد لكى يضع يديه عليهم ويصلِّى . فانتهرهم التلاميذ . أما يسوع فقال دعوا الأولاد يأتون إلىَّ لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات . فوضع يديه عليهم ومضى من هناك .	وقدموا إليه أولاداً لكى يلمسهم . وأما التلاميذ فانتهروا الذين قدموهم . فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ . وقال لهم دعوا الأولاد يأتون إلىَّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحق أقول لكم مَن لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله . فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم .	فقدموا إليه الأطفال أيضاً ليعلِّمهم . فلما رآهم التلاميذ انتهروهم . أما يسوع فدعاهم وقال دعوا الأولاد يأتون إلىَّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله .

وحين نحصى الآيات فى البشائر الثلاث نرانا أمام توافق واسع النطاق . فبشارة مرقس تحوى ٦٦١ آية ، يكرر منها متى أو ينقل المعنى فى ٦٠٠ آية منها . وأما لوقا فيأخذ فقط ٣٥٠ آية من مرقس ، ولكن بعضها يختلف عن آيات متى . والواقع أن هناك ٣١ آية فقط فى مرقس لم ترد إطلاقاً لفظاً أو معنى فى بشارتى متى ولوقا ، مما يدل على أن بشارة مرقس هى أقدم البشائر وهى التى نقل عنها كلٌّ من متى ولوقا .

ومما يسند هذه النظرية ترتيب الحوادث فى البشائر الثلاث . وذلك لأن

متى نسق مواده المنقولة كما جاءت فى بشارة مرقس . وفى بعض الحالات القليلة التى أعاد فيها متى تنسيق الحوادث ، نرى لوقا يحتفظ بهذا التنسيق الجديد . وحين اتبع لوقا طريقته الخاصة فى التنسيق والتنظيم ، نرى متى يحتفظ بالتنسيق الذى أخذه عن مرقس . وبيّن أن متى ولوقا لم ينقل أحدهما عن الآخر . ولا شك أنهما استقيا المواد والتنسيق من مرقس . وهذا دليل آخر على أن بشارة مرقس هى أقدم البشائر ، وأنها البيان الأصيل الذى استندت إليه الوثائق الأخرى فيما بعد .

ثم نرى يوحنا أيضاً ينقل عن مرقس بعض مواده ، بل أن « بشارة بطرس » (وهى إنجيل غير قانونى لم يدمج فى الاسفار القانونية) نقل أيضاً عن مرقس . إذاً تكون بشارة مرقس هى الصخرة التى بُنيت عليها شهادة الأجيال .

وحتى الطريقة التى بدّل فيها متى ولوقا ترتيب الحوادث وتكييفها ، تدل على أسبقية بشارة مرقس. وهنا لا ندحة لنا عن القول ان كلاً من متى ولوقا لم يكن مقلّداً مستعبداً للنصوص فى النقل ، فقد كان لكل منهما أسلوبه الخاص فى الكتابة ، وهدف خاص يرمى إليه ، وقراء معينون يتوخى ابلاغهم الرسالة . فقد كتب الإثنان فى زمن كان قد أصبح فيه يسوع الناصرى موضوع إيمان المسيحية ومركز عبادتها . لهذا رسم الاثنان صورة للمسيح الإله ، ولهذا حاولا بكل تدقيق وعناية أن « يلطّفا » قصص مرقس التى رواها شهود العيان ، والتى نقلت إلى الملأ انطباعات خصيبة حلوة عن إنسانية المسيح وناسوته . ففى بشارة مرقس مثلاً نرى يسوع يدهش ، أو يكتئب ، أو يغضب ، أو يحزن . ولكن متى ولوقا يهملان هذه التفاصيل عادة .

وفى المشهد الذى ذكرناه من قبل عن الأطفال الصغار ، نرى متى يحذف

عبارة مرقس: « فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ ». ولعله أحس أن هذا « الغيظ » لا يليق بالمسيح الإله . ثم أن مرقس يقول « فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم » ، ولكن متى يحذف هذه اللمسة الإنسانية ، ويذكر فقط اللمسة الإلهية « وضع يديه عليهم » ، التى تستعملها الكنيسة حتى اليوم دلالة على حلول الروح القدس على الأطفال والأحداث ورجال الدين عند المعمودية أو التثبيت أو الرسامة . وكذلك نرى لوقا يحذو حذو متى فى حذف عبارة الغيظ واحتضان الأطفال .

هذا واحد من الأمثلة الكثيرة التى تثبت الرأى القائل إن بشارة مرقس هى أسبق بشائر الإنجيل ، وإنها سجل صادق لروايات شهود عيان عاصروا المسيح وسمعوا أقواله ورأوا أفعاله . أما متى ولوقا فقد كتبتا فى تاريخ متأخر كانت قد تبلورت فيه بعض العقائد المسيحية .

وفى هذا البحث الشيق ناحية أخرى جدير بنا الا نغفلها. فبشارة مرقس اقصر البشائر ، وقد كتب متى ولوقا مواد لم ترد فى مرقس ، فمن أى المصادر استقيا هذه المعلومات ؟ لدى مقارنة البشارتين نجد حوالى مئتى آية متشابهة وأكثرها من أقوال يسوع . وما من شك أنه كانت هناك مجموعة شفوية أو مكتوبة لأقوال يسوع المعلم الأكبر. وحسب العرف الذى ساد ذلك العصر ، ربما جمع تلاميذ المسيح هذه الأقوال واستظهروها ورددوها ، وهم يجوبون طرقات الجليل واليهودية. ولسنا نعرف متى كتبت هذه المجموعة الشفوية، ولكن بابياس يقول : وضع متى هذه الأقوال فى اللغة العبرية ، وترجمها عنه المترجمون إلى اللغات الأخرى . ولاشك أن هذه كانت المصادر التى أخذ عنها متى ولوقا ، وهى تعلل هذا التشابه بين المئتى آية .

وقد أطلق العلماء حديثاً (كما قلنا من قبل) « الحرف Q » على هذا المصدر

المشترك الذى أخذ عنه كلٌّ من متى ولوقا ، وهى اختصار للكلمة الألمانية « Quelle » ومعناها «مصدر» ، على أن هذه الوثيقة التاريخية قد عبثت بها يد الزمن، ولم يعثر لها على أثر حتى الآن . وقد قيل ان الوثيقة « Q » كانت معروفة فى رومية وان مرقس نقل عنها بعض الأقوال . ولعلَّ مرقس كتب بشارته لتكون « تكملة » لهذه الأقوال التى كانت معروفة فى يومه . ويبدو لنا أن بولس قد عرف على الأقل بعض هذه الأقوال (١ كورنثوس ٧ : ١٠ و ٩ : ١٤) .

وحسبنا الآن ماذكرنا فى هذا العدد ، ولعلَّ كشوف الماديات وبحوث العلماء تلقى ضوءاً أكثر لمعاناً فى مستقبل الأجيال على هذه الوقائع . وكلما توسعنا فى دراسة بشائر الإنجيل ، نرانا أمام مدونات صادقة عن مؤسس المسيحية .

وحتى الآن لم نقل شيئاً عن البشارة الرابعة — إنجيل يوحنا — وحين نقارن هذه البشارة بالثلاث الأخريات ، نراها فريدة من طراز وحدها . وفى كتب « اتفاق البشائر » قلما تجد عموداً رابعاً لنصوص يوحنا موازياً للآخرين. ومثل الآخرين يتتبع يوحنا حياة يسوع، ولكن بطريقة أصيلة أصلية، فهو لم ينقل عن بيان مكتوب ، ولكنه أبدع سيرة جديدة للمسيح ، أخرجتها عبقرية روحية لفنان عظيم . وهنا نسأل : مَن الذى كتب هذه البشارة ، ومتى ، ولماذا ، ولمن ؟

بشارة يوحنا

الرسول الذى ترجم المسيح للعالم اليونانى

فى ولاية آسيا الرومانية لم تكن ثمة مدينة أهم من أفسس . على أنه لم يبقَ منها اليوم غير خرائب جرداء ، وقد زال عنها مجدها الغابر . أما أعظم آثارها وبقايا تاريخها فما يزال ملكا للإنسانية — ألا وهو بشارة يوحنا .

وكان بطرس وبولس ويوحنا الثلاثة الكبار فى الكنيسة الأولى . وقد كان لشجاعة بطرس وحماسه القدح المعلّى فى تضامّ الجماعة المسيحية الصغيرة فى بدء نشأتها لتكون كنيسة. وكان لبولس الفضل الأكبر فى حمل الرسالة المسيحية فيما وراء العالم اليهودى إلى العالم الرومانى اليونانى . أما يوحنا فقد أوغل إلى أعماق المدركات الروحية ، وزود الكنيسة بأعمق تأويل لحياة المسيح و. سالته فى بشارته ورسائله الثلاث .

ويذهب قوم من الشرّاح إلى ان يوحنا هذا كان احد زعماء الكنيسة فى افسس . على ان غالبية الشراح يذهبون إلى ان يوحنا هذا هو بعينه التلميذ الذى أحبّه يسوع، والرسول الذى عمّر طويلا، فأخرج للعالم المسيحى إنجيله ورسائله ورؤياه .

وهناك أدلة داخلية تثبت هذا الرأى، مثل أسلوب الكاتب وإلمامه بالآراء والعادات والأعياد اليهودية ، ومعرفته التامة بالمواقع المختلفة فى فلسطين ، وتدقيقه وإسهابه فى الحوادث التى رواها كشاهد عيان ، واختباراته الروحية العميقة التى توافرت له من الحياة التى عاشها مع المسيح .

كما أن هناك أدلة خارجية قدّمها لنا آباء الكنيسة الأولون مثل بوليكاربوس وبابياس ويوستينوس وغيرهم .

أما تاريخ كتابة البشارة، فيذهب الشراح إلى أنها كتبت فى أواخر القرن الأول الميلادى بعد خراب أورشليم ، وبعد تغلغل الفلسفة اليونانية إلى أذهان طائفة ممن اعتنقوا المسيحية . وبعد سقوط أورشليم وانهيار ذلك الصرح الزمنى الذى كان موئل رجاء القوم ، وبعد انتشار الفلسفة اليونانية ، كان لزاماً على الكنيسة — أو أحد زعمائها — أن يكتب بشارة تصور ملكوت الله الروحى ، وتظهر حقائق الحياة الروحية التى تتسامى فوق كل فلسفة دنيوية .

وقد تركز فكر يوحنا وقلبه فى ربّه وسيده، وكان قد خبره وعرفه سنوات

فى حياته على الأرض وبعد صعوده إلى السماء. وأدرك البشير أن هذا الاختبار الذى نعم به يمكن أن يكون تحت إمرة كل إنسان. لذلك قال عن هدف بشارته .

« . . . لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ، ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه » (يوحنا ٢٠ : ٣١)

أجل ، استهدف يوحنا أن يخلق الاختبار المسيحى فى قلوب قارئيه . وكان مرقس قد قدّم للقراء وقائع السيرة ، فأراد يوحنا أن يشرح مضامينها الروحية. وقد رسم لنا صورة للمسيح ، واختار من أحداث الثلاثين سنة التى عاشها المسيح على الأرض حوادث عشرين يوماً فقط ،وخصص لها بشارته كلها . وقد استهل بشارته بعبارة رددت صدى استهلال سفر التكوين ،وأرانا المسيح قبل خلق العالم. وكانت تلك الصورة الأزلية السماوية الحقيقة المتلمّعة فى القصة كلها . وقد انتقى يوحنا لقصته حوادث معينة مثل تحويل الماء إلى خمر ، وزيارة نيقوديموس، والمرأة عند البئر ، وإشباع الخمسة الآف — لا لمجرد سرد الوقائع ، بل لتقديم المسيح ذاته . وقد عرف البشير أنه من اليسير على الناس أن يتغافلوا عن المعنى العميق فى قصة مرقس التى تسرد الحوادث المجردة، فآلى على نفسه أن يُدخل فى نسيج الوقائع المجردة خيوطاً ملونة براقة من الحوار والتعليق . وقد احترم يوحنا الوقائع والبيانات ، وبدأ بها ، ولكنه صورها بريشة الإيمان . وكان يسوع التاريخى فى نظره مسيح إيمانه . تلك كانت لحمة وسداة بشارته المليئة بخصيب المعانى .

والمرة تلو الأخرى نراه يستخدم ألفاظ رسائله وعظاته نقاطاً مشعة فى بشارته . فهو الذى كتب عن المحبة،والنور ، والحق ، والمعرفة ، واليقين . ومن محاجر اللغة اليونانية صاغ بازميله عبارات جديدة : « النور الذى يضىء كل إنسان» — « بيت الآب» — « الحياة الأبدية». وكشاعر وفيلسوف ولاهوتى أضفى على

هذه الألفاظ والعبارات معانى عميقة لتنقل إيمانه للناس . هو الذى نحت لنا صور المسيح الرائعة التى نعرفه بها اليوم . هو الذى وصفه لنا « كلمة الله » و « خبز الحياة » و « ماء الحياة » و « نور العالم »و « الراعى الصالح ».

ويسمو انجيل يوحنا إلى ذروته السامقة فى الفصول ١٤ — ١٧ التى تشتمل على الأحاديث الطلية الجبارة التى يخيَّل لنا فيها أن المسيح يتحدث إلينا ، ويضمُّنا إلى قلبه فى صلواته :

« ولست اسأل من أجل هؤلاء فقط ، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بى بكلامهم » (يوحنا ١٧ : ٢) :

وقد تكون هذه أحبّ الفصول إلينا فى كتابنا المقدس ، ولسنا نجد فى الأدب المسيحى صفحات أروع فى معناها ، وأعمق فى خشوعها ورهبتها من هذه الفصول .

وإنا لواجدون قلب الإنجيل ، بل قلب الكتاب المقدس ، فى الأصحاح الثالث ، فى عبارة سطرها البشير بالهام لروح القدس :

« هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا ٣ : ١٦) .

وهب أننا سئلنا اليوم أى البشائر نرغب فى الإحتفاظ بها إذا قدِّر لنا أن نحتفظ بواحدة فقط، فماذا يكون جوابنا. ان الاختيار يكون عسيراً بلاشك، وهو مرهون بالظروف التى نوجد فيها — فإن كنا نعيش وسط قوم ينكرون حقيقة يسوع التاريخية ، فإننا نؤثر مرقس على غيرها . وإن أردنا أن نعلّم الناس فقد نختار متى . وإن كنا من عشاق الأدب الرفيع فقد نُبقى على لوقا . أما إذا حكم علينا أن نعيش فى عزلة ، فى جزيرة نائية قاحلة، فإننا نأخذ معنا بشارة يوحنا .

سفر أعمال الرسل

يكاد يكون الاجماع معقوداً على أن لوقا هو كاتب سفر الأعمال ، وأنه كتب فى رومية فى مدة سجن بولس الأولى . وهذا يعلل لنا لماذا يختم عند نهاية مدة السجن ،ولماذا يسهب الكاتب فى بعض الحوادث ، ويمرُّ مر الكرام على البعض الآخر . ونحن نعلم من كولوسى ١ : ١ و٤ : ٧و١٠ و١٤ ومن فليمون ١ و٢٣ و٢٤ انه كان مع بولس في تلك الفترة تيموثاوس ولوقا وتيخيكس وديماس وابفراس ومرقس وارسترخس .

وقبل نهاية مدة السجن انطلق تيخيكس إلى كولوسى وربما تبعه مرقس، ايضاً . وذهب ابفراس إلى فيلبي . ومما نعهده فى اخلاق بولس ، نفهم لماذا روى بعض الحوادث دون الأخرى. فكان طبيعياً لرجل فى مزاجه وأخلاقه ان يسهب فى الإدلاء بمعلوماته عن موت استفانوس ، وعن اهتدائه الذى هو أصل دعوته وخدمته، وعن فشله فى محاجّة فلاسفة اليونان . كما كان من اخلاقه ان يصمت عند المخاطرات الكثيرة (٢ كور ١١ : ٢٣ ـ ٢٧) التى ظهر فيها فى دور البطل أو الممثل الأول .وهو يشير اليها فقط فى ٢ كور نثوس ص ١١ لأنه أرغم على ذلك إرغاما، ليدفع هجمات المتهجمين على سلطانه ومصدر دعوته . ونحن مدينون فى إثبات هذه المخاطرات إلى الشهود الذين عاينوها.فتيموثاوس هو الذى روى المشهد المثير فى لسترة يوم حسب القوم بولس إلهاً ، وبعد ذلك رجموه بالحجارة . وارسترخس هو الذى روى قصة الفتنة فى أفسس ، ولوقا روى وصف الحوادث التى جرت فى فيلبي ، وتفاصيل رحلات البحر، وانكسار السفينة . ومما لاشك فيه أننا مدينون لمرقس فى تدوين كثير من الحوادث الأولى ، ولو أننا نعتقد ان وثيقة مكتوبة ، ربما بالآرامية ، كانت المصدر الذى أُستقيت منه تلك الروايات الأولى . ولما كنا نعلم أن بولس ولوقا ومرقس وارسترخس وتيموثاوس قد جمعهم يوما ما صعيد واحد ، فإننا نرجح كثيراً

أن تلك كانت الفرصة التى جُمعت فيها مواد سفر الأعمال .

وهنا أودُّ ان أحيد قليلا عن الطريقة المألوفة التى جريت عليها فى تصنيف هذا الكتاب ، وألجا الى الاسلوب الروائى فى إثبات وقائع التاريخ فى قالب أحاديث بين الأطراف المعنية .

وإلى القراء حديثاً خيالياً يشرح كيف كتب سفر الأعمال ، والمصادر التى استقى منها الكاتب لوقا مادته فى كتابة سفره ، ومحتويات الكتاب الأساسية . وقد سبق ادماجه فى مقدمة « تفسير سفر الأعمال » الذى صدر عن هذه الدار منذ سنوات :

المشهد : الدار التى اكتراها بولس فى رومية حوالى سنة ٦٠ ـ ٦٢ ب .م.

الأشخاص : بولس . ارسترخس . مرقس . لوقا . ديماس

ديماس : هل يجىء الرب ثانية بعد كل هذا ؟ كان المفروض أن يتمّ هذا المجىء منذ زمن طويل .

ارسترخس : لنثابر فى العمل ، حتى متى جاء نكون وكلاء أمناء أهلاً للقائه .

مرقس : ألا تذكر الكلمات التى نطق بها ، ودونتها فى كتابى ، انه يجب أولا أن تنشر رسالة الإنجيل فى كل الأمم والشعوب .

ديماس : ألم يُذع النبأ بعد فى كل الأمم ؟ ها نحن قد جئنا إلى رومية هذه ، بابل الغرب ، وانطلق توما شرقاً إلى بابل القديمة ، بل ربما الى أبعد منها ، ولم يبلغنا بعد شىء عن أعماله . ومع هذا كله فما يزال الرب متباطئاً فى مجيئه .

بولس : بقيت أسبانيا[1] . فإذا أطلق سراحى من هذا السجن، سأنطلق الى هناك لحمل الرسالة الى أقصى تخوم الغرب . ولعله يجىء بعد ذلك . وقد قال هو نفسه ان أحداً لا يعرف ذلك اليوم، ولا تلك الساعة غير الآب ، كما كتبت أنت يامرقس . ومايزال أمامنا عمل كثير لا يعرف أحد مداه (يخرج ديماس)

ارسترخس : ان السيرة التى كتبتها انت يامرقس ، وأنت يالوقا ، من المؤلفات الرائعة التى امتد أثرها الى أبعد مما نتصور . فحتى اليونان يقرأون البشارتين ، ويرغبون فى المزيد من المعرفة والعلم . أفلا يستطيع أحد الآن أن يكتب كتابا آخر يروى عجائب الأعمال التى يصنعها يسوع الآن ، وكيف يختار لنفسه شعباً مختاراً من كل أمة تحت السماء ؟ ألا يمكنك أنت يامرقس أن تصنف هذا الكتاب ؟

مرقس : لست كاتباً . وأنت تعلم أنى كتبت سيرة السيد ، ودونت فيها كلّ ماتعلمته من أقواله وأفعاله ، والأخوة يقرأونها لأنهم يحبون الربّ ولكن الخوارج لا يقرأونها لأنهم يحسبونها أسلوباً يونانياً بربرياً. أما لوقا فقد امتلك ناصية لغة ديموستينس وأفلاطون . فليكن هو المؤرخ الذى يسجل أعمال الروح القدس.

بولس: نعم .ليقم لوقا بهذا العمل. إنما احذر يابنىَّ . ليكن أسلوبك سهلا ، خالياً من التراكيب اليونانية الفصحى . وانك لتذكر كيف حاولت أن أواجه فلاسفة أثينا بلغتهم وأساليبهم ، فما وعوا ولا ارعووا . وليس المدعوون من أرباب الحكمة الإنسانية بكثيرين ، لأن أنجيلنا للبسطاء . اكتبه بلغة سهلة وأسلوب بسيط ، كما كتبت سيرة يسوع

---

(١) رومية ١٥ : ٢٨ .

لـكى يفهمه كل الذين يقرأون اللغة اليونانية الدارجة ، وان وجـد فلاسفة يفكرون بفكر المسيح لايستنكفون قراءته .

لوقا : وكيف استقى المعلومات ؟ لما كتبت سيرة يسوع ، كان بين يدىّ السيرة الأولى التى كتبها الأخ مرقس ، والسيرة الأخرى التى تعرفهـا . واستقيت قصة أيام الناصرة الأولى من المعلومات التى رواها لى بنات فيلبس القديسات التى سمـعنها من الأم المباركة . أما عن هذه الأيام الأخيرة فلم يكتب شىء اطلاقا . وليس بين يدىّ إلا مذكرات رحلاتى . ولـكم وددت أن يكون بطرس هنا فى روميـة ليروى لى قصة الأيام الأولى فى أورشليم!

مرقس : إنى أذكر أشياء كثيرة رواها لى بطرس عن تلك الأيام . وإليك بعض مذكرات كتبها بلغة غشيمة تلميذ متقدم ، بلغتنا اليهودية التى يسمونها الآرامية ، وهذه أقدر أن أترجمها لك .

لوقا : ألا يحسن أن نتريث حتى نستجمع معلومات أوفى ؟ فقد يجىء أحدهم بعد قليل وينبئنا عن تقدم الإنجيل فى الاسكندرية . وقد يعود إلينا توما بعد سنوات ونستوثق من الشائعات التى تقول انه رحَل إلى بلاد الهند البعيدة ، ذلك الطرف الشرقىّ من العالم ، الذى جلبوا منه عاج سليمان وطواويسه .

بولس : لا . فإن الوقت لايسمح بالتأجيل . وها نحن كلنا معاً : مرقس وأنا وأنت . وعما قليل سـتفـرِّق بيننا البحار العظيمة أو مجرى الموت الضيق . فلنعمل ما دام العمل ممكناً . وليس فى الإمكان كتابة تاريخ كامل . ولقد صدق الأخ يوحنا حين قال ، يوم ألححنا عليه لوضع تاريخ شامل لأعمـال ربنا فى فلسطين وحدها ، إن مكاتب أثينا

والاسكندرية ، بل العالم كله ، لن تسع الكتب التى تستوعب هذه الأعمال . أما السفر الذى نتوخاه فهو سجل لبعض عظائم الله ، لكى يعلم العالم كله أن يسوع المسيح الذى قام وصعد إلى السماء معنا ، وأن موعد الروح المرتقب قد أكمل .

(يدخل ثاوفيلس ، وهو فارس رومانى)

ثاوفيلس : السلام لكم !

بولس : ولك السلام !

ثاوفيلس : أأنت بولس المعلم اليهودى ؟

بولس : أنا يهودى ما زلت ، ولكننى الآن أكثر من يهودى . أنا لليهود يهودى ، ولليونان يونانى ، وللرومان رومانى ، ولكل الناس أخ ، وفوق كل هذا أنا عبد الله ، ولربنا يسوع المسيح . نعم ، أنا بولس . ومن أنت ؟ وما شأن فارس رومانى ان يجىء لزيارة سجين رهن المحاكمة ؟

ثاوفيلس : اسمى ثاوفيلس ، ومعناه حبيب الله ، وان يكن الأصح أن أقول حبيب الآلهة ، إلى عهد قريب . لأنى الآن فقط بدأت أعرف شيئاً عن الإله الحق . سمعت عنك لأول مرة عن طريق سينكا الفيلسوف الرواقى[1] — الذى وقفت أنت أمام أخيه غاليون — فى كورنثوس ، والذى حكم ببرائتك من التهم التى أقامها عليك اليهود بنوجلدتك . وقد سمعت خلال هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة عن تعليمك وعمن

---

(١) كتب سينكا لإحدى رسائله إلى ثاوفيلس . ويقال من قبيل الحدس والتخمين أن ثاوفيلس هذا هو بعينه المذكور فى سفر الأعمال .

تسمونه « المسيح » الذى تنادى به ـ من عبدى ، وهو غلام يهودى .
وقد عرفت عن أحوالك وعن محنتك الحاضرة . فحدثنى عن نفسك
وعن تعليمك .

بولس : أما عن نفسى فليس لدىَّ إلاَّ القليل ، لأن محا كمتى كادت تنتهى ،
وغدا إطلاق سراحى وشيكا . أما دينونة العالم فآتية لا ريب ،
لأن الله قد عيّن يوماً فيه يدين العالم بالبرِّ بمن رسمه لذلك ،
يسوع المسيح .

لوقا : أيها العظيم ثاوفيلس : لقد هيأ لى الله أن أكتب فى كلمات قليلة سيرة
حياة ربنا يسوع المسيح ، وهاك نسخة جديدة مخطوطة على الرق
بخط جميل . فإذا ارتضيت أن تقبلها ، أمكنك أن تعرف صحة الكلام
الذى علِّمت به .

ثاوفيلس : إنى لا أقبل الهدية مغتبطاً وحسب ، بل سآمر كاتبى أن يكتب
اثنتى عشرة نسخة من هذا الكتاب ، لكى يتعلَّم الآخرون
هذه الأمور .

لوقا : ويجول بخاطرى أن أكتب سفراً آخر أروى فيه بعض الأعمال
العجيبة التى يجريها الآن روح المسيح ، مذ ارتفع من وسطنا .

ثاوفيلس : وهذا أيضاً أرجو أن تعطينى إياه لكى آمر بكتابة صور منه .
لأن هذا التعليم الجديد يمسُّ قلبى حقاً أكثر من فلسفاتنا ، ويتحدث
عن أسرار أعجب وأروع من الأديان والعبادات الشرقية التى وفدت
إلينا. لاأستطيع البقاء طويلا الآن . الوداع !

لوقا : الوداع أيها العظيم ثاوفيلس؟

بولس : نعمة ربنا يسوع المسيح معك ، يابنىَّ .

مرقس : غنىٌّ سيدخل ملكوت السموات ! حقاً قد أرسله الرب لكى تُستخدم ثروته لامتداد رسالة الإنجيل .

لوقا : والآن هيّا للعمل! لنجمع فى غير وناء الخيوط التى يُحاك منها الثوب. ويجب أن أبدأ أولا بصعود الرب ، ولقد ألمحت إليه تلميحاً فى كتابى الأول ، ولكن ههنا يجب أن أبين بإيضاح أن ذلك اليوم كان آخر العهد فى ظهور ربنا .

بولس : نعم ، آخر العهد فى ظهوره بالجسد ، على أنه لم يكن الظهور الأخير ، لأنى أنا قد رأيته حقاً ، ويراه اليوم كثيرون بأعين الإيمان .

مرقس : وأنت تذكر قوله إنه سيعود فى سحاب السماء . وهو قد انطلق فوق متن السحاب ، وروى لى بطرس أن الملائكة وقفت حوله عند صعوده وأنبأت بعودته فوق السحاب .

لوقا : كم كان عدد التلاميذ فى تلك الأيام ؟

بولس : كان على رأسهم الأحد عشر ، وأخوة الرب الذين آمنوا به حينما رأوه على الصليب (كما روى يعقوب) .

لوقا : أنا أعلم أن الأم المباركة والنسوة الأخريات كنّ فى زمرة التلاميذ . ولكن كم كان عدد التلاميذ جملة واحدة .

بولس : ليس من الهين معرفة هذا ، فإن أحداً لم يكن يعلم مَن كان أتباعه . ولقد ظهر لأكثر من خمسمائة مرة واحدة[1] . ولكن العليّة التى كانوا يجتمعون فيها — وقد رأيتها بعينى رأسى — لم تكن تسع أكثر من ستين .

---

(١) ١ كور ١٥ : ٦

لوقا : وما الذى حدث ليهوذا الأسخريوطى؟

مرقس : قال بعضهم إنه شنق نفسه مسوقاً إلى ذلك بتأنيب الضمير . ولكن هذا الكتيّب المكتوب باللغة الآرامية يقول إنه اشترى حقلاً بالثلاثين قطعة من الفضة ، وان زيارته الأولى لهذا الحقل الذى اشتراه بمال السوء كانت شؤماً عليه ، أشبه بزيارة آخاب لحقل نابوت اليزرعيلى ، ذلك أنه سقط على صخرة وتهشمت أضلاعه ومات . ويوصف هذا الحقل بأنه « حقل دم » . والذى أعرفه عن يقين هو ماقاله لى بطرس من أن الروح القدس اختار متياس ليشغل مكان يهوذا .

استرخس : الروح القدس ! هذا حق ، فلقد شهدت كل شىء بعينى ، ولم أكن قد آمنت بعد فى تلك السنة التى قمت فيها بالحج إلى أورشليم[١] كنت واقفاً فى الطريق الغاصّ بالناس ، وإذا بالتلاميذ يخرجون مهرولين من دارهم . وفى حياتى ما شهدت قوماً أدركهم مثل هذا الحماس . سمعتهم يصيحون « روح الرب قد جاء بنار وعاصفة كما فى القديم » . ثم تدفقت من أفواههم سيول من الألفاظ ، ولم أعرف ماذاكانوا يقولونه ، ولا بأية لغة كانوا يتكلمون، لأنى أعرف اليونانية فقط وبعض الآرامية . ولكن كان هناك فى الحشد فرجيون وبابليون وبشر من كل صنوف الناس ، ورأيت كثيرين يتهللون غبطة وهياماً ، كأنهم يفهمون ما كانوا يسمعون ، ولابدّ أن الكلام كان بلغتهم . وظن بعضنا أنهم ثملون ، وهذا ما ظننته أنا نفسى . ولكن حين أذكر كيف دب الحماس فى قلوب الجمع الحاشد ، أجزم الآن أنهم كانوا

(١) ليس هناك دليل تاريخى يثبت هذا ، ولكن المرجح أن لوقا سمع القصة من كثيرين من الثقات .

يسبحون الله بكل لغات العالم . ثم وقف بطرس وألقى خطاباً بالآرامية ، بنبرات جليلية قوية بحيث لم أستطع أنا فهم كلامه كله . وقد سطع على وجهه نور لامع وهاج ، ووددت لو فهمت كل ما قاله . على أننى فهمت أنه أذاع نبأ قيامة المسيح من الأموات ، وأن الروح القدس قد جاء كما سبق وأنبأ النبي يوئيل . وبعد أن فرغ من كلامه تعمَّد الجمع من هنا ومن هناك . أما أنا فما كنت اقتنعت بعد ، ولم أسمع شيئاً بعد ذلك عن الإنجيل إلى أن قدم بولس إلى تسالونيكى .

لوقا : قد روى لى مناسون القبرسى[1] القصة التى رويتها انت الآن . وقد كان هناك فى ذلك اليوم ، وكان بين الذين تعمدوا ، وقدَّر الذين تعمدوا يومئذ بنحو ثلاثة آلاف .

بولس : اندرونكوس ويونياس[2] كانا هناك أيضاً ، وتعمدا بعد ذلك بأسابيع قلال .

لوقا : سمعت من كثيرين عن تلك الأيام الأولى . وقالوا إن المدهش لم يكن فى عدد المتنصرين بقدر ما كان فى ألفتهم ووحدتهم . فقبل أيام كانوا يهوداً فى بلدان كثيرة وطوائف مختلفة يتشاحنون فيما بينهم ، أما الآن فقد جمعت بينهم ألفة عجيبة ، وتبعوا كلهم تعليم الرسل ، فكانوا بنفس واحدة فى الصلوات اليومية ، وكانوا يجتمعون فى اليوم الأول من كل أسبوع حيثما استطاعوا للعبادة وكسر الخبز . وامتدت شركتهم فترة من الزمن إلى أموالهم ومقتنياتهم ، فكانت كل مواردهم مشتركة ينتفع بها الكل .

---

(١) وصفه سفر الأعمال ٢١ : ١٦ كتلميذ قديم

(٢) يقول عنهما بولس فى رومية ١٦ : ٧ إنهما كانا قبلى فى المسيح .

مرقس : هذا حق ، فإن ابن عمى برنابا باع كل أملاكه ، ووضع الناتج منها تحت تصرف التلاميذ . ولكن قيل بعد ذلك ان واحداً أو اثنين من التلاميذ تظاهرا بهذا التصرف ، وعمداً إلى الخديعة والغش ، فحلَّ بهما قصاص رهيب . وأستطيع أن أزودك بالبيانات من هذا الكتاب الآرامى إذا شئت . ويخيل إلىَّ أن ذلك كان له أثر عظيم فى نفوس المسيحيين بأورشليم ، وقال بطرس إن خيانة عهد الشركة خطية مميتة رهيبة أشبه بالتجديف على الروح القدس .

لوقا : وهل حسب بطرس موت ذينك الخاطئين معجزة جرت على يده ؟

مرقس : كلا . بل حسبه دينونة من الله . على انه أجرى معجزات ، فمرة أعاد هو ويوحنا الحياة إلى عضو مشلول فى رجل مولود أعرج . وهيأت هذه المعجزة فرصة ذهبية لبطرس ، فنادى باسم المسيح، وشرح آلامه وموته كأنها تكميل لنبوات أشعياء عن عبد الرب . فأثار هذا سخط رؤساء اليهود ، لأن عليهم أُلقيت الجريرة فى آلام عبد الرب البارّ . على أنهم لم يستطيعوا إلحاق الأذى ببطرس ويوحنا بعد أن رأى الناس معجزة الرحمة التى أجرياها . فعمدوا أولا إلى تهديدهما ، وبعد أن قاما بمعجزات أخرى أودعوهما السجن . وفى الليل هبط ملاك من السماء وأطلق سراحهما . وفى اليوم التالى رآهما الناس يناديان كعادتهما . ولهذا فزعت السلطات كل الفزع ، وخشى الرؤساء أن يفضح الله مستور أعمالهم السيئة ويحلّ بهم العقاب المحتوم . وبلغ بهم الجزع حداً حملهم على التفكير فى إعدام بطرس وبعض التلاميذ الآخرين بدون محاكمة ، ولم يحلْ بينهم وبين تنفيذ هذه النية السوداء غير تدخل الحبر غمالائيل .

بولس : كان معلمى الموقر ، الحبر غمالائيل ، رجلا صالحاً . وكان سؤل قلبى

وتوسلاتى لله أن يخلص . لأنى أشهد له انه كان غيوراً فيما لله، ولكن ليس حسب المعرفة [1] .

لوقا : وحوالى هذا الوقت ظهرت بوادر الأنشقاق حين شكا نفر من اليهود اليونانيين بأن أراملهم الفقيرات لاينلن نصيباً عادلا من الإحسان . ولكن الشعور بالشركة والائتلاف كان قوياً بحيث اضطرت الجماعة إلى تعيين سبعة من الرجال لتدبير الأمر ، وكانوا كلهم من اليهود . هذا سمعته من فيلبس الذى كان أحد السبعة، وأحدهم أيضا استفانوس الشهيد الأول .

بولس : نعم استفانوس الشهيد الأول . سأروى كل شىء عنه . وعليك أن تكتب قصته بالتفصيل لأنى أنا قاتله. وقد أمسكت ثياب الذين رجموه. وكان قد حاججنا فى المجتمع ، فلما دمغنا بأدلته وقهرنا بحجته صممنا على قتله . وما أزال أذكر حتى اليوم كلماته المضطربة التى شرح لنا بها كيف أكمل الناموس والأنبياء فى المسيح . وكان وجهه المحتد ، القوى العزم ، الصارم القسمات ، والذى يشع منه الهدوء والسلام ، أشبه بوجه مَلك سمائى . أما كلماته الأخيرة فكانت صلاة لكى يغفر الله لنا . وقد استجاب الله هذه الصلاة ، على الأقل بالنسبة لى . كنت يومئذ كالذئب يطارد الخراف المفزوعة ، فهرب الجميع من أورشليم ماعدا الرسل الذين أيقنوا أننا نخشى المساس بهم ، لأن الملاك كان قد أنقذهم من قبل . ونحن عرفنا فى دخائل نفوسنا أنهم تحت حماية الله ، لا يمسهم ضرٌّ ولاهم يرهبون.

لوقا : وإنى لأذكر مارواه لى فيلبس من أنه بدأ يبثُّ الدعوة بسبب هذا

---

(١) رومية ١٠ : ١ و ٢

الاضطهاد . فنزل إلى السامرة ولقى هناك توفيقاً حمله على أن يطلب إلى بطرس ويوحنا أن ينزلا لوضع الأيدى على الذين اهتدوا بسبب دعوته لينالوا موهبة الروح القدس . وهناك فى السامرة التقى فيلبس بالساحر سيمون .

بولس : إن السحر هو أعدى أعداء الحق وأمكرهم . ولكن حينما يلتقى الحق بالسحر ، يمسى السحر عدماً . فنى سلاميس بجزيرة قبرس ، تحدَّى أحد السحرة قوة الإنجيل ، فأصيب بالعمى . وفى أفسس حاول سبعة بنين لسيكاوا اليهودى أن يتلاعبوا بالسحر باسم ربنا المبارك ، فحاق بهم المكروه ، وأدرك سحرهم البوار والسخرية ، حتى ان كثيرين من الناس احرقوا كتبهم السحرية بالنار. ولست أدرى ما الذى حلَّ بصاحبنا سيمون هذا.

لوقا : لست ادرى ، وإن يكن بعضهم يقول ان اهتداءه إلى المسيحية كان زوراً وبهتاناً ، وانه مايزال يمارس صناعته الخاسرة الآثمة فى السامرة. ولقد اهتدى على يدى فيلبس متنصر آخر رجل أمين، خصيٌ حبشي. وكان فيلبس قد سمعه يقرأ من أشعياء عن عبد الرب ، وإذ تذكر أن استفانوس كان قد أثبت أن يسوع هو عبد الرب ، راح يشرح له الكتب المتعلقة بربنا ، فآمن الخصى وتعمدَّ — وهو المسيحى الأسود الأول . ولكن ألم يكن هناك متنصرون آخرون فى تلك الأيام ؟

بولس : سُر الله الذى أفرزنى من بطن أمى ودعانى بنعمته أن يعلن ابنه فىَّ لأبشر به بين الأمم (١) . ولقد رويت لكم من قبل الظروف الخارجية التى اقترنت باهتدائى : الرحلة إلى دمشق ، والنور ، والصوت ، وعمى

---

(١) غلاطية ١ : ١٥ و ١٦

بصرى ، ومعموديتى . على أن الذى رأيته وسمعته تعجز عن وصفه الألفاظ . قد أنتزع من بين أضالعى قلب الذئب ، وأعطيت قلباً جديداً ، واعتزمت تواً أن أبشر بالإنجيل ، ولكن كان علىَّ أن أتعلم من جديد فى مدرسة المسيح ، لأن الدروس التى تلقيتها عن أحبار الدين لم تكن مجدية إلا قليلا فى إهـــداء إنجيل الخلاص بالإيمان بيسوع .

مرقس : فى أيام السلام التى أعقبت الاضطهاد، تمَّت أعمال عظيمة كثيرة ، فهذا الكتاب الآرامى يقص كيف أبرأ بطرس رجلا يدعى أيناس كان مشلولا مدة ثمانى سنوات، وأعاد إلى الحياة امرأة قديسة تدعى طابيثا. وكلنا يعلم قصة اهتداء كرنيليوس الأممى .

لوقا : سمعتها من قبل . ولكن حدثنى عنها مرة أخرى — ولماذا ارتاب فى إمكان اهتداء الوثنيين إلى الأمم المسيحية ؟

مرقس : شُرح الموقف كله فى مجمع أورشليم .وروى لى برنابا كلَّ ما حدث. أما بطرس فلم يخامره شك مطلقاً فى إمكان اهتداء الوثنيين إلى المسيحية ، لأن السيد قال صراحة إنه يجب المناداة بالإنجيل فى العالم كله . وكان قد قال أيضاً إن حرفاً من الناموس لا يسقط . ففهم بطرس من هذا أنه يتحتم على الوثنيين أن يختتنوا أولا . وظنَّ أن الناموس يحرِّم عليه مواكلة الوثنيين غير المختونين ، ولم يفعل هذا إلا بعد أن كشفت له الرؤيا التى رآها فوق السطح معنى كلمات ربنا القائلة إن شيئاً يدخل إلى الفم من الخارج لايدنس الإنسان . وشيئاً فشيئاً تكشَّف هذا الحق : أولا الرؤيا التى أوحت إليه أن يذهب إلى كرنيليوس ، فانسكاب الروح القدس ، والأقوال الحارة المضطرمة

عينها التى اقترنت بيوم الخمسين والتى أثبتت له وجوب تعميد كرنيليوس . وأخيراً شهادة بولس وبرنابا فى المجمع التى أثبتت له أن المسيح ربٌّ لجميع الناس ، وان الإنجيل للكل على السواء ، حتى الذين انتقلوا من الحياة(١) .

لوقا : ومتى بدأت الدعوة بين الوثنيين فعلا ؟

مرقس : بدأت فى أنطاكية على أثر التشتت بسبب الاضطهاد العظيم . وبعض يهود الشتات لم يراعوا قواعد الناموس الدقيقة . ولما لاحت بوادر الخلاف أرسلوا ابن عمى برنابا لتدبير الأمر ، وتحت إرشاده سارت الحركة فى طريقها إلى الأمام .

بولس : قد استدعانى من طرسوس للاشتراك معه فى هذه الحركة التى سارت فى طريقها سيراً طيباً ، وامتلأت جماعة المسيحيين من متنصرى الأمم بنفس روح الائتلاف والألفة التى امتازت بها الأيام الأولى فى أورشليم . ولما تنبأ أغابوس بوقوع مجاعة فى أورشليم ، جمعوا مالا وابتاعوا حنطة وأوفدونا لاسعاف الإخوة فى أورشليم .

مرقس : وهناك التقيت بك لأول مرة ، وانضممت إليك . وأنت لا شك ذاكر كيف قتل هيرودس يعقوب بن زبدى ، وألقى القبض على بطرس ، ولكن ملاكا أنقذه . فأقبل تواً إلى دارنا لأنه كان صديقاً للأسرة ، ثم انطلق إلى قيصرية حتى مات هيرودس .

بولس : وبعد عودتنا من أورشليم مع مرقس ، أفرزنا الروح القدس — بواسطة الكنيسة — للعمل التبشيرى . فانطلقنا إلى قبرس موطن برنابا .

---

(١) ١بط ٤ : ٦

مرقس : وفى ذلك العهد ما كنت قد فهمت الدعوة التبشيرية ، ولم يكن فى نيتى السفر إلى أبعد من موطن ابن عمى ، فلما بلغنا بمفيلية نزلت فى أول سفينة عائدة إلى الأرض المقدسة .

بولس : كان رحيل مرقس خسارة كبرى لنا، وبعد قليل أصابتنى حمى برّحت بى تبريحاً، فأسرعت إلى الجبال ، إلى ولاية غلاطية ، وإنى أذكر جيداً عظتى الأولى فى مجمع إنطاكية بسيدية ، يوم ناديت فى هزال وضعف جسدى[1] ، بقيامة المسيح والتبرير من الخطية بالإيمان به . وكان اليهود على استعداد لقبول الرسالة . إلى أن حلّ السبت التالى الذى كنّا ننادى فيه بالرسالة عينها للأمم واليهود على السواء ، فانقلب علينا اليهود وقاموا علينا حتى اضطررنا للفرار إلى أيقونية. وفى ايقونية حلّ بنا هذا بعينه ، على أننا استطعنا الإقامة مدة أطول .ومنها هربنا إلى لسترا .

تيموثاوس : (فى هذه اللحظة يدخل تيموثاوس) أتستذكرون فيما بينكم وقائع الأيام الأولى ؟ اسمعوا منى قصة لسترا ، فقد شهدت كل شىء بعينى ، لأنى اختلطت فى غير حرج باليهود واليونانيين : فى يوم السبت كنت مع أمى وجدتى[2] فى المجمع ، وإذا بالغريبين بولس وبرنابا يتكلمان ، فدهشنا من تأويلهما الأسفار المقدسة . وبعد قليل كنت مصطحباً أبى فى طريقه إلى البيت عائداً من هيكل زفس . وكان جالساً على جانب الطريق ، عند مفترق ثلاث طرق ، شحاذ مشلول، قعد هناك اليوم كله . وحدث أن مرّ بولس وبرنابا فى هذا الطريق ، وكم كانت دهشتنا عظيمة أن نراهما يقفان ويتحدثان فى هدوء إلى ذلك

---

(١) غلا ٤ : ١٣ (٢) ٢ تيمو ١ : ٥

الشحاذ. فوقفنا خاشعين مشدوهين ، ونحن نتساءل ماذا عسى أن يكون موضوع الحديث بين السائحين الغريبين وبين ذلك الشحاذ الأيقونى . وفجأة يدوى صوت بولس فى الفضاء قائلا للرجل : « قف منتصباً » . وقبل أن تنتهى هذه الكلمات طفر الشحاذ فرحاً طروباً ، وراح يقفز ويرقص حول الرسل ، يلوِّح فى الفضاء بالحصير التى كان قعيداً عليها. ولما انطلق الغريبان أخذ يتبعهما فى هدوء كعبد أو تلميذ. فركضت أنا وأبى إلى الميدان لنرى الرجل ونفحص ساقيه اللتين كانتا كعضوين يابستين . والتفَّ حوله جمع كثير ، وكلهم يصيحون أن الآلهة هبطت إلى الأرض ، وأن بولس الذى نطق بالكلمات التى أبرأت الرجل لا بد أن يكون زفس . وسرعان ما همّ كاهن زفس بالقيام بما يفرضه عليه واجب الساعة ، وجاء بثيران مكللة ليقدمها ذبائح . كل هذا وبولس وبرنابا فى حيرة لا يفهمان ما يجرى أمامهما ، وظنّا أن الناس يصيحون شاكرين من أجل المعجزة ، ولم يحلما أن القوم حسبوهما آلهة ، لأن الصياح والكلام كان كله بلغة أيقونية . ولما عرفت الأمر شققت طريقى وسط الجمع ، وهمست فى أذن برنابا باليونانية أن الكاهن يوشك أن يقدم لهما الذبائح . فشقَّ بولس وبرنابا ثيابهما وصاحا فى الناس قائلين « نحن بشر مثلكم » . ولما هدأ الجمع وقفا يناديان فى القوم ، لكى يرجعوا عن الأوثان والأباطيل إلى عبادة الله الحىّ . ثم تفرق الجمع ولم يبق إلا بعضنا لسماع المزيد عن هذا الدين الجديد . وبعد أيام قلائل تعمَّد الرجل المشلول وأمى وجدتى وأنا ونفر قليل معنا . ولكن يهود انطاكية وأيقونية تعقبوا بولس وأثاروا عليه فتنة ورجموه بالحجارة . ولحسن الحظ لم يدركه الموت ، بل غاب عن وعيه فقط ، ولكنه أفاق وغادر المدينة إلى دربة.

وبعد قليل عاد الرسـل إلينا مرة أخرى لتشجيعنا وتعضيدنا .
وفى الزيارة الثالثة تركت أمى وسافرت معهم .

بولس: ونحن فى غمرة عملنا بغلاطية ، ثار مشكل الأمم فى الكنيسة ، وبينما كنا نستريح من عناء العمل فى أنطاكية سورية ، أقبل إلينا قوم من قبل يعقوب فى أورشليم، وألحّوا علىّ أن يختن كل الأمم أولا ، ويقبلوا الشريعة اليهودية قبل المعمودية . وناصرهم فى هذا الرأى فريق من المسيحيين فى أنطاكية ، وحتى برنابا نفسه كان متقلقلا مرتاباً . وكان بطرس فى أنطاكية فى ذلك الوقت فوقف إلى جانبهم . وبعد كثير من المشاحنة والنقاش ، تقرر أن ننطلق أنا وبطرس وبرنابا إلى أورشليم مع بعض الأخوة لفضّ الأشكال والبتّ فى الأمر . وأخذت معى تيطس أخا لوقا[1] ، وكان بين الذين اهتدوا حديثاً من أبناء الوثنية ، وأبيت فى تصميم أن أختنه . (وكان الأمر خلاف ذلك مع تيموثاوس الذى كان يهودياً من ناحية أمه) . وفى المجمع شرح بطرس وجهة نظره كما سمعت . وقصصت أنا وبرنابا الأعمال العجيبة التى أجراها الله بين الأمم ، وأشرنا إلى تيطس كمثال للذين أُستنقذوا من الوثنية بنعمة الله . ولم يقدر المؤتمرون أن يتحدّوا نعمة الله ، ولخّص يعقوب شعور أعضاء المجمع فى منحنا مطلق الحرية لمتابعة عملنا ، وطلبوا إلينا فقط أن نصرّ على مراعاة القواعد الأساسية للآداب ، ففعلنا طبعاً . وتسلمنا من أيديهم مستندات تحمل هذه الآراء . وبذلك أعيدت الوحدة إلى الكنيسة ، ولم يحاول أحد فيما بعد — ما عدا نفر قليل من اليهود ممن لم يفهموا الإنجيل على

---

(١) انظر ٢ كور ٨ : ١٨ و ١٢ : ١٨

حقيقته — أن يعرقل مقاصد الله نحو الأمم . ثم عاودنا العمل في غلاطية . وفي ذلك الوقت أخذت سيلا معي . لأن برنابا أصرّ على أن يأخذ مرقس ، وعاد الاثنان يعملان في قبرس ، وعدنا نحن إلى غلاطية . ومن غلاطية اعتزمنا أن نعمل في آسيا ، ولكن الروح القدس رأى أن يحتفظ بهذه الولاية إلى ما بعد . ثم فكرنا في بثنية ، ولكن الروح القدس كان يعتزم أن يختص بطرس بهذه الولاية كما ترون الآن . فساقنا الروح إلى مكدونية ، ولا حاجة بي أن أروى شيئاً عن هذه الرحلة ، فقد كان لوقا نفسه معنا .

لوقا : نعم ولن أنسى ما حييت كيف التقيتُ بك في تراوس ، وأخبرتك أن أبواب مكدونية مفتوحة على مصاريعها ، وكيف تشددت أنت برؤيا في الليل ، وأسرعت في العبور حتى بلغنا فيلبي . وهناك تنصرت ليدية وأُخرج الروح النجس من فتاة عرافة . وهل أنسى تلك الليلة التي طرح فيها بولس وسيلا في غيابة السجن ، وانتظرنا نحن خارجاً نصلّي ، وسمعنا الأناشيد التي رتلاها في ظلام الليل ، ثم الزلزلة ، والرعب ، واهتداء السجان وأهل بيته ، وفي الصباح تذلل الولاة حين أدركوا أنهم قد يقدمون حساباً عن إتيانهم عملا غير شرعي في جلد مواطن روماني ، ثم وداعنا للرسل في طريقهم إلى تسالونيكي .

ارسترخس : وعند ذاك التقيت ببولس لأول مرة ، وعرفت الإنجيل . وقد ظلوا يعلموننا ثلاثة أسابيع حتى آمن منّا كثيرون ، بينهم ياسون الرجل الطيب . ولكن اليهود الجاحدين تهجموا على داره ، وبشقّ النفس أفلت من أيديهم . وأرسلنا بولس وسيلا إلى بيرية ،

وهناك أكرم الأهلون وفادتهما ، إلى أن تعقبهما الحبر اليهودى من تسالونيكى وطردهما من هناك .

تيموثاوس : لم نُطرد كلنا ، فإن فريقاً من الأمناء رافقوا بولس إلى أثينا . أما أنا وسيلا فبقينا بضعة أسابيع فى بيرية .

بولس : تلك كانت أولى الخطوات لبثّ الدعوة فى مكدونية — إلقاء البذور على عجل ونحن هاربون من مكان إلى مكان . ولكن انظروا ما أوفر الحصاد ! ثم زيارتى الأولى إلى إخائية . ولكم وددت فى أيامى الأولى فى طرسوس أن أجلس تحت أقدام فلاسفة أثينا وأتعلّم منهم ، وأخيراً جئت إلى أثينا ، ولكن لا لأتعلّم منهم ، بل جئتهم بفلسفة لم يحلم بها أحد منهم ، وبحكمة من العلاء . ذهبت إلى أثينا معلماً لا متعلماً . وأبديت لهم معرفتى بشعرائهم ، ثم امتدحتهم لسعيهم إلى معرفة الله ، ثم عرضت عليهم بشارتى . ولكن . . . ولكن ما أثقل آذان الحكماء ، كأن بها وقراً . ظنوا أنى أقدم لهم إلهين للبانثيون — يسوع وانسطاسى . فغادرت أثينا موجع القلب . وحسبى عزاءً ديونيسيوس ودامرس وغيرهما قليلون ، وانطلقت إلى كورنثوس وأنا معتزم أن أطلّق حكمة العالم ، وأن لا أعرف شيئاً غير يسوع المسيح وإياه مصلوباً[1] .

تيموثاوس : ولما جئت أنا وسيلا إلى كورنثوس ، وجدنا بولس هناك مقيماً مع أكيلاّ وبريسكلاّ ، اللذين كانا قد هجرا رومية على مقتضى قرار الأمبراطور كلوديوس ، وهنا أيضاً اضطهدنا اليهود ، فاتجهنا نحو

---

(١) ١ كور ٢ : ٢

الأمم . وفى مدينة كبيرة كهذه ، لم تكن للجالية اليهودية قوة على طردنا . ولقد حاولوا مرة محاكمة بولس أمام غاليون ، ولكن ألفوا القانون الرومانى لا يكترث بمشاحناتهم اليهودية . فضلا عن هذا فإن بولس قد تشجع برؤيا للبقاء طويلا فى كورنثوس .

بولس : وبعد هذا بدأنا العمل فى آسيا .

لوقا : حالاً ؟

بولس: زرت أورشليم أولاً ، ومررت بأفسس فى الطريق، ثم عدت عن طريق غلاطية وفريجية إلى أفسس. وقبل وصولى، التقى بريسكلا وأكيلاّ ، وكانا قد قدما معى من كورنثوس ، بأبولس الذى كان قد تعمد حديثاً على طريقة يوحنا المعمدان ، وقبلاه فى الكنيسة . وعند وصولى وجدت أيضاً نحو إثنى عشر من تلاميذ يوحنا لم يبلغهم شىء عن معمودية الروح القدس . فهؤلاء تعمدوا على الطريقة المسيحية ، ونالوا موهبة الألسنة مقترنة بانسكاب الروح القدس . وقضيت ثلاثة أشهر أعلّم فى المجمع، ولكن بعد ذلك، نظراً لمقاومة اليهود، علّمت فى مدرسة شخص يدعى تيرانس .

ارسترخس : وبعد هذا حدثت الفتنة العظيمة ، وكان مبعثها خوف الصيّاغ من أن تبور تجارتهم فى صنع الأصنام. وحدثت جلبة هائلة ، وأمسكت أنا وغايس وأخذنا إلى المسرح ، فحاول بولس أن يدخل المسرح ويتكلم ، ولكن التلاميذ الآخرين أقنعوه بالعدول عن ذلك . ثم أراد يهودى يدعى اسكندر أن يقف ويثبت أن لا علاقة بين اليهود والمسيحيين ، ولكنهم قاطعوه ولم يسمعوا له ، وظلّ الجمع الحاشد يزعق مدة ساعتين بغير انقطاع : « عظيمة هى أرطاميس الافسسيين ».

وأخيراً هدأت الفتنة بخطاب لـيّن ألقاه كاتب المدينة بكياسة ولباقة . وكان بولس قد اعتزم من قبل أن يزور مكدونية وأخائية بعد قليل ، ولـكن الفتنة جعلت مقامه غير مأمون العاقبة ، فتعجلنا رحيله .

لوقا : وعند ذاك انضممت أنا وتيطس إلى الركب . فانه بعد الذهاب إلى أخائية عن طريق مكدونية ، عاد بولس إلى مكدونية ومعه مندوبون من جميع الـكنائس فى طريقهم إلى أورشليم حاملين تقدمات الشكر . ورافقناهم فى فيلبى . وفى ترواس ، فى اليوم الأول من الأسبوع ، كنا نجرى خدمة كسر الخبز ، من ساعة متأخرة فى المساء حتى الصباح الباكر ، وإذا بشاب يدعى افتيخس يسقط من النافذة ، فظن الجميع أنه قد مات ، ولـكن بولس حمله حياً . وبعد الخدمة رحلنا ، ولم يتسع الوقت لزيارة أفسس ، فأرسل بولس إلى شيوخ الـكنيسة لموافاتنا فى مليتس ، وهناك أنبأهم بسجنه العتيد فى أورشليم ، وكان مشهد ذلك الوداع الأخير مؤثراً جداً . ومن هنا أبحرنا إلى صيدا ، وجئنا إلى قيصرية حيث أقمنا مع فيلبس ، أحد السبعة ، ومنها إلى أورشليم يرافقنا مضيفنا مناسون . وما بلغنا أورشلم حتى دعا يعقوب كل الشيوخ إلى الاجتماع بنا ، لإبلاغهم أننا حافظنا بدقة وأمانة على الشروط التى وضعها المجمع الـكبير . ولتدعيم مركزنا قرر بولس أن يقوم ببعض مراسم التطهير فى الهيكل مع أربعة من اليهود المؤمنين . ولسوء الحظ ذاعت إشاعة بأن أحد الأربعة — وهو تروفيمس — مسيحىٌّ أممى من أفسس ، فقامت فتنة كاد يُقضى فيها على حياة بولس لولا تدخل الوالى الرومانى. وبينما كان يُساق بولس، طلب الإذن له فى مخاطبة الجماهير ، وتـكلم بالآرامية وروى الحوادث التى أدت إلى اهتدائه وبعثته إلى الأمم . وعند ذكره كلمة « الأمم » ثارت الفتنة من جديد ، وهمّ الوالى بجلد

بولس ، ولكنه إذا علم أنه مواطن رومانى ، قرر أن يمثل أمام رئيس الكهنة والشيوخ . وأمام هذا المجلس أعان بولس أنه يقف على رجاء القيامة الفريسى ، فأحدث هذا الكلام انشقاقاً بين الفريسيين والصدوقيين .

بولس : وقف الرب إلى جانبى تلك الليلة، وقوّانى على احتمال المحاكمات التى تعاقبت .

لوقا : وفى اليوم التالى تآمر اليهود على قتل بولس . ولكن أبلغ أمر هذه المؤامرة الى حاكم المدينة ، فأرسل بولس ليلاً الى قيصرية ليمثل أمام فيلكس . وتبعناه نحن فى اليوم التالى ، ووصلنا قيصرية فى الوقت المناسب لنسمع التهمة التى أقامها رئيس الكهنة على لسان محام خطيب قدير . ولم يكن فى تلك التهمة شيء معين، فأيد بولس فى دفاعه براءته فى عبارات عامة ، ومرة أخرى نادى بحقيقة القيامة . ولمدة سنتين احتجزه فيلكس سجيناً ، آملاً عبثاً أن يحصل على شوة لإطلاق سراحه . ولما خلف فستوس فيلكس على كرسى الولاية ، جرت محاكمة صورية أخرى . وأما بولس فإذ قد تعب من هذه الإجراءات المطولة ويئس من العدالة المحلية ، رفع استئنافاً إلى قيصر ، وهو عالم أنه بهذه الطريقة تتحقق رغبته القديمة ، وهى الذهاب الى رومية . فأحضر فستوس بولس أمام الملك أغريباس ليعين تهمة معينة يرفعها الى قيصر . فكرر بولس أمام أغريباس قصة اهتدائه ، وقال إنه ينادى فقط بما سبقت وتنبأت به الكتب المقدسة . وأقر أغريباس براءة بولس . وقد دونت كل هذه الخطب فى مذكراتى .

ارسترخس : ولما تحدد يوم السفر، كان قائد المائة المكلف بالحراسة مؤدباً وكريماً جداً . فلم يسمح فقط لى وللوقا بمصاحبته متخفيين فى ثياب

خدم ، بل سمح لبولس بالنزول فى صيدا ، ولما انكسرت السفينة أنقذ حياة بولس من الجنود الذين أرادوا قتله .

بولس : نعم . وفى مليطة أيضاً ابدى لى رئيس الجزيرة عطفاً كثيراً . ومع أن السفينة انكسرت بي قبل الآن ثلاث مرات ، فقد كانت هذه المرة أرهبها واروعها، ولم تنقذنى إلاَّ عناية الله ورعايته .

لوقا : قد دونت فى مذكراتى كل كبيرة وصغيرة من هذه الرحلة ، وسأكتبها فى كتابى ، لكى يعلم كل قاصٍ ودان ، مبلغ الآلام التى عاناها الرسل من أجل ربّهم ، وكيف ينقذ مختاريه من كل الضيقات .

بولس : وقد نسيت كل أحزاننا يوم رحّب بنا نفر من الأخوة على مقربة من رومية . وفى هذه المدينة وُضعت أولاً فى غرفة منفصلة مع الجندى الذى كان يحرسنى . وهناك سُمح لى أن أستقبل رؤساء اليهود ، ولما أغلقوا آذانهم اضطررت ان أقول لهم ان الإنجيل للأمم . وبعد ذلك سُمح لى أن أسكن فى هذه الدار التى اكتريتها ، وفيها أنادى يومياً بالإنجيل مؤذناً باقتراب ملكوت الله . فانظر كيف حملت عناية الله الإنجيل من اورشليم إلى اليهودية ، والسامرة ، وكل أقاصى الأرض ، كما قال الرب . والإنجيل يمتدُّ ويتمجد ، فتعال ، أيها الرب يسوع ، تعالَ !

رسائل بولس

كانت رسائل بولس هى أولى اسفار العهد الجديد . وكنا نتوقع طبعاً ان يبدأ الانجيل باسفار خشوعية رسمية منطقية، يراعى فيها صياغة اللفظ، وبراعة الأسلوب، وحسن الديباجة . ولكن طرق الله غير طرق البشر . ونحن نؤمن أن الروح القدس أهدى بولس لأن يكتب تلك الرسائل الطبيعية البسيطة الخالية من التكلف المصطنع والتزويق اللفظى ، لأن العبرة بروح الكلام، لا باعجازه اللفظى ، ولا حتى باعجازه المعنوى.

كتب بولس من القلب ، فكان لا قواله تلك اللمسة الشخصية التى تمسُّ القلوب ، وذلك السحر الحلال الذى يستأثر بالنفوس ببساطته وروعته.

وقد كتب بولس ثلاث عشرة رسالة ضمَّها العهد الجديد ، ليس حسب تسلسلها التاريخى . وإلى القارئ الكريم بياناً حسب تسلسلها التاريخى ، الذى أقرته جمهرة من ثقات الشراح والباحثين ، على أن الاجماع قد لايكون ممكناً فى مسائل التاريخ الجدّلية :

الرسالة الى غلاطية : هذه أولى الرسائل فى رأى كثير من الشراح . وربما يكون الرسول قد بعث بها من انطاكية أو اورشليم بعد رحلته الاولى التى قام بها للمناداة بدعوته . على أن بعضهم يقول إنّ الرسول بعث بها خلال رحلته الثانية .

٢ — **تسالونيكى الأولى والثانية :** كتب الرسول هاتين الرسالتين خلال رحلته الثانية. والإرجح انه أرسل الأولى من أثينا والثانية من كورنثوس.

٣ — **كورنثوس الأولى :** ارسلها من أفسس خلال رحلته الثالثة.

كورنثوس الثانية : أرسلها من مكدونية — ربما من فيلبي — خلال رحلته الثالثة .

٤ — **رومية** : أرسلها من كورنثوس قبل رحلته الثالثة .

٥ — **كولوسي ـ افسس ـ فليمون** : أرسلها وهو سجين في رومية .

٦ — **فيلبي** أرسلها وهو سجين أيضاً ، ربما بعد الثلاث رسائل السابقة. ويقول بعضهم انه ارسلها من قيصرية قبل ترحيله إلى رومية .

٧ — **تيموثاوس الاول وتيطس**:أرسلهما بعد اطلاق سراحه من السجن وكان وقتئذ يجوب مناديا بدعوته .

٧ — **تيموثاوس الثانية** : أرسلها وهو سجين في رومية للمرة الثانية ، قبيل استشهاده بفترة ليست طويلة .

الرسالة الى غلاطية

متى كتبت الرسالة ؟

اختلف الشراح والعلماء في تاريخ كتابة هذه الرسالة . فمنهم من ذهب إلى انها كتبت في تلك الفترة قبل شروع الرسول في رحلته الثانية . وقال آخرون انها كتبت من انطاكية سنة ٥٣ ب . م . عقب زيارة الرسول الرابعة إلى اورشليم . وقال غيرهم انها كتبت من كورنثوس في غضون الرحلة الثالثة . ولكل فريق من هؤلاء ادلة تاريخية يستندون اليها وشواهد مستقاة من نصوص الرسالة ذاتها . ولا يتسع المجال هنا لمناقشة هذه الادلة والاسهاب فيها . إنما نؤثر الأخذ برأي العلامة الكبير السيد وليم ومساي ، وهو يرى

أن الرسالة كتبت فى انطاكية عقب الرحلة الأولى إلى كنائس آسيا الصغرى التى انشأها الرسول فى تلك الرحلة .

وإلى ذلك الحين لم يكن قد كُتب شيء من بشائر الانجيل الاربع فى العهد الجديد . وبولس هو الذى بدأ يخط أول حرف منه — أو يُملى أول كلمة على أصح تعبير — فى مسكنه الوضيع بمدينة انطاكية .

فالى سنة ٥٠ ب. م. أى سبع عشرة سنة بعد الصلب ، لم يكن لدينا من كتابنا المقدس إلاّ العهد القديم . وكان المتوقع أن يبادر الرسل بعد حلول الروح القدس يوم الخمسين إلى تصنيف الرسائل الطوال عن حياة السيد المسيح واقواله وأعماله وموته وقيامته . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . لأنهم ما كانوا قد صنفوا الكتب، وما احسّوا انهم بحاجة اليها ، وكانت أغلب المعارف فى ذلك العصر سماعية .

وثمة فكرة أخرى ملكت على الاتباع الاولين نفوسهم، فلم يحسّوا بحاجة إلى الكتب المسطورة ، ذلك ان فرحهم الجديد قد مازجه الأنتظار الساهر المترقب وهم قد آمنوا أن سيدهم آت فى ساعة لايعلمونها ابان حياتهم ، قد تكون فى المساء ، أو عند انتصاف الليل ، أو عند صياح الديكة . وبولس نفسه يؤمن بهذا فى تلك الفترة من حياته، ويدمجه فى بعض رسائله . لذلك قنعوا فى مجتمعاتهم الأسبوعية بما رواه شهود العيان الذين صحبوا المسيح فى حياته على الأرض ، فنقشت اقوال المسيح وتعاليمه وتاريخ حياته على لوحات القلوب المؤمنة، قبل ان تسطر على صفحات القرطاس المادية .

إذاً كانت رسالة غلاطية أولى اسفار العهد الجديد ، على أصح الأقوال .

لمن كتبت الرسالة :

يذهب فريق من العلماء إلى أن الغلاطيين كانوا قوماً عاشوا فى الهضاب

الوسطى فى المنطقة التى نسميها الأن آسيا الصغرى ، أو الأناضول ، فى تركيا الحديثة . وقد اجتاز بولس فى هذه المنطقة فى رحلته التبشيرية الثانية (أعمال ١٦ : ٦) ربما حوالى سنة ٥٣ ب . م . أى بعد انعقاد المجمع الأول فى أورشليم (أعمال ص ١٥) الذى حدد العلاقات بين اليهود والأمميين فى الكنيسة . وإن صح هذا ، فإنه يبدو غريباً ألاَّ يذكر بولس شيئاً عن المجمع وقراراته .

ويذهب فريق آخر إلى أن كلمة « الغلاطيين » تحمل معنى آخر . ذلك لأن ولاية غلاطية الرومانية كانت أكبر وأكثر اتساعاً من المنطقة التى يسكنها الغلاطيون . ومن المحتمل أنه فى الوقت الذى كتب الرسول رسالته إلى غلاطية ، كانت المدن التى زارها فى رحلته التبشيرية الأولى (أنطاكية بسيدية ، ودربة ، ولسترة) — أعمال ١٣ : ١٤ و ١٤ : ٢٣ و ١٦ : ١ — ٥ — فى نطاق ولاية غلاطية الرومانية . وقد قام بولس بهذه الرحلة فى سنة ٤٨ ب . م . على أرجح الأقوال . وإن صح أن أولئك هم الأصدقاء الذين كتب لهم بولس رسالته ، فإنها تكون قد كتبت قبل سنة ٥٣ ب . م . وهو الرأى الذى أخذنا به من قبل ، وخاصة لأنه ليس لدينا دليل يثبت أن بولس زار فى رحلاته المنطقة الشمالية .

مضمون الرسالة

الرسالة إلى غلاطية أكثر الرسائل فيضا بالحنان والعطف مما انتهى إلينا من كتابات الرسول . وهو ما كان ليكتب بهذه الصيغة لولا شعوره بأن المهتدين على يديه يواجهون خطراً داهما ، هو خطر فقدان العقيدة الأساسية فى دينهم الجديد .

وكان المسيحيون الأولون فى بادىء عهدهم قد وقفوا أمام مشكلة خطيرة ، هى قصد الله نحو الأمم (أى الوثنيين غير اليهود) ، والعلاقة بينهم وبين اليهود داخل الكنيسة . وقد كان كل المؤمنين الأولين يهوداً ، أو من الوثنيين الذين

تهودوا بقبول الختان وشريعة موسى . وبدأ الاضطراب فى أنطاكية ، يوم راح المسيحيون اللاجئون هربا من أورشليم ينشرون الدعوة بين اليونان فى تلك المدينة. وهؤلاء لم تكن لهم صلة بناموس موسى، ولا بالدين اليهودى (اعمال ١١ : ٢) .

وزعم اليهود يومئذ أن قصد الله فى المسيح لن يتم إلا إذا قبلت الشعوب كلها شريعة موسى، وصاروا يهوداً أولا ، وزعموا أن أورشليم ستكون مركزاً للعالم ، وتأتى كل شعوب الأرض لتعبد فيها وتأخذ شريعة الرب (زكريا ٨ : ٢٠ — ٢٣) . ولن تقدر الأمم أن تدخل ملكوت الله إلا من باب شريعة موسى .

والذى حدث فى أنطاكية أن عدداً من الأمم صاروا مسيحيين دون أن يخطر على بالهم أن يتهودوا أولا . وقد أثار هذا الصنيع كثرة من الأسئلة التى لا حصر لها : هل كان العهد الذى أعطاه الله لليهود فى سيناء عهداً أزليا ، أم لم يكن كذلك ؟ هل أبطل يسوع حقا شريعة موسى أم لم يبطلها ؟ هل الإيمان كاف للخلاص أم يقتضى شيئا آخر ؟

وكان المسيحيون اليهود قد انطلقوا إلى مدن غلاطية لإثارة الاضطراب بين المسيحيين فيها . وقد أصرَّ بعضهم على الختان قبل اعتناق المسيحية ، لا على الناموس كله .

وفى هذه الرسالة يحاول بولس أن يعالج مشاكل الساعة التى بلبلت أفكار أهل غلاطية ، ويقارن ويوازن بين (زوجين) من الألفاظ : الناموس والوعد — الإيمان والأعمال — الروح والجسد .

وقد حاول الرسول أن يثبت فى رسالته أن المواعيد التى أعطيت لإبرهيم كملت كلها فى المسيح ، وأن هناك صلة مباشرة بين إبرهيم والمسيح . أما فى

الناموس فلم تعط مواعيد ولا عهود ، والناموس مجموعة من الوصايا ، تقتضى الطاعة وتمنح الجزاء — أما الموعد فيطالب بالإيمان .

وحين يتحدث الرسول عن الإيمان والأعمال ، لم يقصد كل صنف من الأعمال الصالحة ، إنما يقصد الطاعة لأحكام الناموس . وعلى مقتضى هذه الطاعة يُحسب الإنسان نفسه قادراً على تدبير ذاته ، وهنا يقول بولس فى عزم وإصرار ان هذه هى الكبرياء بعينها ، وان هذه أشنع الخطايا وأكبر الذنوب يقارفها إنسان بشرى ، لأنها منطوية على ادعاء الإنسان بأنه مستقل عن الله. أما الإيمان فهو على نقيض هذا تماما ، إنه منطو على الاتكال والاعتماد على الله كلية .

وفى حديثه عن الروح والجسد ، يبين الرسول أن الجسد هو أضعف وأفقر جزء فى طبائعنا البشرية . على أن ، للجسد ، فى رسائله معنى جميلا ، هو الكنيسة « جسد المسيح » . وليس معنى الجسد بالضرورة الجسد الخاطىء ، ولكنه يقصد ذلك العنصر فى الإنسان الذى لا دوام له ، والذى بحكم طبيعته مآله إلى الفناء والزوال . من ثمَّ لا يكون للختان قيمة فى ذاته ، وما هو إلا عملية جراحية فى جسد المؤمن ، هذا الجسد الذى سيزول عاجلا أو آجلا (غلاطية ٦ : ١٥) . أما « الروح » فهى العنصر الذى لن يموت ولا يهلك .

والحياة الخالدة فى تعليم هذه الرسالة ليست شيئا نظفر به بعد الموت ، إنما هى شىء نقدر أن نمتلكه الآن هنا على الأرض ، إذا عرفنا كيف نعيش مثل بولس « فى إيمانه بابن الله الذى أحبنى وأسلم نفسه لأجلى »(غلاطية٢ : ٢٠).

رسالتان إلى تسالونيكى

متى كتبت الرسالتان :

فى الرحلة التبشيرية الثانية حوالى سنة ٤٩ ب . م. أو بعد ذلك بقليل، تلقى الرسول رؤيا أن اعبر إلى أوربا وناد بالإنجيل فى مكدونية (أعمال ١٦ : ٩). وكانت فيلبى أولى المدن التى هبط بها فى مكدونية . وكانت يومئذ مستعمرة رومانية . وهناك جن وجلد بأيدى الولاة الرومان (أعمال ١٦) . وقد عاونه فى مهمته بتلك المدينة سلوانس (سيلا) وتيموثاوس وزميل جديد هو لوقا الطبيب ، وهو الذى تركه وراءه ليتمم العمل الذى بدأه . ولسنا ندرى كم من الزمن بقى الرسول فى فيلبى . على أنه بعد حين غادر المدينة إلى تسالونيكى (سالونيك الحالية) ، ومعه سيلا وتيموثاوس، مسيرة مائة ميل عبر الطريق العام الذى كان يصل الشرق بالغرب .

وإذ يدخل المدينة يبدؤ ، كعادته باليهود . وكان عددهم غفيراً بدليل وجود مجمع لهم . ولم يكن لدعوته أثر كبير فى نفوسهم ، وإن يكن قد انحاز إليه جمهور كثير « من اليونان المتعبدين — أى من الأمم الذين كانوا قد تهودوا — ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل » (أعمال ١٧ : ٤). وكانت أكثرية الكنيسة فى تسالونيكى من الأمم(١ : ٩) .وأغلب الظن أن الرسول بقى فى المدينة زمناً ، وكان يعمل بيديه فى صنعته (٢ : ٩) . ويلقن المهتدين التعاليم المسيحية (٢ : ٥) . وأخيراً تهجم عليه اليهود الذين كانوا أشدالناس لدداً فى عداوته أينما ذهب ،يعاونهم جماعة من الغوغاء .«رجال أشرار من أهل السوق » أعمال ١٧ : ٥)، وهجموا على بيت ياسون ، أحد البارزين من المهتدين ، وجروه وبعض الإخوة معه إلى المحاكمة أمام الولاة المحليين

بتهمة الخيانة . وانتهت المحاكمة بإطلاق سراحهم بعد أن أخذوا منهم كفالة .

وإذ يحسّ الرسول أن فى وجوده بالمدينة خطراً على الآخرين ، يغادرها هو وسيلا وتيموثاوس إلى بيرية ، ومنها يتابع رحلته إلى أثينا ، وكورنثوس حيث قضى عاماً ونصف عام (أعمال ١٨ : ١١) . وكان قد ترك سيلا وتيموثاوس وراءه فى بيرية ، على أن يلحقا به فى أثينا . والمؤكد أن تيموثاوس لحق به ، ومن هناك أرسله بولس فى مهمة خاصة إلى تسالونيكى (٣ : ١) . وقد عاد إليه وهو مقيم فى كورنثوس بتقرير عن حالة الكنيسة فى تسالونيكى . وكان هذا التقرير هو الباعث الذى حمل الرسول على أن يكتب رسالته الأولى إلى تسالونيكى .

كان التقرير فى جملته مرضياً ، فقد كانت الكنيسة قوية فى الإيمان والمحبة (٣ : ٦) . وكانت أسوة حسنة للمسيحيين الأخرين فى مكدونية وأخائية (اليونان) — (١ : ٨) . وعلى الرغم مما لاقت من ضيق وعنت واضطهاد ، صمدت قوية صابرة (٣ : ٤ — ٦) ، على أنه كانت هناك صعاب . فأعداء الرسول من اليهود كانوا يبذلون الجهد الجهيد لتحريف تعاليم الرسول وتشويهها . وكان الوثنيون فى تسالونيكى يضطهدون الكنيسة الناشئة . (٢ : ١٤) . وثارت أمام القوم مشكلة عن مجىء المسيح الثانى الذى يترقبون وقوعه فى آن قريب . فماذا يكون مصير الذين رقدوا فى الإيمان بالمسيح ؟ أيحرمون من الاشتراك فى موكب المجىء الظافر ؟ (٤ : ١٣ — ١٨) . وكانت هناك أيضاً أعراض ردّة أخلاقية ، ووهن روحى ، يخشى معه من الاستسلام إلى غوايات النجاسة التى كانت ناشطة فى تسالونيكى يومئذ ، شأنها شأن سائر المدائن الوثنية فى ذلك العصر . وكانت ثمة عوامل من القلق ، والاضطراب النفسى ، وإغفال الواجبات اليومية ، تطغى على النفوس الواهنة (٤ : ١١ — ١٢) .

ولم يكن فى مقدور الرسول أن يعود إلى تسالونيكى . إنما كان فى وسعه أن يكتب رسالة للتعزية والتعضيد والتشجيع . تلك كانت الرسالة الأولى إلى تسالونيكى. ولا بد أن يكون الرسول قد كتبها من كورنثوس (أعمال١٨ :٥). ولا شك أن فترة من الزمن كانت قد انقضت بين رحيل الرسول من تسالونيكى وبين كتابة الرسالة . وفى هــذه الفترة حدثت وفيات بين جماعة المسيحيين (٤ : ١٣) وغير ذلك من أحداث أخرى . ويكاد يكون مؤكداً أن الرسول كتب رسالته قبل نهاية مدة إقامته فى كورنثوس التى بلغت عاماً ونصف عام، بدليل قول الرسول «فقدناكم زمان ساعة »، أى لم نحرم من رؤيتكم إلا فترة وجيزة من الزمن (٢ : ١٧) . وأغلب الظن ان الرسول كتب رسالته الأولى حوالى منتصف الفترة التى قضاها فى كورنثوس ، بُعَيْد وقوع الحوادث التى يشير إليها فى رسالته .

الرسالة الثانية :

أما الرسالة الثانية فهى ماحق للأولى . وذلك لأن أنباءً تواردت على الرسول — لا ندرى مَن كان مصدرها — تنبىء عن سوء فهم لبعض ما قاله فى رسالته الأولى وخاصة عن مجىء المسيح الثانى (٢ تسالونيكى ٢ : ١) والظاهر أن فريقا من الناس أساء تأويل تعليمه ، أو ربما زور رسالة منسوبة إليه (٢ تس ٢ : ٢) . وكانت الأخطاء التى خشى وقوعها ، وعناصر القلق ، وعصيان السلطات قد أخذت تتفاقم (٣ : ٦ — ١٢) . من هنا حكمت عليه الضرورة بتوجيه رسالته الثانية ، لشرح أسباب سوء الفهم ، وزجر عناصر الشرّ ، ولا بد أن يكون قد كتبها قبيل نهاية مقامه فى كورنثوس ، وكان سلوانس وتيموثاوس باقيين معه .

وتمتاز الرسالتان بالخوض فى مسئلة المجىء الثانى . وهذا المجىء فى الواقع هو الفكرة المركزية فيهما . ومامن شك أن بولس — بالاشتراك مع الكنيسة

الأولى اجماعاً — قد توقع أن المسيح سيعود ثانية إلى الأرض بنصر عظيم فى حياة الرسول وكثيرين من معاصريه . صحيح انه لم يقل صراحة ان هذا سيحدث، بل قال « يوم الرب كلص فى الليل يجىء » (١ تس ٥ : ٢).وأيضاً « لا يأتى ان لم يأت الارتداد أولا » (٢ تس ٢ : ٣). على انه حين كتب هاتين الرسالتين كان يفكر جدّيا فى أن المسيح قد يعود إلى العالم قبل موته . وواضح أيضاً انه احسّ فيما بعد أن المجىء قد لا يتمّ بهذه السرعة . ولكنه لم يخطىء فى تفكيره بأن « مجيئاً » للدينونة سيحدث فى زمن قريب . ذلك لأن تاريخ ذلك العصر كان يتوقع حادثاً جللا ، هو خراب أورشليم ، وهدم الهيكل ، وما إلى ذلك من أحداث أخرى، تقترن بهذا الخراب فى حياة اليهودية . وقد كانت تلك الأحداث الكبرى موضع حديث نبوى تفوه به ربنا، وسجّله مرقس فى الفصل الثالث عشر من بشارته ، واثبته متى بتحوير بسيط فى الفصل الرابع والعشرين ، ولوقا فى الفصل الحادى والعشرين . وكان هذا كله رمزاً ونموذجاً للمجىء الأخير العظيم. كان نهاية النظام القديم ومولد نظام جديد . وان صحّ تأويلنا لما جاء فى (٢ تس ٢ : ١–١٢) ، فإن الرسول يكون قد سبق ورأى بعين بصيرته هذه النكبات الماحقة، وانبأ عنها فى رسالته . هذا رأى فقط . ومع هذا كله ، فإنه لا يسعنا إلاّ التسليم بأن الرسول قد أفرط فى التمنىّ فى توقع مجىء المسيح الثانى فى حياته . على ان هذا لا يؤثر بتاتاً فى قيمة الرسالتين . لأن موقف الكنيسة ، اليوم ، وفى كل عصر ،هو ترقب المجىء الثانى فى أية لحظة . وهى تؤدى خدماتها وتقوم بالتزاماتها ، فى طهر الحياة، وقوة الصلاة، وبركة الرجاء ، وقد كان هذا الرجاء المبارك مصدر وحيها وإلهامها فى أيامها الأولى ، وما زالت تعتزّ به فى هذا العصر .

الرسالة الى كورنثوس

كورنثوس ميناء فى بلاد اليونان ، كانت عاصمة اخائية فى القديم . وقد أسس بولس كنيسة فى كورنثوس فى رحلته التبشيرية الثانية (أعمال ١٨ : ١ــ ١٨) ،وبعد زمن يسير وفد إلى هذه المدينة عالم اسكندرى يدعى « ابولس »، كـان من تلاميذ يوحنا المعمدان ، وكـان قد اعتنق المسيحية فى افسس .ومنها رحل إلى كورنثوس ليشرح للكنيسة هناك علاقة نبوات العهد القديم بيسوع المسيح (أعمال ١٨ : ٢٤ ــ ٢٨) . ويحتمل أن بطرس أيضاً زار كورنثوس فترة وجيزة .

وقدأرسل بولس رسالته الأولى إلى كورنثوس فى غضون رحلته التبشيرية الثالثة من مدينة أفسس فى خلال السنتين اللتين قضاهما هناك (أعمال ١٩: ١٠). أما الرسالة الثانية فقد أرسلها من مكدونية ، بعد سنة من الأولى ، فى خلال رحلته التى وصفها سفر الأعمال فى (ص ٢٠ : ١) .

اربع رسائل

ويقول بعض الشرَّاح ان الرسول بعث إلى هــذه المدينة بثلاث أو ربما بأربع رسائل . أولها رسالة ضاعت كلية ، ولـكن يشير إليها بولس فى رسالته الأولى التى بأيدينا (٥: ٩)، وهى فى الواقع رسالته الثانية . وكانت هناك رسالة ثالثة، رسالة احتجاج واعتراض(أنظر ٢ كورنثوس٢: ٣و٤) وهى الرسالة التى كتبها بدموعه على ما يقول.وهذه الرسالة الثالثة قد ضاعت أيضاً.على أن بعض العلماء يظن أن جزءاً من كورنثوس الثانية (١٠ : ١ — ١٣ : ١٠) كان فى الأصل جزءاً من الرسالة الثالثة . ثم الرسالة الرابعة ، وهى الثانية التى بأيدينا أو على الأقل الاصحاحات من ١ — ٩ .

لماذا كتب الرسول الى كورنثوس

بعد ثلاث سنوات من زيارة الرسول لكورنثوس ، نجده فى أفسس كما أسلفنا القول . وفى بكور الربيع بعد أن افتتحت طريق الملاحة ، يفد من كورنثوس فريقان من الناس ، كان الفريق الأول بزعامة سيدة ثرية تدعى « خُلوى » ومعها حاشية من العبيد والمعتوقين والفريق الآخر كان وفداً من قبل كنيسة كورنثوس (١ كورنثوس ١٦ : ١٧) . ومن هؤلاء تلقى بولس بعض الأنباء المزعجة عن حالة الكنيسة فى كورنثوس ، إذ قالوا انها منقسمة إلى أربعة أحزاب ، اختار كل حزب زعيما له ـ بولس وأبولس وبطرس والمسيح ـ وزعم بعضهم أن الحزب الذى أطلق على نفسه حزب بولس تشدد فى الجانب الصوفى من المسيحية ، وأن حزب أبولس تشدد فى الجانب العقلى ، وأن حزب بطرس تشدد فى الجانب الطقسى . وزعم آخرون أن الفوارق قد تكون عنصرية . فالمستعمرون الرومان فى كورنثوس انتصروا لبولس ، واليونان انضموا إلى أبولس بفلسفته التى تلقنها فى الإسكندرية ، بينما تعلق اليهود بصفا (بطرس) الذى كان رسول الختان . ولكن هذه كلها استنتاجات اجتهادية يعوزها الدليل ، وهى من قبيل الحدس والتخمين .

والرسول فى رسالته يحذر الكنيسة من خطر الانقسام ، والتعلق بزعيم بشرىٍّ والولاء له ، ولاء يحول دون اتصال النفس بالمسيح مباشرة (١ كور ١ : ١٠ — ٣١) .

والظاهر أن ثلاث مسائل أخرى أبلغها « أهل خُلوى » إلى بولس : أولها فضيحة أخلاقية وهى أن أحد المسيحيين فى كورنثوس اتخذ أرملة أبيه زوجة له . ومثل هذا الاقتران استفزاز ، لا لمشاعر المسيحيين فقط ، بل حتى للوثنيين . وكان محرماً فى القانون الرومانى . وأية جماعة إنسانية تأبى هذه

الفضيحة بل تتفجع لها ، ولكن الظاهر أن أهل كورنثوس تجاوزوا عنها وتساهلوا فيها . ويشير بولس إلى التدابير التى يجب اتخاذها لإقصاء المذنب عن الجماعة ، أى حرمانه تمهيداً لتوبته وإعادته (٥ : ١) .

والأمر الثانى الذى أنبىء به بولس هو ان أهل كورنثوس أظهروا روحاً مشاكسة محبة للمشاكل والقضايا . ولقد بلغ بهم التطرف حداً دفعهم إلى رفع قضاياهم أمام المحاكم الوثنية . اما العلاج الذى يقترحه بولس فهو اللجوء إلى التحكيم .

والشىء الثالث هو الفساد والزنى . وقد كانت كورنثوس تعجُّ بالشرور والآثام والحياة الخليعة المستهترة ، أذ كان فيها هيكل مشهور لأفروديت إلهة الشهوة ، أمَّه ألف من العاهرات الداعرات. وأولئك كنَّ يخدمن فى ذلك الهيكل ، ويدنسن جنباته بأشنع ما عهدته الإنسانية من صنوف اللهو والإثم والخلاعة والفجور . فلا غرابة أن نجد فى مدينة كورنثوس بعض المسيحيين عاجزين عن مقاومة هذه التجربة . ويتبين من روح الرسالة انهم حاولوا تبرير الزنى بحجة أن الخطايا الجسدية لا تؤثر فى النفس . وبولس ينكر فى غضب مثل هذه العقيدة التى تنطوى فى الواقع على إنكار لمبدأ التجسد ، وتداخل الجسد والروح معاً . وجسد المسيحى قد صار بالمعمودية مقدس الروح القدس (٦ : ١٢ — ٢٠) .

أما الفصول من السابع إلى الرابع عشر ، فهى جواب من الرسول رداً على رسالة بعث بها أهل كورنثوس مع هؤلاء المندوبين بلا شك.وقد أفرد الفصل السابع لمشاكل الزواج ، وهو أهم حجة بين أيدينا لعلاج المشاكل المعقدة التى تنشأ عن هذه الرابطة . والرسول ينكر تعدد الزواج والطلاق ، ويبين أن الزواج حالة طبيعية مقدسة ، على أنه يبين فى الوقت عينه مزايا حياة العزوبة الدينية .

وبعد ذلك يخصص ثلاثة فصول لمشكلة الطعام الذى يُقدم للأصنام، وهى لا تعنينا فى هذا العصر، ثم أربعة فصول أخرى تعالج مسائل متعلقة بالعبادة العامة، مثل تغطية النساء لرؤوسهن فى مجتمعات الكنيسة، وبعض المساوىء فى وليمة المحبة والعشاء المقدس، واستعمال المواهب الروحية وإساءة استعمالها. وقد تضمن الفصل الثالث عشر أنشودة المحبة الرائعة التى ما برحت تراثاً قيِّما تعتز به الكنيسة.

أما الفصل الخامس عشر عن القيامة فقد كان لإزالة شكوك بعض المسيحيين، لا حول قيامة المسيح، بل حول قيامة أجسادهم هم.

أما الفصل الأخير فقد عُنى بمسائل شخصية وتدابير للمستقبل.

وكان تأثير هذه الرسالة قوياً، فقد أَصلح أهل كورنثوس من حياتهم، وتنكبوا عن أخطائهم. على أن الروح الدفينة بقيت مستكنة فى بعض النفوس. وبعد أقل من سنة جاء إلى كورنثوس نفر المبشرين والدعاة، وقالوا انهم يفضلون الرسول بولس، وقد مال إليهم فريق من أهل المدينة. وكان أولئك الدعاة من الاستغلاليين الذين اتخذوا من الدين تجارة. وبعد سماع بولس لهذه الأنباء انطلق إلى كورنثوس فترة وجيزة لإصلاح الأمور، على أن اجتماعه معهم لم يكن موفقاً سعيداً، فعاد بعد ذلك إلى أفسس. ومن هناك بعث إليهم رسالة غاضبة فضح فيها اخطاءهم. وهذه الرسالة لم يبقِ لها التاريخ أثراً، ولكن أشير إليها فى ٢ كورنثوس ٢: ٤ - ويقول بعض العلماء ان كورنثوس الثانية ١٠: ١ - ١٣: ١٠ جزء منها. وإن صحّ هذا الرأى فهى تعلل الفرح الذى تهلل به الرسول فى ٢ كورنثوس ١ - ٧ - وكانت الرسالة الغاضبة قد حملها تيطس وأخوه إلى كورنثوس (٢ كور ٨: ٦ و ١٨). وبعد إرسالها بقليل رحل بولس من أفسس (أعمال ٢٠: ١). وفى رحلته خلال مكدونية التقى بتيطس

فى طريق عودته من كورنثوس، فأنبأه تيطس بالأثر الطيب الذى كان لرسالته الغاضبة وكيف أن أهل الكنيسة قد ندموا على تصرفاتهم وهم ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر . فشرحت هذه الرسالة صدر الرسول وبعث برسالته الرابعة إلى كورنثوس التى هى ٢ كورنثوس ١ ـ ٩ الحالية . وبعد ذلك بزمن قصير ذهب الرسول نفسه إلى كورنثوس وقضى هناك ثلاثة أشهر (أعمال ٢٠ : ٢)

وفى هذه الرسالة الثانية التى بأيدينا الآن ، يبدى الرسول غبطته بسبب الأنباء التى تلقاها من تيطس (٢ كورنثوس ١ ـ ٧) . ولكن حتى وهو يغتبط لا ينسى مشاكل الدين الكبرى عن موت المسيح ومجيئه الثانى ، ومكانة خدام الله فى الكنيسة ، وتقدمات المال لفقراء أورشليم ، والدفاع عن نفسه أمام الأدعياء الكذبة .

الرسالة إلى رومية

بقى بولس فى كورنثوس ثلاثة أشهر ، وفى غضون تلك المدة وعظ كثيراً ، وربما زار أثينا فى خلالها مرة ثانية . وبينما كان بولس فى كورنثوس ، كنا نرى فى مدينة رومية العظيمة جماعة صغيرة من المسيحيين يجتمعون فى مسكن أحدهم للعبادة والتسبيح ، بعضهم من أصل وثنى ، وبعضهم من أصل يهودى . ولم يدون لنا فى طروس التاريخ مَن كان مؤسس الكنيسة فى رومية ، ولم تذكر الأسانيد التاريخية شيئاً عن ذلك . ويبدو لنا هذا غريبا حين نرى سرعة إمتداد الكنيسة فى تلك المدينة وعلو كعبها فى العالم المسيحى ، من حيث كثرة عديدها وقوة نفوذها . ولو كان الذى وضع أساسها واحداً من الرسل ، لما أغفل التاريخ ذكر إسمه ، والمرجح لدينا أنها قامت على أكتاف نفر ممن اعتنقوا المسيحية فى مدائن الشرق . ثم رحلوا إلى رومية للاستيطان فيها ، أو لقضاء حاجات تجارية

أو سياسية ، وكانت رومية يومئذ مطمع أنظار جموع غفيرة من كل الأجناس والألوان والأديان، وبينها وبين أنطاكية صلات وثيقة . وكان لهذه الأخيرة نفوذ قوى فى رومية شكا منه الرومان بعبارة جرت مجرى الأمثال عندهم فقالوا: « ان مياه الأورنت تصب فى التيبر » ، والأورنت هو نهر أنطاكية والتيبر نهر رومية .

وبينما كان الرسول يتهيأ للرحيل من كورنثوس إلى أورشليم ، كانت سيدة من متنصريه تعدّ نفسها للشخوص إلى رومية — هى « فيبى » نزيلة كنخريا »، الميناء الشرقية لمدينة كورنثوس . وكانت تلك أرملة من ذوات اليسار « خادمة الكنيسة التى فى كنخريا » . (والكلمة اليونانية الأصلية معناها « شماسة » الكنيسة) ، وكانت قد أزمعت السفر إلى رومية لمهمة خاصة بها ، ويقول بعض الشرّاح لمباشرة دعوى قضائية فى محاكم رومية ، كما يستخلص من النصوص اليونانية الأصلية . فاغتنم الرسول هذه الفرصة لكى يسلمها رسالة إلى الجماعة المسيحية فى رومية ، وكان قد صحَّت عزيمته على أن يزور رومية بعد رجوعه من أورشليم، فأراد قبل اللقاء الشخصى أن يقدِّم لهم دليلا على ما يكنّه فؤاده لهم من عطف وتوادّ . ولسنا نظن أن كلهم كان غير معروف لديه ، فإنه أقرى السلام فى رسالته لأشخاص بأسمائهم ، مما يدل على أن بينه وبين كثيرين منهم تعارفاً شخصياً .

وقد كان بينهم أكيلا صانع الخيام وزوجته بريسكلا (رومية ١٦ : ٣). وربما يكونان قد قدما من أفسس فى الوقت الذى رحل فيه بولس إلى مكدونية عقب الثورة التى حدثت هناك قبل عام .

وكان بينهم أصدقاء لبولس من أفسس وكورنثوس ، منهم اثنان كانا أسيرين معه فى أدوار الأضطهاد التى عاناها . وكثيرون مثل أمبلياس وأوربانوس

وجوليا كانوا عبيداً . وبعضهم انتمى لأسر ثرية مثل آل نركيسوس ، الذى كان معتوق الامبراطور كلوديوس من قبل ...

وكان بولس قد دبّر قبل نشوب الثورة فى أفسس أن يسافر إلى فيلبى وكورنثوس وأورشليم ، وبعد ذلك يذهب إلى رومية ، وقد نفذ برنامجه هـذا ، وكانت الثورة قد عجّلت رحيله من أفسس قبل الموعد الذى حدده .

والآن نرى بولس على أهبة الرحيل من كورنثوس — حوالى فبراير سنة ٥٧ ب . م — وقبل رحيله يسلّم إلى « فيبى » رسالة تحملها إلى رومية :

ولم يكن بولس فى رسائله مؤلفاً ، يجلس إلى مكتبه ليتفنن فى صياغة الألفاظ وإبداع التراكيب ، يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، بل كانت رسائل طبيعية فى استهلالها وختامها ، يرسلها على سجيتها ، فيمليها على أصدقاء له ، ويعالج فيها مسائل خاصة بهم وبه . وكان يتحدث فيها بأسلوب بيّن ، وبألفاظ يونانية مألوفة مفهومة فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية .

وأما رسالته إلى رومية فتكاد تكون كتاباً أكثر منها رسالة . وذلك لأنه لم يعرف إلا القليل من التلاميذ فى رومية ، فلم يستطع أن يحدثهم بذلك الأسلوب الشخصى ، كما فعل فى كورنثوس مثلا .

ومع ذلك فهى فى وضعها وصياغتها رسالة ، وليست بحثاً لاهوتياً ، ولا سفراً توخى فيه كاتبه المحسنات البديعية أو اللفظية . . . رسالة تستفيض بأفكار بولس وخلجات نفسه العميقة عن مشيئة الله ، والخلاص الذى جاء به المسيح للبشرية . وكأنما بولس يرى أمامه قارئى رسالته ويعرف مشاكلهم وصعابهم ، فيجيب عنها فى أسلوب صريح ، فلا التواء فى الفكرة ، ولا تحذلق فى اللفظ ، كما كان يفعل جمهرة المتفلسفين فى عصره . . .

وليس يتسع المجال هنا لأكثر من خلاصة موجزة لبعض ما تضمنته تلك الرسالة :

« أنا بولس عبد يسوع المسيح يحيِّ جميع التلاميذ فى رومية ...... إن مهمتى أن أذيع دعوة الخلاص ، فأنا مديون لليونانيين ولغيرهم ، للحكماء والجهلاء ، لذلك أريد أن أوفى بعض دينى ، بأن أحمل إليهم هـذه الدعوة المباركة ، وإليكم أنتم ياقوم رومية ..... ومم تنقذنا هذه الدعوة التى أدعوكم إليها ؟ انظروا إلى من حولنا ، فهم يعرفون الله ، ولـكنهم اتخذوا لأنفسهم أصناماً يعبدونها من دون الله . وهم لا يجترحون الذنوب فقط ، ولـكنهم يُسرُّون بالذين يعملونها . والله يدين أولئك الذين يأثمون ، لا بأقوالهم بل بأعمالهم . هو يجازى كلاً حسب عمله ، فإنه لا محاباة عنده ولا تمييز فى الناس لديه . اليهود واليونانيون كلهم سواء (ويتبسط بولس كثيراً فى هذا الفصل الثالث من رسالته) لأن كلنا أخطأ إلى الله ....

لذلك كلنا بحاجة إلى أن نخلص ونُستنقذ من ربقة الخطية ، فكيف لنا ذلك ؟ هذا هو النبأ البهيج الذى نزُّفه إلى جميع الناس : أن نعتق نحن الخطاة من أسر الخطية بفدية أداها المسيح (رومية : ٣ : ٢٤) . ويستعير بولس فى هـذا القول تشبيهاً من العالم الرومانى ، فقد كان من مألوف العادات أن يباح للعبد الرقيق أن يؤدى كل ما ادخر إلى خزينة الهيكل ، فإذا أوفى مبلغاً معيناً جاء مولى ذلك العبد إلى الهيكل ، ليتناول من خزانته المبلغ الذى أودعه فيه عبده ، ويعطى إقراراً بأنه قد باع العبد إلى إله الهيكل ، ومن ثمَّ يصير العبد حراً ، ملكا للإله لا لمولاه ، الإله الذى اشتراه من مولاه وأصاره حراً طليقاً .

ويكمل هذا العتق بالإيمان ، وبالولاء التام فى خدمة المنقذ الذى افتدانا من ربقة الخطية .

ثم يستفيض بولس فيما ادّعاه اليهود من أن الإنسان يتبرر أمام الله بإطاعة ناموس موسى . وكان بولس ممن آمنوا بهذا من قبل ، ولكنه استيقن الآن أن الإنسان لن يخلص من الخطية بأعمال الناموس وأحكام الشريعة . وهنا يجهر بما أدَّى إليه تفكيره الروحى العميق ، وكان بُعيد اهتدائه قد اعتزل إلى القفر عالماً أن العالم القديم الذى عاش فيه قد تحطم وانهار . ونراه فى هذه الرسالة ، التى لم يكن معنياً فيها بمعالجة مشاكل خاصة لجماعة معينة من الناس ، يزيح اللثام ويجهر بموقفه حيال أدق المشاكل وأعوصها التى تصدت للكنيسة الفتية فى العشرين سنة الأولى بعد موت المسيح — ألا وهى علاقة الكنيسة باليهودية . وقد رأينا الرسول يتجه فى دعوته عملياً نحو الأمم ، وما كان بوسعه أن يفعل هذا — وهو الرجل الحصيف المفكر — دون إمعان الفكرة والاستيثاق من صواب فعله . وكان قد تلقى الأمر عند اهتدائه ليذهب إلى الأمم ، على أنه لم يُطلب إليه أن يفعل هذا قبل التفكير ملياً والموازنة بين الخطأ والصواب . وإلى تفكيره هذا الذى أودع خلاصته رسالته إلى رومية يرجع الفضل فى كوننا اليوم مسيحيين .

وكان المألوف فى ذلك العصر أن يمثل الزعيم أو شيخ القبيلة الجماعة كلها فى الحياة أو الموت . ومن ثم يرى بولس أن المسيح يمثل جميع البشر . « كذلك أنتم أيضاً أحسبوا أَنفسكم أمواتاً عن الخطية ، لكن أَحياء لله بالمسيح يسوع ربنا . فلا تملكن « عليكم الخطية » إذ أُعتقتم منها وصرتم عبيداً للبر . وأَجرة الخطية هى موت ، وأما هبة الله فهى حياة أَبدية بالمسيح يسوع ربنا » .

ويكتب الرسول بعد هذا فصلا مطولا عن علاقة تلاميذ يسوع بناموس موسى .

وثمة حقيقة رائعة : « فإن كل الذين ينقادون بروح الله ، فأولئك هم أبناء الله » . والله أبونا ، هذا هو رجاؤنا العتيد . وقد أظهر الله لنا محبته ، بأن أرسل يسوع ليموت عنا ، فليس يفصلنا عن محبته أحد .

ويذكر بولس أنه يرتضى لنفسه أن يكون محروماً من المسيح ، لو كان فى هذا الحرمان خلاص لأبناء جلدته ، اليهود ، وعرفانهم الحق . ثم يتحدث فى إسهاب عن « الاختيار » و « القضاء المحتوم » ، إذ يرى قومه يرفضون المسيح وهم شعب الله الذى اصطفاه دون سائر الشعوب . ولكنه يؤمن أنهم يخلصون أخيراً . وفى هذا تتشعب وجوه الرأى وتتباين وجهات النظر فى هذا العصر ، وليس هنا مقام التعليق على آراء بولس من هذه الناحية . وحسبنا القول إن هذا كله بعيد عن متناول مداركنا ، فلنكل الأمر لله وهو يجرى حقاً وعدلا .

وينتقل من هذا إلى النصح العملى فيقول :

« . . . . لا تكونوا حكماء عند أنفسكم ، لا تجازوا أحداً عن شر بشر . . . . . سالموا جميع الناس . . . . لا تنتقموا لأنفسكم بل أعطوا مكاناً للغضب . . . . إن جاع عدوك فأطعمه وإن عطش فاسقه . . . . . . لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير . . . » .

« .... بأكثر جسارة كتبت إليكم .... حتى أكون خادماً ليسوع المسيح .... لى اشتياق أن أجىء إليكم منذ سنين كثيرة .... ولكن الآن أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين .... ومتى أكملت ذلك سأمضى ماراً بكم إلى أسبانيا .... وأطلب إليكم أن تجاهدوا معى فى الصلوات .... لكى أنقذ من الذين هم غير مؤمنين فى اليهودية . ولكى تكون خدمتى لأجل أورشليم مقبولة .... حتى أجىء إليكم بفرح بإرادة الله وأستريح معكم » .

وقد رحل الرسول فعلا إلى رومية بعد هـــــده الرسالة ، ولـكنه كان أسيراً لا حراً .

وتختم الرســالة بتحيات كثيرة إلى التلاميذ فى رومية الذين عرفهم بولس أو سمع عنهم . ويشترك معه فى هـذه التحيات تيموثاوس وأرستس أمين خزينة كورنثوس وغيرهما. ثم يذيلها بخط يده بالبركة ويدفعها إلى فيبى لتحملها معها إلى رومية .

(اقرأ رومية ص ١٢ و ١٣ حيث ترى مجموعة من الأحكام الرائعة للحياة اليومية) .

رسائل الأسر

رسـالة أفسس

كتب بولس وهو سجين فى رومية رسائل أربعاً : أفسس — فيلبى — كولوسى — فليمون . ولقد أجاد مونتانوس إذ شبـّه نفس بولس بقيثـارة ذات أوتار حساسة، فلما هبـّت عليها نسمة نعمة الله المتنوعة ، أفاضت منهـا نغمات عدة . فتارة نسمع دوى رعد قاصف كما فى رسالته إلى غلاطية ، وطورا نصغى إلى ترجيع أناشيد عذبة رخيمة ، كما فى رسالتيه إلى فيلبى وفليمون . وحيناً نستمع إلى تسبيح ملائكى يرتفع إلى السماويات فى الأعالى كما فى رسالة أفسس. وفى كل هذه النغمات المتعددة ، توجد أصداء مشتركة تتخللها جميعها ، فتوحد مابينها من تجانس . ففى رسالة أفسس نجد أصداء متجاوبة مع رسالة كولوسى ، وفى رسالة كولوسى نسمع نغمات مشتركة مع ألحـــان فيلبى ، وفى رسالة فيلبى نصغى إلى نبرات متفقة مع أناشيد رسالة فليمون .

ويقول بعض الشراح ان تيخيكس حمل معه أربع رسائل — فليمون ، وكولوسى، وأفسس ، وأخرى إلى لادوكية (أنظر كولوسى ٤ : ١٦)، وان هذه الرسالة الأخيرة قد فقدت ولم يحتفظ أحد بنسخة منها.

ويقول البعض الآخر ان الرسالة الى « لادوكية » هى بعينها الرسالة الى أفسس، وان بعض النسخ الخطية القديمة خلت من الكلمة « أفسس » فى الأصل، وأقدمها نسختان باقيتان حتى اليوم — إحداها فى بتروغراد ، والأخرى فى مكتبة الفاتيكان برومية .

ويذهب آخرون — وهو الرأى الأكثر شيوعاً — الى أن هذه الرسالة «دورية » كتبها الرسول الى كل كنائس مقاطعة آسيا ، وأنه ترك فراغاً يذكر فيه اسم المدينة حيثما قرئت الرسالة . ولما كانت أفسس على رأس مدائن تلك المقاطعة ، فليس غريباً أن ترسل الرسالة الى كل تلك الكنائس عن طريق كنيسة أفسس، ولعلَّ هذا هو السبب الذى حدا ببعضهم الى ذكر كلمة «أفسس» فى فاتحة الرسالة فى كثير من النسخ الخطية القديمة .

والدليل على أن تلك الرسالة كانت « رعائية عامة » تقرأ على التوالى فى غير كنيسة واحدة ، خلوّها من التحيات الفردية ، وتجرّدها من الاشارات الشخصية، وهو ما كنا ننتظره من الرسول حين يكتب الى كنيسة عاش بين ظهرانيها زهاء ثلاث سنوات ، وتوثقت بينه وبين أعضائها أواصر المحبة والمودة .

على أنه لايعنينا الآن التوسع فى مناقشة هذه الآراء المتباينة . وسواء كتبت الرسالة الى أفسس ، أو الى لادوكية ، أو إلى مجموعة من الكنائس ، فإنا نرى الرسول يسمو فيها إلى أرفع ذرى التفكير الروحى ، ويبتعد عن كل جدل حول اليهود والأمم، والناموس والطقوس ، وتحفل خيالاته بأشياء السماء،

وتغرق تصوراته فى روى الله قبل كون العالم . وبينما كان بولس يسمع بالجسد صلصلة السلسلة المربوطة الى يده وهو قعيد السجن ، كانت روحه تتسامى فى الأعالى مع «الرفيق الأعلى» ، يستوحى فى هدوء التأمل أسرار الله فى السماء .

وليس من اليسير علينا أن نفهم القسم الأول من الرسالة ، وحسبنا أن نقدم هنا وشلا يتقطر ، من بحرها الزاخر المنهمر ، وندل القارىء إلى موضع ذلك الكنز المدخّر . ولعله بعد ذلك يعود بنفسه إلى اكتناه أسراره والغوص لاقتناص درره .

يبدأ الرسول بقوله : « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح ... الذى فيه لنا الفداء . (١ : ٣ و ٧)

ثم يسهب فى شرح هذا الفداء فيقول : « ... نحن أيضاً تصرفنا قبلا فى شهوات جسدنا . عاملين مشيئات الجسد والأفكار ، وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً .. ولكن الله .. من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا ، أحيانا مع المسيح ـ (بالنعمة أنتم مخلصون) ـ وأقامنا معه من الأموات .. لأنكم بالنعمة مخلصون بالايمان » (٢ : ٣)

والرسول هنا يؤكد فى يقين أن يسوع قام من الأموات ، وأننا حين نركن إليه ونعتمد عليه ، ينالنا خلاص من الخطية أشبه بقيامة الحياة بعد الموت :

«أذكروا أنكم كنتم ... أجنبيين . لارجاء لكم وبلا إله فى العالم .. ولكن الآن صرتم .. رعية مع القديسين وأهل بيت الله .. الذى فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله فى الروح» (٢ : ١٩ ـ ٢٢)

والرسول مقيد الآن بأصفاد الأسر ، لأن اليهود أبغضوه وطردوه لمناداته برجاء الخلاص للأمم ـ الشعوب الوثنية ـ ولئن كان هذا فى نظر اليهود

فرية وإثما ، فإن الله ، حسب حكمته وقصد الدهور ، قد هيأ لكل أجناس البشرية « قدوما بإيمان عن ثقة » فى المسيح المنقذ . لذلك نراه يختم هذا القسم من رسالته بدعاء خاشع حار لكيلا يفتر قراؤه فى الاعتصام بهذه « الثقة فى المسيح »:

« بسبب هذا أحنى ركبتى » .. لكى يعطيكم (الله) بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه فى الإنسان الباطن .

«ليحلّ المسيح بالايمان فى قلوبكم .. حتى تعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة وتمتلئوا إلى كل ملء الله» (٣ : ١٢ الخ) .

وبعد أن يتحدث الرسول إلى قرائه عن قصد الله لإنقاذ البشر من موت الخطية ، وبعد أن يحصر أفكارهم فى المسيح يسوع المنقذ ، وبعد أن يبين لهم أنهم قد يستطيعون أن يكونوا من أهل بيت الله بنعمة المسيح ، بعد كل هذا يعرج إلى الحياة الجديدة التى هى ثمرة من ثمار هذا الإيمان . ومرة أخرى نراه عملياً إلى أبعد حد، فيضع المبادىء البسيطة الرائقة دون تكلف فى سنّ الأحكام المفصلة الجامدة .

« أسلكوا كما يحق للدعوة التى دعيتم بها . . . مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام ... لكل واحد منا أعطيت النعمة حسب قياس هبة المسيح . . . لكى يملأ الكل . . . لا تسلكوا فيما بعد كما يسلك سائر الأمم ... الذين أسلموا نفوسهم للدعارة ليعملوا كل نجاسة فى الطمع ... ألبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله فى البر وقداسة الحق ...

« تكلموا بالصدق كل واحد مع قريبه ... اغضبوا ولا تخطئوا ، لا تغرب الشمس على غيظكم ... لا يسرق السارق فى ما بعد ، بل بالحرى يتعب عاملا الصالح بيديه ليكون له أن يعطى من له احتياج »(ص ٤) .

ولا يفتأ الرسول يحذر أتباع المسيح ضد نجاسة القول والفكر : ـ « وأما الزنا وكل نجاسة أو طمع فلا يسمّ بينكم كما يليق بقديسين ، ولا القباحة ولا كلام السفاهة والهزل التي لا تليق بل بالحرى الشكر . فإنكم تعلمون هذا أن كل زان أو نجس أو طماع ... ليس له ميراث فى ملكوت المسيح والله . . . »

« أسلكوا كأولاد نور لأن ثمر الروح هو فى كل صلاح وبر وحق . . . لا تسكروا بالخمر الذى فيه الخلاعة » (٥ : ٣ — ١٨)

وكانت الزوجة فى ذلك العصر متاعاً ، ملكا لزوجها ، كعبده أو كماشيته. وغير مرة يوصى الرسول الأزواج بمراعاة النصفة والمساواة فى معاملة زوجاتهم (٥ : ٢٥ — ٣٣) .

ومرة أخرى يشير إلى العبيد ومواليهم ، طالباً من هؤلاء الأخيرين إحساناً فى المعاملة « عالمين أن سيدكم أنتم أيضاً فى السموات وليس عنده محاباة » . ثم يحثهم الرسول بعد ذلك ليكونوا جنوداً باسلين متدرعين بأسلحة الله . ويرجوهم ذكره فى أدعيتهم ليتذرع بالثبات والجرأة فى المناداة بسرّ الإنجيل وهو « سفير فى سلاسل » . ويختم رسالته بقوله ان « تيخيكس الأخ الحبيب والخادم الأمين فى الرب يعرّفكم بكل شيء عن أحوالى » .

تقرأ الرسالة على أسماع كثيرين فى أنحاء ولاية آسيا الرومانية ، فيصغى إليها قوم ، وينسخ آخرون صوراً منها ، لتتناولها الأجيال المتعاقبة ، وثيقة مقدسة خالدة إلى أن تنتهى إلينا نحن فى القرن العشرين ، تحمل الينا بلاغاً عن « قصد الله الأزلى المعلن فى المسيح » .

الرسالة الى فيلبى

قلنا إن الرسول الكبير كتب من سجنه فى رومية أربع رسائل : هى فليمون وكولوسى وأفسس وفيلبى . وتعرف هذه « برسائل الأسر » .

وكانت فيلبى فى زمن الدولة الرومانية أهم مدن مكدونية، وسميت فيلبى باسم الملك فيلبس أبى الاسكندر المعروف بذى القرنين . وعلى مقربة منها مناجم كان الملك فيلبس يستخرج منها ذهباً وفضة حتى لم يبق فيها فى زمن الرسول إلا الشيء القليل . وفى زمن الامبراطور أغسطوس — الذى ولد يسوع فى زمانه — تأسست فى هذه المدينة مستعمرة رومانية ، صار لأهاليها الحقوق عينها التى كان يتمتع بها سكان رومية ، وأقيم عليها حكام رومانيون استطاعوا أن يجعلوها كجزيرة رومانية صغيرة فى وسط ذلك المحيط اليونانى .

وكانت فيلبى أول مدينة أوربية زارها الرسول بعد الرؤيا التى رآها فى آسيا الصغرى ، يوم رأى فى منامه رجلا يقول له :«اعبر إلى مكدونية وأعنا ». واهتدى فيها ثلاثة أشخاص : ليدية التاجرة من آسيا ، والعبدة اليونانية ، وحارس السجن الرومانى . وهؤلاء يمثلون الأجناس الثلاثة الرئيسية فى المدينة . أى الأسيوى واليونانى والرومانى . وقد نشطت دعوة الانجيل فى هذه المدينة ، واشتهرت الجماعة المسيحية فيها ، لا بكثرة العدد فقط ، بل بالاخلاص فى الايمان، والسخاء فى العطاء ، والنماء فى الفضائل . ولم ينس بولس الحوادث التى صادفته فى فيلبى . ولم ينس الفتاة التى كان بها « روح عرافة » ، ولا الولاة الذين ضربوه بالسياط ، ولا الزلزلة وحارس السجن ..... ولقد زار فيلبى مرة فى طريقه من أفسس إلى كورنثوس ، وأخرى فى عودته من كورنثوس إلى

أورشليم (أعمال ٢٠ : ٢ و ٣). كما أن المسيحيين هناك لم يفتروا عن ذكر الرسول الذى هداهم إلى الحق المبين ، وظلوا يتتبعون أنباءه ، ويوالونه بالتقدمات والإعانات .

وفى يوم وهو سجين فى رومية ، يدخل عليه شاب مسيحى مبعوث من أهالى فيلبى ، هو أبفرودتس ، يحمل إلى الرسول هدية عربونا لمحبتهم إياه وحدبهم عليه . ولقد قضى هذا المبعوث ردحاً من الزمن مع بولس يشاركه فى الكفاح ضد الخطية والشر وبثّ مبادىء الإنجيل فى رومية العظيمة . ولعلّه أقام مع الرسول فى داره بدليل قوله عنه « الخادم لحاجتى » . ولكن أبفرودتس أُصيب بمرض اشتدت وطأته عليه حتى كاد يقضي نحبه . ولما تعافى جاء إلى بولس وأَخذ يبثّ له حنينه للعودة إلى وطنه ، ليسكِّن روع أَصدقائه هناك الذين بلغهم خبر اشتداد المرض عليه وإشرافه على الموت .

ولم يشأ الرسول أَن تفوته هذه الفرصة دون أَن يرسل معه رسالة . فاستدعى أَحد زملائه ، ربما لوقا أَو تيموثاوس أَو أَبفرودتس ذاته ، واستحضر دواة وقلماً من الغاب ورقوقاً من أَوراق البردى ، وأَملى عليه رسالته على مسمع من الجندى الرومانى الذى يحرسه ....

وقد خصّ ذلك المبعوث الشاب بأطيب القول وأرق العبارات : « .... ولكنى حسبت من اللازم أَن أُرسل إليكم أبفرودتس أخى ، والعامل معى ، والمتجند معى ، ورسولكم ، والخادم لحاجتى . إذ كان مشتاقاً إلى جميعكم ومغموماً لأنكم سمعتم أنه كان مريضاً . فإنه مرض قريباً من الموت لكن الله رحمه . وليس إياه وحده بل إياى أيضاً . لئلا يكون لى حزن على حزن . فأرسلته إليكم بأوفر سرعة حتى إذا رأَيتموه تفرحون أيضاً وأَكون أنا أَقل حزناً . فاقبلوه فى الرب بكل فرح وليكن مثله مكرماً عندكم . لأنه من

أجل عمل المسيح قارب الموت مخاطراً بنفسه لكى يجبر نقصان خدمتكم لى » .
(فيلبى ٢ : ٢٥ — ٣٠) .

وبعد أن يهدى أصدقاءه أزكى التحيات يخبرهم كيف آلت أموره إلى تقدم الإنجيل ، وكيف عُرف « فى دار الولاية » بين رجال الحرس الإمبراطورى أنه موثوق إلى السلاسل من أجل المسيح « وبهذا أنا أفرح ، بل سأفرح أيضاً » .

وبولس واثق من براءته فى المحاكمة ، وهو متأهب ليلقى الموت ، ولكنه يودُّ الحياة من أجل المسيح ، ومن أجل أصدقائه فى فيلبى : « لكى يزداد افتخاركم فى المسيح يسوع فىّ بواسطة حضورى أيضاً عندكم ».

ثم يحثُّهم على الحياة الجديرة بدعوتهم الجديدة « فى روح واحد مجاهدين معاً بنفس واحدة لإيمان الإنجيل .... لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا فقط ، بل أيضاً أن تتألموا لأجله ، إذ لكم الجهاد عينه الذى رأيتموه فىّ والآن تسمعون فىّ » .

وبعد ذلك يملى بولس تصريحاً جليلا عن إيمانه بالمسيح المنقذ :

« فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً . الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله . لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس . وإذ وجد فى الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب . لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم . لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب » .

وحينما نذكر أن بولس الآن قعيد دار ضيقة ، فى سلاسل الأسر ، وأن أتباع المسيح لم يربُ عددهم على بضعة آلاف فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وأن الدولة الرومانية العظيمة تعبد آلهة كثيرة — حينما نذكر هذا كله ، يبدو لنا مستغرباً حقاً أن يملى الرسول رسـالته بنغمات الثقة لأكيدة فى غلبة المسيح ، وإخضاع العالم كله لسلطانه .

ثم يذكر مايصح أن نسميه « قاعدة الحياة » فى نظر بولس :

« .... لـكنى أفعل شيئاً واحداً — إذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام . أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع »(٣ : ١٤) وذلك «لأن لى الحيوة هى المسيح » كما يقول فى موضع آخر فى هذه الرسالة ...

« .... أخيراً أيها الإخوة كل ما هو حق ، كل ماهو جليل ، كل ما هو عادل ، كل ما هو طاهر ، كل ما هو مسرّ ، كل ما صيته حسن ، إن كانت فضيلة إن كان مدح ، ففى هذه افتكروا » (٤ : ٨) .

وتفيض خاتمة الرسالة حمداً وشكراناً للاخوة فى فيلبى الذين شاطروه آلامه وضيقاته ، ويقول لهم أخيراً : « يسلِّم عليكم جميع القديسين ولا سيما الذين من بيت قيصر » .

ونستدل من النقوش أن بعض أسماء العبيد الذين ذكرهم بولس فى تحياته فى ختام رسالته إلى رومية ، التى كتبها قبل هـذا التاريخ بأربع سنوات ، ينتمون إلى « بيت » نيرون قيصر رومية ، وهو الآن يشير إليهم مرة أخرى دون أن يذكر أسماءهم . وقد عرف أهل فيلبى مَن هم الذين عنيهم الرسول فى كلامه .

فكأن دعاية بولس فى رومية قد بلغت عبيد الامبراطور الرومانى ورجال حرسه — وقد كان هؤلاء وأولئك على جانب عظيم من سعة النفوذ فى البلاط القيصرى .

هذه هى الرسالة إلى فيلبى التى قال عنها الأسقف « ليتفوت » العالم الكبير فى اليونانية :

« ليست الرسالة إلى فيلبى أسمى صورة لصفات بولس الشخصية تشعُّ منها أنوار روحانيته وحسب ، بل هى أثر خالد لقوة الإنجيل . فما انقضى ثلاثون عاماً على صلب يسوع كمجرم فى ولاية بعيدة من ولايات الدولة الرومانية ، وما انقضى عشر سنوات على مناداة الرسول للمرة الأولى فى فيلبى بنبأ موت المسيح ، حتى حدث ما يذهل العقول وتحار فيه الأفهام . . .

« ولم تكن الروابط التى جمعت بين هؤلاء الأنصار والمجاهدين ، روابط الجنسية ، أو المصلحة المشتركة ، أو القرابة الدموية ، أو العصبية القومية ، بل كانت هناك رابطة سرِّية أقوى جداً من هذه كلها — رابطة المحبة التى ألَّفت بين بولس وأبفرودتس والمتنصرين من أهل فيلبى ، محبة وثيقة العرى أشبهوا بها وشيجة مؤلفة من ثلاث أسدية محكمة الفتل لا يستطيع كاتب الرسالة أن يتصور إمكان حلهـــا ، إذا اغتبط الواحد منهم يغتبط الآخر معه ، وإذا تألم يتألم معه .

وتلك القوة غير المنظورة التى أوجدت هذه الألفة المحبوكة الأواصر هى — قوة قيامة المسيح — (فيلبى ٣ : ١٠) ، وتلك المحبة المتبادلة قد استفاضت من — أحشاء يسوع المسيح — (فيلبى ١ . ٨) غذِّيت بدمه ونمت بحياته . فإن ناموس المحبة لم يضع من حياة المسيح وموته وقيامته مثالا يُحتذى فقط ، أو واجباً أدبياً يحترم ، بل قوة وحياة روحية لم يكن للناس بهما عهد من قبل .

الرسالة الأولى إلى تيموثاوس

لعلّ تيموثاوس الشاب كان أقرب الزملاء إلى قلب بولس، وما أكثر ما نعرف عنه وعن زمالته الوفيّة. فقد ظل ثمانية عشر عاماً ألصق الصحاب وأوفى الخلان للرسول المجاهد الأمين. وكثيراً ما ورد اسمه فى مذكرات لوقا وهو يسرد رحلات بولس.

وقد كان تيموثاوس هذا يصغر بولس، ربما بثلاثين عاماً، وعاش فى حداثته بمدينة لسترة فى آسيا الصغرى. أما والده فلا نعرف عنه شيئاً، وحتى اسمه نجهله، ولكنه كان يونانياً من عبدة الإله زيوس الذى قام هيكله على أبواب لسترة. أما أمه «أفنيكى» وجدّته لأمه «لوئيس»، فقد كانتا من أتقياء اليهود، ومن عبدة الإله الواحد البار القدوس. وقد درج تيموثاوس فى حضنيهما على تعاليم «الكتب المقدسة القادرة أن تحكم للخلاص، بالإيمان» (١ : ٥ و ٣ : ١٥).

أما أبوه اليونانى فقد كان متهاملا فى هذه الشئون، شأن أبناء قومه. وقد عاش فى عصر هوت فيه العقيدة الدينية إلى طقوس تقام فى العلن، ولا تؤمن النفوس التى تؤديها بشىء مما وراءها. ولعلّ الوالد سخر فى دخيلة نفسه من القصص التى رواها كهنة الإغريق وشعراؤهم عن آلهتهم اليونانية. لذلك أباح لزوجته وأمها أن تنشئا تيموثاوس على «الكتب المقدسة» وفى الدين اليهودى.

وقد تعلّم تيموثاوس منهما، كما تعلم بولس من أبويه، قواعد الأخلاق الفاضلة فى الناموس العبرى القديم، واستظهر الوصايا العشر، وعرف قصص ابراهيم وارتحاله من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان، ويوسف وحياته الطاهرة

النقية فى أرض مصر ، وموسى الذى أخرج أمته المستعبدة من أرض الفراعنة ، وأرمياء النبي الباسل الذى بكى خطايا شعبه بدل الدمع دماً .

وقد شغف تيموثاوس منذ حداثته بالبحث والدرس، وقرأ الأسفار اليهودية وهو يافع ما يزال . ولعله قرأها بالعبرية ، ولا ريب أنه قرأها باليونانية . وراح يفكر ملياً فيما احتوته ، فاستقرت فى نفسه ما فيها من نُذُر وتعاليم ، ونُصح فى مسلك الحياة القويم . وبينما كان أهالى لسترة يعبدون الإله زيوس ، كان ذلك الصبي يعبد الله الواحد ، ربّ السموات والأرض ، ويحيا مترقباً مجىء المنقذ الذى اشرأبت اليه أعناق شعب إسرائيل ، وتطلعت أرواحهم لمورد ريّه .

والتقى تيموثاوس ببولس وبرنابا يوم قدما لسترة لأول مرة . ولعله شهد بعينيه الكسيح الأعرج منذ ولادته ، يطفر جذلا بعد إذ جذبه بولس من يديه وأمره بالنهوض . ولعله كان بين الواقفين فى الجمع الذى عبد بولس وبرنابا كالهين ، وفى هذا الجمع عينه الذى حاول بين عشية وضحاها أن يرجمهما كمجدّفين .

ولقد أعجب تيموثاوس بجرأة بولس ، وغيرته ، وبسالته فى تحمّل الاضطهاد والظلم والتعذيب . وأعجب بولس بتيموثاوس لتعمقه فى دراسة الأسفار المقدسة ، وإلمامه بكل ما سمع منه عن يسوع المنقذ العجيب ، وتوسّم فيه الزعامة الصالحة ، والحكمة الرصينة ، فى رعاية الأنفس . لذلك نراه عند زيارة لسترة ، فى رحلته الثانية مع سيلا ، يدعو تيموثاوس إلى مرافقته وإعانته فى جهاده المبرور .

وأغلب الظن أن أبا تيموثاوس اليونانى كان قد مات ، ولو كان على قيد الحياة ، ما نظن أنه كان يحول بين ولده وبين ما اشتهت نفسه .

ومن ثمّ نرى تيموثاوس يزامل بولس مدى اثنتى عشرة أو أربع عشرة سنة ، يسير برفقته فى الطرقات الرومانية ، ويكون له عوناً وهو نزيل السجون الرومانية .

كان تيموثاوس مع بولس فى فيلبى ، يوم جلدّه الولاة بالعصىّ ، ويوم زلزلت الأرض ، ففتحت أبواب السجن على مصاريعها .

وكان معه بعض الوقت فى أثينا ، يوم سخر حكماء الاغريق من تعاليمه وحسبوه مهذاراً يهرف بما لا يعرف .

وكان معه فى كورنثوس الفاجر الشريرة حيث جاهد ليهدى الرجال والنساء إلى طريق البرّ وطهارة الحياة [١] .

وكان معه فى أفسس يوم أحرق السحرة كتب سحرهم وشعوذتهم [٢] .

وكان معه وهو أسير فى رومية [٣] .

وبعد أن أطلق بولس من الأسر ، اغتبط أيما اغتباط بلقيا زميله العزيز فى أفسس ، وبعد أن غادر هذه المدينة إلى المدائن الأخرى تركه وراءه ليكون مرشداً وراعياً للتلاميذ فى أفسس ، وهو بعد شاب لعلّه لم يجاوز الثلاثين من العمر .

إذن كان تيموثاوس « اسقفا » أو وصياً [٤] على الجماعات المسيحية فى افسس وما جاورها من المدن . ولم يكن يسيراً الاشراف على تلك الجماعات ،

---

(١) أنظر أعمال ١٧ : ١٤ و١ وتسالونيكى ٣ : ١ وأعمال ١٨ : ٥
(٢) أعمال ١٩ : ٢٢
(٣) فيلبى ١ : ١
(٤) أطلق فى لغة العهد الجديد على هذه الوظيفة لقب « أسقف » episkopos أو « شيخ » presbuteros

فقد كان بينهم مَن لم ينقطع كلية عن ماضيه المغرق فى الاثم ، وبينهم مَن عصا أوامر تيموثاوس واستهان بحداثته ، وبينهم كسالى يتمنون رخاء العيش فى غير كفاح وجلاد ، وبينهم من أغوته أضاليل المعلمين الكذبة ، وبينهم من زلق فى مزالق الغرور والطمع والسعى وراء عرَض الحياة وكثرة المال .

ولم يكن يسيراً على تيموثاوس الشاب أن يحتفظ بهدوء الطبع ونعومة البال وقوة الرجاء فى مدينة كأفسس • ولم يجهل بولس مالقى هو نفسه فى هذه المدينة، والتجارب التى تعرض للمسيحيين الناشئين هناك • ويغلب على الظن أنه التقى فى أثناء مقامه فى فيلبى أو غيرها من مدن مكدونية ، بصديق ذاهب إلى أفسس ، فأملى عليه رسالة يحملها إلى الزميل الشاب •

وإذ يفضُّ تيموثاوس أختام الرسالة ويقرؤهـا ، يحسُّ كأن بولس نفسه يتمشى معه فى غرفته ، ويتحدث معه حديثاً يُدخل الطمأنينة إلى قلبه ، ويملأ بالرجاء نفسه • وإن المرء ليشعر ، وهو يقرأ هذه الرسالة اليوم بعد تسعة عشر قرناً، هذا الشعور بعينه من عزاء وسلوى، إذا ما اكفهرّ جوُّ الحياة ، وقامت فى وجه العامل المجاهد العراقيل التى يخلقها اعوجاج الطبيعة البشرية وزيغها •

ويرسم لنا الرسول فى رسالته هذه صورة لبعض مسائل الحياة اليومية التى عرضت لزعيم شاب ، حينما بدأ المسيحيون الأولون تكييف أنفسهم على مبادىء يسوع المسيح وتطبيقها عملياً فى مدينة يونانية فى القرن الأول • وكان فرضاً عليهم أن يفكروا فيما عساهم أن يفعلوا فى مسائل الثياب والسلوك والحياة الاجتماعية بصفة عامة • أيفرض عليهم ولاؤهم الجديد للمسيح أن يغيروا أزياءهم، أم يبقون محافظين على زىّ جيرانهم ومواطنيهم ؟

وإذ يبعث الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس بتوصياته ونصائحه فى هذه

الشئون ، لايضع شريعة جديدة ، بل يرشد تلميذه إلى أمثل الطرق لتطبيق مبادىء المسيح فى زمن معيَّن ومكان معين .

ولذا نرى الكثير فى هذه الرسالة يدور حول نظم العبادة العامة ،وبساطة الملبس فى أماكن الصلاة ، والمزايا والخواص التى يجب توافرها فى الأساقفة أو الشيوخ ، وفى الشمامسة ، الذين تعهد إليهم رعاية الكنائس والقيام على شئونها .

وتضمنت انذاراً صريحاً ضد التعاليم الكاذبة ، والأضاليل الخادعة التى يروِّجها دعاة السوء المارقون عن الايمان الصحيح — وكذلك تضمنت نصحاً حكيما فى وجوب العناية بالأرامل ، وتوخى الدقة فى انتخاب الأساقفة أو الشيوخ .

وقبل هذا التاريخ بسبع سنوات حين كتب بولس رسالته إلى كورنثوس أوصى أن ترتدى المرأة قناعاً فى مكان العبادة ، وقد كان الرسول فى هذه الوصية خاضعاً لروح العصر الذى عاش فيه ، فلم يبح للمرأة أن تتولى مهمةالتعليم والإرشاد (١ كور ١١ : ١٣ و١تيمو ٢ : ٦٢).

كذلك تأثر الرسول بالنظم الاجتماعية القائمة فى عصره ، حين حثّ العبيد المسيحيين على إطاعة مواليهم والإخلاص فى خدمتهم . ولعله لم يفطن إلى أن مناداته بالمساواة والأخاء بين العبد وسيده ، كانت انذاراً صارخاً للقضاء على الرقّ .

على أن الشيِّق حقاً فى هذه الرسالة مايوجِّهه الرسول من الكلام مباشرة إلى تلميذه وإليك بعض هذه الأقوال :

« روِّض نفسك للتقوى، لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ،ولكن التقوى نافعة لكل شىء ،إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة » (٤ : ٨)

« اتبع البرّ والتقوى والايمان والمحبة والصبر والوداعة . جاهد جهاد الايمان الحسن وأمسك بالحياة الأبدية » (٦ : ١١ و١٢) .

« أوص الأغنياء فى الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى ، بل على الله الحيّ الذى يمنحنا كل شيء بغنىً للتمتع . وأن يصنعوا صلاحاً وأن يكونوا أغنياء فى أعمال صالحة ، وأن يكونوا أسخياء فى العطاء ، كرماء فى التوزيع ، مدّخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل لكى يُمسكوا بالحياة الأبدية » (٦ : ١٧ – ١٩)

« محبة المال أصل لكل الشرور » (٦ : ١٠).

« وأما الخرافات الدنسة العجائزية فارفضها » (٤ : ٧) .

« كن قدوة للمؤمنين فى الكلام فى التصرف فى المحبة فى الايمان فى الطهارة » (٤ : ١٢) .

« احفظ الوديعة معرضاً عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الاسم » (٦ : ٢٠).

ويكتب بولس كرجل واثق كل الثقة بالحق الذى يدعو إليه ، ولكنه يكتب أيضاً كرجل عصا يوماً هذا الحق وتمرد عليه . وبعد أن يخدم يسوع ثلاثين سنة أو يزيد ، لم يستطع أن ينسى ميتة استفانوس :

« وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذى قوّانى أنه حسبنى أميناً إذ جعلنى للخدمة . أنا الذى كنت قبلا مجدفا ومضطهداً ومفتريا ، ولكننى رُحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان . وتفاضلت نعمة ربنا جداً مع الايمان والمحبة التى فى المسيح يسوع . صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء الى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا . لكننى لهذا رحمت ليظهر يسوع المسيح فىّ أنا أولا ، كل أناة مثالا للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة

الأبدية . وملك الدهور الذى لا يفنى ولا يُرى الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد الى دهر الدهور» (١ : ١٢ – ١٧).

وليس بين الذين حملوا لواء المسيحيــة على كرِّ الدهور أعظم من بولس ، ولكنه فى نظر نفسه ليس إلا « أول الخطاة » .

الرسالة إلى تيطس

كريت جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط تبعـد عن بلاد اليونان نحو ستين ميلا جنوباً . وفى الرحلة إلى رومية رست السفينة التى أقلَّت بولس على مينائها التى تدعى « الموانىء الحسنة» ، وذلك قبل أن تعصف بها الزوبعة فتبعد بها عن طريقها المألوف . وقد عُرف الكريتيون فى العالم القديم بالأخلاق السافلة والخصال المسترذلة . ولعلَّهم لم يكونوا أسوأ من غيرهم ، ولكن التاريخ وصمهم بالطمع وسوء الخلق والخداع والتضليل ، حتى لقد قال عنهم أحد شعرائهم فى الزمن القديم إنهم « دائما كذابون ، وحوش ردية ، بطون بطالة [1] » . وحينما أُطلق بولس من أسره فى روميـة ، كانت كريت إحدى البلدان التى زارها لتفقد الجماعات المسيحيـة فيها . ولم تطمئن نفسه إلى تصرفات القوم . ولكنه لم يستطع البقاء طويلا لتقويم ما اعوجَّ وإصلاح مافسد . ورأى أن يعهد بهذه المهمة إلى زميل له عرفه قبل سنوات . فلما غادر كريت ، ربما إلى ميليتس وأفسس ، ترك وراءه زميله تيطس ليجهد فى اصلاح الأمور المعوجة ، ولينتخب من يتوسم فيهم الحكمة والدراية لرعاية الجماعات المسيحية فى مدن الجزيرة .

---

[1] انظر تيطس ١ : ١٢ وهذا الشاعر هو « ابيميندس » الذى عاش حوالى سنة ٦٠٠ ق . م وقد كان نبيا فى نظر الأغارقة قديماً .

أما تيطس هذا فلا نعرف عنه إلا النذر اليسير . وتقول التقاليد والأحاديث اليونانية المتواترة فى جزيرة كريت إنه كان ابن أخى والى الجزيرة يومئـــذ . وقد اتخذه أهل الجزيرة فيما بعد حاميا لهم وملجأ حصينا إبان حروبهم مع اهل البندقية . وتقول الأساطير إن أهالى البندقية أيضا أحـــلُّـوه من أنفسهم المنزلة التى أحلَّـه فيها الكريتيون . ومايزال أهالى الجزيرة يذكرون اسمه فى بعض أدعيتهم فى الكنائس بالتجلة والاحترام كقديسهم الذى أخذوا عنــه الحق المسيحى .

ومما ورد عنه فى السفر المقدس نعلم أن بولس قد أكبر من قدره ، وكان قد التقى به لأول مرة فى سنة ٥٠ ب . م . يوم أخذه معه من أنطاكية سورية إلى المؤتمر الأول فى أورشليم (غلاطية ٢ : ١) .

وبعد هذا التاريخ بست سنوات ، يظهر تيطس مرتين فى كورنثوس مرشداً للجماعة المسيحية هناك (٢ كور ٨ : ٦ و ١٢ : ١٨ و ٧ : ٦) . ثم أرسله بولس بعد ذلك مرة ثالثة حاملا رسالته الثانية إلى كورنثوس (٢ كور ٨ : ١٦ — ١٨) .

ونستنتج من هذا أن تيطس كان مع بولس فى أفسس قبيل الثورة التى اضطرمت فى ربيع سنة ٥٦ ب . م . ، وكان معه أيضاً فى مكدونية بعد أن غادر الرسول مدينة أفسس على أثر تلك الثورة .

ولا نعود نسمع شيئاً عنه مدة سبع سنوات ، حتى نراه مع بولس فى جزيرة كريت .

ويخيَّـل إلينا أنه اصطدم فى الجزيرة بعقبات كئود ، كما اصطدم تيموثاوس فى أفسس . ولعلَّ القوم قد استهانوا بحداثته فيهم ، أو استرابوا مصدر سلطته عليهم . وكان بينهم قوم أنانيون لا يفهمون من الدين شيئاً إلا

بقدر مايدرّ عليهم من خير مادى ، وبينهم قوم متراخون حملهم التيار الجارف إلى مواطن الإباحية والاستهتار ، وغيرهم انساقوا إلى أضاليل المعلمين الكذبة والهراطقة ، الذين كانوا قد بدأوا يرفعون رؤوسهم فى المدائن الشرقية .

وفى يوم يدخل اثنان إلى الدار التى يقطنها بولس ، فيرحب بهما صاحب الدار أيما ترحيب . وهما صديقان قديمان — زيناس الناموسى ، وأبولس الذى كان قد ارتبط بأواصر الصداقة مع اكيلا وبريسكلا من قبل .

وكان الضيفان قد قدما الجزيرة لمهمة ، فاهتبل بولس الفرصة وسلمّ إليهما رسالة ليبلغاها إلى صديقه الذى عهد إليه برعاية المؤمنين . والرسالة إلى تيطس تشبه كثيراً الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ، فالرسول يحثّ فى بدايتها على وجوب الحرص على إقامة « الأساقفة » أو « الشيوخ » من ذوى السيرة الحسنة والأخلاق الكريمة .

« لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله ، غير معجب بنفسه ولا غضوب ، ولا مدمن الخمر ، ولا ضرّاب ، ولا طامع فى الربح القبيح ، بل مضيفاً للغرباء ، محباً للخير ، متعقلا باراً ورعاً ضابطاً لنفسه » (١ : ٧ ـ ٩) .

ثم يرشد تيطس كيف يلقّن الحق للآخرين من رجال ونساء .

« مقدساً نفسك فى كل شىء قدوة للأعمال الحسنة ٠٠٠٠ »(٢ : ٧) .

« وأريد أن تقرر هذه الأمور لكى يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالا حسنة » (٣ : ٨) .

وفى ختام الرسالة يصرُّ مرة أخرى على :

« أن يتعلم مَن لنا أيضاً أن يمارسوا أعمالا حسنة للحاجات الضرورية حتى لا يكونوا بلا ثمر » (٣ : ١٤) .

ومن خواص الرسول البارزة أن يجانب دائماً الغرور والاعتداد بالنفس، ذاكراً أبداً أيامه الأولى فى أورشليم.

« لأننا كنا نحن أيضاً أغبياء ، غير طائعين ، ضالين ، مستعبدين لشهوات ولذات مختلفة ، عائشين فى الخبث والحسد ، ممقوتين ، مبغضين بعضنا بعضاً » (٣ : ٣) .

وفى مذلة واتضاع نفس، يحثُّ تيطس على أن يبين للكريتيين أن المخرج الوحيد لانقاذهم من هذه الأعمال الناقصة والمفاسد الآثمة ، إنما هو نعمة يسوع المسيح مخلصنا « الذى بذل نفسه لأجلنا ،لكى يفدينا من كل اثم ،ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً فى أعمال حسنة » (٢ : ١٤) .

ويحسُّ القارىء أن نفس الرسول تكاد تذوب من فرط الضرام وحرارة الرجاء، ملحاً أن يحيد أولئك الكريتيون المسيحيون عن تصرفاتهم السائبة المعيبة ، وعنادهم المشاكس ، وميولهم الإباحية ، ويقبلوا نعمة الله التى تباعد بينهم وبين هذه النزوات الآثمة والشهوات الجامحة ، فيكبحوا جماح نفوسهم ، ويكونوا أخياراً وفاعلى الخير . وما من شك أن الرسالة قد بعثت إلى قلب تيطس الغبطة والرجاء ،وحملته على الثبات فى جهاده « لترتيب الأمور الناقصة» وحملته على أن يقدم نفسه أولا مثلا صالحاً جديراً بالاحتذاء .

الرسالة إلى فليمون

لم يخفِ حراس بولس الذين كانوا يتناوبون حراسته فى داره التى أقام بها دهشهم وهم يرون الوافدين إليه من كل صنوف البشر ، ولعلهم فكروا فيما بينهم أن هذا الإنسان لغز مجهول . ويزداد دهشهم وهم يرون العبيد يدلفون إليه كغيرهم من الناس .

وكان أحد أولئك العبيد قد فرَّ من خدمة مولاه ، ولجأ إلى بولس وبقى عنده ، ويدعى ذلك العبد « أُنسيمس » . أما مولاه فاسمه « فليمون » ، من أَصدقاء بولس المقيمين فى « كولوسى » التى تبعد عن أَفسس مائة وعشرين ميلا شرقاً ، على الطريق الكبير الممتد بين أَفسس وبين سورية وبلاد النهرين (العراق) .

وقد عرف أُنسيمس هذا أن العبد حسب قانون ذلك الزمن متاع لسيده ، مسلوب الشخصية والإرادة ، لا يقدر أن يتعلم القراءة ، ولا يزاول عملا ، ولا يقتنى متاعاً ، ولا يقتصد قطعة من النقود إلا إذا أَذن له مولاه . ولكنه أَحسَّ فى نفسه بالذكاء والفهم والمقدرة على شقّ طريقه فى الحياة ، ولعلَّ نفسه حدثته يوماً قائلة : « إن مولاك رجل طيب القلب ، ولكن من يدريك ، ربما تحلُّ به أزمة مالية ، فيبيعك إلى أَحد أصحاب مناجم الفضة الوبيئة لتكدح فى عمل شاق مضنٍ . أَو ربما يموت غداً فتعرض فى سوق المزايدة كجواد أَو كبقرة ، فيبتاعك مولى قاس ، يفرى جلدك بالسياط ويسومك من التعذيب أَلواناً ، وحين يدركنى الكبر يلقينى فى الطريق أموت جوعاً ...... » .

فلا عجب أن يجرأ أُنسيمس يوماً على سرقة متاع مولاه ويهرب من مدينة

كولوسى الصغيرة فيدبّ فى الأرض الواسعة الفضاء . وكان القانون الرومانى يعاقب على السرقة عقاباً صارماً ، ويعاقب العبد الهارب بأشنع ميتة . فعوّل على أن يحكم أسباب فراره واختفائه لكيلا يقع فى قبضة القانون الجائر . ولعله اتخذ طريقه إلى إحدى الموانىء ، ربما إلى أفسس مسيرة مائة وعشرين ميلا ، أو إلى ترواس مسيرة ثلثمائة ميل . ولعله ظلّ يعمل فى بعض تلك الموانىء حمالا فى تفريغ شحنات السفائن ، إلى أن نزل سفينة ماخرة إلى بلاد اليونان ، واتخذ طريقه إلى كورنثوس ومنها إلى إيطاليا . وما أن بلغ رومية حتى قال فى نفسه : « الآن أنا بمأمن ، فإن مولاى لن يقدر على اقتفاء خطاى وسط مئات الألوف من العبيد الذين يقطنون رومية ، ولن يكلف نفسه مشقة السفر ألف ميل للقبض علىّ » .

وفى رومية يلتقى أنسيمس ببولس ، ولعلّ بعض المسيحيين هناك اقتادوه إليه . فأخبره الرسول عن يسوع المنقذ ، كما أخبر الملك أغريباس من قبل ، لأنه لم يكن يميِّز بين الملك والعبد فى إيصال رسالة الحياة . وعرف أنسيمس أن المسيح يقبل إلى حظيرته حتى العبد المسكين ، فغدا عبد فليمون الآبق عبداً ليسوع المسيح ، وصار مواطناً حراً كريماً فى ملكوت الله غير المنظور .

وكان سراة الرومان واليونان واليهود والأسيويين ، يقتنون العبيد يومئذ، فى غير حرج ، كنظام أقرّه المجتمع والعرف ، ولم يفطن أحد إلى عدم مشروعية هذا النظام الجائر الذى اعتسف بفريق كبير من أبناء الإنسانية . وقد أحسّ بولس ، كما أحس أنسيمس نفسه ، أنه بخيانته مولاه والهرب من خدمته ، قد ارتكب جريمة لا يرضاها القانون، ولا يقرّها العرف . فضلا عن أن تلميذ المسيح ينبغى ألا يكون سارقاً . ولذلك اتفقت كلمة الجميع على أن يعود أنسيمس إلى مولاه تائباً مستغفراً ، ولو كان فى هذا العود إهدار لدمه . ويريد بولس أن يقوم

بدور الوسيط بين العبد ومولاه ، فيكتب رسالة إلى فليمون ليعفو عن أنسيمس ، ويغفر له ذنبه ، ويحسن لقاءه .

والرحلة إلى كولوسى طويلة ، قرابة ألف ميل براً وبحراً ، وأحسب أنسيمس يتردد مرة بعد أخرى ، ولكنه يغالب خوفه ، فما يهن عزمه ، واثقاً بأنه فى حمى يسوع الذى آمن به منقذاً . ويصحبه فى رحلته « تيخيكس » أحد صحابة بولس الذى رافقه فى رحلته الأخيرة من أورشليم قبل أن يسجن فى قيصرية ، وقد حمل معه رسالة قصيرة من الرسول إلى صديقه فليمون .

وأخيراً يبلغ تيخيكس وأنسيمس مدينة كولوسى ويجوسان خلال طرقاتها التى يعرفها أنسيمس حق المعرفة ، حتى يقفا بباب فليمون . وأتصور العبد الآبق ترتجف فرائصه ، ولكنه يتجلد فى سبيل الواجب ويتابع خطى زميله .

ويلقى تيخيكس أحد العبيد بالباب فيقول له : « إذهب وقل لمولاك إن شخصاً يدعى تيخيكس يحمل إليك رسالة من بولس صديقك فى رومية ، وإن عبدك الآبق قد جاء إليك » .

وبعد برهة يخرج فليمون ويرحب بتيخيكس ، زميل بولس ، ولكنه يلتفت إلى عبده القديم بنظرات ملؤها التهديد والوعيد ، فيدفع إليه تيخيكس الرسالة ويقول : « قبل أن تعاقب هذا العبد ، اقرأ هذه الرسالة التى يوصيك فيها بولس خيراً بهذا الذى صار له زميلا وأخاً » .

يفضّ فليمون الرسالة ، ويرقب أنسيمس أسارير وجه مولاه وهو يقرؤها فى بطء وفى تفكير لعله يلمح فى تلك الأسارير ما يدخل بعض الاطمئنان إلى نفسه المضطربة ، وترى ماذا يقول بولس فى الرسالة :

يبدأ بتحية فليمون وزوجته والتلاميذ الآخرين الذين يعبدون الله فى بيته. ثم يعرض عليه مطلباً « من أجل المحبة » عن أنسيمس العبد . وأحسب الرجل

يعبس وجهه ويتجهَّم،حين يقرأ هذا الاسم .ولكن بولس يقول:« لم يعد هذا العبد لصاً سراقاً ، بل هو ابنى الذى ولدته فى قيودى ،الذى كان قبلا غير نافع لك ، ولكنه الآن نافع لك ولى ، الذى رددته . فاقبله الذى هو أحشائى . . . لأنه ربما لأجل هذا افترق عنك إلى ساعة،لكى يكون لك إلى الأبد ، لا كعبد فيما بعد بل أفضل من عبد ، أخاً محبوباً .. فإن كنت تحسبنى شريكاً فاقبله نظيرى .. ثم إن كان قد ظلمك بشىء أو لك عليه دين ، فاحسب ذلك علىَّ ، أنا بولس كتبت بيدى[1] أنا أوفى ... ليكن لى فرح بك فى الرب . أرح أحشائى ... إذ أنا واثق باطاعتك كتبت إليك عالماً أنك تفعل أيضاً أكثر مما أقول » .

والرسالة قصيرة ، لا تعدو ثلاث مائة كلمة ، وهى الرسالة الوحيدة التى تبقت لدينا من الرسائل التى كتبت للأفراد ، ويستشف القارىء من عباراتها ذلك القلب الحنون يذيبه الرسول حباً للعبد الذى آمن على يديه ، وتلك الكياسة اللبقة فى استعطاف فليمون صديقه . وتبين فى جلاء موقف الرسول تجاه الرق ، فهو لم يرفع عقيرته بالشكوى ، ولا ثار فى وجه هذا النظام الذى أقره المجتمع فى القديم . ولو أنه فعل ذلك يومئذ ، لاضطرمت نيران ثورة دموية تكون عواقبها أوخم من آثار هذا النظام البغيض . ولكن الرسول الحكيم اتخذ الخطة عينها التى سلكها سيده من قبل فى مواقف مماثلة ، فعوضاً عن أن يضع القواعد المفصلة والنواهى والأوامر ،أقام المبادىء العامة ، وعلَّم الناس أن الجميع فى نظر الله متساوون ، فلا عبد ولا حر ، لأن الكل واحد فى نطاق محبة الله الشاملة . وقد كان هذا المبدأ الضربة الأولى التى صدَّعت أركان هذا النظام . فإن العبد متى صار « أخاً محبوبا » ، لن يمكن أن يُباع ويشرى كالسائمة .

---

(١) وأحسب الرسول كتب هذه العبارة بخط يده وبحروف عريضة ، لأنه كان دائماً يملى رسائله ولايكتبها بخط يده لضعف بصره على قول بعض الشراح .

كان لفليمون حق يخوله له القانون الرومانى بأن يكسر ساقى أنسيمس ، فلا يسعى عليهما هرباً فيما بعد ، وكان له حق أن يصلبه على جذع شجرة إرهاباً لغيره من العبيد، ولكنه بعد إذ يقرأ رسالة بولس يلتفت إلى رئيس عبيده ويقول: « خذه إلى بيتى ، فقد أمرنى بولس ، وأمره مطاع ، وعفا الله عن الماضى » .

ومن ذلك اليوم يغدو أنسيمس العبد المخلص الأمين ، والمعين النافع للخدمة. ويقول التاريخ إن شخصاً بهذا الاسم سيم فيما بعد أسقفاً فى « بيرية » . ولعل ذلك الأسقف هو العبد بعينه ، لسنا ندرى !

الرسالة إلى كولوسى

كان تيخيكس الذى حمل الرسالة إلى فليمون « أخاً محبوباً » وشريكاً لبولس فى سرائه وضرائه . وهو أحد الذين صحبوا الرسول من بلاد اليونان إلى أورشليم ومعهم التقدمات التى بعث بهـــا المسيحيون هناك إلى فقراء اليهود (أعمال ٢٠ : ٤)

وقبل أن ينطلق تيخيكس من رومية ، تلقىّ بولس أنباء خطيرة من مدينة كولوسى على لسان تلميذ يدعى « أبفراس » ، هو مؤسس الكنيسة هناك . أو ربما زعيم من زعمائها. ويخَّيل إلينا أن أحد الأدعياء كان قد يمَّم صوب تلك تلك المدينة، وبذر بين جماعتها آراء غريبة مزج بها المسيحية بالفلسفة اليونانية والفقة اليهودى ، وأدخل فيها عبادة الملائكة فى مراتب وقوى مختلفة ، وفكرة حياة الإعتزال والزهد والتقشف، مما أغرق فيه التصوف الشرقى. وراح بولس يقلّب وجوه الأمر مع زميله أبفراس ، فاستقر الرأى على أن يكتب لهم رسالة ويبعث بها إليهم على يد تيخيكس، الذى رافق أنسميس العبد . ونتبين من متن الرسالة أن بولس لم يعرف أهل كولوسى معرفة شخصية ، ولم يكن على بينة تامة من

الآراء الدخيلة التى اندست فيما بينهم ، ولكنه اتخذ أقوال أبفراس قضية مسلَّمة ، وأراد أن يحول أفكار القوم إلى الاتجاه الحق فى المسيحية .

والذى أتصوره أن يذهب تيخيكس إلى فليمون ويقدم إليه أولا رسالة بولس الشخصية . وبعد أن يعفو المولى عن عبده ، يقول تيخيكس « إن لدىَّ رسالة أخرى لك ولجماعة المسيحيين فى هذه المدينة » .

وإذ يتسلمها فليمون ، يدعو فى المساء « الكنيسة التى فى بيته » ، ويُرى أعضاءها الرسالة داخل غلافها بأختامها الخارجية ، ثم يفضُّ الأختام أمامهم ويستخرج من الغلاف المستدير صحائف البردى ويقرأ على أسماعهم مايقوله لهم الرسول الكبير .

أما الرسالة فتقع فى قسمين : الأول يدور حول يسوع المنقذ من الخطية ، وإليك خلاصة بعض الأفكار .

« أذكركم دائماً فى صلواتى لتسلكوا كما يحق فى الرب يسوع المسيح ..... » .

« إن الله قد أنقذنا من سلطان الظلمة ، وهيأ لنا الفداء والخلاص من الخطية بالمسيح ، الذى هو صورة الله غير المنظور . وهو باكورة كل الأشياء ..... وقد كنتم قبلا غرباء عن الله وأعداءً فى الأعمال الشريرة ، ولكن الله صالحكم مع نفسه بموت المسيح ، وأطلقكم أحراراً بلا لوم ولا شكوى أمامه ...... »

« فاثبتوا فى هذا الحق ، وفى رجاء الإنجيل ، الذى صرت أنا بولس خادماً له .... أفرح فى آلامى لأجلكم ..... وكما قبلتم المسيح اسلكوا فيه ، متأصلين فى الإيمان كما علِّمتم ..... فالله الذى أقام يسوع من الأموات ، قد رفعنا لنشاطره حياته ، غافراً لنا خطايانا فى المسيح المصلوب ....

فلا يضلنكم أولئك الذين يجنحون إلى ممارسة الأصوام ، والفرائض، والانتفاخ الذهني ، والحكمة الثيوصوفية . بل اهتموا بما فوق لا بما على الأرض ..... » .

أما القسم الثاني من الرسالة فحافل بآيات الحث والحض على اقتفاء خطى المسيح في الحياة العملية . والذي يقوله بولس في رسالته إلى جماعة كولوسي في القرن الأول يصدق تماماً على هذا العصر . ولكأنما يتحدث إلينا نحن أبناء القرن العشرين ، فاسمعه يقول :

« أميتوا .... الزنى ' النجاسة في الفكر والفعل ، الشهوات الشريرة المزرية ، والرغبات الجامحة ، والنزعات الوضيعة الحقيرة ....

« اطرحوا عنكم كل غضب ، وكل خبث ، وكل تجديف ، وكل كلام قبيح من أفواهكم .

«لا تكذبوا بعضكم على بعض .

« بل البسوا كمختاري الله القديسين كل رأفة ولطف وتواضع ووداعة وطول أناة ، محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً . إن كان لأحد على أحد شكوى ، كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً » .

ولم يضع بولس قواعد جامدة للأخلاق والسلوك . ولئن يكن قد نشأ عند قدمي غمالائيل نشأة ضيقة تحت قواعد الناموس المحبوكة الخانقة ، فهو قد نضج الآن في المعرفة الروحية ليهتم بالمبادىء العامة دون القواعد الجامدة ، ولذا يقول إجمالا في غير إسهاب : « أيها الرجال أحبوا نساءكم ولا تكونوا قساة عليهن » .

ولقد فكر بولس في الاسترقاق طويلا أثناء مقام أنسيمس

معه ، ولذا نراه يتكلم فى رسالته إلى كولوسى عن العبيد ويوصى الموالى بهم خيراً فيقول :

« أيها السادة قدّموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أن لكم أنتم أيضاً سيداً فى السموات » .

ولم يكن غرض الرسول قلب النظام الاجتماعى ، ولكنه فاه بقالة كان لها أبعد الأثر فى القضاء على روح الاسترقاق ، ووضع شريعة من الرحمة والعدل والمساواة لم يحاكه فيها أحد من كتّاب ذلك العصر . وتصرمت بعد ذلك قرون وأجيال قبل أن يدرك دعاة المسيحية أن الاسترقاق لوثة شنيعة تهدر كرامة الإنسان وتناقض تعاليم المسيح ، فصدر فى سنة ١٨٠٧ أول قانون يحرّم تجارة الرقيق فى الإمبراطورية البريطانية ، وصدر بعده قانون آخر فى سنة ١٨٣٣ يحرم الرق تحريماً باتاً ويطلق جميع العبيد أحراراً . كذلك صدر فى سنة ١٨٦٣ قرار الرئيس لنكولن بمنح الحرية لجميع العبيد فى الولايات المتحدة الأميركية ، وإن وجد اليوم فى بعض الأصقاع النائية فى آسيا وأفريقية أثر لتجارة الرقيق ، فإن هذا يجرى خفية كعمل مستقبح ، يخشى القائمون به غضبة العالم المتمدن .

هذه طريقة الله فى علاج مشاكل الإنسان ، وهذه روح دين المسيح : بثّ الفكرة الصغيرة فى نفوس البشر ، كما تدفن البذرة فى بطن الأرض لتنمو فى أوانها ويؤتى الإنسان ثمارها .

الرسالة الثانية إلى تيموثاوس

رسالة الوداع

اتهم بولس فى المحاكمة الأولى ، على ما يُظن ، بتزعمه جماعة المسيحيين وحدبه عليهم ، ولم تكن الأدلة كافية لإدانته ، ومع ذلك لم يطلق سراحه ، بل تأجلت القضية إلى دور آخر ، ريثما يجدُّ عمال الإمبراطور فى استجماع أدلة أخرى يقيمون بها اتهاماً جديداً أخطر فى معناه من الإتهام الأول . ويخَّيل إلينا أن الإتهام الجديد قام على خيانة الدولة ، والعداء لنظم الجماعة وعاداتها ، ومحاولة إضعاف الهيبة القيصرية .

وإلى أن يتم تحضير المستندات ، أعيد الرسول إلى السجن يرسف فى وثقه وقيوده . وتقول التقاليد القديمة إنه زج فى سجن « مامرتين » على منحدرات تلة الكابيتول فى رومية . وأودع خابية رطيبة تتصاعد منهـــا الروائح المستكرهة — دعيت يومئذ باسم « تالينوم » ، وانخفضت تحت سطح الأرض إثنى عشر قدماً[1] .

ولم يدر بولس متى يحين أجل استماع قضيته . فقد يقصر أو يطول ، وقد يمتد إلى ما بعد الشتاء ـ وهو الشتاء الواقع فى أواخر سنة ٦٥ ب . م . وأوائل سنة ٦٦ ب . م . على قول الأستاذ السر رمساى ـ ولكنه استيقن أنه صائر إلى الموت لا محالة : « وقت انحلالى قد حضر » .

والمرء فى بؤسه ، يحن قلبه إلى أحبِّ الناس إلى نفسه . وكان تيموثاوس

---

(١) صارت هذه الخابية فيما بعد كنيسة صغرى تحت الأرض فى الكتدرائية الحديثة المعروفة باسم San Pietro in Carcere . وقد وقف الكاتب يوما ما فيها فى خشوع ورهبة .

أقرب الزملاء إلى قلب بولس ، وأعزَّهم عنده . فمنذ لقيه لأول مرة فى لسترة كَلف به وحَنا عليه ، وآثره من المحبة والبر ، ومن المودة والعطف ، ومن الحنان والرفق ، بكل هذه الكنوز التى لا تفنى والتى احتواها قلب الرسول الكبير .

والآن وهو فى وحشة السجن ، ولوعة الحرمان ، وكآبة الهم ، يعتزم أن يكتب رسالة إلى صديقه ليشدد عزائمه ويمحّضه النصح فى بعض الشئون التى تتصل بأعمال وظيفته فى رعاية الكنائس والإشراف على جماعات المؤمنين .

ولسنا نفترض أن الرسول قد استسلم إلى اليأس وخوار العزم، فإن الوحشة واللوعة والكآبة قد امتزجت بثقة هادئة ، ودعة عذبة ، وإيمان قوى ، يحوِّل الأشياء إلى أضدادها والنفوس إلى نقائضها .

ومَن يقرأ هذه الرسالة الوداعية يكاد يتسمع من خلال مقاطعها صليل السلاسل ، ووقع أقدام حراس أجلاف ، ولكنه يحس فيها أيضاً رعدة الحياة المليئة بالرجاء والقوة . فيها نرى بولس المتألم إلى أقصى حدود الألم ، والفائز إلى أبعد مراحل الفوز .

إنها لرسالة باسلة حقاً « لأن الله لم يعطنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح » (١ : ٧) .

بهذه الألفاظ البليغة الرائعة يستهل الكاتب رسالته . ثم يفصح عن ثقته التى لا حدَّ لها بيسوع المسيح « الذى أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل الذى جعلت أنا له كارزاً ورسولا ومعلما للأمم . لهذا السبب أحتمل هذه الأمور أيضاً . ولكننى لست أخجل لأنى عالم بمن آمنت » (١ : ١٠ و ١١) .

ثم يقصُّ على صديقه كيف هجره الرفاق ، وكيف خاطر أنيسيفورس بنفسه ملحاً على افتقاده وهو فى السجن .

وبعدُ يسجل النصائح الحكيمة ليعتصم بها المؤمنون إبان الاضطهاد :

« اشترك أنت فى احتمال المشقات كجندى صالح ليسوع المسيح . ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة لكى يرضى مَن جنده . أيضاً إن كان أحد يجاهد ، لا يكلل إن لم يجاهد قانونيا . يجب أن الحرَّاث الذى يتعب ، يشترك هو أولا فى الأثمار » (٢ : ٤) .

ويجمل إيمانه فى المسيح ، فى آية صارخة رائعة : « أذكر يسوع المسيح المقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلى . الذى فيه احتمل المشقات حتى القيود كمذنب . لكن كلمة الله لا تقيد » (٢ : ٨) .

وإنه لرجاء وأى رجاء ! حتى فى غيابة السجن وهو يلمح من بعيد سيف الجلاد ، يوقن الرسول الكبير أن لا قوة على الأرض تقوى على تقييد رسالة الإنجيل أو الحيلولة دون نفاذها إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب .

وبولس شديد اليقين فى ترويض النفس وكبح جماح الأهواء :

« أما الشهوات الشبابية فاهرب منها ، واتبع البر والإيمان والمحبة والسلام . . . . . أصحَ فى كل شىء » (٢ : ٢٢ و ٤ : ٥) .

وكان تيموثاوس قد شهد من قبل ما عانى بولس فى لسترة وفى غيرها ، وهو الآن يستعيد الذكرى فيقول له :

« وأنت قد تبعت تعليمى وسيرتى وقصدى وإيمانى وأناتى ومحبتى وصبرى واضطهاداتى وآلامى مثل ما أصابنى فى أنطاكية وأيقونية ولسترة . أية

اضطهادات احتملت . . . وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى فى المسيح يسوع يُضطهدون » (٣ : ١٢) .

ومع وثوقه بهذا كله يلح على تلميذه أن « أكرز بالكلمة ، أعكف على ذلك فى وقت مناسب وغير مناسب » (٤ : ٢) .

وفى دعة تمازجها الثقة يقول عن نفسه : « قد جاهدت الجهاد الحسن ، وأكملت السعى ، حفظت الإيمان ، وأخيراً قد وضع لى اكاليل البر » (٤ : ٧) .

وكانت عاصفة الاضطهاد قد هدأ غبارها ، وليس حرج أن يجىء تيموثاوس الآن إلى رومية ليكون إلى جانب الرسول الشيخ فى أيامه الأخيرة :

« بادر أن تجىء إلىّ سريعاً ... لوقا وحده معى ، خذ مرقس واحضره معك » (٤ : ٩) .

وخابية السجن التى ينزلها الرسول الشيخ ، رطيبة مطبق عليها الظـــــلام والوحشة ، فيقول لصديقه :

« الرداء الذى تركته فى ترواس عند كاربس أحضره معك متى جئت ، والكتب أيضاً ولا سيما الرقوق . . . . بادر أن تجىء قبل الشتاء » (٤ : ١٣ و ٢٤) .

ثم يختتم رسالته بنغمة الرجاء أن يقبله ربه فى الملكوت غير المنظور مهما فعل به الطاغية نيرون :

« فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى . بل الجميع تركونى . لا يحسب عليهم . ولكن الرب وقف معى وقوّانى ، لكى تتم بى الكرازة ويسمع جميع

(١) ٢ تيمو ٤ : ٩ (٢) ٢ تيمو ٤ : ١٣ و ٢١ (٣) ٢ تيمو ٤ : ١٦

الأمم ، فانقذت من فم الأسد . وسينقذنى الرب من كل عمل ردىء ويخلصنى لملكوته السماوى » (٤ : ١٦) .

وبعد التحيات المألوفة يذيل رسالته بالبركة .

وترى هل أتاه الرداء والكتب والرقوق ليدفع بها عن نفسه رطوبة الخابية الخبيثة ، وكآبة الوحشة الذليلة ؟ وهل وافاه الزميل الشاب ليلقى نظرة الوداع على الشيخ الفانى ؟ إنا لنرجو إشفاقاً على الرسول ، أن تكون قد تحققت أمنيته الأخيرة ، وأن يكون قد وافاه الصديق الذى أحبه ليتلقى منه وصيته الوداعية ، ويبعث العزاء إلى نفس تدنو من الموت باسمة له . على أننا لا نستطيع القطع بقول فى هذا . وكلُّ ما لدينا مما يلقى نوراً على هذه الحقيقة المجهولة ، ما جاء فى الرسالة إلى العبرانيين من أن تيموثاوس أُطلق من السجن فى إيطاليا [١] ، وإن صحَّ ما يذهب اليه بعض الشرّاح من أن هذه الرسالة كتبت بعد استشهاد الرسول بسنوات قلال ، فيكون تيموثاوس قد قدم تابية لنـداء معلمه ومربيه ، وشاركه فى قيوده وأغلاله ، ولكنه أُفلت من سيف الجلاد الذى حزَّ رأس الرسول الشيخ .

الرسالة الى العبرانيين

متى كتبت الرسالة ؟

يصعب تعيين تاريخ الكتابة فى بعض الأسفار القديمة . ولكن من محاسن الصدف أن أجمع العلماء والشراح على رأى واحد فى هذا الأمر .

---

(١) أنظر عبرانيين (١٣ : ٢٣) والفعل فى الأصل اليونانى يحتمل معنى الإطلاق من السجن أو الانطلاق فى رحلة .

ونستخلص من الرسالة نفسها أنها كتبت بعد موت المسيح (وكان ذلك حوالى سنة ٣٣ ب. م.) وبعد أن انقضى زمن جاز فيه المسيحيون الأولون دوراً من العناء والاضطهاد، وعرفوا شيئاً من اختبار الحياة المسيحية .

وعلى ذلك تكون الرسالة كتبت بعد سنة ٣٣ ب.م. ولكن فى أية سنة ؟ أجمع العلماء على أن زمن كتابتها لم يعدُ سنة ٨٥ ب. م. وذلك أن لدينا رسالة مشهورة تعرف برسالة أ كليمندس الأولى أرسلت من رومية إلى كورنثوس فى الربع الأخير من القرن الأول . ومن يقرأ هذه الرسالة يدرك لأول وهلة أن كاتبها عرف جيداً الرسالة إلى العبرانيين ، إذ يردد صدى أفكارها وأقوالها فى مواضع مختلفة .

إذن تكون الرسالة إلى العبرانيين كتبت بعد ٣٣ ب . م وقبل سنة ٨٥ ب . م على وجه التقريب . ويظن بعض العلماء أن فى ذكرها للذبائح اليهودية القائمة ، دلالة على أن هيكل أورشليم كان باقياً ، وهذا لم يكن له أثر بعد سنة ٧٠ ب . م . وليس من شك فى أن الرسالة كتبت فى غضون نصف قرن من عصر المسيح ، ومما هو جدير بالمراعاة أن إثبات صلب المسيح وقيامته وصعوده كانت أساساً لإيمان المسيحيين فى تلك العصور الأولى ، عليها قام رجاؤهم للخلاص فى هذا العالم والعالم الآخر ، ولن يكون للرسالة معنى بدون هذه العقيدة .

وكأننا سنقرأ ، نحن أبناء القرن العشرين ، كتابا وضع فى النصف الثانى من القرن الأول ،ومن غريب الأمر أن يبقى هذا الكتاب جديداً حيًّا اليوم كما كان فى زمن كتابته .

من هو المؤلف ؟

عنوان الرسالة فى بعض ترجمات الكتاب المقدس ، وليس فى كلها ،

« رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين ». على أن عنوانها فى أقدم النسخ الخطّية اليونانية أو القبطية « الرسالة إلى العبرانيين » دون ذكر اسم المؤلف .

ولا يغرب عن الذهن أن عناوين أسفار العهد الجديد ليست عنصراً أصليا من الكتب الموحى بها، بل هى أسماء أطلقتها الكنيسة عند قراءة تلك الرسائل.

انظر فى العهد الجديد إلى مستهل رسائل بولس ، وهى تبدأ باسمه وتحيته لمن يوجه إليهم رسالته قائلا : « بولس رسول يسوع المسيح » .

وجاءت الرسالة إلى العبرانيين غفلة من هذا الاستهلال ، وليس فى الرسالة ما نستدل منه على اسم كاتبها ، ولو أننا نستطيع أن نستخلص الشىء الكثير عن افكاره وآرائه .

وبعد ان تدارلت الأيدى هذه الرسالة من جماعة إلى أخرى فى الكنيسة الأولى ، أحسَّ الذين قرأوها واستعانوا بوحيها، أنها لابد صدرت عن زعيم كبير من زعماء المسيحية . وذهب أهالى أفريقية الشمالية ، وربما رومية أيضا ، إلى أن كاتبها هو برنابا صديق الرسول بولس ، وقال أهل الاسكندرية ان كاتبها هو بولس نفسه الذى عهدوه أبرع كتَّاب الرسائل فى العصر الأول ، ومع ذلك قال أوريجانوس الكاتب الاسكندرى والمعلم الشهير انها ليست من أسلوب بولس .

ولدى إعمال الفكرة فى المكان الذى وضعت فيه الرسالة إلى العبرانيين بين أسفار العهد الجديد، يتبين لنا أن رسائل بولس المطولة جمعت كلها بين أعمال الرسل فى صعيد واحد ، وجاء بعدها رسائله الصغرى ، ثم عقب ذلك رسائل الرسل الآخرين غير بولس . أما الرسالة إلى العبرانيين ، وهى رسالة مطولة ، فلم توضع بين رسائل بولس الطويلة ، بل وضعت بين رسائله الصغرى وبين رسائل الكتَّاب الآخرين .

ونستدل من هذا أن واضعى الأسفار على ترتيبها الحالى، لم يكونوا على يقين من فئة الرسائل التى يضعون العبرانيين بينها .

وزعم البعض أن أبلّوس (الذى نقرأ عنه فى سفر الأعمال ص ٢٠ : ٢٤–٢٨) هو كاتب الرسالة إلى العبرانيين ،ويؤيدون ما يذهبون إليه بقولهم ان أبولس كان من أهالى الاسكندرية ومن المقتدرين فى الكتب المقدسة . وكاتب هذه الرسالة كما يؤخذ من أسلوبها وعباراتها ، قدير فى الأسفار المقدسة ومشبع العقل بالتعاليم الفلسفية التى ازدهرت فى مدارس الاسكندرية يومئذ . وبعد هذا لابد لنا من القول ان هذه كلها ليست إلا إفتراضات وتخمينات يعوزها الدليل الحاسم الذى يقطع بالخبر اليقين .

وتدلنا هذه التخمينات على أن المسيحيين الذين قرأوا الرسالة أحسّوا من قوتها الروحية أنها تنتسب إلى أحد زعماء العصر الأول، فساقهم هذا الإحساس البشرى إلى قرن الأقوال التى أعانتهم فى حياتهم الروحية بأسماء القادة الذين عرفوهم وأحبوهم . وهذا الإحساس نراه باديا فى الأحاديث الإسلامية التى يسلسلها رواتها إلى شخصيات قديمة .

والذى يذهب إليه علماء هذا العصر أن الرسالة غفلة عن إسم كاتبها ، وهو رأى ذهب إليه القديس أغسطينوس العظيم فى القديم . ومما قاله أحد العلماء ان «الكاتب ليس إلا صوتاً» . ولئن يكن مجرد صوت يتكلم فى ما لله ، فانا نعرف من صوته الشيء الكثير عن فكره وقلبه .

قلنا ان الكاتب كان ممن تشبعت أفكارهم بالترجمة اليونانية للاسفار العبرية التى وضعت فى مدينة الإسكندرية . وليس فى هذا دليل على أنه هو نفسه كان اسكندريا ، لأن الترجمة اليونانية كانت ذائعة فى كل العالم اليهودى الناطق باليونانية فى ذلك العصر . ولكن للمؤلف علاقة أخرى بالاسكندرية ، تلك هى أفكاره الفلسفية . وقد كانت الاسكندرية فى تلك الأيام المدينة التى أخرجت

للعالم تعاليم الفيلسوف اليهودى الكبير « فيلو » ، وهو من معاصرى المسيح وكان فيلوهذا يهوديا تضمنت تعاليمه مزيجاً من آراء العهد الجديد ، وأفلاطون، والفلاسفة الرواقيين .

وعن العهد القديم أخذ فيلو العقيدة الشائعة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء ، وهى الخالق الواحد والإله المتسلط ، العامل فى الكون الذى أبدعه وسوّاه ، الواضع النواهى والواجبات على خلائقه من بنى الإنسان .

وعن الرواقيين أخذ عقيدة الكلمة Logos ، العقل الالهى الحالّ فى الكون وفى كل الأشياء ، بحيث أن الكون كله ، أو كل جزء فيه . يستمد معناه من هذا العقل الساكن فيه .

وعن أفلاطون أخذ فيلو عقيدة الآراء Ideas الخالدة السمائية . التى اشتملت على أبرز المميزات فى الفلسفة الأفلاطونية . ومؤداها أن ما نراه هنا على الأرض ليس إلا نسخة وصورة لما هو خالد ، صورة حقيقية ولكنها أقل من الحقيقة . ففى العالم الخالد نماذج خالدة كاملة ظاهرة ليست مادية ، ولكنها نماذج من الفكر لكل ما نشاهد هنا على الأرض .

كل هذه الأفكار حفل بها عقل كاتب الرسالة إلى العبرانيين ، ولكنه خضع دائماً لعقيدته الثابتة فى نشاط الواحد الذى تحدث عنه العهد القديم بقوله «الإله الحى»،القدوس البار المحب القادر على كل شىء،المعلن مجده فى العهد القديم وليس الكاتب فيلسوفا وحسب ، بل هو إنسان إمتلأت نفسه بحق الله.وهو يلجأ إلى الأفكار الفلسفية ليشرح للآخرين الحقائق التى بدّلت حياته .وكأن الشمس فى نظره قد أشرقت على العالم ببهاء جديد بحيث يرى الكتاب المقدس والفلسفة والتاريخ والحياة اليومية على نور جديد ، وهو راض بالاصطبار حتى تولى الظلال الباقية .

لمن كتبت الرسالة ؟

عرف هذا السفر من أول عهود الكنيسة « بالرسالة إلى العبرانيين » . ولا شك البتة فى مطابقة هذا العنوان للرسالة . لأن من يقرؤها لا يخامره ريبة فى أنها كتبت لمن ترعرعوا فى أحضان اليهودية الذين كان كتابهم الأسفار اليهودية .

ولكنه من الجلى الواضح أيضاً أن أولئك العبرانيين لم يكونوا يهودا ديانة فى زمن كتابة الرسالة إليهم ، بل كانوا أعضاء فى الكنيسة المسيحية ردحاً من الزمن . وتشير الرسالة إلى أنهم تألموا أولا بسبب إيمانهم فى الأيام الأولى . وحسبنا أن نقتبس الآيات التالية لإيضاح ما نقول :

« ومن ثَّم أيها الأخوة القديسون شركاء الدعوة السموية،لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع » (٣ : ١) .

« ولكن تذكروا الأيام السالفة التى فيها بعد ما أُنر تم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة ... بتعييرات وضيقات » (١ : ٣٢ و ٣٣) .

على أن أولئك المسيحيين العبرانيين لم يكونوا أعضاء فى الكنيسة المسيحية بفلسطين ، ذلك لأن المسيحيين العبرانيين فى فلسطين الذين تكلموا الأرامية فى بيوتهم ، قد تعلموا أن يقرأوا أسفارهم المقدسة فى العبرانية الأصلية مع ترجمة أرامية لمن لم يستطيعوا فهم العبرية بسهولة . ومثلهم مثل المسيحيين الأقباط فى مصر اليوم الذين يقرأون الإنجيل بالقبطية فى عبادتهم ، ومعه ترجمة عربية لمن لا يقدر ان يتتبع القبطية .

أما المسيحيون العبرانيون الذين كتبت إليهم الرسالة ، فظاهر أنهم يقرأون الأسفار اليهودية فى الترجمة اليونانية التى قام بها يهود الاسكندرية ، وهى المسماة بالترجمة السبعينية . والاقتباسات الكثيرة فى هذه الرسالة مأخوذة عن تلك

الترجمة . وليس من المحتمل أن يكون أولئك المسيحيون العبرانيون الناطقون باليونانية ممن عاشوا على مقربة من أورشليم . لأن كاتب الرسالة فى كل مقارناته بين الكهنوت والذبائح اليهودية والمسيحية لم يذكر شيئاً عن ذبائح وكهنوت هيكل أورشليم ، مما عرفه المسيحيون العبرانيون فى فلسطين . والرسالة حافلة بتفاصيل العبادة اليهودية ، ولكنها منقولة كلها عن التوراة . كما أنها تصف خيمة الاجتماع التى أقيمت فى عهد موسى قبل بناء هيكل أورشليم . ويتضح جلياً أن أولئك المسيحيين العبرانيين الذين كتبت إليهم الرسالة لم يكونوا من اليهود الذين اعتبروا هيكل أورشليم وذبائحه جزءاً من اختبارهم الدينى المألوف . ومع أن كاتب الرسالة، والعبرانيين المسيحيين المرسلة إليهم، قد أحبوا الأمكنة المقدسة اليهودية والذبائح ، فإن حبهم اياها كان عن طريق القراءة والسماع . كما نرى اليوم مسلماً من إنقياء المسلمين تحول العوائق بينه وبين أداء فريضة الحج ، ولكنه يحب مكة والمدينة ويعرف جيداً فرائض الحج ومناسكه ، ويشعر أن له نصيباً فيها . وكان أولئك العبرانيون المسيحيون حقاً من « أهل الكتاب » الذى هو الترجمة السبعينية للاسفار اليهودية (العهد القديم) .

كانوا إذن جماعة من يهود « الشتات » ، الذين تبعثروا جماعات صغيرة فى كل المدائن الكبرى فى الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية .

وهل فى وسعنا أن نعين المكان الذى عاش فيه أولئك العبرانيون المسيحيون ؟

لا يمكن ذلك على وجه التحقيق . ولكن فى الرسالة إشارة أو إشارتين لا يفوت مغزاها القارىء الحصيف .

ونحن ننظر إلى غرب أورشليم ، لا إلى شرقها ، لتعيين الوطن الذى استوطنه أولئك المسيحيون العبرانيون الذين كتبت إليهم الرسالة ، وذلك

لأن سكان شرق أورشليم كانوا من الجماعات الأرامية التى قرأت أسفارها المقدسة بالعبرية وترجمتها الآرامية . أما يهود الشتات الذين قرأوا أسفارهم باليونانية ، فهؤلاء كانوا قد استوطنوا فى الأغلب مدائن الإمبراطورية الرومانية .

ولم تكتب الرسالة إلى كل العبرانيين المسيحيين الناطقين باليونانية ، ولكن إلى جماعة صغيرة يعرفها الكاتب شخصياً . ويبدو هذا جلياً من معرفته بالتاريخ الروحى لتلك الجماعة . ولو كانت رسالته موجهة إلى ألوف اليهود الذين فى الشتات ، لاستحال عليه طبعاً أن يكتب بهذا التفصيل الوافى . وقد اقتبسنا من قبل الآية التى يتبين منها أنه يعرف كيف تألم ، بعد اهتدائهم ، أولئك الذين كتب إليهم رسالته . وإلى القارىء مقتبسات أخرى من الرسالة :

« .... قد صرتم متباطيء المسامع ، لأنكم إذ كان ينبغى أن تكونوا معلمين لسبب طول الزمان ، تحتاجون أن يعلمكم أحد ..... » (عب ٥ : ١١ و ١٢) .

« لأنكم رثيتم لقيودى أيضاً وقبلتم سلب أموالكم بفرح » (عب ١٠ : ٣٤) .

« لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية » (عب ١٢ : ٤) .

ولا يستساغ القول ان هذه الكلمات كتبت للعبرانيين المسيحيين ، بصفة عامة ، المبعثرين فى كل أنحاء الأمبراطورية . ونحن نعلم بساطة نظم الكنيسة فى المدن الكبرى فى تلك العصور الأولى ، فلم تكن يومئذ أبنية خاصة ، بل كانت الجماعات الصغرى تجتمع فى بيوت الأخوة التى كان بها ردهات فسيحة تسع عدداً كافياً ، والتى كانت بعيدة عن أنظار الرقباء بقدر

الإمكان . ونرى تلميحات إلى هـذا فى الرسائل المسيحية المبكرة : « إلى الكنيسة التى فى بيتك » أو « فى بيت فلان .... » . والكلمة اليونانية Ecclesia التى نقلت عنها لفظ « الكنيسة » فى العربية ، معناها فى الأصل مجتمع من الشعب ، ولم ينصرف معناها إلى البناء إلا مؤخراً . (وفى الإسلام تاريخ مماثل لهذا فى استعمال كلمة « جامع » للدلالة على مكان اجتماع جماعة المسلمين) . وكان يرأس كل جماعة شيخ أو أكثر من شيوخها . وإذا كانت المدينة كبيرة وبها عدة جماعات مسيحية ، كان يقام فيها عدد من الشيوخ . ونرى فى سفر الأعمال مشهداً مؤثراً بين الرسول بولس وبين شيوخ مدينة أفسس (سفر الأعمال ٢٠ : ١٧ — ٣٨) .

وفى الرساله إلى العبرانيين ، ولو أنها كتبت كما رأينا إلى جماعة صغيرة يعرفها الكاتب بالذات ، تلميح إلى شيوخ الكنيسة مما يحمل إلى الذهن أنهم كانوا كثيرين .

« سلّموا على جميع مرشديكم وجميع القديسين » (عب ١٣ : ٢٤) . ومن هـذه التلميحات يستخلص العلماء أن الرسالة كتبت لتقرأ أمام جماعة من المسيحيين العبرانيين فى مدينة بها كثير من هـذه الجماعات المسيحية . ولذلك طُلب إلى الجماعة التى أرسلت إليها الرساله خصيصاً أن تسلّم ، لا على مرشديها وشيوخها فقط ، بل على كل الشيوخ « جميع مرشديكم » وكل الزملاء المسيحيين فى المدينة « جميع القديسين » .

وههنا نذكر أيضاً أن إشارتين قد نرى فيهما سبيلا إلى تعيين المكان الذى عاش فيه أولئك المسيحيين : الأولى فى العبارة القائلة : « اعلموا أنه قد أطلق الأخ تيموثاوس » (عب ١٣ : ٢٣) . ونحن لا نعرف إلا تيموثاوس واحداً . وكان زعيماً فى صدر المسيحية ، واهتدى فى أيام شبابه على يد بولس

الرسول . ويُستدل من رسائل بولس المتأخرة أن تيموثاوس كان معه خلال سجنه فى رومية الذى انتهى بموت الرسول . وطبيعى أن يكون تيموثاوس معروفاً للمسيحيين فى إيطاليا . وليس المعنى المقصود من هذه العبارة واضحاً تماماً ، لأن الفعل فى اليونانية الأصلية يحتمل معنيين : إما أَن يكون تيموثاوس قد أطلق من السجن ، وإما أَن يكون انطلق فى رحلة . لكن العبارة على الأقل تدلنا على أولئك المسيحيين العبرانيين عاشوا فى مدينة كان تيموثاوس معروفاً فيها جيداً . ويذهب كثيرون من العلماء إلى أن موطنهم كان فى إيطاليا .

ثم عبارة أخرى لا بد من البحث فيها : تلك هى التحية الختامية حيث يقول الكاتب : « يسلِّم عليكم الذين من إيطاليا » .

ولسنا ندرى على وجه التحقيق ما معنى هذه العبارة ، ولو أَنها كانت طبعاً مفهومة جيداً للذين قرأوها أولا . وبعد مرور هذه الحقبة من الزمن يتعذر علينا الجزم بالقول الفصل ، أكان الكاتب مقيما فى إيطاليا وهو يبعث برسالته إلى جماعة من المسيحيين العبرانيين فى بلد آخر وينبئهم أن مسيحيي إيطاليا يقرئونهم السلام ، أَم كان الكاتب فى بلد آخر غير إيطاليا (مثل الاسكندرية مثلا) وبعث برسالته إلى جماعة من المسيحيين فى إيطاليا وأَخبرهم أَن المسيحيين المهاجرين من إيطاليا والمستوطنين فى مدينته يقرئونهم السلام . إن العبارة تحتمل المعنيين فى اللغة اليونانية الأصلية . على أَن العلماء فى هذا العصر يميلون إلى الأخذ بالرأى الأخير .

ما أغراض الرسالة :

كان الغرض من الرسالة ، شأن كل الرسائل المسيحية الأولى التى انتهت إلينا ، أَن يقرأها جماعة المسيحيين عند اجتماعهم « فى اليوم الأول من

الأسبوع » للعبادة. وتستغرق قراءة هذه الرسالة بصوت عال ساعة من الزمن. ولدينا بيان مفصل للعبادة المسيحية كتب بعد تاريخ الرسالة إلى العبرانيين بنصف قرن ، بعد انتقال الرسل والدعاة الأولين إلى جنة الخلد ، ويؤخذ منه أن قراءة كتابات الرسل كانت قد صارت عنصراً نظامياً فى العبادة المسيحية .

وإلى القارىء عبارة من هذا البيان : « وفى اليوم المدعو يوم الأحد يجتمع الساكنون فى الحضر وفى الريف إلى مكان واحد لتقرأ على مسامعهم مذكرات الرسل أو كتابات الأنبياء حسبما يسمح الوقت ...... » .

(يوستينوس الشهيد — البحث الأول)

وقد كنا نجد عوناً لفهم هذه الرسالة ، لو استطعنا أن نرسم صورة لبعض ما كان يدور بأفكار القوم وعقولهم ، الذين أرسلت لهم الرسالة ، ونتقصى النواحى الخاصة التى أراد الكاتب علاجها وإنارة السبيل أمامهم فيها .

وبعض الرسائل التى انتهت إلينا تذكر بقول حاسم غرض الكاتب ، أما فى الرسالة إلى العبرانيين فعلينا أن نستخلص هذا الغرض من بين ثنايا السطور ، وليس فى الأمر صعوبة لو عرفنا أولا مكانة العبرانيين المسيحيين فى تلك الأيام ، ثم استقصينا الغرض الذى كتبت من أجله .

ولنبحث الآن فى إيجاز نوع الصعوبات الروحية التى افتقر فيها العبرانيون المسيحيون إلى المعونة والإسناد ، بعد صلب المسيح وقيامته بخمسين من السنين :

نشأ العبرانيون المسيحيون وقد تملكتهم أفكار تغاير آراء المسيحيين الرومانيين أو اليونانيين أو المصريين فى القرن الأول . فإن أمتهم ، مسترشدة بوحي أنبيائها ، كانت تترقب مجيء قائد روحي إلهي ، ومنقذ ، أطلقوا عليه

المسِّيا (أو الممسوح). وقد حفلت كتبهم ومؤلفاتهم بهذا القادم وما سيكون عليه من عظمة، ودارت أفكار الإسرائيليين الأمناء حول هذا المسِّيا. وفى الإنجيل الكريم نقرأ عند مولد يسوع عن سمعان الكاهن العبرانى الشيخ فى أورشليم الذى «كان باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل» أى مجىء المسِّيا الملك (لوقا ٢ : ٢٥)؛ وعن حنة المرأة العجوز التى شهدت الطفل يسوع فى الهيكل «وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداء فى أورشليم» أى الذين ترقبوا مجىء الفادى المسيا (لوقا ٢ : ٣٠).

كذلك قال أبو يوحنا المعمدان حين تلقى رسالة الله التى أنبأته أن ولده سيعد طريق المسِّيا :

« مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه .

« وأقام لنا قرن خلاص فى بيت داود فتاه .

« كما تكلم بفم أنبيائه القديسيين الذين هم منذ الدهر .

« خلاص من أعدائنا ومن أيدى جميع مبغضينا » (لو ١ : ٦٧ و ٦٨) .

وتفصح هذه الكلمات عن إيمان يهودى صالح يترقب مجىء المسيا . وكان من الطبيعى أن تجيش هذه الآمال والمواعيد التى أوحى بها الله عن طريق أنبيائه، فى نفوس الشعب الذى حلم بها ، وتحدث عنها ليل نهار وسط المتاعب السياسية التى عاناها فى ذلك العصر .

وكان يهود القرن الأول خاضعين للنير الرومانى الوثنى، وكانوا يرون، وهم الذين أبغضوا التماثيل ، تمثال الإمبراطور الذى أقامه بيلاطس فى مكانهم المقدس،

ومات كثيرون منهم مغبوطين فى سبيل الذود عن مقادس الهيكل وإزالة هذا الرجس منه . وهم قد دفعوا الضرائب للإنفاق منها على الجيوش الرومانية التى احتلت بلادهم (وتشير بشائر الإنجيل وسفر الأعمال فى صراحة إلى وجود الجنود الرومانية فى فلسطين) ، وعلى ولاة الرومان الذين تربعوا فى قصورهم ، وعلى تعبيد الطرق لتتبختر عليها هوادج زوجات أولئك الولاة ، ويجرى عليها السعاة حاملين الرسائل من رومية ، وتنهب أديمها الجحافل الرومانية المنظمة . وحوالى الزمن الذى كتبت فيه هذه الرسالة ، قام اليهود بثورتهم الأخيرة اليائسة ضد الرومان ، فكان ختامها تلك المأساة التاريخية الدامية : الاستيلاء على أورشليم وخراب المدينة وهدم الهيكل ذاته .

فليس غريباً إذاً ، أن يؤمن اليهود فى عصر المسيح بأن موعد الله لهم بإقامة ملك يحكم بالبر ، معناه قبل كل شيء مجيء ملك ينقذهم من الرومان ، ويقيم مملكة يهودية فى أورشليم تحفها القوة والمهابة والعظمة ، وتسحق الأعداء الغرباء تحت موطيء الأقدام .

وحين آمن المسيحيون الأولون أن يسوع هو مسيا الله المنتظر ، اعتصموا بطبيعة الحال بأمل عظيم فى أن يجيء هذا الملك بالقوة والمجد لينقذ الأمة من عداتها . فحتى وهو فى طريقه إلى أورشليم ليلقى الموت سأله إثنان من أخصائه أن يأذن لأحدهما بالجلوس عن يمينه وللآخر عن يساره .

وبعد أن غلب الموت وظهر لهم بعد قيامته سألوه قائلين : « هل فى هذا الوقت ترد الملك لإسرائيل ؟ » .

وعلى الرغم من إجابته قائلاً : « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه ».وعلى الرغم من أن تعاليمه كلها قد أبانت أن مملكته « ليست من هذا العالم » (يوحنا ١٨ : ٣٦) بل مملكة روحية جامعة ، فإن

أولئك المسيحيين العبرانيين الأولين عاشوا آملين أن يعود ذاك ، الذى ثبت لهم من قيامته أن فى يديه كل قوات السموات ، ليبهر جميع الأعين بقوته ، ويقيم مملكة من البر مركزها الأرضى المنظور فى أورشليم .

ولكنه لم يأت كما كانوا ينتظرون ، فهو لم يرغم الناس قط على الإيمان به ، إنما لجأ إلى القلوب ليغزوها ، فتكاثرت مملكته يوماً بعد آخر من هذه القلوب المستسلمة الخاضعة .

وكان فى هذا شيء من خيبة الأمل للمسيحيين اليهود ، فإنهم بدل الملك الأرضى فى أورشليم ، رأوا بعيونهم قوة البطش الرومانى تدك معالم مدينتهم المحبوبة .

وكان على كاتب الرسالة إلى العبرانيين أن يعالج خيبة الأمل هذه . ويقنع إخوانه المسيحيين العبرانيين للاكتفاء بما يعمل ربهم ، إذ يرون الآن ما هو أعظم من ملك أرضى فى أورشليم .

ولم تكن خيبة أمل المسيحيين العبرانيين مقتصرة على عدم رجوع المسيح ليملك ملكا منظوراً على الأرض ، بل كان هناك شأن آخر لا بد من تسويته معهم . فإن عليهم أن يعيشوا خداماً للمسيح سيدهم غير المنظور ، فى هذا العالم الذى عرفوه ، فماذا عسى أن تكون علاقتهم بالدين اليهودى القديم ، الذى درجوا عليه فى طفولتهم ، وطقوسه وذبائحه وكهنوته ومقادسه ؟ .

صوّر لنفسك هذا الموقف : كانوا كلهم عبرانيين ، وكان سيدهم وربهم عبرانياً أيضاً ، كذلك كان الرسل والدعاة الذين كشفوا لهم حقيقته ، وكان كتاب الله الذى قرأوه ، السفر المقدس الذى اعتز به الشعب العبرانى . والواقع أن كل المسيحيين العبرانيين الأولين اشتركوا بطبيعة الحال وفى

هدوء فى العبادة اليهودية . ألم يعبد المسيح نفسه فى المجمع وفى الهيكل ؟ وبعد صعوده « كان الرسل كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحـــدة » (أعمال ٢ : ٤٦) .

ولم يكن الهيكل مقدس آبائهم وحسب ، بل كان لهم فيه ذكريات لسيدهم الذى علـَّم هناك كثيراً . وكثيرون من يهود الشتات عرفوا المسيح لأول مرة فى المجمع ، لأن دعاة المسيحية الأولين أذاعوا رسالتهم بين شعبهم فى عبادة المجمع يوم السبت . وقد أحب هؤلاء المسيحيون العبرانيون أمتهم ، وصلواتها ، ومزاميرها ، وكهنتها ، وشرائعها المقدسة ، وذبائحها ، ومقادسها . وأجمع الشعور الدينى والشعور القومى على الاعتزاز بكل هذا .

وكان للمسألة ناحية أخرى . فان الخمر الجديدة لا بد أن تشقّ جلود الخمر العتيقة ، كذلك انساب إلى حياة أولئك المسيحيين الأولين حياة جديدة وقوة جديدة ، ورأوا فى هذه الحياة لأول وهلة مخارج جديدة . ففضلا عن العبادة فى الهيكل أو المجمع ، كان من عادة المسيحيين الأولين أن يجتمعوا معاً فى حفل دينى خاص لإحياء وليمـــة كسر الخبز لذكرى ربهم وباسمه الـكريم (أع ٢ : ٤٦) . وكانت تعقد المجتمعات فى هذا البيت أو ذاك لرفع الدعاء عند حدوث ملمة خاصة ، وكانت ثمة مجتمعات لسماع رسالة يسوع أو أنباء الذين يعملون فى ملـكوته . وكان اليوم الأول فى الأسبوع هو اليوم الذى حفظوه إحياء لذكرى قيامة سيدهم من الأموات ، وأطلقوا عليه « يوم الرب » ، حتى وهم يعبدونه فى اليوم الأخير من الأسبوع مع إخوانهم فى المجمع ، فالجديد والقديم سارا معاً جنب إلى جنب « وكانوا لا يزالون كل يوم فى الهيكل وفى البيوت معلمين ومبشرين بيسوع المسيح » (أع ٥ : ٤٢) .

كان هذا حادثاً بعض الوقت ، ولـكن أيستمر الحال على هـذا المنوال إلى الدهر ؟

لم يكن مستطاعاً حصر الحياة الجديدة التى عرفها أولئك المسيحيون الأولون فى الأوضاع اليهودية القديمة . وتحققت قولة تفوه بها المسيح : « يطردونكم من مجامعهم » . وقد كان ، فإن الذين عاشوا بقوة يسوع رباً وسيداً ومسيّاً ، ما كانوا ليرُحب بهم فى زمرة الذين رفضوه رباً وسيداً ومسيا .

تصور أحاسيس مسيحى عبرانى يُقطع من عبادة قومه وأهله ، تصور كيف ينجذب قلبه إلى أنظمة دينه وشعبه، تلك الأعياد والمواسم والذبائح ، تلك الأماكن المقدسة وإجراءات الكهنوت التى أحسَّ فى دخيلة نفسه أنه آخذ منها بنصيب ولو أنه يعيش بعيداً عن أورشليم . ما اقرب هذه كلها إلى قلبه !

ثم بمَ اعتاضها ؟ بذلك الاجتماع الصغير الذى يكاد يكون سريا ، حيث كان يجتمع الأخوة لكسر الخبز والشكر والدعاء باسم يسوع ، ثم قراءة الأسفار المقدسة ورسائل الرسل ، وتشجيع بعضهم بعضا بالأفكار التى يوحيها الله إليهم .

كانت هذه بلا شك صغيرة وضيعة فى نظره . ومع ذلك فان العبرانيين المسيحيين الذين أرسلت إليهم الرسالة ظلوا أمناء ، لأنهم وجدوا فى هذه الممارسات البسيطة حياة من الله وقوة . ولم يستطيعوا إنكار ذلك الرب وتلك الحياة . إنما حنت قلوبهم إلى العبادة القومية التاريخية القديمة ، وإلى جبل صهيون برئيس كهنته ومذبحه ، وأحسوا أحيانا بشىء من الخيبة وخوار العزم . إلى قوم كهؤلاء تفاعلت فى نفوسهم الأشواق الملتهبة ، أُرسلت هذه الرسالة الشيّقة ، وفيها يعيد الكاتب إلى ذلكم القوم ما اضاعوه لأجل المسيح ، مصوراً لهم الأشياء فى معان جديدة أعمق وافضل مما ألفوا ، فيقول بنغمة الفوز « لنا رئيس كهنة » ، و« لنا مذبح »،و« أتينا إلى جبل صهيون » .

ومن ثَّم نرى هذه الرسالة ، التى كتبت فى العصر الذى كانت فيه عبادة

الهيكل على وشك بلوغ نهايتها المحزنة على يد الجحافل الرومانية الوثنية — تعلِّم المسيحيين أمثولة مفادها أن دينهم لم يقم على ازدهار أورشليم ،ولا على بقاء أية مدينة أو أمة على الأرض ، إنما قام على حقائق خالدة روحية لا تهزها المحن ولا تعبث بها النائبات (أنظر ٢ : ٢٥ — ٢٩)

وكأنما يجئ هذا السفر برسالة جديدة لكل الذين يعيشون فى عالم مضطرب، والذين يُخشى على إيمانهم وقوة عزيمتهم من جراء اتخاذ المعايير الأرضية مقاييس للنجاح أو الفشل ، والذين يستمسكون بالأساليب القديمة والآراء القديمة عوضاً عن التقدم إلى الأمام ليتلقوا من الله دروساً جديدة أفضل ، والذين يتقاعسون وينكمشون أمام الجهاد ضد الخطية .

إن الله هو هو ، ودعوته لبنى البشر هى هى ، وكلامه لا يتغير أبداً .

محتويات الرسالة :

١ — سرّ كلام الله للبشر فى الابن (١ : ١ — ٢ : ٨)

٢ — الإبن الذى صار أخانا بفضل هذا الصنيع (٢ : ٩ — ٢ : ١٨)

٣ — عمله لنا بالمقارنة بما عمله ملكى صادق للعبرانيين قديماً . وقد توضح بالأسلوب الذى عهدناه فى الكاتب ، بالعبارات المكررة ، قائلاً ان الإبن (كاهن حسب رتبة ملكى صادق) — (٢ : ٣١ — ٧ : ٢٨) .

٤ — الميثاق الجديد الذى يهيئ المقدس والذبيحة والشفاعة (كما فعل الميثاق القديم مع العبرانيين)، ولكن هذا الميثاق الجديد أقوى فعلاً من القديم وأعمق أثرا . وفيه يتذوق المؤمنون صلة لم يعرفوها من قبل (٨ : ١ — ١٠ : ١٨)

٥ — أهل الميثاق الجديد ينبغى أن يمتلئوا بالرجاء على الرغم من كل الظروف القاسية (١٠ : ١٩ — ٣٩) .

٦ — شريعة الإيمان ، وحياة الإيمان واختباراته ، تُستعرض كنماذج للدين الحق ، الذى يبلغ ذروته فى المسيح ، ويظهر فى تاريخ كل أتباعه الحقيقيين (١١ : ١ — ٤٦) .

٧ — تأويل هذا كله فى الاختبارات الأليمة التى يجوزها المسيحيون العبرانيون ، وتعليل هذه كوسائل تأديب ، وهى العلامة المميزة فى الأبوة الإلهية حين تعالج أبناء غير ناضجين (١٢ : ١ — ١٧) .

٨ — وأخيرا تبلغ الرسالة ذروة كمالها فى رسم صورة رائعة لشركة الجماعة السمائية التى تألف منها المؤمنون ، ثم تختتم بالتشديد على الالتزامات الروحية الأدبية المفروضة على من يستمتعون بهذه الشركة السمائية (١٢ : ١٨ — ١٣ : ٢٥) .

رسالة يعقوب

تحمل هذه الرسالة اسم « يعقوب » . وقد كان بين الرسل ثلاثة بهذا الاسم : أحدهم يعقوب بن زيدى أخو يوحنا ، وهذا قتله هيرودس انتيباس (أعمال ١٢ : ٢) . فهو بلا شك ليس كاتب الرســالة . وآخر يعقوب ابن حلفى ، وهو بين الأربعة الأخيرين فى قائمـــة الرسل الإثنى عشر (أعمال ١ : ١٣) .

ثم هناك شخص ثالث أشار إليه الرسول بولس بقوله: « يعقوب أخى الرب » فى رسالته إلى غلاطية (١ : ١٩) . وذكر اسمه فى الإنجيل مع إخوته « موسى وسمعان ويهوذا » (متى ١٣ :٥٥ ومرقس ٦ : ٣) . وقد أجمع جمهرة الشراح على أن هذا الأخير هو كاتب الرسالة . وقد أطلق عليه « **يعقوب العادل** »

لأنه حفظ ناموس موسى بدقة بالغة . وقد قتله اليهود فى ثورة قام بها الدهماء فى طرقات أورشليم سنة ٦٢ ب . م .

وإنا لواجدون مشابهات كثيرة بين هذه الرسائل وبين النشرات الدورية التى كانت تصدر من أورشليم للكنائس الصغرى التى أنشأها بولس الرسول . وقد كان يعقوب هذا رئيس مجلس الكنيسة فى أورشليم . ومن المرجح جداً أنه كان لهذه الرسالة أصل يونانى وأصل أرامى . وما تضمنته من مشابهات أو أصداء لتعاليم المسيح ذاته ، يوحى إلى الفكر بأنها خلاصة ذكريات الكاتب أو المتكلم ، أكثر منها اقتباس من بشائر الإنجيل ، وخاصة بشارة متى . ومع أنه يمكن التسليم بأن مجموعة الأمثال والحكم التى احتوتها قد ترجمها عن الأرامية إلى اليونانية نفر ممن حسبوا يعقوب معلماً وزعيما فى الكنيسة ، فإن الرسالة تحتفظ فى جملتها بشخصية كاتب واحد لم يخفَ عن الباحثين . وكثرة ما بها من دلالات المخاطبة « أخوتى » ، والأوامر والنواهى ، تؤيد الفكرة القائلة ان أكثر التعاليم المتضمنة فى هذه الرسالة ، قد قيلت أولا مشافهة لجماعات من المسيحيين ، واليهود المسيحيين ، وحتى الحجاج اليهود ، ثم جُمعت بعد ذلك فى كتيب واحد اعترافاً بفضلها وقدرها .

إذاً يكون يعقوب « أخو الرب » وأول أسقف فى اورشليم ، والملقب بالعادل ، هو مؤلف هذه الرسالة أو على الأقل جامعها .

ولكن هل كان يعقوب هذا « أخاً » للرب مع أخوته الثلاثة ؟

أدلى المؤرخون والعلماء بثلاثة آراء . وأحد هذه الآراء قدمه شخص يدعى « هلفيديوس » ما بين سنة ٣٥٠ و ٤٠٠ ب . م ، وقد زعم أن يعقوب واخوته كانوا أبناءً صغاراً ليوسف ومريم . وهذا رأى لا نقرّه ولا نقبله ، وذلك لأن ربنا أوكل أمه المكرمة ، وهو على الصليب إلى رعاية التلميذ يوحنا

(يوحنا ١٩ : ٢٦ – ٢٧) ولو كان لمريم أبناء آخرون ، لما فعل هذا .

وزعم آخر قدمه ايرونيموس حوالى ذلك التاريخ عينه فقال ان « أخ » تعنى « ابن العم » أو « ابن الخال » . وهذا رأى بعيد عن الصواب أيضاً ، وذلك لأنه جاء فى إنجيل (مرقس ٣ : ٢١ و ٣١) ، أن أخوة ربنا وأمه قد حاولوا أن يثنوه عن الاستمرار فى أداء رسالته . وأبناء العمومة لا يفعلون هذا غالباً .

أما الرأى الثالث فهو أصح الآراء وأقربها إلى الصواب ، وقد أدلى به هجسيبوس الفلسطينى سنة ١٥٠ ب . م ، وهو أن الإخوة كانوا أبناءً ليوسف قبل خطبته للعذراء .

وهم بذلك لا يحسبون أخوة له بالمعنى الكامل ، لأن يوسف لم يكن أباً للمسيح . وإنما جرى العرف فى ذلك الوقت على تسميتهم « أخوة » لما بينهم من علاقة . والظاهر أن أولئك الأخوة آمنوا بالمسيح بعد صعوده إلى السماء ، وصار يعقوب فيما بعد زعيم الكنيسة فى أورشليم وكاتب هذه الرسالة .

ويمكن القول إجمالا ان الرسالة تتضمن مقتطفات من عظات ووصايا ألقاها يعقوب زعيم الكنيسة فى أورشليم ، عن الصفات المسيحية ، وقوة الصلاة ، والتجارب التى تحل بالإنسان ، والأعمال الصالحة ، وصيانة اللسان ، ومساوىء الحسد ، والخصومات والكبرياء والنميمة ، والإتكال على الله ، والنطق بالصدق الخ . . .

تاريخ كتابة الرسالة :

لا جدال فى أن الرسالة تحمل طابعا يهوديا ، فهى لا تشتمل أى تلميح ، لا إلى مسيحية الأمم ، ولا إلى سقوط أورشليم (سنة ٧٠ ب . م .) مما

ينبىء أنها كتبت فى تاريخ سابق لسقوط أورشليم الذى كان له أبلغ الأثر فى يهود الشتات ، ويهود فلسطين على السواء .

الرسالة إلى يهوذا

يقول الكاتب عن نفسه فى مستهل هذه الرسالة « يهوذا عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب » . وكان بين الاثنى عشر اثنان باسم « يهوذا » ، أحدهما الخائن ، والثانى ذكر اسمه فى قائمة الرسل فى بشارة يوحنا (١٥ : ٢٢) . على أنه كان هناك يهوذا آخر هو أحد « أخوة الرب » ، وهو على الأرجح كاتب هذه الرسالة .

والرسالة بيان يتسم بالصرامة فى بعض عباراته ، ضد أخطار المعلمين الكذبة ، وعقاب الله الذى سيحلّ بهم . وهم على شاكلة المعلمين الذين أشار اليهم الرسول بطرس فى رسالته الثانية .

وقارىء هذه الرسالة الوجيزة يحسّ بذلك الاستهلال السعيد الذى تفتتح به الرسالة ، والخاتمة السعيدة التى يجعلها الكاتب مسك الختام « والقادر أن يحفظكم غير عاثرين ويوقفكم أمام مجده بلا عيب فى الابتهاج . الإله الحكيم الوحيد مخلصنا ، له المجد والعظمة والقدرة والسلطان الآن وإلى كل الدهور » .

على أن بين الاستهلال والختام آيات ذات نغمة مختلفة تتسم بالقسوة الصارمة عن الرجال والنساء الذين زعموا أنهم أعضاء فى الكنيسة المسيحية ، ولكن أعوزهم الإخلاص لسيدهم ، ربما فى الحياة والسلوك ، وفى العقيدة أيضا .

رسالة بطرس الأولى

رسالة بطرس الرسول الأولى من وثائق العهد الجديد التى لم يجادل أحد من مشاهير علماء الكتاب فى صدقها ، فلقد أشار إليها الكتّاب المسيحيون الأولون أمثال أكليمندس الإسكندرى ، وإيرانيوس الغالىّ ، وترتوليانوس الإفريقى ، ويوسابيوس المؤرخ القديم . ويكاد يكون الاجماع معقودا على انها من كتابات الرسول بطرس. أما الزعم بأن الرسول لم يكن يعرف اليونانية، فهذا مردود عليه بأن مرقس وسلوانس كانا إلى جانبه وهما يجيدان اليونانية .

ويكتب الرسول بشارته إلى المسيحيين « فى الشتات » فى الولايات التى ذكرها فى الآية الأولى من الفصل الأول وهم من الأمم واليهود (انظر ١ : ١٤ و٢ : ١٠ و٣ : ٦ و ٤ : ٣) . وكان أولئك الإخوة يعانون الاضطهاد بأيدى الوثنيين (٤ : ٤ و ٥) . والظاهر أن سلوانس زارهم غير مرة (آية ١٢) ولعله هو بعينه « سيلا » الذى ذكر فى سفر الأعمال (أع ١٥ : ٢٢ و ٣٢ و ٤٠)، و «سلوانس» الذى جاء ذكره فى ١ تس ١ : ١ و ٢ تس١ :١ و ٢ كور ١ :١٩: وهذا يعلل لنا معرفته بطرس وشدة اهتمامه بالكنائس المسيحية فى آسيا التى زار بعضها من قبل فى رفقة بولس. وكان معه أيضاً مرقس . ووجود هذين الاثنين مع الرسول عند كتابة رسالته يعلل لنا الالمام برسائل بولس، ولعلّهما كانا يحملان نسخا منها (٢ بط ٣ : ١٥) .

وقد كتبت الرسالة من « بابل » (٥ : ١٣) . وهى تحمل تحية من السيدة « التى فى بابل » . ولعلها تشير إلى سيدة معروفة بالذات أو إلى الكنيسة كلها . وقد ذهب الرأى التقليدى — وخاصة بين علماء الكنيسة الكاثوليكية

إلى أن « بابل » هى رومية بطريق الاستعارة ، زعما بأن بطرس كان أول أسقف فى رومية .

على أنه بعد عهد الإصلاح قامت اعتراضات قوية ضد هذا الرأى . فليس هناك سبب واضح يحول دون ذكر « رومية » إذا كانت هى المقصودة بالذات. وإن كان بطرس قد قضى شهيداً فى رومية ، فإن الفترة المنقضية بين وصوله إليها وبين موته لم تكن كافية لكتابة الرسالتين ، كما أن محتوياتهما لا توائم هذا الفرض الذى يذهب إليه أصحاب هذا الرأى . ثم أن ترتيب أسماء الولايات ، من الشرق إلى الغرب، يؤيد أن الرسالة كتبت فى مكان ما بالشرق.

ويذهب بعض العلماء — وعلى رأسهم ايراسموس وكالفن — بأن المقصود بكلمة « بابل » هى بابل القديمة على نهر الفرات . وهنا أيضاً تتصدى لنا اعتراضات خطيرة ، فان التقاليد لم تذكر أن بطرس ذهب إلى تلك المنطقة ، ويبعد جداً أن يوجد مرقس وسيلا فى تلك الرقعة من الأرض . فضلا عن هذا فإن بابل القديمة كانت قد تهدمت منذ عهد بعيد وهجرتها الجالية اليهودية التى استوطنتها ، على ما يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودى .

وثمة رأى ثالث تؤيده الكنيسة القبطية وبعض علماء الفرنجة يقول ان بابل المقصودة هى « بابلون » القديمة الواقعة على نهر النيل (هى الآن مصر القديمة). وقد كانت هذه موطن مستعمرة يهودية قديمة ، ومقر معسكر رومانى، وما تزال خرائب القلعة الرومانية القديمة باقية حتى اليوم . ويقال ان الأسرة المقدسة مرّت بهذا المكان عند زيارتها مصر ، وهنا أيضاً استوطنت جالية مسيحية منذ العصور الأولى . وهذا الرأى تسنده التقاليد التاريخية التى تقول ان مرقس قدم إلى مصر حوالى سنة ٦١ أو ٦٢ ب . م . قبل أن يلحق ببولس فى رومية، وأنه قد عيّن أحد المهتدين على يديه أسقفاً على الاسكندرية خلفاً له .

وبين الكنائس التى وجِّهت إليها الرسالة ذكرت « بنتس » وهى مسقط رأس « أكويلا » ، كما ذكرت « أسيا » وهى موطنه المختار فيما بعد (أع ١٨ : ٢ و ١ كور ١٦ : ١٩ و ٢ تيمو ٤ : ١٩) . ولا يخفى ان بنتس وكبدوكية وآسيا كانت كلها ممثلة فى يوم الخمسين . أما الأقاليم المتاخمة للبحر الأسود ، فقد كانت بعيدة عن الطرق الهامة المطروقة بين رومية وفلسطين .

وإذ تنتهى إلى الرسول أنباء ضيقاتهم يبادر إلى إرسال هذه الرسالة بيد سلوانس لتعزيتهم ، وتشديد عزائمهم ، وتقوية شهادتهم ، وحثهم على الثبات فى الإيمان والصمود فى الجهاد . والحق انها رسالة موجهة إلى الإنسان العادى العملى ليشهد ببسالة لربِّه مهما تكن أحواله ، كما فعل بطرس يوم الخمسين .

وهذه الرسالة من أقوى رسائل التعزية فى الكتاب المقدس . فبعد تسمية صاحب الرسالة والذين أُرسلت لهم ، يقدم الكاتب حمداً لله للميلاد الجديد فى المسيح ، وللميراث العتيد فى السماء (١ : ٣ — ١٢) .

ثم يستطرد الكاتب فيقول انه بدم المسيح قد خلصنا من خطايانا وصرنا مقدسين كحجارة حيِّة فى بيت روحى (٢ : ١ — ١٠). وحياة الفضيلة هى خير جواب للذين يقولون فينا سوءا (٢ : ١١ و ١٢) . وحفظ الناموس من أهم الفضائل. وعلى الناس ان يكونوا مطيعين لحكامهم (٢ : ١٣ — ١٧)، وان يتلقى العبيد الأوامر من سادتهم حتى وإن قسا عليهم أولئك السادة (٢ : ١٨ — ٢٥) وعلى الأزواج والزوجات أن يترفق أحدهم بالآخر (٣ : ١ — ٧) وان يحب أحدهم الآخر ، ويقول فيه قولا كريما (٣ : ٨ — ١٢) .

وإن جزنا الضيقات والمتاعب فلنذكر أن المسيح اجتاز هذا فى هذا الطريق عينه ، ولكنه مكلل الآن بالمجد (٣ : ١٣ — ٢٢). وبعد أيام قلائل ستولى الظلال ، فلنحذر لكى لا نسقط فى خطيئة ما (٤ : ١٢ — ١٩) .

ليكن بين الشيوخ والشباب رابطة الخدمة المشتركة (٥ : ١ – ٩٠). فيهبهم الله قوة (٥ : ١٠ و ١١) . وتختتم الرسالة بكلمات المودة من الأصدقاء وبالبركة (٥ : ١٢ — ١٤) .

رسالة بطرس الثانية

ارتاب بعضهم فى قانونية هذه الرسالة فى أول الأمر . ولعل هذا كان مردّه إلى الإيجاز فى عباراتها وإلى الظروف التى أحاطت بأصلها . وفى القرنين الثانى والثالث اللذين ظهرت فيهما بعض الكتابات المزيفة (ومنها رسالة غير قانونية منسوبة إلى بطرس) ، زاد حرص العلماء المسيحيين وتشديدهم فى تحديد الأسفار القانونية تمييزاً لها عن غيرها . وفى القرن الرابع يقول القديس أيرونيموس ان كثيرين أنكروا نسبة هذه الرسالة إلى بطرس، نظراً لاختلاف أسلوبها عن الرساله الأولى ، ولكنه قبلها رساله قانونية صادقة صادرة عن الرسول . أما اختلاف الأسلوب فقد عزاه الى أن الرسول استخدام مترجمين مختلفين ، ولذلك ظهر الاختلاف فى الأسلوب والصياغة . ومن نهاية القرن الرابع انعقد الاجماع على صحة هذه الرساله وقانونيتها .

والأدلة الداخلية متوافرة لتأييد هذا الرأى على الرغم من اختلاف الصياغة فى بعض الآيات ، الذى كان مدعاة للشك فيها فى أول الأمر . وقد علل العلماء هذا الاختلاف بعضه إلى اختلاف الكتّاب الناسخين أو الملقّنين، وبعضه إلى اختلاف الظروف وموضوعات الحديث . والحق أن هذه الرسالة تتضمن عبارات كثيرة مشابهة لعبارات الرسالة الأولى ، ولأقوال الرسول بطرس فى سفر الأعمال. وقد كان بطرس معروفا فى أورشليم باسم «سمعان» (أع ١٥ : ١٤) واستعمال هذا الاسم فى رسالته الثانية (١ : ١) كان أمرا طبيعيا لاتصنّع فيه.

ولو كانت الرسالة مدسوسة عليه أو مزيفة، لنقلت الإسم كما جاء فى الرسالة الأولى (١ بط ١ : ١) . واستعمال كلمتى « المسكن » و « خلع المسكن » (٢ بط ١ : ١٤ و ١٥) يتفق مع رواية لوقا عن التجلى ، وهى فى الواقع تعكس أفكار بطرس وأقواله (لو ٩ : ٣١ و ٣٣) . وانا لواجدون أيضاً فى الإشارة الى نبوة المسيح عن موت بطرس (٢ بط ١ : ١٤) كما جاءت فى (يو ٢١ : ١٨ و ١٩) اتفاقا عجيبا مؤيدا لصدق الرسالة .

وقد زال الآن كل شك حول صدق هذه الرسالة ، وقانونيتها ، وسلامة وحيها ، وصدورها عن الرسول الذى تحمل اسمه . وقد عانت من النقد ما لم تعانه رسالة أخرى . ولكنها خرجت سليمة وأحلتها الكنيسة محلها اللائق بها مع الأسفار الأخرى الموحى بها من الروح القدس ، التى تتكلم للأنفس البشرية التى تسمع وتعى .

والظاهر أن هذه الرسالة كتبت للمسيحيين عينهم الذين كتبت لهم الرسالة الأولى (٣ : ١) . على أنها لم تكن مقتصرة عليهم . وكتبت فى وقت كان فيه استشهاد الرسول وشيكا (١ : ١٤) . ولذا يكون تاريخ كتابتها سنة ٦٦ أو ٦٧ ب . م . وكان الرسول قد تلقى أنباء ، كما تلقاها بولس فى الوقت عينه (أنظر ١ تيمو ٤ : ١ و ٢ و ٦ : ٥ و ٢٠ و ٢ تيمو ٤ : ١ — ٧) عن معلمين كذبة نهضوا لبلبة الكنيسة الفتية بتعاليمهم الباطلة ونموذجاتهم الوضيعة . لذلك يكتب الرسول فى حنان وعطف منذراً ومشجعاً ومقوياً قراءه ، حاثاً إياهم على التمسك بالحق وانتظار مجىء ربهم .

ونرى فى الفصل الثانى من هذه الرسالة تشابهاً ملحوظاً بينها وبين رسالة يهوذا (أنظر آيات ٢ و ٤ و ٦ و ١١ و ١٧) . ويقول بعض الشراح ان المساوىء التى عابها كل من بطرس ويهوذا فى رسالتيهما نبعت من كورنثوس ، وان

الاضطراب كان آخذاً فى الاستشراء ، فانزعج بطرس وكتب رسالته الثانية ، وأرسل نسخة منها إلى يهوذا منبهاً إياه إلى الخطر الداهم . فبادر هذا بكتابة رسالة مماثلة إلى الكنائس التى كانت تحت رعايته شخصياً . وهذا الرأى يؤيده ما جاء فى رسالة يهوذا (٣ : ٤) .

وتدور الرسالة حول قداسة الحياة ، ومعرفة الحق ، ومجىء الرب المنتظر ، وأثر التعاليم الباطلة فى حياة الإنسان ، وما يعقب ذلك من عقاب على الحياة الآثمة الغارقة فى البطل .

وينظر الرسول إلى المستقبل ، فيتحدث عن مجىء الرب كوازع قوى للحياة الطاهرة ، والاستزادة من معرفة الله .

رسائل يوحنا

لم يضع الكاتب اسمه فى مستهل هذه الرسائل ، ولكن يكاد يكون الاجماع معقوداً على أنها من كتابات الرسول يوحنا ، كاتب البشارة الرابعة وسفر الرؤيا .

ويقول كتّاب المسيحية الأولون الذين عاشوا ما بين سنة ١٠٠ و ٢٠٠ ب.م. ان يوحنا عمّر طويلا ، وانه أقام فى أفسس فى السنوات الأخيرة من حياته. وربما استطال به العمر حتى سنة ٩٠ ب.م بعد أن رحل إلى العالم الآخر الرسل الأولون جميعاً . ومن المرجح أن بشارة الانجيل وهذه الرسائل الثلاث كتبت فى أخريات أيامه . وفى هذه الكتابات يقول يوحنا ان تعليم الكنيسة عن يسوع المسيح ليست مجرد قصة محببة رائعة ، بل هو حق وصدق ، وذلك لأنه كان قد رأى

يسوع وزامله وأحبه وعاش معه ، وهو واثق انه يقول الحق .

والرسالة الأولى عامة ، أى انها لم ترسل للكنيسة فى مكان معين ، بل للمسيحيين كافة . أما الثانية فأرسلت الى أخت نبيلة « كيرية المختارة وأولادها » . وكلمة « مختارة » قد تكون كنية عن الكنيسة فى مكان ما ، و « اولاد اختك المختارة » (عدد ١٣) ، قد تكون كنية عن المسيحيين فى المكان الذى كتب منه يوحنا . أما الثالثة فكتبت إلى شخص يدعى « غايس » كان صديقاً للكاتب .

وفى الزمن الذى كتب فيه الرسول رسالته ، كانت قد ظهرت فى الكنيسة بدع وضلالات كاذبة ، فزعم بعضهم ان المسيح لم يكن إنسانا حقاً ، وأنه بفضل عظمته وقداسته لم يكن ممكناً ان يصير إنسانا طبيعيا مثلنا ، وأن طبائعنا البشرية جبلت على الشر والبعد عن الله ، بحيث يحسب سبة وعاراً أن يصير ابن الله انسانا . ثم زعموا أيضا ان المسيح لم يذق الألم والموت لأنه كان إلها . ولهذه الأسباب قالوا ان حياة يسوع على الأرض وولادته وموته وقيامته كانت أموراً ظاهرية وليست واقعية . وكانت تعاليمهم محشوة بالأخطار والأخطاء ، لأنها تبطل الخلاص الذى جاء به المسيح للبشر . لهذا يقول الرسول يوحنا انه يكتب عن يقين عما رأى وسمع واختبر ، مؤكداً ان يسوع المسيح قد جاء بالجسد (٤ : ٢) .

وهذه الرسالة بسيطة جدًا ، بحيث يبدو للقارىء السطحى ان الكاتب يعيد ويكرر فى أقواله ، والواقع ان فى كل جزء منها فكرة جديدة عميقة . وهو يلخص هذه الفكرة فى عبارته الختامية :

« نعلم اننا نحن من الله والعالم كله قد وضع فى الشرير . ونعلم ان ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق . ونحن فى الحق فى ابنه يسوع المسيح .

هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية . أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام » أى من الأفـكار الباطلة عن الله .

الرسالة الثانية :

وفى الرسالة الثانية يشير الرسول على الـكنيسة التى يكتب لها ان يحبّ المسيحيون بعضهم بعضا ، وان يحفظوا شرائع الله . ثم يستطرد فيقول ان هناك طائفة من المعلمين الـكذبة يزعمون ان المسيح لم يجىء بالجسد ـ اى انه لم يكن إنسانا حقا — فاحذروا مثل هؤلاء المعلمين ولا تقربوهم. ثم هو يأمل فى ختام رسالته ان يذهب الى هذه الـكنيسة بالذات بعد قليل .

الرسالة الثالثة :

مرسلة إلى شخص يدعى « غايس » . وكان قد تلقى يوحنا أنباء بأن هذا الشخص صادق مخلص فى إيمانه ، فطلب من الله ان يزيده قوة جسدا وروحا . وهو يمتدح غايس هذا ، لأنه أمدّ بعض البشيرين المتجولين بالرعاية والعناية . وأشار إلى شخص يدعى « ديوتريفس » دأبه التسلط على الآخرين، والامتناع عن مدّ يد العون لمبعوثى الرسول . وإلى شخص يدعى « ديمتريوس » وهو رجل صالح تقى محبوب من الجميع . ويختم الرسول معبرًا عن آماله باللقاء به قريبا .

سفر الرؤيا

على مسيرة خمسين ميلاً من شواطىء آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) تقع جزيرة بطمس الصخرية . وحوالى سنة ٩٦ ب. م. كنت ترى شرذمة من جنود الرومان يسوقون أمامهم شحنة من العبيد ، كدّسهم الجنود بعد إنزالهم من

السفينة ، ثم أسلموهم إلى الأعمال الشاقة فى محاجر الجزيرة . وكان أكثر اولئك العبيد المسخرين من المسيحيين فى آسيا الصغرى الذين أبوا عبادة الإمبراطور الرومانى إلهاً ، فحكم عليهم بالنفى إلى تلك الجزيرة القاحلة .

وكان بين أولئك العبيد شخص يدعى يوحنا ، رجلاً مرهف الحس ، خصب الخيال ، شاعراً حالماً ، يرى الرؤى من بعيد . وكان قد نال من الثقافة حظاً . ومع أنه لم يحضر كتبه معه ، فقد استطاع أن يختزن فى عقله وخياله كمية هائلة من الأسفار المقدسة والمؤلفات اليهودية والمسيحية . وقد آثر يوحنا معاناة الأشغال الشاقة فى محاجر بطمس على الخضوع لعبادة الإمبراطور . وإذ يرنو ببصره إلى الشرق ، إلى جبال آسيا الصغرى ، يفكر فى إخوانه الذين يعانون الاضطهاد ، أهم باقون على العهد ، أم ناكصون على أعقابهم فى البلوى المحرقة .

وانه لكذلك وإذا به يتلقى وحياً يستهله بهذه الألفاظ: « كنت فى الروح فى يوم الرب. وسمعت ورائى صوتاً عظيماً كصوت بوق ، قائلاً أنا هو الألف والياء ، الأول ، والآخر ، والذى تراه اكتب فى كتاب ... »

وهذا الكتاب هو آخر سفر فى كتابنا المقدس ، رؤيا أعلنها الله لعبده يوحنا وهو فى تلك الجزيرة . وقد أزاح الله الستار عن عينيه فرأى ما فى السماء، وما يزمع أن يصنعه الله على الأرض فى الأيام التالية وإلى انقضاء الدهر . وقد سمِّى الكاتب « يوحنا اللاهوتى » ، لأن كثيرين من العلماء يعتقدون أنه هو نفسه الرسول يوحنا كاتب البشارة الرابعة فى الأنجيل . وتطلق كلمة « لاهونى Divine » على إنسان خبير أخصائى فى معرفة الله وعلاقته بالإنسان . وهو من هذه الناحية أعمق مَن كتب بين الرسل أجمعين .

ويماثل سفر الرؤيا من بعض الوجوه كتابات الأنبياء التى من هذا القبيل ، ولكنها من نوع خاص . فقد شرح الأنبياء العظام فى العهد القديم — مثل

اشعياء وارمياء وغيرهما — مقاصد الله نحو البشر فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى. وقالوا ان هذا العالم والحياة التى تدبُّ عليه، يمكن اصلاحهما بقوة الله وعمل الاخيار الصالحين. ولكن حلَّت ازمان فى تاريخهم طغا فيها الأشرار والمفسدون وأفرطوا فى بغيهم، وخيّل لهم أن العالم لن يخلو من هذه المساوىء والشرور. ولكى يُدخل الأنبياء الرجاء إلى قلوب مواطنيهم، قالوا ان الله سيدمر هذا العالم الشرير ويقيم على أنقاضه عالماً قوامه البر والسلام. وقد اطلقت على مثل هذه الأسفار لفظة يونانية« Apocalptic » ومعناها « الرؤى » أى إزاحة القناع عن أشياء مستكنة فى بطن المستقبل.

والرؤى التى رآها يوحنا لم تكن من هذا العالم. كان بعضها رائعاً وكان بعضها رهيباً. لقد رأى عرش الله، والملائكة ينفخون فى الأبواق، وابن الإنسان بعينين كلهيب نار. ورأى وحوشاً هائلة، وامرأة مكسوة بالشمس، وأربعة من الخيّالة. وكان فى رؤياه زلازل ورعود وبروق وأبواق وأناشيد. وكانت كلها كحوادث حلم رآها يوحنا. على أن كل هذه المشاهد والأصوات كان لها معنى عميق فى نفسه، فقد أثبتت له حقيقة إيمانه، وزكّت اعتقاده بأن المسيحية سوف تنتصر. ولما خفّت وطأة النفى، واستطاع يوحنا الحصول على مواد الكتابة، راح يكتب رؤياه فى هذا السفر الذى نسميه « رؤيا يوحنا اللاهوتى ».

وكان هدفها بثّ الرجاء والشجاعة وقوة الاحتمال فى نفوس المسيحيين المضطهدين. وقد كان هذا هدف الرسالة إلى العبرانيين ورسالة بطرس الأولى. إلا أن سفر الرؤيا يختلف عنهما إذ هو حافل برؤى غريبة عن أشياء سوف تحدث. وفى أسفار العهد الجديد نلتقى ببعض عبارات من هذا القبيل مما يدل على ذيوع هذا اللون من الأدب المسيحى فى القرن الأول. وقد كان لليهود

أسفار من هذا النوع لا شك أن الـكاتب تأثر بها . والرؤيا هو السفر الوحيد من هذا النوع فى العهد الجديد ، كما أن دانيال هو السفر الوحيد فى العهد القديم. واستهلال السفر يقدم لنا كاتبه :

« أنا يوحنا أخوكم وشريكـكم فى الضيقة وفى ملـكوت يسوع المسيح وصبره ... » (١ : ٩) .

ثم يكتب يوحنا بالنيابة عن المسيح سبع رسائل للـكنائس السبع فى آسيا الصغرى : أفسس . سميرنا . برغامس . ثياتيرا . ساردس . فيلادلفيا . لادوكية .

وبعد الرسائل يشرح الرؤيا ذاتها وهى تقع فى ثلاثة فصول : الفصل الأول فى الأصحاحات (٤ — ١١) ومكانه فى السماء ، حيث يفتح سفر مختوم بختوم سبعة . ومع أننا لا نفهم تماماً المغزى الذى يرمى اليه ، فإنه يطلعنا على عرش الله ، وعلى شيوخ أربعة وعشرين فى ثياب بيض ، وعلى مصابيح سبعة ، وحيوانات أربعة ، وملائكة ، وحمل يتحول إلى شىء آخر ، كما يحدث عادة فى الأحلام ، ويراه راكباً على فرس أبيض فائزاً منصوراً .

ثم رأى أيضاً :

« جمعاً كثيراً لم يستطع احد أن يعدّه من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفين أمام العرش وامام الحمل متسربلين بثياب بيض وفى ايديهم سعف النخل » . (٧ : ٩)

وقال لنا ان هؤلاء : « هم الذين اتوا من الضيقة العظيمة ... لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد ولا تقع عليهم الشمس ولا شىء من الحر . لأن الحمل الذى فى وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية » (٧ : ١٤ و ١٦ و ١٧)

وفى المشهد الثانى نرى حرباً فى السماء بين تنين احمر هائل وبين مخائيل وملائكته. ويعلن الفصل الثامن عشر ان بابل العظيمة قد سقطت، وهو هنا يحلم بسقوط روما العاتية البغيضة.

وتحفل الفصول الأربعة الأخيرة بأناشيد النصر والتهليل فى رؤيا اورشليم الجديدة. وتنفتح السماء ويظهر فرس ابيض راكبه هو المسيح. وهو ليس المسيح الذى رسمته بشائر الإنجيل، بل هو كائن إلهى يدعى «كلمة الله». وبسيفه الحاد يضرب الشعوب ويحكمها بقضيب من حديد. ورأى يوحنا «سماءً جديدة وأرضاً جديدة» والمدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، نازلة من عند الله من السماء، ثم سمع صوتاً عظيماً ينادى بالفوز المبين الذى هو ذروة آمال الأنبياء وأشواق الكنيسة ...

«وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون فى ما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فى ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت» (٢١ : ٣ و ٤)

وكانت أورشليم المقدسة مدينة ذات أساسات إثنى عشر، وأبواب إثنى عشر وسور هائل، كلها تتلمع بألوان زاهية متعددة فى بهاء رائع ورونق خلاب.

«والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها والحمل سراجها. وتمشى شعوب المخلصين بنورها وملوك الأرض يجيئون بمجدهم وكرامتهم إليها» (٢١ : ٢٣ و ٢٤).

بدأ الكتاب المقدس فى جنة، وها هو الآن ينتهى فى مدينة مقدسة، أورشليم الجديدة. وكان فى الجنة اثنان، أما هنا فى المدينة المقدسة، فجمع كثير من كل الشعوب والأجناس والألسنة، وعوضاً عن النهر الذى نبع من جنة

عدن ، يشهد الرائى نهراً صافياً من ماء الحيـاة ، صافياً كالبللور ينبع من عرش الله والحمل . والشجرة التى تنمو هنا فى الفردوس ، تشفى أوراقها أوصاب الأمم والشعوب !

ولا شك أن هذا الـكتاب الذى حفل بالرؤى والرموز ، وصدحت فيه موسيقى السماء ، ورجاء المنتصرين ـ قد أثار كوامن الحس فى نفوس الذين قرأوه يومئذ . وبينما نتحسس نحن طريقنا إلى فهم معانيه ، قد فهموا هم تماما ما هدف إليه الرائى ، وأيقنوا أنه يعالج ضيقاتهم واضطهاداتهم ومنازعاتهم المريرة مع روما . وذلك لأن الرؤيا كانت مستمدة من الأسفار التى قرأوها ، وكتب الرؤى التى ذاعت بينهم فى ذلك العصر .

وقد عرف يوحنا ظلام الحاضر الذىعاشوا فيه ، المشحون بالألم والخوف واليأس ، ولـكن تجاه هذه الظلمة يرسم لهم صورة براقة للسماء العتيدة ، ويؤكد لهم أن زمان مجىء ربهم قد حان ، وعليهم أن يثابروا ويصابروا ويثبتوا فى الإيمان .

على أن التـاريخ لم يحقق مواعيده كاملة ، فلا روما سقطت سريعاً ، ولا المدينة المقدسة ، أورشليم الجديدة ، هبطت من السماء .ولم يبدأ القديسون الألف سنة على الأرض . وكانت هذه الوقائع مصدر عنـاء وتفـكير فى بعض الـكنائس يومئذ ، حتى لقد ذهب بعض الزعماء يومئذ إلى المطالبة بحذف هـذا السفر من العهد الجديد وعدم إدراجه ضمن الأسفار القانونية . وتساءلوا قائلين : ترى ماذا يعنى يوحنـا ؟ وقد شطحت بهم إجاباتهم إلى مناطق مجهولة غريبة . وغدا هذا السفر ـ حتى اليوم ـ مرتعاً خصيبا لخيالات المفـكرين والحالمين لمـا حوى من أرقام سرية ، ورموز ملفوفة بالضباب ، ووعود لم تـكتمل .

ولعلّ يوحنا أراد أن يرمز إلى نيرون حينما أشار إلى الوحش برقم ٦٦٦ ، ولكن الناس كثيراً ما تحذلقوا فى التأويل والتخريج والاستنباط فى الأزمنة المختلفة ، فقالوا انه لوثر أو البابا أو نبوليون أو هتلر ! ! وكانت هذه كلها مطارحات المتفلسفين من غواة تفسير الأحلام !

والحق أن سفر الرؤيا لا يمكن تأويله بالنظر إلى المستقبل ، فهو سفر كتب لزمنه وعصره ، وتنطبق معانيه على أحداث القرن الأول من التاريخ المسيحى . وهناك يحق لنا البحث عن رموزه وآرائه . ولئن كان يحلو لنا دائماً محاولة حلّ الألغاز التى ذكرها يوحنا ، وتتبع المصادر التى تلقى منها رؤياه فى حياة القرن الأول ومؤلفاته ، فإن قيمته الحقيقية لنا نحن أبناء هذا العصر ليست فى هذه كلها ، إنما هى تدوى فى صيحة يوحنا عن النصر المرتقب بعد كل ضيقة ، والنور الباهر الذى يعقب كل ظلمة . وهذه حقيقة أكدتها الأجيال اللاحقة حتى اليوم .

إن سفر الرؤيا يقف فى مرتبة سامية علياء من حيث الخيالات الروحية . وإن يكن تأويله غامضاً ونبواته لم تتحقق ، فهو تراث مسيحى لا غنى لنا عنه . ولقد أبدع الشعراء والفنانون ، متأثرين بقوة خيالاته ، أجمل روائع الفن والأدب التى عرفها العالم . وقدم للكنيسة وثيقة أحلامها وآمالها فى مستقبل سعيد وسماء مجيدة وبركات غزيرة .

وكتابنا المقدس وحدة متآلفة لا تتجزأ . ومن حسن الحظ أن سفر الرؤيا ليس هو الكتاب الوحيد لدى المسيحية، إنما هو يمثل فقط مظهراً واحداً من هذا التراث الخالد . ولئن كنا لا نحسّ فيه بالواقعية التاريخية التى نراها فى بشائر الإنجيل، ولا الإيمان الثابت الراسخ الذى نعيشه فى رسائل بولس، فإن أنواراً من المجد تشعّ فى صفحاته لا نجد لها مثيلا فى أسفار العهد الجديد

الأخرى . وهنا نحسّ بيقين لا يتزعزع بأن الله هو الحاكم المتسلط ، وأن رسالة المسيح هى الحق كله ، وأن العقبى لملكوت الله والبرّ :

« قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه ، فسيملك إلى أبد الآبدين » (١١ : ١٥) .

من منفى جزيرة بطمس يأتينا هذا القصيد الظافر . وتنتهى قصة كتابنا المقدس الطويلة التى بدأت فى جنـة عدن ، بسماء تتلمع فى بهاء يبهر الأنظار ، وأبواق تترنم بنشيد الانتصار .

بعض مصادر الكتاب

The Bible-What it is, & What is in it (Earnest Evans Theodore Rohinson).

The Old Testament (Robert Davidson).

Pocket Bible Handbook (Henry H. Halley).

The New Bible Handbook (G. T. Marley).

H. Guide Book to the Bible (Alice Parmelee).

رسول الجهاد (للمؤلف)

مجلدات مجلة « الشرق والغرب »

الكتاب المقدس

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧٩